الامبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان

تأليف

دكتورة عفاف سيد صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
جامعة الأزهر — فرع البنات
كليـة الدراسات الانسـانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

النـاشر

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيـع

الباب الأول

الأحوال السياسية والدينية فى

الامبــــــراطوريتين

الرومانية الغربية والبيزنطية

الفصل الأول

أولا : الأحوال السياسية

التطور السياسى لأوربا حتى سقوط الامبراطورية

تمكن الامبراطور أوكتافيوس — الذى أنعم عليه السناتو بلقب أغسطس المعروف فى اليونانية بـ «Sebastos» سنة ٢٧ ق م — من القضاء على النظام الجمهورى وأعلان الامبراطورية عقب انتصاره على خصمه أنطونيوس وحليفته كليوباترا فى موقعة اكتيوم البحرية سنة ٣١ ق م .

ومن خصائص النظام الامبراطورى الذى أعلنه أغسطس أن يحكم الامبراطور الى جانب مجلس الشيوخ Senatus (١) على أن يتمتع أغسطس بسلطة أكبر أو أعلى من سواه Maius imperium كانت تخوله حق الاعتراض على أية سلطة أخرى فى كافة أرجاء الامبراطورية ، الى جانب احتكاره للسلطة العسكرية ، فقد قضى على الجيوش الخاصة مستخدما سلطات استثنائية ما أمكن حاذيا حذو الذين فعلوا ذلك أمثال الجنرال الرومانى لوكوللوس وبومبى وقيصر ، ولكن اكتافيوس دعم سلطاته العسكرية حتى أضحى القائد الأعلى والأوحد للجيوش الامبراطورية(٢) .

---

(1) Bury «History of the later Roman Empire' Vol. I p.p. 12 - 15.

(2) William. G. Sinnigen « A history of Rome. p. 254.

(٢) سيد الناصرى « تاريخ الامبراطورية الرومانية » ص ٢٦ .

ورغم ذلك فقد تنفست الامبراطورية الصعداء باستقرار أحوالها على يد أغسطس بل ان كثيرا من الناس رحبوا بهذا الاستقرار ترحيبا شديدا وأطلق المؤرخون على هــذه الفترة اســم « الحكم الثنــائى dyarchy »(٣) .

بدأت الامبراطورية الرومانية تتســع رويدا رويدا فضــمت بين جنباتها مواطن الحضارات القديمة ، الى جانب سيطرتها على أهم مناطق فى الشرق وهما مصر وشمالى افريقيا ، اللتان كانتا تمدانها بالغلال .

وتمكن الأباطرة الرومان من احكام سيطرتهم على هذه الأمم المتباينة الأصول واللغات والحضارات والديانات ، وكان للنظم الرومانية الادارية والتشريعية والعسكرية أكبــر الأثر فى رسوخ الحــكم فى الولايات . واجبار أهلها على احترام التقاليد الرومانية ، كما استطاع أغسطس بادارته الحازمة أن يسير شئون الدولة جيدا وبكفاءة منقطعة النظــير سواء فى روما أو الولايات ، ولذا أحبه الشعب الرومانى بكافة طبقاته .

وعلى الرغم من هذه الاصلاحات السياسية والادارية والاجتماعية الا أنها لم تمس جوهر المشكلة ولم تهز أعماق المجتمع الرومانى ، بــل كانت سطحية ، اذ ظل حكمه يعتمد على تأييــد الطبقــات الغنيــة الارستقراطية والتى قام بثورته أساسا لتصفيتهم ، وظلت هذه الطبقات تنعم بحياتها التقليدية دون أدنى تدخل من الامبراطور ، فزاد خطرها . وكبرت أظفارها ، وأكثر من هذا ، شجع الامبراطور هذه الطبقة على تجديد شبابها ، واعتمد على الصفوة المختارة منهم ، مثل لوكيــوس سستيوس Lucius Sestius الذى كرمه ووثق فيه ربما تماشــيا مع

---

(3) Bell «Egypt from Alexadner the great to the Arab conquest» p. 91.
Bury op. cit. p.p. 14 - 15.
William Sinnigen «op. cit» p. 261.

الاتجاه العام فى العالم والعصر الهلينستى كما كان السـلام فرصـة للأغنياء لكى يزدادوا غنى اذ استغلوه فى تنمية ثرواتهم عن طـريق التجارة ، وهكذا تذوق المجتمع طعم السلام ، ولكن الذى اسـتفاد منه ماديا فئة قليلة ، أما غالبية الشعب فراحت تنعم بالحرية الشكلية وبالتوح الرخيص ، ولما كان خبزها كفاف يومها ، فقد كانت سريعة التأثر بأدنى أزمة اقتصادية أو ضرائب جديدة ، وهذا ما حدث بالفعل فى عصر خلفاء أغسطس[٤] •

تتابع الأباطرة الرومان على حكم الامبراطورية الرومانية ، وتنوعت سياستهم بتنوع شخصياتهم ، ولعل الأسس التى وضعها اوكتافيوس كانت أساسا لهم كما أدخلوا بعض التعديلات فى السلطات الممنـوحة للأباطرة •

ولقد بدأت الامبراطورية تعانى من بعض التصـدع السـياسى والاجتماعى ابان القرن الثالث ، فقد نشب صراع مرير بين الأباطـرة والسناتو حول مسألة الحكم ، فضلا عن ازدهار طبقة الفرسان التى فتحت الأبواب على مصراعيها للجنود المسرحين ، واستولت هذه الطبقة على كافة المراكز الحيوية فى الامبراطورية ، كما سيطر الجنود الالليريين والبانـونيين على الجيش الرومـانى واستولوا على المسـتوطنات العسكرية عند الحدود وفرضوا قادتهم على العرش بقوة السـلاح ؛ وتحولت المجالس المحلية التى أنشأها الأباطرة بهدف الحكم الذاتى بين هذه الشعوب المختلفة الى أجهزة للحكومة الرومانية لتحقيق مآربها وفرضوا الضرائب الباهظة على السكان ، واهملت الزراعة لقلة العناية بالرى والصرف ، كما أن النقص فى الأيدى العاملة فى مجال الزراعة قد ظهر واضحا بسبب الخسائر البشرية نتيجة للهبوط الشديد فى نسبة المواليد ، وارتفاع نسبة الوفيات بسبب النقص فى التغذية •

---

(٤) سيد الناصرى « المرجع السابق » نقلا عن
Tacitus, Annales. Vol. I. p.p. 1 - 4.

وقد عصف الفقر بالناس وأسقط فى أيدي الحكومة الامبراطورية ، واضطرت فى عصر سبتميوس سفيروس الى زيادة الضرائب والمكوس لتعويض العجز العام فى دخل الخزانة ومجابهة نفقات الحروب المدمرة على الجبهات المتعددة لقد كان على الناس أن تتحمل نفقات اطعـــام الجيوش وصناعة ملابسهم وسلاحهم وأن يعبدوا لهم الطرق ويحفروا الخنادق ؛ ويبنوا الأسوار الدفاعية مجانا فانتشرت الأوبئة الفتاكة بين السـكان •

ومن أهم ما يبرز فى هذا المجال الدور الذى قام به الجيش ؛ فبعد أن كان فيما سبق أداة يستغلها الامبراطور لخدمة مصالح الامبراطورية أصبح دور الجيش فى هذه المرحلة الجديدة يتزايد وينحرف ، فبدلا من أن يحكم الامبراطور بواسطة الجيش أصبح الجيش هو الذى يحكم بواسطة الامبراطور ، وتحكم القادة العسكريون فى شئون الحـكم ، وأخذوا يعزلون الأباطرة ويقيمون غيرهم مما أدى الى عدم الاستقرار داخليا ، ومنذ أواسط القرن الثالث بدأت سلسلة متصلة الحلقـات من الأباطرة العسكريين ، وأخذت الدولة تتباعد عما بقى من التقاليـد الجمهورية السابقة ، وظهرت الثورات التى هددت وحدة الامبراطورية وتماسكها (٥) •

عصرى دقلديانوس وقنسطنطين :

قدر للامبراطورية الرومانية أن تصحو على يد امبراطور مصـلح هو الامبراطور دقلديانوس ٢٨٤ — ٣٠٥ م الذى يعتبر تاريخه نقطـة تحول فى التاريخ الرومانى •

ترجع نشأة دقلديانوس الى اقليم الليريا المطل على البحر الأدرياتى حيث كان جنديا متزنا ، وان أعوزه النبوغ وسياسـيا واسـع الأفق

(5) William G. Sinnigen «op. cit.» p.p. 262-263.

خصب التفكير ذا مقدرة على الابتكار ومطبوعا على البشر والتفاؤل . ألقيت على عاتقه مهمة من أشق المهام ألا وهى انقاذ الامبراطورية من براثن الانحلال ، ولم تكن تعوزه الشجاعة أو القدرة على النهوض بها ، وتعتبر اصلاحاته احدى نقط التحول الهامة فى التاريخ (٦) .

كان حكم المواطن الأول Principatus المتمتع بسلطة الاعتراض على سائر السلطات قد حل مكانه « حكم السيد » Dominatus أو حكم الامبراطور المؤله المتمتع بالسلطة المطلقة ، غير أنه كانت لا تزال هناك آثار ضئيلة من نظام الحكم الجمهورى كتوزيع السلطات على الأقل من ناحية الشكل بين الامبراطور والسناتو ، لكن الحكم يصبح بتولى دقلديانوس العرش استبداديا مطلقا ، صحيح أن بيزنطة لم تصبح عاصمة الامبراطورية الا فى عهد قسطنطين الكبير ، مع هذا فاننا نستشعر بعض مظاهر الحياة الخاصة بالعصور الوسطى (٧) .

والواقع أن معظم مؤرخى العصر البيزنطى دأبوا على معالجة عصرى دقلديانوس وقنسطنطين فى دراسة واحدة لأن الكثير مما قام به دقلديانوس من اصلاحات قد اكتمل تطوره ونموه زمن قنسطنطين الكبير .

وعندما أحس دقلديانوس بجسامة مهام الامبراطورية ، قرر بأن يستعين بزميل له على أعباء الحكم ، وكان النظام فى شكله النهائى يقضى بأن يتولى الحكم فى نفس الوقت امبراطوران يحمل كل منهما لقب أغسطس على أن يستعين كل منهما بمساعد يعتبر وريثا له يحمل

---

(6) W. Ensslin. The Reforms of Diocletian camb. A. H. XII. 1939. Chapt. X I.

(7) William. G. Sinnigen «op.cit.» p. 409.

لقب قيصر [٨] • وقسم بذلك الامبراطورية الى أربعة أقسام كبرى تعرف باسم Prefectus وهى ايطاليا وغالة والليريا والشرق . وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه بالشرق ومركزه نيقوميديا وقد قرر ضرورة بقاء الامبراطوريين فى منصبهما لمدة عشرين عاما على أن يحل محلهما القيصران • وسمى الحكم بذلك حكم الأربعة [٩] • وحرصا منه على تجنيب الامبراطورية خطر الاضطرابات الناجمة عن اطماع حكام الولايات اللذين يتمتعون بالسلطتين العسكرية والمدنية ، وربما لاحساسه بأن الأعباء الملقاه على عاتق حكام الولايات متشعبة الى حد أنهم لا ينهضون بها على الوجه الأكمل ، فقد أعاد تنظيم الولايات . وألغى التفرقة بين الولايات السناتورية والولايات الامبراطورية ، وقلل مساحة الولايات ، وفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، ثم أدمج الولايات فى وحدات ادارية كبيرة تعرف كل منها باسم Dioécesis كل وحدة منها يرأسها نائب عن الحاكم العام Vicarius [١٠] وتشمل عددا من الولايات ، أما هذه الولايات فقد أصبح عددها مائة ولاية وولاية ، ولكل منها ثلاث ادارات هامة تشرف احداها على العدالة والثانية على المالية والثالثة على الأملاك الخاصة بالأباطرة ، وهكذا أصبح حكام الولايات مسئولين أمام نواب الحاكم العام والنواب مسئولين أمام الحاكم العام للاقليم وهؤلاء الحكام مسئولين أمام دقلديانوس الذى كان يتمتع بسلطة تامة فى تعيينهم أو عزلهم [١١] •

وحظى الجيش بعناية فائقة من جانب دقلديانوس ، لأن الادارة الرومانية اعتمدت اعتمادا كبيرا على قواتها المسلحة فى احكام سيطرتها

(8) Bury «op. cit.» p. 26.
(9) Vasiliev «History of the Byzantine Empire» Vol. p. 78.
William G. Sinnigen «op. cit.» p. 410.
(10) Bury «op. cit.» p. 27.
«١١» سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ص ١٥ .

على الولايات فى الشرق والغرب ، لذا قام بتقوية الوحدات المرابطة على الحدود وأعطى لهم أرضا ليتعيشوا منها وأوجد وحدات متحركة لاستخدامها فى البطش بأية محاولة للقيام بفتن داخلية ومواجهة الأخطار الخارجية ، كما أكثر من ادخال البرابرة الجرمان فى الجيش . كما يلاحظ أن أهمية فرق الخيالة أخذت أعدادها فى الأزدياد أيضا (١٢) .

اتجه دقلديانوس بعد ذلك الى اصلاح النظام المالى اصلاحا جوهريا شاملا متخذا من ضريبته التموينية annona أساسا لهذا الاصلاح بعد أن نظم ميعاد جبايتها وثبت معدلها ، وكانت حتى ذلك الحين ضريبة متغيرة تجبى فى أوقات غير محددة؛ ففى كل عام كانت الحكومة تقوم بتقدير الضريبة اللازمة لسد حاجات الامبراطورية خلال السنة ، وتحدد فيه نصاب كل ولاية ، ثم تخطرها بذلك عن طريق المنشور أو « التفويض الامبراطورى » الخاص بفرض الضريبة Delegatio ، وقد نجم عن هذه التغييرات تبسيط كثير من النظم المعقدة التى كانت سائدة فى العصر الرومانى ، واختفت معظم الضرائب التى كانت مألوفة فى ذلك العصر (١٣) ، كما قام دقلديانوس باصدار « مرسوم الأسعار » عام ٣٠١ ، وضع فيه التسعيرة المحددة لكل البضائع المتداولة فى الامبراطورية والأسعار الخاصة للخدمات (١٤) كما سك دقلديانوس عملة صحيحة من أجل حماية الفقراء من جشع المستغلين ، ومن أجل حيازة ثقة التجار والمتعاملين الى جانب تحديد كميات البضائع المتداولة ، والتى تعرض للبيع من جهة أخرى (١٥) .

---

(12) Bury «op. cit.» p. 27.
(13) Ostrogorsky, «A, History of the Byzantine State, p. 40.
(14) Ensslin «op. cit.» p.p. 383-385.
(15) Camb. Anc. Hist. pp. 338 — 385.
William. G. Sinngen. «op. cit.» p. 412.

(١٦) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ص ٢٦ .

وبعد أن انتهت مدة حكم دقلديانوس تنازل عن الحكم هو وزميله مكسيميانوس . بل قيـل أن المفاسد الضاربة فى البـلاد ، وعمليـات اضطهاد القيصر جاليروس للمسيحيين كانت ذات صلة كبيرة بتنازله عن الحـكم (١٧) . وقد اختلف المؤرخـون فى تقدير تجـربة دقلديانوس الأوتوقراطية ، فمنهم من أكد أن هذه التجربة لم تأت بالنتيجة المرجوة منها نتيجة لتفشى الأوبئة فى البـلاد ، وقيام الحروب الأهليـة وكثرة الهجمات الجرمانية على حدود الدولة فقد نقص عدد سـكان المدن ، وتقلصت التجارة والصناعة ، وفقدت العملة قيمتها ومنهم من أكد أن تجربة دقلديانوس هذه كانت تجربة رائدة وانها أنقذت الامبراطورية من كارثة كادت أن تودى بها وان هذه الاصلاحات دعمت الحكم المركزى وأحكمت السيطرة على الولايات الرومانية (١٨) .

ومهما يكن من أمر فان دقلديانوس قد بذل كل ما فى وسعه محاولا اصلاح المفاسد التى عمت البلاد راغبا فى احكام السيطرة على الولايات وتدعيم المركزية الشـديدة فى الحكم وبذلك فقـد قدر للامبراطورية البقاء بعد أن كادت تنهار .

وعقب تنحى دقلديانوس عن الحكم تعرضت البلاد لفوضى سياسية ضارية وتنازع شديد على الحكم مما أدى الى نشوب الحرب الأهلية فى البلاد ، وفى هذه الظروف الحالكة برزت شخصية قنسطنطين الكبير الذى تمكن من الانتصار على خصومه وأوجد لنفسه فى وسط هـذه الفوضى طريقا وصل منه الى حكم الامبراطورية الرومانية عام ٣٢٤ م .

وكما ذكرنا من قبل فاننا لا نستطيع أن نفصل الاصلاحات التى قام بها قنسطنطين عن الأخرى التى قام بها سلفه دقلديانوس لأن كلا

---

(17) Ostrogorsky «op. cit.» p. 31.

(18) Lot «The end of the ancient World». p.p. 22-23.

فيشر « أوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ٤ ترجمة زياده والعرينى .

منهما مكمل للآخـر ، ولكن عهد قنسطنطين انفرد بمسـألتين هامتين أولاهما : انتقال العاصـمة الرومانية الى الشرق وتأسـيس مدينـة القسطنطينية ، والثانى : الاعتراف بالمسيحية كديانة مصرح بها فى الامبراطورية الرومانية (١٩) •

والواقع أن هناك آراء متعددة حول الأسباب التى حدت بقنسطنطين التى نقل عاصمته من الغرب الى الشرق ، منها بعض الاعتبارات الحربيه والدينية •

والحقيقة ان قنسطنطين رأى بثاقب نظره أن روما حصن الوثنية لم تعد صالحة لأن تكون عاصمة للامبراطورية بعد أن بدأت المسـيحية فى الانتشـار ، كما أن دقلديانوس سبق أن نقل عاصمته من روما الى نيقوميديا فى الشرق (٢٠) • وبالتالى ففكرة الانتقال الى الشرق لم تعد فكرة جديدة فى عهد قنسطنطين الى جانب أن قنسطنطين نفسه كان من أبناء البلقان فتوقع أن أهل هذه المنطقة سيكونون أكثر اخلاصا وطوعا له من الرومان الغربيين (٢١) • الى جانب أن روما فى هذه الآونة كانت تتعرض دائما لهجمات الجرمان من الشـمال والشرق ، ولم تكن على قدرة لصد هذه الهجمات مما دعا أباطرتها الى ضرورة الاستعانة بهؤلاء الجرمان فى صـفوف الجيش الرومانى ، فأصـبح هؤلاء يكونون قوة جديدة لا يستهان بها داخل المجتمع الرومانى ويشكلون خطرا حقيقيـا لرغبتهم فى الاستيلاء على السلطة (٢٢) • لذلك رأى قنسطنين أن نقل العاصمة الى الشرق سيحقق لها ملاذا وملجأ من هذه الاخطار الخارجية والداخليـة •

ويرى الاستاذ داود رايس ان فكرة انتقال العاصمة الرومانيـة

---

(١٩) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ١٩ •
(20) Vasilieve «op. cit.» p. 72.
(21) Baynes «The Byzantine Emipre» p. 103.
(22) Ibid.

من روما الى الشرق ليس جديدا ، وترجع أهمية القسطنطينية الى أنها المكان المثالى لأهميتها التجارية ولأنها لا تتحكم فى الطريق البحـرى الكبير من الشمال الى الجنوب والذى يربط عالم البحر المتوسط المتحضر بمنطقة روسيا ذات المصادر الطبيعية الغنية فقط ، بل انها تتحكم فى المنطقة التى تتلاقى عندها الطرق البرية لآسيا الصغرى ، ومناطق شرق أوربا مع المضايق البحرية ، كما انها وقفت كخط دفاعى مع بحر مرمرة فى الجنوب والقرن الذهبى فى الشـمال • أضف الى ذلك اعتـدال مناخها الذى لم يكن شديد الحرارة ، كما لم يكن شديد البرودة ، الى جانب أن جميع المناطق المحيطة بها كانت أراضى زراعية خصبة تتمتع بامكانيات ضخمة تساعد على الزراعة • الى جانب ان مياه البحر أمدت المنطقة بالاسماك • لذلك فقد اكتفت الامبراطورية ذاتيا من الناحيـة الغذائية ، ولم تكن فى حاجة الا الى القمح فقط (٢٣) •

ويرى المؤرخون كذلك أن ظروف هذه الفترة كانت تتطلب بقـاء الأباطرة فى الشرق أكثر من الغرب ، وذلك يرجع الى التطور الذى طرأ على الجبهة الأرمنية والشـامية والجبهة الدانوبية • فعلى الجبهـة الأولى أعادت الأسرة الساسانية الفارسية نشاطها وطموحها ، وأخذت بلاد الفرس تحاول التوسع على حساب الامبراطورية فى الشرق ، كما أن القبائل الجرمانية أخذت تهدد حدود الامبراطورية الواقعة على نهر الدانوب ، هذا وكانت الولايات الشرقية الامبراطورية تتميز بنشـاطها وتفوقها الاقتصادى على الولايات الغربية (٢٤) •

ولهذه الأسباب مجتمعة قام قنسطنطين بتأسيس مدينة القسطنطينية الجديدة المنسـوبة اليه والتى بنيت محل مدينة بيزنطة القديمـة التى أنشأها بيزاس Byzas ٦٥٧ ق•م ، ولم يلتفت أحد الى موقعها

---

(23) David R. «The Byzantines» p. 19.

(٢٤) عمر كمال توفيق « الامبراطورية البيزنطية » ص ٢٥ .

وأهميتها الا عندما اختارها قنسطنطين عاصمة للامبراطورية (٢٥) وقرر سنة ٣٢٤ بناء عاصمته الجديدة التى اتخذ المؤرخون تاريخ انشائها بداية لتاريخ الامبراطورية البيزنطية (٢٦) •

ان تأسيس القسطنطينية يعتبر نقطة تحول جديدة فى التاريخ الرومانى اذ بدأ القسم الشرقى من الامبراطورية يتميز كثيرا عن الغربى من حيث الاستقرار والتقدم ، بل وراثة مجد الامبراطورية الرومانية ، فى حين أضحت روما العاصمة الرومانية تعيش حياة قلقة مزعجة نتيجة اشتداد غارات الجرمان عليها ، وتمكنهم من القضاء على معظم التراث الحضارى العظيم (٢٧) •

أما الموضوع الثانى الذى تميز به عهد قنسطنطين فهو الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة مسموح بها للشعب الرومانى ، وهذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية ، اذ أن القسطنطينية أصبحت حامية المسيحية بعد أن كانت روما من قبل هى حصن الوثنية المنيع •

أما عن أسباب اعتراف قنسطنطين بالمسيحية فربما ترجع الى نواحى سياسية ودينية • فالمعروف أن المسيحية تعرضت لحركة اضطهادات واسعة منذ قيامها ، وكان المسيحيون يمارسون عقائدهم سرا ، ورفضوا المشاركة فى العقائد الوثنية التى كان يمارسها جميع الرومان حتى أصبحوا عنصرا غريبا نافرا بين مواطنى الامبراطورية وكان طبيعيا أن تتخذ الاجراءات اللازمة لادماجهم أو استئصالهم •

فاستمرت الاضطهادات منذ ظهور المسيحية وحتى نهاية عهد دقلديانوس حيث قام القيصر جاليروس الذى تنسب اليه حركات

---

(25) David «op. cit.» p. 20.
(26) Gibbon «The history and decline of the Roman empire. p.p.96-97.
(27) Ostrogorsky «op. cit.» p. 42.
Vasiliev. op. cit. p. 60.

الاضطهادات العنيفة ضد المسيحيين باصدار مرسوم عرف باسم « مرسوم التسامح » Edict of Toleration وفيه سمح للمسيحيين بممارسة عقائدهم داخل الدولة الرومانية دون أن يتعرض لهم أحد بأذى (٢٨) .

ولكن يرجع الى قنسطنطين الكبير عملية الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة رسمية مرخص بها داخل الدولة ، وتجمع آراء المؤرخين على أن السبب الذى حدا بالامبراطور قنسطنطين الى الاعتراف بالمسيحية هو الرؤيا التى رآها سنة ٣١٢ م أثناء قيامه بمحاربة زميله ماكسينتيوس Maxentius ، فقد قص هذه الرؤيا بنفسه على مؤرخ الكنيسة يوسبيوس Eusebius « فقد رأى صليبا على قرص الشمس وعليه عبارة Hoc-Vince أى بهذا أنتصر »(٢٩) .

وليس هناك من شك فى أن قسطنطين قد اعتقد أن وحيا هبط عليه ورغم أن الاعتبارات السياسية كانت فيما يبدو توحى باتباع سياسة التسامح الدين ، فاننا بلا ريب نجانب الصواب اذا افترضنا أن قسطنطين قد عبد اله الشمس الذى لا يقهر لم يتأثر بالأفكار الدينية أيضا .

وليس هناك شك فى أنه كان على ثقة تامة من احراز النصر حتى لقد غزا ايطاليا ، وأقدم على اقتحام حصن روما المنيع بقوات غير كافية

---

(28) William G. Sinnigen «op. cit.» p. 414.

(29) Vasiliev «op. cit.» p. 61.
Ostogorsky «op. cit.» p. 43.
A - Alfold «The Conversation of Constantine and Pagan Rome.» Ch. I.

دون أن يعبأ بنصيحة قادته أو نبوءات عرافية فكان الصليب مرسوما على دروع رجـاله عنـدما خاضـوا غمـار معركة جسر ملفيـوس Melvian Bridge التى أتاحت له السيادة على الغرب . وفى عام ٣١٣ أعلن هو وحليفه ليكينيوس وفقا لمرسوم ميلان مبدأ التسامح الدينى(٣٠) .

وهناك دلائل على اعتراف قنسطنطين بالمسيحية . فجميع الآثار القديمة تدل على محاولات للتوفيق بين الديانات والتركيز على الـه واحد ، كما أن محاولة التركيز على الصليب على قرص الشمس وعلى العملة التى سادت فى عصره ، الى جانب اتخاذ يوم الأحد اجـازة رسمية ، كل ذلك يدل على أن قنسطنطين اتجه الى تغيير الديانـة التى اعتنقها أبوه وهى « اله الشمس » الى عبادة « اله المسيحيين »(٣١) .

وهناك من المؤرخين من يعارض ذلك ويقول ان قسطنطين لم يعتنق المسيحية ولم يتنصر الا وهو على فراش الموت ، وبالرغم من ذلك كان يرأس المجامع الدينية الكبرى ، وكان يتصرف على أنه زعيم الكنيسة . وبهذا الاجراء أوجد سابقة سار عليها من جاء بعـده من الأباطـرة البيزنطيين(٣٢) .

ويؤكد ذلك ما ذكره أستاذنا الدكتور سعيد عاشور من أن قتـل قنسطنطين لزوجته وولده يدل على أنه لم يتأثر اطلاقا بتعاليم المسيحية وأخلاقها(٣٣) .

ظهور الامبراطورية البيزنطية

عهد قسطنطين ينقلنا الى عالم جديد فى العصور الوسطى : وهو العالم الذى تألقت فيه القسطنطينية كعاصمة للامبراطورية : حيث قام

(30) Baynes «Cam. Anc. Hist.» p. 695.
(31) William, G. Sinnigen «op. cit.» p. 416.
(32) Vasiliev «op. cit. p.. 54.
(٣٣) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ٣٤ .

الجرمان بتفتيت الامبراطورية الغربية وقسموها فيما بينهم ، هذا فى الوقت الذى صمدت فيه القسطنطينية ، وأصبحت وريثة الحضارة الرومانية ، ومركز الدراسات الهلينستية ومركز الحضارة والفكر والسياسة .

ومن الطبيعى أن هذه الفترة الزمنية بدأت تؤكد على فكرة انقسام الامبراطورية الى قسمين شرقى وغربى ، حتى تبلورت هذه الحقيقة على عهد الامبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ الذى قسم الامبراطورية الى قسمين شرقى وغربى جعل الأول من تصيب ابنه أركاديوس فى حين صار الثانى من نصيب ابنه هونريوس ، وفى زمنهما تعين الحد الفاصل بين الشرق البيزنطى والغرب الرومانى ، بعد أن انضمت داشيا ومقدونيا الى الشطر الشرقى[٣٤] .

هذا التصرف الذى قام به ثيودسيوس عجل بالكارثة وعجل بانحلال الامبراطورية حيث أن كلا من الامبراطورين حكم فى منطقة مختلفة تمام الاختلاف عن الأخرى[٣٥] .

ولم يصبح بين القسمين من الامبراطورية أى صلة ، وسبب ذلك ان ما جرى من الحوادث فى الغرب والشرق سار فى طريقين مختلفين ، كما أنه لم يكن بين الحكومتين الشرقية والغربية من عوامل الود ما يجمع بينهما ، ففى أثناء حكم ولدى ثيودسيوس نلحظ كثرة من تعاقب على الوصاية على أركاديوس امبراطور الجزء الشرقى « البيزنطى » فى حين أن ستيلكو الجرمانى القوى حكم باسم هونريوس فى الغرب ما يزيد على عشر سنوات[٣٦] .

(34) Ostrogorsky «op. cit.» p. 50.
Vasiliev «op. cit.» p. 82.

(٣٥) سعيد عاشور « المرجع السابق » ص ٢٣ .

(36) Ostrogorsky «op. cit.» p. 5.

وهناك أسباب أخرى أدت الى حدة التنافر بين القسمين الغــربى والشرقى وألحت فى ضرورة انقسام الامبراطورية الى قسمين مختلفين كل الاختلاف هو أن حضارة كلا من القسمين مختلفة تمام الاختلاف عن حضـــارة الأخرى فالقسم الغربى متأثر بالحضـــارة الرومانية والشرقى متأثر بالحضارة اليونانية الهلينسيتية التى كانت تجد فى تراثها المجد والتقدم والرقى عن الحضارة الرومانيـــة . حتى ان الأباطرة الرومان تأثروا تلقائيا بالحضارة اليونانية ، وأخذوا بها ، كما أن هناك اختلافا شديدا فى اللغة بين قسمى الامبراطورية ، فالغربية تتكلم اللاتينيـــة والشرقية تتكلم اليونانية(٣٧) وهذا ما سنفرد له فصلا خاصا .

أضف الى ذلك أن الظروف السياسية التى مرت بها الامبراطورية الغربية أدت الى بلورة هذا التقسيم والى ظهور القســـم الشرقى من الامبراطورية فى صورة المنقذ الخاص للقسم الغربى .

فالمعروف أن القبائل الجرمانية بدأت منذ نهاية القرن الثـــالث الميلادى فى عبور حدود الامبراطورية الواقعة على الـــدانوب والراين على السواء تاركين آثارا فى تاريخ الامبراطورية بشـــكل يختلف فى الشرق عنه فى الغرب .

وقد اتخذت هجماتهم شكل اغارات عامة ضخمة منذ سنة ٣٧٥ م ، وقد امتدت هذه الحركة الواسعة حتى سنة ٥٦٨ م أى نحو قـــرنين من الزمان استطاعت فيها كثير من الجموع الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة فى هذه الأقاليم مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما ، وجعل صورة أوربا العصور الوسطى تبدو أكثر وضوحا(٣٨) .

فقد وزعت معظم أجزاء الامبراطورية الغربية ، وضاعت معظـــم

---

(37) Ostrogorsky «op. cit.» p. 52.

(٣٨) سعيد عاشور « المرجع السابق » ص ٦٣ .

أجزائها فقد احتل القوط الشرقيـــون ايطاليـــا ، والقـــوط الغربيـــون والبرجنديون أسبانيا وسيطر الوندال على شمال أفريقيا ، ووصـــل الألمـــان الالزاس والفرنجة الى السوم والميز[٣٩] هذا فى الوقت الذى تعرضت فيه الامبراطورية الشرقية أيضا لهجمات البرابرة وعلى رأسهم قبائل الهون بزعامة أتيلا ؛ ولكن الولايات الغربية الغنية الفسيحة تمكنت من اجتذاب هذه العناصر المتبربرة اليها ، وصرفتهم عن مهاجمة الدولة الشرقية الى جانب مهارة الأباطرة البيزنطيين فى استخدام الحيـــلة والدهاء والرشوة ، وعلى سبيل المثال ما فعله برسكوس التراقى السفير الذى أوفده الامبراطور البيزنطى الى أتيلا قائد الهون فظل يخـــادعه ويصور له خيرات الغرب حتى صرفه اليه وأراح الدولة البيزنطية من شره[٤٠] • فنجت الدولة البيزنطية من خطر المتبربرين فى حين وقـــع الغرب فريسة سهلة بين أيديهم •

ومن الأسباب الأخرى التى ادت الى انقسام الامبراطورية الى شطرين متميزين هو لاختلاف المذهبى بين القسمين الغربى والشرقى

فقد تدخل الأباطرة المسيحيون منذ الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية — فى شئون الكنيسة والعقيدة لأن ذلك أعطاهم تأييدا روحيا فى تطبيق سياستهم ولكن هذا التدخل جعل للسلطة الزمنية الحق فى التـــدخل المباشر فى الصراع الدينى والانقسامات المذهبية الدائرة فى ذلك الوقت والتى لم تكن فى الحقيقة آلا اختلافا بين الكراسى الرسولية الكبرى على الزعامة والصدارة[٤١] •

ومن أهم الفرق التى نشأت عن الانقسامات المذهبية الأريوســـية

---

(39) Vasiliev « op. cit.» p. 87.
Ostrogorsky «op. cit.» p. 53.

(40) Vasiliev « Ibid» p. 88-89.

(41) Ostrogorsky «op. cit.» p. 52.

التى تزعمها الكاهن السكندرى أريوس والتى ترى أن المسيح الابن لا يعادله الاله الأب فى المستوى والقدرة فهو دونه(٤٢) .

أما الفريق الثانى فهو فريق الأثناسيوسية الذين تزعمهم القديس أثناسيوس وكان رأيهم يقوم على أن المسيح الابن مساوى تماما للاله الأب فى كل صفاته وبذلك فهم لا يقللون من شأن المسيح بل يجعلونه فى نفس مستوى الاله الخالق(٤٣) .

ازدادت خطورة الآراء الأريوسية لكثرة المؤيدين من رجال الدين مما دعى خصومهم الى رفع الأمر الى الامبراطور قنسطنطين الكبير ، فقام بعقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣١٥ الذى قرر فيه بطلان مذهب أريوس وقرروا أن الابن من نفس جوهر الأب ، ومن ثم أخذت العقيدة الدينية تتخذ صورتها وشكلها ، وأيد هذا القرار مجمع القسطنطينية الذى انعقد سنة ٣٨١ م(٤٤) .

ورغم هذه القرارات الا أن الأريوسية ظلت منتشرة خاصة فى الشرق بل انها بدأت تنتشر بين رجال القصر الامبراطورى مما حدا بقنسطنطين الى ضرورة تغيير رأيه وتعاطفه مع الأريوسية مرة أخرى مما أدى الى زيادة حدة الصراع المذهبى ، ويهمنا من أمر هذا الموضوع انشطار الامبراطورية الى قسمين غربى كاثوليكى (أثناسيوسى) وشرقى بيزنطى (أريوسى) .

وبذلك تألقت الامبراطورية البيزنطية كقوة سياسية قائمة بذاتها لها أباطرتها المستقلين وسياستها المستقلة التى كانت تتأثر بالأقاليم الشرقية ، وبدا ذلك واضحا فى الناحية الدينية خاصة . ففى الوقت

---

(42) Cam. Med. Hist. Vol. I, p. 119.
(43) Vasiliev «op. cit.» p. 55.
(44) Vasiliev. Ibid.

الذي كانت فيه حكما استبداديا ، وتدير ادارة دقيقة وتدافع دفاعا محكما كانت قد وصلت الى درجة تستطيع معها أن تفصل علاقاتها بروما لكي تقيم وحدة دينية مع أطرافها في الشرق ، وأن تؤسس كنيسة تكاد أن تكون مستقلة عن البابوية في روما ، وتتفرغ لمشاكلها الشرقية الأمر الذي كان لا بد وأن يدعم قوتها •

ومن الناحية الاقتصادية والثقافية والفنية ، نجد أن الشام ومصر وشبه جزيرة الأناضول أصبحت لهم أهمية خاصة في القرنين الرابع والخامس فبدأ ينمو الفن المسيحي بفضل جهود رجال الدين وأبحاثهم كي يخلف لنا قطع فنية عظيمة في القرن السادس ، ومنذ ذلك الوقت ظهر لنا بشكل شرقي في أساسه ، واذا كان ذلك الحال في الولايات البيزنطية. فان القسطنطينية نفسها شجعت العناصر المختلفة كي تمتزج بها وتخرج حضارة خاصة(٤٥) •

سقوط الامبراطورية الغربية

رأينا من الاستعراض السابق الظروف التي أحاطت بالامبراطوريه الرومانية في الغرب ، وانشطار العالم الشرقي عنها ، وبداية ظهور التاريخ البيزنطي •

ومن أهم الظواهر التي عرضنا لها ، أخطار الجرمان وهجماتهم على مختلف أرجاء الامبراطورية ، مما أدى الى تفتت الوحدة الجغرافية في الغرب وتقسيم البلاد بين هؤلاء الغزاة •

ولقد صادف سقوط الامبراطورية في الغرب وجهات نظر مختلفة من قبل المؤرخين والأدباء القدامى ، فقد أرجع جيروم وهو من رجال الكنيسة في القرن الخامس سقوط الامبراطورية الى هزيمة روما وخيانة

---

(٤٥) عمر كمال « المرجع السابق » ص ٦٧ .

الضابط الونوالى ستيلكو الذى عينه الامبراطور ثيودسيوس الأول مستشارا لابنه هونريوس • فقد انقسمت الامبراطورية الرومانية بعد وفاة ثيودسيوس سنة ٣٩٥ م الى امبراطورية شرقية حكمها ولده أركاديوس وامبراطورية غربية حكمها ولده الثانى هونريوس • وكان ستيلكو الشخصية الأولى فى بلاط الامبراطور الغربى ، وتجاوز طموحه أمور السياسة فأصبح القائد الأعلى للجيش الرومانى الذى كان عليه أن يحارب ألريك ملك القوط الغربيين عندما هجم على ايطاليا(٤٦) •

وثبتت خيانة ستيلكو عندما تواطأ مع ألريك وسمح له بالهرب بعد أسره مما أعطى الفرصة لملك القوط أن يعاود هجومه على ايطاليا وأن يحتل روما عاصمة الامبراطورية ، ولعل جيروم كان يدين هنا سابقة الأباطرة الخطيرة فى توظيف الأجانب وتجنيدهم فى الجيش الامبراطورى ، وان كان جيروم قد دافع عن سياسة أركاديوس وهونريوس ووصفهما كما لم يصف أحدا من قبل بالتقوى والصلاح ، وكأن جيروم كان يخفف عن كاهل الأخوين عبأ الخطر الذى ارتكبه أبوهما عندما نصب ستيلكو مستشارا فى بلاط الغرب ، ونصب روفينوس الغالى مستشارا فى بلاط الشرق ، ولقد تساءل جيروم والألم يعتصر قلبه « من ذا الذى يصدق الحقيقة بعدئذ ، وأى سجل أحداث سيروى أن روما كانت تحارب داخل حدودها ليس بقصد المجد ، وانما من أجل مجرد الحياة »(٤٧) •

أما سالفيان المرسيلى فيعزو انهيار الامبراطورية فى كتابه « حكومة الله » الى انحلال الأخلاق الذى ساد المجتمع والحياة الأثيمة التى كانت داعية الى الهزيمة أمام الجرمان ، ان سالفيان يقول : وقد علت قلمه

---

(٤٦) على الغمراوى « مدخل الى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط » ص ٢١٦ •

(٤٧) على الغمراوى « المرجع السابق » •

الدهشة « أى رجاء يحق لدولتنا أن نتعلق بأهدابه اذا كان الجرامنة أبلغ منا صفاءا ونقاءا ؟ ان ما أقوله الآن لهو القليل أى رجاء فى الحيـــاة والغفران ونحن نرى عفافة الجرمان ونحن الرومان لا نقـــوى على أن نكون أعفة ؟ أليس حقيقيا بنا أن نشعر الخزى والحياء ؟ انى أصيح بأعلى صوتى لكى يسمع العالم أجمع أن كفوا أيهـــا الرومان عن هـــذا الصلف أينما كنتم وأخزوا النفس بمر الحق وليكن معشركم الخجـــل والندامة ألا تعلمون أننا شقينا بالدنس ؟ ان قوة الغرماء لم تـــكن هى التى لطمتنا بالهزيمة ، ولكن نحن الذين لطمنا أنفسنا بتلك الحياة الأثيمة الشـــنعاء » .

اذا استطاع الجرمان أن يتغلغلوا فى المجتمع الرومانى حتى تمكن أودواكر وهو أحد القادة الجرمان أن يخلع روميلوس أغسطولوس آخر أباطرة الغرب سنة ٤٧٦ م ، وان يتولى مكانه حكم ايطاليا .

وكان غرض أودواكر من هذا العمل الوصول الى السلطة ، ولم يدر بخلده موضوع سقوط الامبراطورية ، فكـــل همه ألا يحـــكم الغـــرب امبراطورا طفلا وهو رومولوس(٤٨) .

حاول أودواكر أن يكسب حكمه شرعيـــة ، فراسل الامبـــراطور البيزنطى زينون وبعث اليه مبعـــوثين من قبل ســـناتو روما محـــاولين استمالته الى جانبهم ، فعرضوا عليه وجهة نظرهم وهى أن ايطاليا ليست فى حاجة الى تعيين امبراطور مستقل ، وانهم يعتبرون زينون امبراطورا على الشطرين الشرقى والغـــربى وفى الوقت ذاته التمس أودواكر من زينون أن يمنحه رتبة البطرقية ، وأن يعهد اليه بادارة شئون ايطاليا ،

---

(48) Ostrogorsky «op. cit». p. 57.

فاستجاب زينون لذلك واعترف بأودواكر حاكما على ايطاليا ، فكسب بذلك الصفة الشرعية لحكمه(٤٩) .

أما عن موقف البابوية من سقوط الامبراطورية ، فلم يكن أمام البابا الا الاعتراف بالأمر الواقع ، فكان عليه أن يصدق على حكم أودواكر لايطاليا ، وعلى جعل العاصمة رافنا بدلا من روما . كما أن البابا اعترف بشرعية حكم زينون على الامبراطورية البيزنطية ، ونظر اليه على أنه القوة الوحيدة فى العالم الرومانى ولذا بادله زينون نفس المشاعر فاعترف به على أنه زعيم العالم المسيحى وله السيادة على بطريركية القسطنطينية وانطاكية وبيت المقدس والاسكندرية(٥٠) .

والمعروف أن هذه العلاقات الطيبة التى ربطت بين البابوية والامبراطورية البيزنطية كانت رهينة الظروف الحاضرة فقط لأن السياسة الدينية كانت تختلف كلية بين الكنيستين الشرقية والغربية .

من أهم الآثار التى عادت على الدولة البزنطية من سقوط الامبراطورية فى الغرب أن أصبح الامبراطور البيزنطى وحيدا من نوعه ، وأصبح يبدو أمام المتبربرين كممثل للحضارة الرومانية ، والمجد الرومانى ، وكان لذلك وقع كبير على قلوبهم . وعرف أباطرة الدولة البيزنطية كيف يستغلون هذه الناحية فأحاطوا أنفسهم بمظاهر الأبهة والغنى التى لم يعرفها الا القليلون من أباطرة الرومان واجتهدوا فى أن يظهروا أمام هذه الشعوب بمظهر رائع يلقى الرهبة فى قلوب زعمائهم(٥١) .

ورغم امتلاء العالم الرومانى بمجموعات الجرمان من قوط

---

(49) Vasiliev «op. cit» p. 107.
Eyre «The Middle Ages» p. 23.

(50) Pirenne. Mohamed and Charlemagne» p. 210.

(51) Ostrogorsky op. cit.» p.p. 57-58.

شرقيين وغربيين ووندال وهون وسكسون وانجلز وغيرهم الا أن البيزنطيين ظلوا مرابطين وحاكمين للبندقية واستريا ونابلى وصقلية وكالابريا ثم عينوا بطريقا على رافنا أصبح من أكبر الموظفين
وكالابريا ثم عينوا بطريقا على رافنا أصبح من أكبر الموظفين
البيزنطيين .

أما البابوات فكان لسقوط الامبراطورية أثره فى ارتفاع شأنهم فقد بدأت سلطاتهم تعلو ، وحاولوا أن يشقوا لأنفسهم وسط هذه الفوضى طريقا للسمو[٥٢] حتى انتقل اليهم عفواً حكومة دوقية روما وحاولوا التعلق بطيف السلطة الامبراطورية ، فأرخوا وثائقهم بسنوات حكم الامبراطور واعتبروا البطريق البيزنطى أرخون رافنا وليا لهم ونصيرا ، وبلغ من شدة تأثرهم وتعلقهم به أن ظنوا أنهم لا يأمنون على منصبهم الا اذا أقر هذا الموظف انتخابهم باسم سيده الامبراطور البيزنطى[٥٣] .

---

(52) Pirenne. «op. cit.» p. 210.

(٥٣) ديفز « شارلمان » ترجمة العرينى ص ٦ .

الفصل الثانى

الآثار المترتبة على شغور العرش الامبراطورى فى الغرب

* ❊ تسابق القوى الخارجية للسيطرة على ايطاليا
* ❊ القوط الشرقيون
* ❊ البـــابوية
* ❊ البابوية واللومبارديون
* ❊ البـــابا والفرنجـــة

الفصـــل الثـــانى

آثار شغور العرش الامبراطورى فى الغرب

كان لشغور العرش الامبراطورى فى روما أثره على تسابق القوى الخارجية للسيطرة على ايطاليا ، فأصبحت روما عبارة عن ظل لأمجـــاد غابرة ، وهيأت هذه الظروف الفرصة لتألق نجم البابوية ، وظهور القوط الشرقيين ، واللومبارديين فيما بعد ، ودخولهم فى صراع مرير مـــع أباطرة الدولة البيزنطية الذين رأوا أن من واجبهم وراثة أمجاد روما . فهم ورثة الأباطرة الرومـــان القدامى أمثال أوكتافيوس وقنسطنطين الكبير(١) .

ويعتبر ظهور البابوية كقوة لها دورها الفعال ووزنها فى توجيـــه السياسة فى العالم الغربى من أهم آثار شغور العرش الامبراطورى .

فقد عمل خلفاء القديس بطرس على أن يحلوا محل الأباطرة فى روما ، قلعة البابوية ، ولعل نشأة البابوية بها بالذات يرجع الى ما تمتعت به هذه المدينة من صفة مقدسة ، لأنها مدينة القديس بطرس التى أسس بها كنيسة ، كما أنه هو أول تلامذة السيد المسيح الذى أمره بقـــوله « أنت بطرس — أى صخرة — وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى »(٢) .

---

(١) أسحق عبيد « روما وبيزنطه من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى » ص ٤ .

(٢) انجيل متى . الاصحاح السادس عشر .

ومن هذا المنطلق راح كتاب الكنيسة اللاتينية منذ وقت مبكر يزعمون بأن لأسقف روما الامارة على الكنيسة العالمية ، لأن أسقف روما هو خليفة القديس بطرس[٣] .

وقد صار من المتعين جريا على المنطق السائد وقتذاك أن يكون للكنيسة رئيس أعلى كما للامبراطورية امبراطورا ، وان تنصرف الأنظار عن فكرة المجالس الدينية المحلية لصعوبة تأليفها ولأنها تتفق والمناسبات الكبرى أكثر مما تتفق وشئون الادارة اليومية . والواقع أن توحيد المذاهب وتجنيس طقوس تطلب أن يكون هناك أسقف على الأساقفة للرجوع اليه فى كل مواضع الشك ولتصبح الشعوب المسيحية تابعة لزعيم واحد ، وكنيسة واحدة لها الصدارة على جميع الكنائس[٤] .

لذلك أصبحت لكنيسة روما ولأسقفها السيادة على العالم المسيحى الغربى ، وتحولت الى بابوية لها هيبتها وسلطانها وأصبحت قبلة العالم الغربى والملاذ الوحيد بعد سقوط الامبراطورية[٥] .

تتابع على المنصب البابوى بابوات عظام أمثال ليو الأول وجيلازيوس وهكذا صارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية فى صورة عملية عالمية فى عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم ٥٩٠/٦٠٤ م الذى دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها ، وذلك بوصفه خليفة للقديس بطرس[٦] .

ونحن لا نبالغ القول اذا أكدنا أن جهود البابوات الثلاث ليو الأول وجيلازيوس وجريجورى العظيم هى التى جعلت البابوية بحق

---

(٣) اسحق عبيد « الامبراطورية الرومانية » ص ١٧٥ .

(٤) نشر « تاريخ أوربا العصور الوسطى » قسم ١ ص ١٠٦ .

(5) Bury «op. cit» p. 64.

(٦) سعيد عاشور « المرجع السابق » جـ ١ ص ٥٥ .

الوريث الشرعى للامبراطورية الرومانية ، وتمكنت فى عهد البـابا ليو الثالث من نقل التاج من على رأس امبراطورة الدولة البيزنطية ايرين الى رأس شارلمان ملك الفرنجة .

ومن الآثار الهامة لشغور العرش الامبراطورى فى الغرب تسابق العناصر الجرمانية قبيلة تلو الأخرى محاولة الاستقرار فى ايطاليا ، وذلك رغم الجهود البيزنطية المكثفة للسيطرة على أجزاء كثيرة منها .

ويعتبر القوط الشرقيون أهم العناصر الجرمانية التى كانت ترغب فى التوغل فى ايطاليا بعد ما أصابها من خراب وفوضى سـياسية من جراء سقوط الامبراطورية .

دخل القوط الشرقيون فى الكفاح مع الامبراطورية البيزنطية التى أجبرت على السماح لهم بالدخول فى خدمتها ، ومنحتهم أرضا سنة ٤٦٢م وأغدقت المـال والألقـاب على قـوادهم . ومن أبرزهم ثيودريك الذى تولى زعامتهم عام ٤٧١ . بعد أن قضى عشر سنوات من حياته — وهو صبى — رهينة بالقسطنطينية ، ومن أهم الفوائد التى عادت عليه من ذلك أنه تأقلم على النظم البيزنطية ، وتعلم الـكثير من النظـم المتحضرة(٧) .

ظل القوط الشرقيون يضغطون على الدولة البيزنطية ، وتدفع لهم معونات مالية فادحة ، لذلك فكر الامبراطور زينون فى خـير وسـيلة للتخلص منهم : فنظر أمامه فوجد أن أودواكر الزعيم الجرمانى قـد تمكن من فرض سيطرته على رافنا وما حولها ، واضطر الامبراطور الى قبول الأمر الواقع كما ذكرنا ، ولكنه حقيقة يتمنى أن يقضى عليه ويجعل

(7) Thompson «The Middle Ages» p. 114
Moss «The Birth of the Middle Ages». p. 84.

ايطاليا جميعها تحت سلطانه ، فليس هناك الا أن يبعث اليه بالقــوط الشرقيين[٨] •

توجه ثيودريك على رأس قواته ــ بناء على أوامر الامبــراطور زينون ــ الى ايطاليا ، والتقى بقوات أودواكر ، فانتصر عليه انتصارا ساحقا ولقى أودواكر مصرعه سنة ٤٩٣ هـ ، وقامت بذلك فى ايطاليـا مملكة للقوط الشرقيين بزعامة ثيودريك الكبير[٩] •

وبذلك نرى أن ايطاليا أصبحت لقمة سائغة ، وأن شغور العــرش الامبراطورى سهل لهذه القوى الخارجة تحقيق آمالها،وفعلا بدأ ثيودريك يوطد أقدامه داخل ايطاليا ، ويقبض على زمام الأمور مع ملاحظـة ضرورة الالتزام بسياسة التبعية للدولة البيزنطية لأنها صاحبة الفضل أولا وأخيرا فى دخولهم ايطاليا ودليل ذلك قيام ثيودريك بسك عملة عليها اسم الامبراطور البيزنطى[١٠] •

ومن معالم سياسة ثيودريك فى ايطاليا ابرام سلسلة من المحالفات مع الممالك الجرمانية الواقعة الى الغرب منه ، وكان هدفه من ذلك أن يقيم توازنا للقوى بين هؤلاء الحكام ، ويقوم بدور الوسيط بينهم وبين القسطنطينية وبهذه الوسيلة استطاع أن يكفل لنفســه الــزعامة على الممالك الجرمانية وأن يكون مخلصا للامبراطور البيزنطى ، وكان يرجو من ذلك أن يكون مقاومة قوية لسحق أية فكرة قد تراود البابوية أو الامبراطورية البيزنطية[١١] لاسترداد ايطاليا •

ورغم جهود ثيودريك ومحاولات الاصلاح الداخلية والخارجية الا

---

(8) Cam. Med. Hist. Vol. I, p. 367.

(9) Vasiliev «op. cit.» p. 197.

(١٠) سعيد عاشور « المرجع السابق » ص ٨٨ •

(11) Moss «op. cit.» p. 71.

أن الأمور ما لبثت أن اضطربت بينه وبين الامبراطور البيزنطى جستين الأول فبدأ الخلاف بينهما حول المسائل الدينية ، فقام جستين بحملة اضطهادات واسعة ضد الأريوسيين ، فثار ثيودريك لاخوانه ، وارتكب جريمة انتقامية أساءت الى ذكرى كل أعماله الجليلة حين أمر باعدام أمينة بؤثييوس خاتم الفلاسفة والشعراء الأقدمين والذى يعد من خيرة فلاسفة العصور الوسطى[١٢] .

توفى ثيودريك الأول وخلفته على العرش ابنته أمالاسونثا وصية على ابنها البالغ عشر سنوات ، ولكنها لم تتمكن من الصمود على العرش لوجود مقاومة كبيرة لسياستها حتى انتهى الأمر بمقتلها[١٣] .

اتخذ جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية من هذه الحادثة ذريعة للتدخل فى شئون ايطاليا ، ومحاولة اعادة هيبة الامبراطورية البيزنطية الى هذه المناطق ، لذلك أعد جيشا امبراطوريا جعل على قيادته خيرة جنده وهو القائد بليزاريوس الذى كان مثلا أعلى للجندى المحترف ، فتوجه الى صقلية التى ما لبثت أن سقطت ، ثم توجه الى داخل ايطاليا ، فوجدت قواته مقاومة طويلة من القوط ، وظل القتال محتدما بين الجانبين البيزنطى والقوطى حتى سقطت رافنا عاصمة القوط سنة ٥٤٠ م[١٤] .

تتابع على عرش القوط فى هذه الفترة الوجيزة عددا من الملوك بعد أمالاسونثا منهم تيوداهاد وتيجيز وهلديباد وايرارتينسن وتوتيلا الذى تمكن من السيطرة على الموقف ومن زعامة الجيش القوطى الذى استطاع أن يستولى على روما ذاتها[١٥] .

---

(١٢) نشر « المرجع السابق » ص ٣٦ .
Cam. Med. Hist. Vol. II, p. 81.

(13) Lot «The End of the Ancient World». p. p. 258-259.

(14) Hodgkin «Italy and her invaders» Vol. I, pp. 41-84.

(15) Hodgkin Ibid.

اضطر الامبراطور جستنيان الى سحب بليزاريوس من جبهة القوط ، وذلك لانشغاله فى الحرب على الجبهة الشرقية مع فارس ، فانتهز توتيلا هذه الظروف وبدأ يمارس سلطاته السياسية داخل روما على أنه الحاكم الشرعى لها بدون وصاية الدولة البيزنطية ، وجدد « مبانى العاصمة ، ووفقا لما ذكره المؤرخ بروكبيوس — فان أساطيله بدأت تغير على شواطىء دلماشيا للنهب والتخريب حتى أضحى الغرب كله فى أيدى البرابرة »[١٦] .

اضطر جستنيان الى معاودة الهجوم على القوط ، فبعث اليهم بقائد آخر يدعى نارسيس حيث تمكن من القضاء على جميع الاستحكامات التى أقامها توتيلا وسحق قواته وقضى نهائيا على مملكة القوط الشرقيين[١٧] ثم تسلم نارسيس مدينتى بريشيا وفيرونا وهما آخر معاقل القوط وحصونهم . وقد قامت قواته بمذابح شديدة قضوا فيها على جميع الذكور من سكان مدينة ميلان وعددهم يقدر بحوالى ثلاثمائة ألف نسمة على حسب تقدير المؤرخ بروكبيوس[١٨] .

لم تسلم ايطاليا من الأطماع السياسية — بسبب شغور العرش الامبراطورى ، فقد جذبت روما اليها عناصر جديدة حاولت أن تحل محل القوط الشرقيين — وهم (اللومبارديون) .

لم يكن لدى ايطاليا من الوسائل ما يكفى لحمايتها من أى خطر يحيق بها ، لذلك وقعت فريسة سهلة للشعب اللومباردى ، الذى تحالف مع قبيلة الآفار الآسيوية وقاموا معا بتدمير مملكة الجيبداى التى استوطنت حوض الدانوب ، واستولوا على بلادهم وما فيها من غنائم[١٩] .

---

(16) Moss «op. cit.» p. 104.
(17) Lot. «op: cit:» p.p. 262-263.
(١٨) فشر « تاريخ اوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ٥٠ .
(19) Vasiliev. «op. cit.» p. 172.

غادر اللومبارديون بعد ذلك بانونيا خوفا من حلفائهم الآفار واتخذوا مسارهم صوب الأراضى الايطالية لخلوها من الدفاع البيزنطى اللهم الا البطريق البيزنطى الموجود فى رافنا والذى عجز عن صد هذا الهجوم ٠

وصلت القوات اللومباردية سنة ٥٦٨ م الى ايطاليا متحدين تحت قيادة ملكهم ألبوين صاحبين زوجاتهم وأطفالهم ، ومعهم بعض من القبائل الجرمانية الأخرى مثل السكسون[٢٠] ، فسقطت كيفيدال ، ولم تلبث منطقة فريولى أن اجتاحها اللومبارديون ، وغادر بطريرك اكويليا مدينته ، وفر الى جرادوا ، واحتفظت القوات الامبراطورية بمدينتى بادوا ومنتو حيث صمدوا عند خط نهر البو ، وحالوا دون اتثيال اللومبارد الى الساحل الشرقى ، لكن ضاعت منهم فياكنزا وفيرونا ، وانعزلت منطقة الحدود فى جنوب التيرول عن رافنا ، وبعد ذلك بعام دخل ألبوين مدينة ميلانو ، ثم توصل فى النهاية الى الاستيلاء على بافيا بعد حصار طويل ، فأصبحت عاصمة للومبارد ، فانفصل بذلك شمال ايطاليا عن الامبراطورية الذى أضحى معروفا باسم لومبارديا[٢١] ٠

استمرت القوات اللومباردية فى الزحف على وسط ايطاليا وجنوبها ، فاستولوا على تسكانيا واحتلوا بنفينتو ، وعلى الرغم من عدم استيلائهم على روما فانهم أحاطوا بها من ثلاث جهات من الشمال والشرق والجنوب وقطعوا كل اتصال بين روما ورافنا حتى لا تنتظر روما مساعدة من رافنا أو القسطنطينية[٢٢] ٠

ولا يهمنا فى هذا المجال استعراض حياة اللومبارديين فى ايطاليا أو نظام حكمهم ومدى اختلافهم عن غيرهم من العناصر الجرمانية ،

(20) Ibid.
(21) Bury «op. cit.» Vol. II p.p. 160-166.
(22) Ibid.

لكن ما يهمنا هو القوى التى حاولت التصدى لهذا الغزو ، كما حاولت أن تجد لنفسها وسط هذه الفوضى منفذا للوصول الى السلطة .

وأول هذه القوى هى :

البـــابوية :

كان البابا فى هذه الفترة هو جريجورى الأول الذى اتصف بصفات خلقية هيأته لمعالجة الوضع الغريب المحيط به ، فقد كانت ايطاليا كلها فى حالة ارتباك مطلق ومحنة تامة ، فجعل لنفسه وللبابوية سلطانا زمنيا يضارع سلطان الدولة البيزنطية واللومبارديين[٢٣] ، وعندما أجمع رجال الدين على اختياره لمنصب البابوية سنة ٥٩٠ م — رغم تمنعه الشديد — بدأت تظهر ملامح شخصيته على حقيقتها لتعبر عن كثير من الصـــفات التى امتاز بها أهل العصور الوسطى منهـــا ولعه بدراســـة اللاهوت ، واعتقـــاده فى المعجـــزات وبغضـــه للتراث الكلاســـيكى وحماســـته للديريه[٢٤] .

ومما يشهد بزيادة قوة البابوية فى عهده نمو رقعة ممتلكات الكنيسة من الأراضى الزراعية ، وهو أمر لم يؤكده فقط متانة مركز ايرادات كرسى روما ، بل زودها أيضا بوسيلة تمارس بها نفوذها الأدبى والمادى فى كل أرجاء ايطاليا ، اذ كان للكنيسة منذ عهد قنسطنطين الحق القانونى فى حيازة الممتلكات ، وتزودنا رسائل البابا جريجورى الكبير بمعـــلومات وافية لما اشتهرت به روما من كفاية فى نهاية القرن السادس ، وقد بذل جريجورى اهتماما كبيرا لتعلم أحسن الوسائل فى تربية الماشية والتأجير وحيازة الرقيق ، وجميع الأمور التى تهم كل مالك أرض وفى ذلك دلالة على ما حدث من احلال النشاط الكنسى مكان الحكومة الامبراطورية فى العاصمة الامبراطورية السابقة روما[٢٥] .

---

(23) Moss. «op. cit.» p. 132.

(٢٤) سعيد عاشور « أوربا الوسطى » جـ ١ ص ١٤٨ .
Moss. «op. cit.» p. 133.

(25) (Ibid).

والواقع أنه حتى هذه الفترة لم يكن للبابا فى العالم المسيحى من الصفة السياسية الكبيرة الا أنه أسقفا دينيا له قداسة كبرى ، حيث كان للامبراطور البيزنطى دورا سياسيا كبيرا ، ولكن هذا الدور أخفته انتشار الاسلام بين ربوع العالم الرومانى خاصة فى مصر والشام وشمالى افريقيا ، لذلك أصبحت للبابوية الصفة السياسية الكبرى التى بدأت تضارع بها الامبراطورية البيزنطية ، لكن بدأ الاضطراب السياسى يعصف بالبابوية عندما هددتها القوات اللومباردية(٢٦) .

قام جريجورى بمهمة سياسية هامة بالنسبة لايطاليا فباسم البابوية كان يحل كثيرا من المشاكل السياسية ، فقد دخل ميادين الحرب فى أكثر من جبهة باسم الرومان وكلها موجهة ضد اللومبارديين ، فكان يعلن دائما أن كرسى روما الرسولى « كرسى القديس بطرس » هو أعلى الكراسى فى الشرق والغرب(٢٧) . ومن أهم مواقف البابا جريجورى محاولته اثبات الحق البابوى ، وان له سلطات أعلى من السلطات الامبراطورية داخل ايطاليا ، بل أراد أن يمد النفوذ البابوى ليس على ايطاليا فقط بل على جميع بلاد الغرب مثل شمال افريقية وأسبانيا وغاله(٢٨) وبمثل هذه السياسة دحض جريجورى النظرية الامبراطورية التى سادت الفكر السياسى البيزنطى منذ عصر جستنيان ، وهى أن الولاية الايطالية شأنها شأن جميع أجزاء الامبراطورية الأخرى لا بد أن تخضع للامبراطور ومرءوسيه وذلك لأن « الدولة لا تقع فى داخل الكنيسة ، بل ان الكنيسة هى التى تقع فى داخل الدولة »(٢٩) .

لذلك بدأت الاحتكاكات بين السلطتين الزمنية والدينية منذ هذا التاريخ المبكر ، فلو أن العرش الامبراطورى كان موجودا داخل ايطاليا

---

(26) Lindsay J. «Byzantium into Europe.» p. 388.
(27) Cam. Med. Hist. Vol. I p. 246.
(28) Oman «The dark ages» p.p. 202-204.
(29) Moss. «op. cit.» p. 134.

فى هذه الفترة لما نمت البابوية الى هذا الحد ، ولما حاول المعاصرون أن يتجهوا صوب البابوية بصفتها القوة الوحيدة الموجودة بالغرب ، والتى تتمتع بالتراث القديم .

بدأ الصراع بين الدولة البيزنطية والبابوية حول دور النائب الامبراطورى « الأوكسيراخ » فى ايطاليا ، ومدى سلطاته . فقد رأى البابا جريجورى أن سلطاته الدينية تعطيه الحق فى أن يكون فى منزلة أعلى من منزلة الوالى البيزنطى لأنه خليفة بطرس الذى تسلح بمفاتيح الحل والابرام فى السماء والأرض ، لذلك نجد سكان روما وايطاليا يشاركوه هذا الشعور ، وبدأت تصرفاتهم تعبر عن ذلك الاحساس ، وبدأوا يعاملون النائب الامبراطورى على أنه مجرد حاكم ضعيف ومندوب لامبراطور يعيش فى منطقة بعيدة عنهم ، ولا يربطه بهم أى صلات روحية[٣٠] .

ساعد جريجورى على تحقيق سموه ما حصل عليه من أموال وثروات وايرادات ضخمة فاقت ما يملكه النائب الامبراطورى[٣١] .

وظهر نزاع آخر بين البابا جريجورى الثانى والامبراطور البيزنطى موريس ٥٨٢ م — ٦٠٢ م بشأن القرار الذى أصدره الامبراطور بمنع موظفيه المدنيين وجنده من الانخراط فى سلك الكهنوت أو الرهبنة . لذلك عارضه البابا جريجورى ووقف منه موقفا شديدا وأثبت له أن الطريق الوحيد الى الجنة انما يتأتى من طريقى الكهنوت والرهبنة[٣٢] .

أعقب البابا جريجورى سلسلة من البابوات ورثوا عنه النظرية التى وضعها لهم وهى الحق البابوى فى حكم ايطاليا ، وان السلطة

---

(30) Cam. Med. Hist. p.p. 246-250.
(31) Ostrogorsky «op. cit.» p. 140.
(32) Oman. «op. cit.» p.p. 203-205.

الدينية أسمى وأعلى من السلطة الزمنية ، لذلك أصبحت هذه المشكلة هى جوهر العلاقات بين البابوية والدولة البيزنطية — التى رفضت الانصياع لهذا المبدأ ، وأرادت أن تثبت الحق الامبراطورى •

البابوية واللومبارديين

تكدرت العلاقة بين البابوية والدولة البيزنطيـــة فى عصر الأسرة الأيسورية التى انتهجت السياسة اللاأيقونية ، مما أدى الى الانشقاق الدينى بين الشرق والغرب وتباعد وجهات النظر بينهما مما جعل البابوية تنظر الى مملكة الفرنجة كحليف جديد ، وتترك الأباطرة البيزنطيين(٣٣) •

لم يلبث الشقاق الدينى بين البابوية والامبراطورية البيزنطية أن تحول الى شقاق سياسى مما أدى الى اتساع الهوة بين القسطنطينية وروما ، فما حدث من انهيار مكانة الدولة البيزنطية فى ايطاليا دفعت البابا الى زيادة ارتباطه بغرب أوربا(٣٤) •

خرجت الدولة البيزنطية من الغرب اللاتينى ، وانهارت فكرة الوحدة — التى تمسكت بها كل من الامبراطورية البيزنطية والبابوية ، لـــكن البابوية لم تكن قد حققت كل أغراضها ، فانها وان كانت قد تحررت من سلطة البيزنطيين الا أنها أصبحت قوة منفردة فى ايطاليا تواجه قوات اللومبارديين •

ارتبطت البابوية بدولة الفرنجة الذين اعتنقــوا المســيحية على المذهب الكاثوليكى ، فكانوا عونا لها ضد منافسيها على المسرح السياسى فى غرب أوربا •

---

(33) Vasiliev «op. cit.» p. 328.
Ostrogorsky «op. cit.» p. 144.

(34) Vasiliev. Ibid. p. 239.

ورغم السياسة التى انتهجتها دولة الفرنجة وهى عدم التدخل فى شئون ايطاليا الا أن الدبلوماسية البابوية تمكنت من اجتذابهم الى روما، ومشاركتهم لها ظروفها السياسية(٣٥) .

بدأ اللومبارديون يسفرون عن سياستهم العدائية ضد البابوية باخضاعهم ايطاليا برمتها لسلطانهم ، وازدادت سياسة العداء بين الطرفين بعد فترة السلام التى سادت من عام ٧٣٠ — ٧٣٨ م وسببها الثورة التى قام بها دوق سبوليتو ضد الملك اللومباردى ليتو براند ، وفرار الأمير الثائر الى روما محتميا بالبابوية فى آثار ليثوبراند ودفعه الى الزحف على روما ، وفى هذه الأزمة لم يستطع البابا جريجورى الثالث أن يعتمد على مساعدة امبراطور القسطنطينية ، ولم يجد أمامه سوى شارل مارتل رئيس البلاط فى مملكة الفرنجة ، فطلب منه المساعدة ضد الغزو اللومباردى ، لكن شارل مارتل رفض بحجة أن بينه وبين الملك اللومباردى حلفا(٣٦) . لذلك زحف ليتوبراند واستولى على دوقية سبوليتو التى تعتبر من أهم الدوقيات التى كانت تطمع هى ودوقية بنفينتو فى الاستقلال المحلى وتوسيع رقعتيهما على حساب جيرانهما(٣٧) .

تعرضت مدينة ايطالية أخرى للغزو اللومباردى وهى مدينة رافنا مركز الادارة البيزنطية فى شمال ايطاليا ، وكان على زعامة اللومبارديين فى هذه الآونة ملكهم استولف الذى لم يكن على شاكلة أخيه ، فقد قرر استئناف الحرب ضد البابوية والبيزنطيين .

---

(35) Moss. «op. cit.» p. 202.
Thompson. «op. cit.» Vol. I p.p. 180-185.

(٣٦) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ص ١٥٤ — ١٥٥
يقال ان البابا جريجورى الثالث ارسل مفاتيح قبر القديس بطرس الى شارل مارتل ، وانعم عليه بلقب « باتريكيان » البطريق ، وتفيض رسائله بالسباب ضد اللومبارد ومليكهم .
انظر اسحق عبيد « الامبراطورية الرومانية » ص ٢٠١ .

(37) Moss. «op. cit.» p. 201

قرر البابا زكريا ٧٥١ — ٧٥٢ م ضرورة التحالف مع البيزنطيين لصد الخطر اللومباردى عن رافنا ، ولكنه لم يكتب لهذا الحلف النجاح إذ هزمت قواتهما أمام قوات اللومبارديين الذين استمروا فى زحفهم على مدن ايطاليا فاستولوا على بنفنتو ومنها هددوا أمن روما[٣٨] .

توفى البابا زكريا وخلفه البابا ستيفن الثالث ٧٥٢ — ٧٥٧ م ، الذى تعرض للضغط الشديد من قبل الملك اللومباردى استولف ، وقد طلب من البابا الاعتراف بسيادة اللومبارديين عليه ، ولم يكن البابا يملك سلاحا غير السلاح الدينى ، فأصدر قرار الحرمان الكنسى ضد استولف ومن تبعه ، لكن هذه القرارات لم تجد نفعا ، ولم تكن ذات تأثير فى تلك الفترة ، فاضطر البابا الى مخالفة القوة العظمى فى هذه الفترة وهى مملكة الفرنجة التى سبق أن طلب البابا جريجورى الثالث مساعدتهم وقد وجد البابا استجابة هذه المرة من ملكهم بيبن ، وذلك بعد أن رفض شارل مارتل من قبل مساعدتهم[٣٩] .

رحل البابا الى مملكة الفرنجة سنة ٧٥٣ م ، وتقابل مع بيبن القصير الذى عاهده على حمايته وحماية شعب روما وكنيستها . وبقى البابا بضعة أشهر ضيفا على ملك الفرنجة حيث ساهم فى حل كثير من القضايا، وأهم عمل قام به هو تتويجه لبيبن ملكا على الفرنجة ليكسبه بذلك صبغة شرعية وهو ما عرف فى التاريخ باسم « هبة بيبن » ، وليكون تتويجه من قبل السلطة الدينية العليا[٤٠] وفى الاحتفال الذى أقيم لهذا الغرض فى القصر الملكى فى بونثيون . Ponthion : قام البابا بتتويج برترادا زوجة بيبن وولديه شارل وكارلمان ، ثم مسحهما بالزيت المقدس فطلب من النبلاء أن يقسموا يمين الولاء لبيت بيبن ، وألا يختاروا أحدا بعد

---

(38) Ostrogorsky «op. cit.» p.p. 151-152.
(39) Lindsay J. «Byzantium into Europe» p. 388.
(40) Thompson. «op. cit.» p.p. 182-183.

ذلك الا من سلالته وبيته[41] ، كما اعترف هذا الملك بحق البابا فى حكم روما ورافنا ، وكان البابا حتى ذلك الوقت يباشر السلطة فى روما باسم الامبراطور ، كما أنعم على بيين بلقب البطريرك ، وهو لقب كان يختص به الاوكسيراخ البيزنطى فى رافنا فقط[42] .

استجاب بيين لرغبة البابا ستيفن الثالث وتوجه على رأس جيش كبير لتأديب اللومبارديين ، فحلت الهزيمة بجيش استولف فى معـــركة سوسا ، فاعتصم وراء أسوار بافيا ، لذلك فرض بيين على اللومبارديين رد رافنا والممتلكات البابوية الى حالتهما الأولى .

حاول الامبراطور البيزنطى أن يقضى على تحالف البابوية مع بيين . وذلك لتدهور العلاقات بينهما نتيجة للخلاف المذهبى على موضــوع الصور المقدسة .

لذلك بعث الامبراطور البيزنطى قنسطنطين الخامس كوبرنيموس بمبعوثه جورج الى بلاط الملك الفرنجى بيين سنة ٧٥٦ م وذلك لاقناعه بفض الحلف مع البابا ، لكن هذه البعثة لم تحقق أهدافها لأن بيين صرح لسفير القسطنطينية انه عندما قام بحملته ضد اللومبارديين لم يكن يعمل لصالح الامبراطور البيزنطى ، بل لصالحه الخاص وبناء على دعوة من البابا[43] .

عندئذ وجه الامبراطور البيزنطى وجهته صوب اللومبارديين حتى يقضى على نفوذ البابوية فى ايطاليا ويستعيد روما ورافنا ، فأرسل مبعوثه الى دسدريوس ملك اللومبارديين سنة ٧٥٨ م من أجل عقد حلف مضاد لحلف البابوية ، وتفاوض المبعوث من أجل استعادة الممتلكات البيزنطية ،

---

(41) Oman «The dark ages». p.p. 325-320.
Moss. «op. cit.» p. 217.

(42) Mauglais «Byzantine, Christianity» p. 93.

(43) Pirenne «Mohamed and Charlemagne» p.p. 226-227.

وعند عودته قرر معاودة الاتصال بالملك الفرنجى ربما يعود فى قراره ، ولكن لم تفلح السفارة مرة أخرى[٤٤] .

وفى عام ٧٦٠ أشيع فى روما أن الامبراطور البيزنطى قد أرسل أسطولا مكونا من ثلاثمائة سفينة حربية موجهة ضد البابا وملك الفرنجة، وكان غرض البابا من ترويج هذه الشائعة دفع بيبن للقدوم الى ايطاليا مرة أخرى لدفع خطر اللومبارديين[٤٥] .

وصل بيبن الى ايطاليا ليواجه تجدد العـدوان اللومبـاردى ، وتعرضت بافيا للحصار مرة ثانية ، واعترف العدو المقهور فى مقـابل حصوله على السلام ببيبن سيدا على المملكة اللومباردية ، على حين تقرر تسليم رافنا والبنتابوليس ودوقية روما هبة الى البابا ، فارتفع سلطان البابوية على سلطان الامبراطورية البيزنطية واتسعت هوة الخلاف بين الاثنين مما مهد لظهور الامبراطورية فى الغرب[٤٦] .

خلف استولف الملك اللومباردى الملك دسدريوس ، فقد تضاعفت مخاوف البابا عندما تزوج شارل بن بيبن من ابنه ملك اللومبارد ، ولم تنقض بضع سنوات على وفاة بيبن حتى لاح فى الأفق بوادر قيام كتلة فرنجية مؤلفة من الفرنجة والبافاريين واللومبارديين تخضع لنفوذ الملكة الأم برترادا ، ولكن الموقف تغير فجأة عندما انفصل شارل عن زوجته اللومباردية سنة ٧٧٢ م[٤٧] .

أرسل الملك دسدريوس الى البابا هارديان ٧٧٢ — ٧٩٥ م يطلب منه النظر فى موقف شارل من ابنته الى جانب مطالبته بأن يعتـرف شارل بحق ابن أخيه كارلومان فى ممتلكات أبيه ، لكن البابا رفض هذه المطالب ، وطالب بالأراضى التى ما زالت فى حوزة اللومبارديين[٤٨] .

(44) Pirenne «op. cit.» p.p. 226-227.
(45) Ibid.
(46) Moss. «op. cit.» p. 217.
(47) Moss. Ibid. p. 218.
(48) Cam. Med. Hist. Vol. II p. 220.

الفصل الثالث

احياء الامبراطورية الغربية على يد شارلمان

* شـــــارلمان
* شارلمان وملك اللومبارديين
* البابا واللومبارديين
* شـــارلمان والبـــابا
* التباعد بين الشرق والغرب
* شارلمان والسكسون
* شارلمـــان والمسلمين
* شارلمـــان والبابا ليو الأول
* تتويج شارلمـــان امبراطورا سنة ٨٠٠ م

الفصل الثالث

أدى شغور العرش الامبراطورى فى ايطاليا – كما رأينا – الى محاولة كل فئة من الفئات فرض سيطرتها على روما وايطاليا ، وخرجت البابوية من ذلك بالتحالف مع مملكة الفرنجة ، واصطدمت هذه المملكة مع قوى اللومبارديين ، كما خرجت الامبراطورية البيزنطية من هذه الجولة بنتائج سلبية ، فلم يكن لها غير ممتلكات ضيئلة فى ايطاليا ، وضعف نفوذ النائب الامبراطورى فى حين علا نجم البابوية •

ولعل هذه الظروف السياسية هى التى مهدت لظهور شخصية شارلمان التى لولاها لتغير تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ولولا ظهوره ، وما قام به من أعمال لانقلب ميزان القوى •

ولد شارلمان حسب رواية اينهارد حوالى عام ٧٤٣ م ونشأ هو وأخيه كارلومان نشأة الملوك فى بيت بيبين القصير ، وشاء القدر أن يتوجا مع أبيهما – كما رأينا – على يد البابا ستيفن الثالث على أن يكونا كهنة ملوكا •

وقد اتصف شارلمان بطول القامة ، وقوة البنية والهيئة الملوكية[١]

وقد كان لشارلمان صفات خاصة وهى الحيوية والقدرة على تصريف الأمور ، فقد حكم أوربا ما يقرب من ستة وأربعين سنة – كما سنرى – وقد ذكر أحد المؤرخين المعاصرين أن شارلمان قد ترك أوربا على درجة

---

(1) Hulme «The Middle Ages». p. 259.

كبيرة من الرخاء حتى أن الشعراء قد قالوا فيـــه انه رئيس أوربا أو زعيمها أو أباها(٢) •

الى جانب أن شارلمان كان يتفهم اليونانية ، ولكنه لم يكن يحسن التحدث بها(٣) ، وكان بطبيعته ميالا الى عقد صداقات ومحالفات ، وكان يغدق على حلفائه وأصدقائه من حنانه ومحبته ويبـــذل طـــاقاته لحمايتهم(٤) •

بدأ اتصال شارلمان بالسياسة بعد وفاة أبيه ، فقد آل الحكم الى الابنين شارل وكارل ، وبوفاة كارلومان مبكرا آل ميراث الامبراطورية الى أخيه شارل •

تأزمت الأمور السياسية فى البلاط الفرنجى لسببين الأول طلاق شارلمـــان لزوجته ابنة الملك دسدريوس ملك اللومبارديين ، وقد صمت مؤرخ هذه الفترة عن توضيح ســـبب هذا الطـــلاق الذى قابله البابا بالرضى الكبير لأن أى تقارب بين البلاط الفرنجى والبلاط اللومباردى يهدد نفوذ البابوية فى ايطاليا(٥) •

والسبب الثانى ، رفض شارلمان دعوى أبناء أخيـــه كارلومان فى وراثة ملك أبيهم ، لذلك هربت بهم جربرجا Gerberga مجتازة جبال الألب الى بافيا لتتقابل مع دسدريوس الملك اللومباردى ليرد لها حق أولادها(٦) •

---

(2) Gerald Simons «The Birth of Europe».

(3) Einhard «The life of Charlemagne» p. 53.

(4) Ibid. p. 47

(5) Cam. Med. Hist. p. 220

(6) Bouquet «R.H.O.» Vol. IV p. 643.

حرص دسدريوس على اثارة الأبناء ضد عمهم شارل ، بل انه اتصل بالبابا هادريان ليعرض عليه الأمر ، ويطلب منه أن يأمر شارلمان باعطاء أبناء أخيه حقوقهم ، وبدأ فى اثارة هادريان ضد شارلمان علّه يستطيع أن يوقع بين الحليفين .

لم يجد دسدريوس استجابة من البابا هادريان لمطالبه وادعاءاته ، لذا آثر استخدام القوة ، فأغار على بعض المدن البابوية مثل فيرارا وكوماشيو وفاينزا ، وبدأ فى تهديد رافنا ، وعندما وصله احتجاجا من البابا هادريان رد عليه بضرورة تتويج ولدى كارلومان ، ولما اعتذر اضطر دسدريوس الى محاصرة روما علّه ينال مطلبه بحد السيف ، ولكن روما استعصت عليه وقاومت مقاومة شديدة (٧) .

اضطر البابا هادريان الى مراسلة شارلمان ، وارسال مبعوث من قبله ليشرح له الموقف ، وفى تيونفيل عرض المبعوث الأمر على شارلمان وطلب منه ضرورة الدفاع عن المقر البابوى بصفته بطريركا .

استخدم شارلمان طريقا دبلوماسيا محاولا به اقناع ملك اللومبارديين بالسلم ، فأرسل مبعوثا من قبله لدراسة المشكلة فى موطنها ، محاولا الحصول على جميع مطالب البابوية العادلة ، لكن هذه الوسيلة لم تنجح مع اللومبارديين (٨) .

اضطر شارلمان الى الحرب ، فخرج على رأس قواته متخذا طريقه الى لومبارديا ناحية الشمال الغربى ، لذلك أمر دسدريوس بسد جميع منافذ جبال الألب فى وجهه وسار بالجانب الأكبر من جيشه الى سفح جبل سينى منتظرا قدوم جيش الفرنجة ، واستطاع شارل أن ينفذ رغم هذه الاستحكامات ، وتوجه لمحاصرة مدينة بافيا حتى سلمت حاميتها

---

(٧) ديفز « شارلمان » ص ٦٦ .

(8) Cam. Med. Hist. p. 220.

عام ٧٧٣ ، واضطرت بقية دوقيات الجنوب الى اعلان خضوعها للبابوية (٩) .

قضى شارلمان عيد الفصح عام ٧٧٤ م فى مدينة روما ، وهناك تقابل مع البابا هادريان الذى استقبله استقبالا حافلا ، وقضى معه اسبوعا منحه فيه البابا منحة مشابهة لمنحة أبيه بيبين القصير وهى اكسراخية رافنا من فيرارا وكوماشيو فى الشمال الى أوسيمو فى الجنوب بما تشملها من مناطق النزاع بين البابا وملك اللومبارد (١٠) وحددت الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا فى البندقية ونابلى وكالابريا وصقلية حتى أصبحت هذه المناطق ليست ذات أهمية بالنسبة للبابوية ولشارلمان (١١) .

توجه شارلمان بعد هذا المكسب العسكرى والأدبى الى محاصرة فيرونا ، فسقطت فى يديه ، وبعدها استسلم دسدريوس نتيجة لتفشى المجاعة ، ففتحت بافيا أبوابها ، وبعدها استسلم دسدريوس وأودع أحد أديرة نوستريا ، فانتهت بذلك مملكة اللومبارديين على يد شارلمان (١٢) . فلقب شارلمان نفسه بعد ذلك « ملك الفرنجة وملك اللومبارد ، وبطريق الرومان » .

Carlous gratia Dei Rex Franconum et Lomkobardrum atique Patricius Romanorum.

---

(9) Hulme «op. cit.» p. 260.
Oman «op. cit.» p. 348.

(10) Pirenne «Mohamed and charlemagne» p. 228.

(11) Mauglais «op. cit.» p. 95.
Stephenson, «op. cit.» p. 150.

(12) Ibid, Mauglais «op. cit.» p. 95.



ايطاليا عقب الغزو اللومباردى
ممتلكات لومباردية
ممتلكات بيزنطية
جنوه
روما
نابلى
سالرنو
مسينا
صقلية
كاتانيا
سيراكوزه
البحر الأبيض المتوسط

ولعل أهم نتيجة سياسية فى مجالنا هذا هى ازدياد أواصر التحالف بين البابا وشارلمان ، وابتعاد البابا كلية عن الامبراطورية البيزنطية فى الشرق • ولابد أن نعرض للأسباب المتعددة التى أدت الى هذه الظاهرة السياسية ظاهرة الجفوة والتباعد بين الشرق والغرب والتى ترجع الى اختلاف المذاهب والطقوس الدينية كما سنرى بعد ذلك فى ظهور نحلة اللاأيقونية فى الشرق ، ومعارضة البابوية لها فى الغرب معارضة شديدة ، الى جانب اغلاق عدد كبير من الطرق التى كانت تربط الشرق بالغرب نتيجة لاحتلال السلاف فى القرن السادس لمناطق البلقان وسيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط باستيلائهم على سوريا ومصر وشمالى أفريقيا وأسبانيا • فقد أغلق طريق Via-Egnatia وهو الطريق الرومانى القديم الذى يوصل بين القسطنطينية مباشرة وبين دورازو Durazo على شاطىء البحر الأدرياتى ، كما أغلق الطريق البرى الذى يصل بيزنطة بالغرب ، وعلى الرغم من سيطرة المسلمين على البحر الأبيض الا أن الطريق البحرى كان أكثر أمانا من البرى للوصول الى الغرب (١٣) •

ومما يدل على عظم التباعد بين الشرق والغرب ان مؤرخى الشرق البيزنطى عندما أرخوا لبابوات روما اكتنفت كتاباتهم وتسجيلاتهم أخطاءا بينة تدل على الجهل بحقيقة الأمور ، والتباعد الشديد بين العالمين الشرقى والغربى،فنرى المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس Theophanes سجل البابا جريجورى الثانى ٧١٥ — ٧٣١ والبابا جريجورى الثالث ٧٣١ — ٧٤١ م على أنهما شخصا واحدا ، زيادة على ذلك أخطأ ثيوفانيس فى حساب سنوات حكم البابا زكريا ٧٤١ — ٧٥٢ م وسجل عهده على انه واحد وعشرون سنة بدلا من أحد عشرة سنة (١٤) •

---

(13) Mauglais «op. cit.» p.p. 90-91.
(14) Ibid.

واذا رجعنا مرة أخرى الى الغرب ورأينا مدى الجهود التي بذلها شارلمان من أجل تحقيق هدف كبير في رأسه ، فلم يكن غرضه من مساعدة البابا ضد اللومبارديين تسليم ايطاليا اليه ، بل كان يطمع أن يكون هو سيدا على شبه الجزيرة كلها (١٥) . لذلك نراه يتوجه بعد هذه الانتصارات المتتالية في شمال ايطاليا الى اخضاع الدوقيات الجنوبية التي حاولت الاستقلال عن سلطان البابا ، فتوجه في عام ٧٧٦ م الى دوقيات فريولى ، واسبوليتو ، وبنفينتيو ، وفي عام ٨٨٧ اخضع سالرنو وجعل حاكمها أرخس بن دسدريوس تابعا له (١٦) .

ولعل هناك موقفا غريبا قامت به الامبراطورية البيزنطية أثناء هذه الفترة فعلى الرغم من هذا التباعد والجفوة التي أصابت الشرق والغرب ، وعندما شعرت بالمكانة الكبيرة التي بدأ يحتلها شارلمان في العالم الغربي ، أرادت أن تقدم على محاولة رأب الصدع وتصفية النفوس بأن تعرض عرضا للمصاهرة بين القوة القديمة « البيزنطية » والقوة الناشئة « الفرنجية الشرلمانية » . فقد فكر قنسطنطين الخامس في نهاية حياته ان يخطب لابنه ليو الخزرى ابنة بين القصير وأخت شارلمان الأميرة جيزلا ، ولكن طلبه قوبل بالرفض ، لاختلاف المذهب الديني بين العالمين الشرقي والغربي ، ولما كان سائدا في الشرق — كما يرى الغربيون — من نزعة اللا أيقونية بل أكثر من ذلك فان البابا هادريان أوقف عام ٧٨١ م تاريخ الأحداث وأعماله الرسمية بسنى حكم الامبراطور البيزنطي (١٨) .

عاد شارلمان الى ايطاليا مرة أخرى في نهاية عام ٧٨٦ م ، وذلك

---

(15) Pirenne. «op. cit.» p. 230.

(16) Ibid.

(17) Oman «op. cit.» p. 349.

(18) Joseph. Mc. Capé «The Empreses of Constantinople» p. 85.

للمؤامرة التى قام بها أريغيس Arichis دوق بنفينتيو ، واعلانه العصيان . لذلك قدم شارلمان بكامل قواته وحاصر المدينة مما دفع أريغيس الى مهادنة شارل ، ولكنها كانت هدنة ظاهرية ، اذ توجه أريغيس الى البلاط البيزنطى واتصل بالامبراطورة ايرين ومناها باعادة النفوذ البيزنطى على روما والغرب فى مقابل أن تنعم عليه بلقب البطريرك [١٩] .

وقد بذل شارلمان جهودا كبيرة فى سبيل احكام سيطرته على بنفينتيو ، الى جانب أنه عمل على حماية الغرب والبابوية من أى هجوم متوقع من قبل البيزنطيين .

شارلمان والسكسون

ورث شارلمان عن أبيه وجده واجبات كثيرة وأمورا محتمة حمل أعبائها وأهمها حماية أوربا المسيحية من المسلمين والآفار والسكسون الوثنيين [٢٠] .

ولعل حروب شارلمان مع السكسون تعتبر من أهم الأعمال التى قام بها والتى ناصر بها البابوية ، والديانة المسيحية ، لأن السكسون كانوا وثنيين فكانت حروبه معهم حروبا صليبية فى دوافعها وأغراضها .

وتتركز الأهمية السياسية للسنوات من ٧٧٤ — ٧٨٩ م حول أمرين ، الأول : فتح بلاد السكسون وادماج دوقية بافاريا فى النظام العام للمملكة الفرنجة ، وترتب على ذلك أن امتد طرف المملكة شمالا الى نهر الألب ونهر الأيدر ، وامتد الى الجنوب الشرقى حتى بلغ جبال

---

(19) Mauglais «op. cit.» p. 95.
Pirenne. «op. cit.» p. 227.

(20) Stephenson. «Medieval History» p. 178.
Oman « op. cit.» p. 343.

بوهيميا ومورافيا وبعبارة أخرى صار شارلمان بهذين العملين السيد المطلق للأراضى التى تكونت منها ألمانيا العصور الوسطى ، وبفضل ما جرى من فرض نظام عام من الادارة الكنسية والمدنية على سكان هذين الاقليمين ، واخضاعهم لسيادة ملك والجد وسلطة ديانة واحدة وبفضل تحويل أفكارهم جميعا نحو الشرق وتوجيههم لقتال أمم تعتبر نسبيا أمما غير متحضرة ، وهب هذه المجموعة الضخمة من الشعوب وحدة سياسية استحال تدميرها ، ولذا يعتبر شارل بهذا المعنى مؤسس الأمة الألمانية (٢١) .

انقسم السكسون الى أربع أقسام . الوستفاليين الذين يسكنون بالقرب من جبهة الفرنجة ويسكنون على الايمز والألب وحول توتبورجر وبجانهم شرقا الانجيريين الذين يسكنون وادى الويزر وشرق الايجيريين يعيش الايستيفاليين الذين يسكنون الألر والأوكر والألب ، والتقسيم الرابع للسكسون هم النورد لبيجينيين الذين يسكنون هولشتين حول الألب وهم أخطر وأقسى أجناس السكسون (٢٢)

تكررت ثورات السكسون منتهزين انشغال شارلمان فى حروبه المستمرة فثاروا فى سنوات متلاحقة ، وتعتبر ثورة ٧٧٥ م من أهم ثوراتهم فقد تمكن شارلمان من هزيمة الوستفاليين والايستفاليين والانجريان واخضع ملكهم وأرغمهم على اعتناق الكاثوليكية (٢٣) .

استطاع شارلمان أن يقمع ثورة أخرى للسكسون عام ٧٧٦ م ، لكنه لم يتمكن من السيطرة على الزعيم الوستفالى فيدكوند الذى رفض الدخول فى المسيحية وفر شمالا ليجد له ملجأ وسط قبائل الدانيين(٢٤) .

---

(٢١) ديفز « المرجع السابق » ص ٨٣ .

(22) Oman «The dark ages» p. 349.

(23) Hulme «op. cit.» p. 261.

(24) Stephenson «op. cit.» p. 175.
Oman «op. cit.» p. 351.

وفى ربيع عام ٧٧٧ م عقد شارلمان مجلسا فى مدينة بادربورن فى قلب انجريا من أجل تأكيد حقيقة أن أراضى السكسون أضبحت جـزءا من مملكته ، وفى هذا المجلس أكثروا من تعميد رجال من السكسون وبعدها أقسموا بأن يفقدوا أرضهم وحريتهم اذا قاموا بثورة أخـرى ضد شارلمان [٢٥] •

وعندما عاد شارلمان من حملته على اسـبانيا سمع بعودة الثائر السكسونى فيدكند من الدنمارك وسط ثورة عارمة من قوته ضد شارلمان كما حنث عدد كبير من السكسون بأيمانهم التى أقسموها أمام شارلمان وحملوا السلاح ووقفوا فى وجهه [٢٦] •

أخذ شارلمان طريقه صوب أوستريا ، وبعث ببعض قواته لتطهر له ضفة الراين من المحتلين ، وفى صيف ٧٧٩ م توجه صوبه وسـتفاليا واستطاع أن يهزم ويحاصر الوستفاليين بينما استسلم له بدون قتـال الانجيريان والاستفاليين • وقسم أراضى سكسونيا الى أقسام أشـبه بالأبروشات الكنسية فى مملكة الفرنجة وعين عليها قسسا من أوستريا وأوصاهم بتعليم أهل البلاد تعـاليم الدين المسيحى [٢٧] • وبعد ان ترك للسكسون تشريعا خاصا بهم توجه شارلمان بعد ذلك مباشرة الى ايطاليا ولم تحدث أية ثورات أخرى فى البلاد من عام ٧٨٠ الى عام ٧٨٢ م [٢٨] •

ظهرت الثورة مرة أخـرى فى عام ٧٨٢ م ، وحنث السكسـون بأيمانهم وخرجوا على تشريعات وعهود شارلمان ، وظهر زعيمهم فيدكند مرة أخرى ، لذلك خرج عليه شارلمان بحملة كبيرة ، تمكن السكسـون

---

(25) Oman. Ibid. p. 352.
(26) Deanesly «op. cit.» p. 360.
(27) Ibid. p.p. 361-362.
(28) Oman, «op. cit.» p. 354.

فيها من الايقاع بمقدمة الجيش فى كمين عند جبل سونتل على مقربة من أونزابردك ، لذلك قرر شارل أن يسحق قوات السكسون تماما ونصب لهم مذبحة ضخمة عند فردان أعدم فيها شارل العظيم منهم أربعة آلاف وخمسمائة أسير جملة واحدة ، وسلم فيدوكند نفسه لشارلمان حيث عمده على الكاثوليكية (٢٩) .

شارلمان والمسلمون

لم تكن حروب شارلمان ضد السكسون هى الخدمة الوحيدة التى بذلها من أجل البابوية والعقيدة المسيحية ، بل انه دخل فى حروب على الجبهة الأسبانية .

وترجع سبب حملة شارلمان على الحد الجنوبى الى وقت الاجتماع الذى كان قد عقده فى بادربورن عام ٧٧٧ م . فقد وصل اليه مبعوثين مسلمين من قبل حكام برشلونة وجيرونا وهيوسكة وهى مناطق الثغر الأعلى الأسبانية . ويمثلهم سليمان بن العربى وقاسمين بن يوسف . وقد طلبوا من شارلمان مساعدتهم ضد الحاكم الأموى على قرطبة عبد الرحمن بن معاوية ، الذى ساعدهم وصوله الى الحكم ، وذلك فى نظير ولاءهم وخضوعهم لشارلمان (٣٠) .

وافق شارلمان على هذا العرض رغبة فى حماية حدوده من المسلمين ، ورغبة فى تنفيذ مخططه الصليبى فى الغرب الأوربى كله . ورغب فى وضع خط للحدود الاسلامية عند قرطبة والحدود الفرنسية فى الشمال .

قسم شارلمان جيشه الى قسمين ، وتوجه بنفسه عام ٧٧٨ م على

---

(٢٩) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ص ١٩١ .
(30) Oman. «op. cit.» p. 352.

رأس احداها ، وتقابل الجيشان عند سراجوسا وهناك تقابل أيضا مع أتباع الثوار المسلمين ، لكنه لم ينجح فى دخول مدينتهم وظل يحاصرها مدة طويلة •

وصلت الى شارلمان أثناء حصاره أنباء تفيد بثورة السكسون بزعامة فيدوكند ، لذلك عاد الى اكتيانيا متخذا نفس الطريق الذى أتى منه ولكن حملته لم تحقق النجاح المنشود ، فقد كان الثوار المسلمين اتباعا غير مخلصين لشارلمان • أما بقية جيش شارلمان فقد هاجم مدينة بنبلونة التى يسكنها عناصر الباسك والنافار ، وبينما كان جيش الفرنجة عائدا عبر ممرات البرانس ، هاجمت مؤخرته عناصر الباسك وشتتوا شمله وغنموا مغانم كثيرة وقتلوا ثلاث شخصيات عظيمة من اتباع شارلمان منهم : أنسم ، ورولاند ، وعرف التاريخ الشخصية الأخيرة منهم حيث سقط عند رونسفال ، وأصبح بذلك بطلا لملاحم كثيرة أشهرها ملحمة رولاند (٣١) •

ولا ننسى دور شارلمان فى اخضاع البافاريين عام ٧٨٨ م ، وعزل ملكهم وجعل بلاده دوقية تسير وفق الادارة الفرنجية ، وفى ذلك الحين كان الآفار قد قدموا المساعدة لملك البافاريين الأمر الذى أثار شارل ضدهم فغزا أراضيهم فى حوض الطونة الأوسط ست مرات بين سنى ٧٨٠ — ٨٠٥ م حتى حطم قوتهم نهائيا ، وأخضعهم تماما ، وعندئذ اختار شارل أحدهم ليتولى حكمهم على أن يدفع جزية سنوية للفرنجة ، كذلك قام شارل بحروب متفرقة أخضع فيها عناصر السلاف الشماليين بين نهرى الألب والأودر عام ٧٨٩ ، والسلاف الجنوبيين فى بوهيميا من عام ٨٠٥ — ٨٠٦ م (٣٢) •

---

(31) Oman. Ibid. p. 353.
Hulme. «op. cit.» p.p. 260261.
Stephenson. «op. cit.» p. 150.

(٣٢) سعيد عاشور . المرجع السابق ص ١٩٠ .

شارلمان والبابا ليو الثالث

لعل ما قدمناه من جهود لشارلمان فى شتى المجالات تظهره على أنه الصليبى الأول الذى استطاع أن يقهر جميع القوى المعارضـــة ، والخارجـــة عن طاعتـــه ، بل كان أكبر قوة ظهرت فى أوربا العصـــور الوسطى من العناصر الجرمانية فقد أسدى خدمات جليلة للبابوية ، وقهر عناصر الوثنية خاصة السكسون الذين أدخلهم فى المسيحية بحد السيف ، فدانت البابوية لأفضـــاله ، وخضعت لارادته ، ونظرت الى شارلمان على انه منقذها ومخلصها •

انحدر شارلمان من صلب بيبين القصير الذى حصل من البابوية على لقب « ملك الفرنجة وبطريق الرومان » أما شارل فقد حصل على لقب ثالث أعلى من ذلك وهو « ملك اللومبارديين » (٣٣) •

عمل شارلمان منذ توليه ملك الفرنجة على الحياء مجد الامبراطورية الرومانية المنصرم فأراد أن يكون هو صاحب السبق فى هذا المضمار ، وان يحصـــل على لقب امبراطور الرومان ، وأن يكون هـــذا التتويج الامبراطورى من قبل البابوية صاحبة الصفة الشرعية المقدسة ، وذلك طبقا للاصول والنظم التى سار عليها من قبل ثيودريك ملك القـــوط الشرقيين وكلوفس ملك الفرنجة (٣٤) •

لم تكن هذه الفكرة تدور فى خلد شارلمان وحده ، لكنها ساورت عقول طبقات المثقفين فى العالم الغربى ، حتى أننا نجد تعبيرات كثيرة دالة على هذا المعنى فى كتابات مؤرخى القرن السابع الذين فاضـــت مؤلفاتهم بالرغبـــة فى العودة الى أمجـــاد الرومان القـــدماء وحكمهم للعالم ، فرأوا أن الشعب الرومانى ومجلس الشيوخ هم ورثة أغسطس

---

(33) Stephenson «op. cit.» p. 178.
(34) Oman. «op. cit.» p. 369.

وقنسطنطين ، بينما القيصر فى القسطنطينية ما هو الا مجرد حاكم اغريقى (٣٥) أما البابوية فكانت ترغب فى اعادة السلطة الى العالم الغربى مرة أخرى ، حتى لا تكون السلطة الدنيوية فى يد أباطرة الشرق ، الذين عجزوا عن مد يد العون اليهم •• فقد تعرضت البابوية لهجمات واعتداءات متكررة من جانب اللومبارديين فوقف أباطرة الشرق عاجزين عن رد العدوان ، لانشغالهم بمشاكلهم الداخلية وحروبهم المتكررة فى الجبهة الشرقية ، فكان لابد أن تولى البابوية وجهها وجهة أخرى وتبحث عن قوة جديدة تحميها وتزود عنها ، فوجدت ضالتها فى دولة الفرنجة وملوكها الكارولنجيين • أضف الى ذلك تكدر علاقة الدولة البيزنطية بالبابوية من الناحية الدينية ، فقد حدثت اختلافات دينية فقد أصبح للشرق مذهبه الأرثوذكسى والغرب مذهبه الكاثوليكى والى جانب الاختلاف المذهبى ، فقد ساد الشرق كثير من الهرطقات الدينية التى لم يرض عنها البابوات ، لخاصة موضوع الأيقونات الذى ساعد على انفصام العلاقة بين العالمين • فأساء كثير من الأباطرة معاملة البابوات ورجال الدين ، ونفوا بعضهم ، وصادروا أملاكهم ، وأبعدوهم عن وظائفهم الدينية (٣٦) •

رأت البابوية منذ عهد البابا جريجورى الثالث فى قوة الفرنجة خير معين لها ، ففى عام ٧٣٩م راسل البابا جريجورى شارل مارتل ، كما راسل البابا زكريا ببين القصير ، وقام بتتويجه ملكا على الفرنجة القديس بونيفاس عام ٧٥١ م •

ولا ننسى أن البابا ستيفن أنعم على ببين عام ٧٥٣ م بمرتبة البطرقية الرومانية ومعناه أن ببين صار من أشراف روما وحماتها الزادين عن بيضتها ، كما بارك له ولوديه من بعده فى الملك تبريكا

---

(35) Ibid. p. 371.
(36) Cam. Med. Hist. p. 690.

دينيا للمرة الثانية ، وأخذ على الفرنجة المواثيق والعهود ان يختاروا ملوكهم من أعقابه دون غيرهم (٣٧) .

توفى البابا هادريان حليف الفرنجة عام ٧٩٥ م ، وتم انتخاب البابا ليو الثالث الذى آثار انتخابه مخاوف الملك شارلمان ، من قبول سياسته تجاه الفرنجة . لذلك كتب اليه شارلمان عام ٧٩٦ م يقول له . « أيها الأب ، انك أنت السيد والأب الملك والقسيس والرئيس والمرشد للعالم المسيحى كله » وبدأ يرسم للبابا الخطوط العريضة للسياسة التى يجب أن يتبعها كما أوضح مدى سلطاته الزمنية الى جانب سلطات البابا الروحية (٣٨) .

أرسل البابا الى شارلمان علم مدينة روما وبدأ فى تأريخ جميع المراسيم البابوية بسنوات حكم شارلمان .
«a que - cepit italian.»

والواضح أن البابا كان يعمل على اعادة مجد الامبراطورية الى الجزء الغربى ، والى ايجاد خليفة لروملوس أوغسطولوس ، ولتحقيق ذلك كان لابد من اعادة الامبراطور الى روما ، عندئذ تعود الى البابا قوته وهيبته . لكن رغم ذلك فانه كان يعمل على أن تكون سلطاته مستقلة عن سلطات شارلمان ، وقد وضح ذلك من الصورة الفسيفساء المعلقة فى مدخل اللاتران والتى نرى فيها القديس بطرس يسلم الرداء البابوى الى ليو الثالث ، والراية الى شارلمان (٣٩) .

لم يلبث البابا ليو فترة فى منصبه حتى تعرض لمؤامرة على جانب

---

(٣٧) فشر « اوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ٧٤ .
(38) Pirenne «op. cit.» p. 230.
انظر نص الوثيقة وما بعدها فى نهاية الكتاب .
Select Documents p. 36.
(39) Pirenne «op. cit.» p. 231.

كبير من الأهمية ، فقد ثار عليـه أعداؤه وألبوا ضـده الرأى العـام المسيحى وتزعم هذه الحـركة باسـكاليس رئيس الكتاب وكامبولس متولى الخزانة . فالأول ابن أخت هادريان والثانى من أقربائه ، وقـد عملوا جميعا من أجل انتخاب بابا آخر يرتبط بتحقيق مصالحهم (٤٠) .

ففى اليوم الخامس والعشرين من ابريل عام ٧٩٩ م انقض أعداء البابا ليو عليه من الفئة المشار اليها الى جانب بعض الرومان الآخرين ، وقرروا سمل يمينه ، وقطع لسانه(٤١) ، ثم أوسعوه ضربا حتى أشفى على الهلاك ، واتهموه بالسيمونية والزنا والحنث بالأيمان والتزوير (٤٢)

هرب ليو متخذا طريقه صوب شارلمـان ملك الفرنجة عبر جبال الألب ، وتقابل معه فى معسكر بالقرب من مدينة بادربورن فى ألمانيا ولم يتوان شارلمان عن مد يد العون الى البابا والتخفيف عنه من هول الصدمة ، وتقديم الوعود الأكيدة لمحاولة حسم النزاع والوقوف فى وجه المتآمرين (٤٣) .

عند وصول البابا الى شارلمان كان فى رفقته أثنان من رجـال الاقطاع الفرنجة وهما Stark & Arno وقد وجدوا مقرا معدا من قبل شارلمان لاستقبالهم ، وأحاطت بهم القوات المسلحة من جيش الفرنجة لتحميهم من أية محاولة ضرر قد تحيق بهم (٤٤) .

لم يتمكن أعداء ليو من سمل عينيه أو قطع لسانه نهائيا ، فقـد استطاع أن يتكلم بلسـانه المجروح ، وذكر المطران المصـاحب له أن معجزة من السماء قد أنقذت البابا ليو ، الذى لم يجد مساعدة من أهل

(٤٠) ديفز « شارلمان » ص ١٧٠ .

(41) EinHard «The life of Charlemagne» p. 56.

(42) Oman «op. cit.» p. 372.

(43) Stephenson «op. cit.» p. 178.

(44) Lamb. «Charlemagne» p. 170.

روما ولا من أسرها الغنية ولا من نبلائها ، وعندما امتطى جواده هاربا من اللاتران هاجمته عصابة مسلحة بالسيوف والهراوات .

وصلت الى شارلمان فى نفس الوقت رسائل من أعداء ليو فى روما يثبتون فيها الاتهامات الموجهة اليه ، وبأنه قد أجرم فى حق الكنيسة وحنث فى ايمانه[٤٥] . فحاول شارلمان بكل جهده استرضاء البابا بعد سماع أقواله كلها ، وقدم له الاحترام والولاء الكافى ، وأصر على ضرورة عودته مرة ثانية الى روما ليكون الفصل فى هذا النزاع فى المدينة المقدسة مقر القديس بطرس .

لذلك قرر شارلمان عودة البابا مخفورا الى روما بصحبة المطران Arno وقرر أن يلحق به حتى يعاقب المتآمرين [٤٦] .

لم يتمكن الكوين من مصاحبة البابا لعدم قدرته الصحية على عبور أراضى السكسون ، فبقى فى مدينة تور يتلقى أخبار البابا من Arno ويقول الكوين فى رسالة بعث بها الى شارلمان : « ان ارادة الله هى التى قادت البابا الجريح الى القلب الحنون شارلمان » . ويقول : « لقد وقع على شارلمان مهمة رأب الصدع ومعالجة الأزمة التى اجتاحت العالم المسيحى ، واعادة الحياة مرة أخرى الى روما . ويستطرد قائلا : ان العالم تتحكم فيه قوى ثلاث هى : سلطة الكاردينال والبابا الرسولى الذى يعتبر حاكما وممثلا للقديس بطرس أمير الرسل ، فعلينا أن نمد اليه يد العون ، والقوة الثانية هى : الامبراطورية صاحبة السلطة الزمنية التى تحكم روما الشرق القسطنطينية ، التى لا تمثل أية سلطة على الشعب ، والقوة الثالثة هى : قوة « الملكية الفرنجية » حيث شاءت العناية الالهية أن تكون أنت « شارلمان » حاكم الشعب المسيحى لأنك ترتفع على منزلتك وقوتك فوق كل القوى

(45) Lamb. Ibid, p. 171.
(46) Oman «op. cit.» p.p. 372-373.

السابقة ، فأنت صاحب المقام الرفيع لأنك تعلوهم فى شخصيتك وقوتك ، كما أنك متألق فى مملكتك ، ألا ترى معى كيف تعتمد عليك وحدك جميع كنائس الغرب فأنت حاميها ومنقذها » (٤٧) .

وبهذه الروح وهذا الحماس التف الفرنجة حول زعيمهم راغبين فى اعادة الأمن الى روما ورد الحق الى البابا المطرود ، خاصة وان الدولة البيزنطية فى هذه الآونة كانت تحت حكم الامبراطورة ايرين التى لم يعترف بها المعاصرون ولا بشرعية حكمها لما قامت به من اعمال وحشية ضد ابنها قنسطنطين السادس (٤٨) .

انتظر شارلمان مدة من الزمن فى بادربورن حتى ينجز ابنه الأكبر الحملة التى قام بها على نهر الألب ، وجعل تحت حمايته سكان جزائر البليار الذين اشتد بهم الحرج والضيق ، فأرسل أسطولا لمساعدتهم ضد المسلمين وعند عودته أمضى الشتاء فى آخن يستمع الى ما أرسله له الكونتات من التقارير ، ثم زار بعد عيد الميلاد شمال غاله لاصلاح الموانى والسفن اللازمة لرد الشماليين عنها ، وقضى القيامة مع انجيلبرت والقديس ريكيه ، ثم سار جهة الجنوب ، وصار فى كل مرحلة يتوقف ليؤدى للمشاهد المشهورة الطقوس والقرابين ، حتى وصل الى دير الكوين فى تور وعقد اجتماعا مع الزعماء البريتون ، واحتجزه فى هذا الموقع الى نهاية يونيه مرض الملكة ليوتجارد ثم وفاتها (٤٩) .

اتجه شارلمان بعد ذلك الى ايطاليا للقيام بمهمة تبرأة البابا مما نسب اليه من تهم ومعاقبة معارضيه ، لذلك أسرع البابا ليو لمقابلته على حدود روما وعلى بعد اثنتى عشر ميلا ، رحب واحتفى به طوال الليل ،

---

(47) Lamb. «op. cit.» p. 172.
Stwart. C. Eastan «The Era of Charlemagne» p. 125.
أنظر نص الوثيقة فى نهاية الكتاب .

((48) Vasiliev «op. cit.» p.p. 265-266.

(٤٩) دبفز « شارلمان » ص ١٧١ .

وفى اليوم التالى طاف شارلمان أرجاء روما ، وتسلق مرتفعات القديس بطرس •

وكان لوجود شارلمان فى هذه المدينة المقدسة أكبر الأثر على حالة الهدوء والسكينة التى عمتها فقد بدت المدينة فى أبهى زينتها وزخرفتها وتألقت المبانى التى شيدها البابا هادريان ، والهبات التى وهبها اياها شارلمان[٥٠] •

أحاط بشارلمان مجموعة كبيرة من الفرسان القادمين من مدينة بنفنتو وهم من سلالة جيش الفرنجة الذين تركهم الملك بيبن القصير من قبل فى هذه المدينة •

عقدت فى قصر اللاتران المحكمة التى ستقوم بمحاكمة ليو والمتآمرين ، وفيها جلس الملك شارلمان يرتدى العباءة ومعه الكاهن الأعظم لروما ، وبجانبهم البابا ليو والمتآمرون •

لم يتدخل شارلمان فى تبرأة ليو ، بل ترك مناقشة الاتهامات تتم خارج قاعة الاجتماعات ، وأخيرا سمع أحد رجال الدين يقف بجانبه يحمل فى يديه الأناجيل الأربعة يهتف قائلا : « ليو الاول صاحب الكرسى الرسولى لا يجرؤ أحد على محاكمته ولا مقاضاته ، ولا كراهيته ، واننى ومن معى نبرأ أنفسنا من ناحيته » •

عندئذ لم يجرؤ أحد على اتهام ليو ، بل صمت الجميع ، وأقسم ليو قسما برأ فيه نفسه من كل ما نسب اليه ، فصمت جميع المتآمرين فثبت بذلك كذبهم وادعائهم على البابا لذلك لعنهم جميع رجال الدين المجتمعين وقرر شارلمان قتلهم ، ولم ينقذهم غير البابا نفسه الذى ذاق العذاب على أيديهم ، اذ توسط لهم عند شارلمان حتى يبدل قرار القتل بقرار النفى الى أراضى الفرنجة[٥١] •

---

(50) Lamb. «op. cit.» p. 175.
(51) Ibid. p. 176.
Oman «op. cit.» p. 373.
Stéphenson «op. cit.» p. 153.

تتويج شارلمان امبراطورا

فى يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ م ، وبعد مرور يومين على محاكمة البابا ليو ، ازدحم المسيحيون الرومان فى كنيسة القديس بطرس فى روما للاحتفال بهذا اليوم الدينى المجيد . وكان من جملة الحاضرين شارلمان وولداه ببين وشارل . وبعد أن انتهى البابا من تلاوة القداس ، ركع شارلمان وولديه أمام المذبح ، عندئذ تقدم اليه البابا حاملا فى يديه التاج ووضعه على رأس الملك المنحنية قائلا « الى شارل أغسطس المتوج من قبل الله الامبراطور الرومانى العظيم المحب للسلام اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر »(٥٢) .

Carolo Augusto a Deo Coronato Magno et Spacifico, imperatore Romanorum Vita et Victoria.

لم يلبث المصلون أن صاحوا جميعا صيحة رجل واحد بالنداء الذى ناداه البابا ، وهو ما كان متبعا مع جميع الأباطرة الرومان .

وما فعله المصلون انما يدل على أن هناك ترتيبا مسبقا لمنح شارلمان اللقب الامبراطورى فى هذا اليوم .

أما ما ذكره لنا مؤرخ حياته اينهارد فيقول « ان سيده شارلمان قال انه لولا أن هذا اليوم هو يوم ميلاد المسيح ، ولو علم مسبقا ما سيفعله البابا ما وطئت قدماه أرض الكنيسة فى ذلك اليوم(٥٣) .

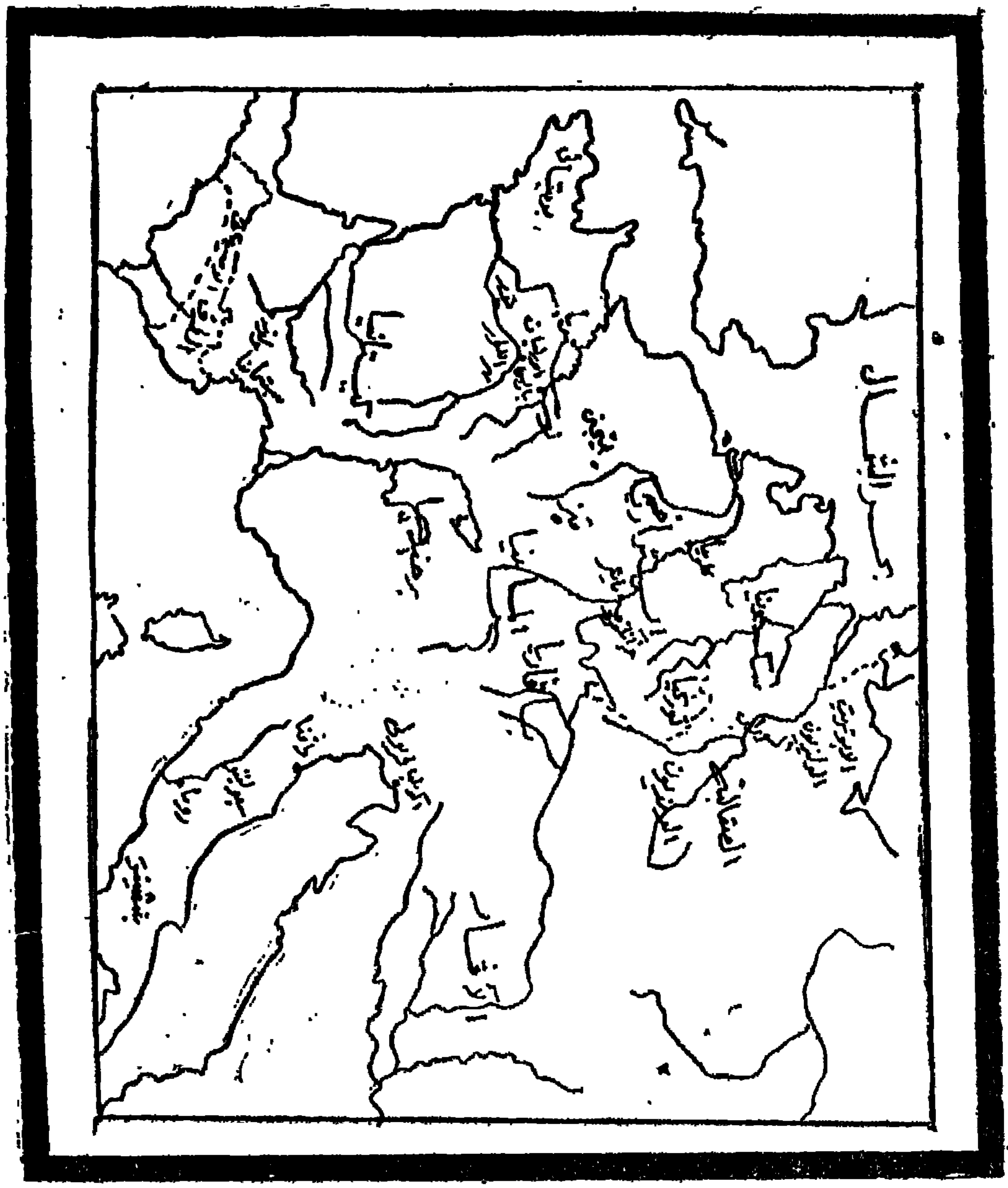
---

(52) M. Deanesly «op. cit.» p. 382.

(53) Einhard «The life of Charlemagne» p. 56.

انظر نص حوليات لورش فى نهاية الكتاب .

Marian Wenzel «The Findingout about the Byzantine» p. 68.



(امبراطورية شارلمـــان)

ويعلق المؤرخ ثورنديك Thorndike على كلام شارلمان هــذا بقوله ان شارلمان لم يذكر ذلك الا من قبيل التواضع ومحاولة الاقلال من حالة الزهو والفخار التى أصابته(٥٤) .

وهناك عدد من الباحثين والمؤرخين لم يقبلوا موقف شارلمان هذا ولا الرأى الذى أدلى به مستندين على الدور الذى لعبه شارلمان منــذ بداية حكمه للوقوف الى جانب البابوية ومساندتها ضد اعدائها ، وبذل الجهد فى سبيل ارضائها كل ذلك — فى رأيهم — كان رغبة فى هــدف أكبر وهو كسب أعماله شرعية ، فوقف مع البابوية ضد الدولة البيزنطية التي أرغمتها — كما سنرى — على ترك الممتلكات البابوية ، وقضى على مملكة اللومبارديين فى ايطاليا ، فقيامه بذلك يؤكد أنه كان يسعى ليس لمنفعة دينية بل لمنفعة دنيوية .

ويذكر المؤرخ هيوم « ان عدم اغتباط شارلمان بهذا الحدث ربما يرجع الى أنه كان يخطط مخططا آخر لأحلامه التوســعية أو انه كان يرى أنه من الأجدر به الحصول على منصبه الادارى دون تقليد مباشر من البابوية أو رغب فى تتويج نفسه بنفسه حتى لا يجعل للبابا سلطان عليه لأنه هو الذى وضع التاج الامبراطورى على رأسه أو أنه كان يطمع فى خلع الامبراطورة ايرين من العرش الامبراطورى البيــزنطى حتى يصبح هو امبراطــورا على الامبراطــورية الرومانيــة فى الشرق والغرب(٥٥) .

أما الأستاذ A. Giry فيقول ان السلطة التى حصل عليها شارلمان لم تجعله مجرد امبراطور عادى ، لكنــه الامبراطور الأوحــد الذى لا يقبل ان يشاركه امبراطور آخر فى حكم العالم الرومانى ، كما كان

---

(54) Lynn, Thorndike «History of the Medieval Europe» p. 209.

(55) Hulme. «op. cit.» p. 271.

لا يمكن أن يوجد للعالم الغربى اثنان من البابوات ، فقد كان شارلمان هو الامبراطور المرتبط بالكنيسة ، وكان مطابقا لتوقعات البابا فيه ، لأنه يعتبره الممثل للكنيسة الغربية التى يجب أن تسود وتسيطر على جميع ممتلكات العالم الرومانى شرقا وغربا .

فقد كان البابا يقول عنه انه الامبراطور أغسطس المتجلى المتوج من قبل الله ، المعظم المحب للسلام . ويجب أن نلاحظ أنه لم يدع نفسه مطلقا الامبراطور الرومانى ، ولا أغسطس وهى الألقاب التى لقب بها الأباطرة الرومان القدامى .

ولكنه أضاف لقب « حاكم الامبراطورية الرومانية » وهو تعبير غامض حيث كانت الحقيقة تظهر فى لقب ملك الفرنجة واللومبارديين . وكان البابا يدعوه دائما فى مراسيمه « شارلمان حاكم مملكتنا الامبراطور أغسطس الدائم المتوج من قبل الله المعظم المحب للسلام » .

«Imperante domino nostro Carolo Pissimo Perpetuo Augusto a deo Coronato Magno et Pacifico imperatore (56).

أما الأستاذ بيرين فيرى ان شارلمان لم يغتبط بهذا التتويج من قبل البابا لأنه يعتبر البابا أحد الشخصيات التى تقع تحت حمايته ، فكيف ينعم عليه بالمنحة الامبراطورية(٥٧) .

وللأستاذ جيرالد سيمونس Gerald Simons رأى آخر حيث يقول « ان الظروف التى توج فيها شارلمان امبراطورا عاصرت وجود الامبراطورة ايرين التى رفض كثير من حكام العالم الإعتراف بها ، فكان من الممكن لشارلمان فى وسط هذه الظروف أن يطالب بالعرش الامبراطورى ، بل وان يقوم بتتويج نفسه دون أن يدين بالفضل للبابا ولا لمساعدته وبركته . لكن ليو كان أمهر منه فأسرع بتتويج شارلمان

---

(56) A Giry «Manual de Diplomatique» p. 671.
(57) Pirenne «A history of Europe» Vol. p. 76.

حتى يمنح الملك الفرنجي منصب الامبراطور الروماني ، فجعل بذلك اللقب الامبراطوري منحة من البابوية(٥٨) .

ويعلق الأستاذ موريس كين Maurice Keen بقوله « ان تتويج شارلمان من قبل البابا جعل هناك ارتباطا وثيقا بين الامبراطورية الوليدة وبين الكنيسة الرومانية الغربية ، الى جانب ان شارلمان التزم من جانبه على تقديم العون العسكري ضد أي خطر يحيق بالكنيسة ، فاذا ظهر أي موقف خداعي من جانب الكنيسة ، فلشارلمان الحق عندئذ أن يأخـذ جانب مصلحة الامبراطورية(٥٩) .

أما بالنسبة للبابا ليو ، فقد سيطر عليه شعور الأنانية ، فقد رأى نفسه أمام خطر جسيم يتمثل في الحزب الجمهوري في روما ، فاذا توج شارلمان امبراطورا ، فسيأمن على نفسه الأخطار ، لأن شارلمان ، سيتمكن من بسط نفوذه على مدينة روما ذاتها ، وسيستطيع أن يحطم جهـود الحزب الجمهوري اذا حاولوا الاستقلال بمدينتهم(٦٠) .

ويرى المؤرخ ليندساي « ج » «Lindsay. J» ان تنصيب شارلمان تم وسط حماس وتصفيق الجماهير المسيحية ، ويعتبر ما قام به البابا من تنصيب شارلمان امبراطورا على الرومان بنفس اللقب القـديم استمرارا لما كان عليه أباطرة الدولة البيزنطية ، فلم يكن الغرض هو اقامة امبراطورية جديدة في الغرب ، وهذا شيء لا يمكن تحقيقه في هذه الفترة لكن الفكرة السائدة ، هي اقامة امبراطورية مثل امبراطورية القرن الرابع حينما كان يحكم اثنان من الأباطرة امبراطورية واحدة(٦١) .

---

(58) Gerald Simons «The Birth of Europe» p. 104.
(59) Maurice Keen «The Pelican history of Medieval Europe». p. 32.
(٦٠) إسحق عبيد « الامبراطورية الرومانية » ص ٢١٩ .
(61) Lindsay J. «Byzantium into Europe» p. 390.

أما المؤرخ أومان Oman فيرى أن شارلمان لم يشعر بعـــد تتويجه امبراطور انه قد ورث حكم امبراطورية قنسطنطين الكبير وثيودسيوس لكنه شعر بشعور أكبر من ذلك أنه ورث حكومة دينية ســيطرت على العالم مثل حكومة بنى اسرائيل القدامى من الأنبياء أمثال داود ويعقوب ويوسف(٦٢) .

وعلى كل ومهما كانت الأغراض النفسية لكل من شارلمان والبابا ليو من عملية التتويج الامبراطورى ، فان البابا بتتويجه لشارلمان أعاد للغرب الأوربى مجده الزائل ، وقوت البابوية الرباط الواهى الذى كان يربطها بمملكة الفرنجة واكسبته قوة تجعله رباطا وثيقا مقدسا ، هذا فضلا عن أن الطريقـــة التى تم بها تتـــويج شـــارلمان جعلت التـــاج الامبراطورى يبدو فى صورة منحة من البابا ، وهى العقيدة التى لهـــا شأن كبير فى النزاع بين البابوية والامبراطورية فيما بعد(٦٣) .

---

(62) Oman «op. cit.» p. 375.

(٦٣) سعيد عاشور « اوربا العصور الوسطى » ص ١٩٥ .

الفصل الرابع

الامبراطورية البيزنطية

وصدى الاحياء الامبراطورى

* الحياة السياسية فى عصر الدولة الأيسورية
* الحـــركة اللايقونيـــة
* ليو الثالث والبابوية
* قنسطنطين الخامس
* البـــابوية
* ليـــو الرابع
* قنسطنطين السادس وايرين
* استعادة ايرين لعبادة الأيقونات ، مجمع نيقيه
* الآثار الداخلية لمجمع نيقيه
* الآثار الخارجية — صـــدى الاحياء الامبراطورى على الامبراطورة ايرين .

الفصــل الرابــع

الحياة السياسية فى عصر الدولة الأيسورية ٧١٧ ـــ ٨٠٢ م

آثرت أن أبدأ هذا الموضوع بالتعرض شيئا ما للظروف السياسية والدينية التى سادت الدولة البيزنطية منذ عصر اعتلاء الأسرة الأيسورية عرش البلاد سنة ٧١٧ م • ذلك لأن السياسة الدينية التى انتهجتها هذه الأسرة ، والتطورات السياسية التى حدثت ابان حكمها مهدتا لعلو نجم شارلمان فى الغرب ، وهيأت الفرصة أمامه كى يستأثر على عقلية العالم الغربى عامة والبابوية خاصة •

ولعل الحدث الدينى الهام الذى حدث فى عهد هذه الأسرة هــو رفض عبادة الصور المقدسة وظهور الحركة اللاأيقونية •

وتعتبر هذه السياسة هى الأساس الذى تصدعت عليه العلاقات بين روما وبيزنطة ، اذ أشعل أفراد هذه الأسرة نارا لا تهدأ ضد الأيقونات فقد فسر البابوات ورجال الكنيسة الغربية حملات الأيسوريين ضــد تبجيل الأيقونات والصور المقدسة على أنها هرطقة جديدة فى سـلسلة الانحرافات العقائدية داخل كنيسة بيزنطة •

ولعل السبب الذى حدا بالامبراطور ليو الثالث الى اصدار قرار سنة ٧٢٦ م بتحريم عبادة الأيقونات فى جميع أرجاء الدولة البيزنطية يرجع الى تغالى المسيحيين وسوء استخدامهم لهذه الأيقــونات حتى سيطرت على الناس الخرافات والاعتقاد فى المعجزات والنبوءات وبدأ كل مسيحى يستحوذ على أكبر قدر من الأيقونات التى تمثـل صـور

السيد المسيح والسيدة مريم العذراء والقديسين ، ويحيطونها بهالة من التقديس والاجلال،بل وصلت الى مرحلة أنهم كانوا يسجدون ويركعون لها ويرتلون الأناشيد الدينية ، مما ساعد على تفشى الجهل والتأخر واختلاط التعاليم الدينية بالأوهام والأساطير(١) .

وقد تصدى كثير من الباحثين الغربيين لهذه الحركة فرأى بعضهم أن ليو الثالث تأثر فى الحركة اللاأيقونية بالديانة الاسلامية التى جاورت حدود بلاده ، ومما يؤكد هذا الرأى المؤرخ حنا ميتندورف John, Meytndarff. الذى يرى أن سقوط الولايات البيزنطية فى أيدى المسلمين سهل الاتصال الثقافى والروحى بين العالمين الاسلامى والمسيحى ، حتى أن الأباطرة الذين نشأوا فى الولايات الشرقية حاولوا تنقية المسيحيين من الشوائب ، وتأثروا كثيرا بتعاليم الاسلام(٢) .

لكن المؤرخ جوزيف كاب لا يرجع السبب الى ذلك مطلقا لأنه يرى أن هناك اختلافا فى نظره بين الاسلام والمسيحية ، واعتبر أن الحركة اللاأيقوننية ما هى الا حركة معارضة أو حركة عقلية فهى معارضة ضد الاعتقادات الباطلة ، وضد تكدس الثروات فى الكنيسة وتدخل رجال الأديرة فى أمور الكنيسة(٣) .

ورأى حنا ميتندروف رأيا آخر وهو أن التراث اليونانى الهلينى فى الشرق كان له تأثيرا كبيرا فى نظره لظهور الأيقونية حيث أن المشرق اليونانى كان له تأثيرا وثنيا ، لذلك فان المونوفزتيه ظهرت فى الشرق ، وفى رأيه أنها هرطقة ، وليست اللاأيقونية الا ضربا من ضروب الوثنية(٤)

تصدى الامبراطور ليو الثالث لهذه الحركة بكل ما أوتى من قوة ؛

---

(1) Oman «The Byzantine Empire» p.p. 189-190.
(2) John. Meytndarff. «Byzantine Theology» p.p. 42 — 43.
(3) Joseph. Mc. Cape «The empreses of Constantinople » .
(4) Jhon Meytndarff, «op. cit.» p. 85.

فأصدر سنة ٧٢٦ مرسوما يقضى بتحريم عبادة الأيقونات ، وأمر بازالة جميع التماثيل والصور الدينية من الكنائس والأديرة ، وبدأ رجال الامبراطور فعلا فى ازالة الصليب الكبير المقام فوق بوابة القصر الامبراطورى فى القسطنطينية الأمر الذى أثار عامة الناس ، لكن الامبراطور أخضع ثورتهم فى سهولة[٥] •

وقد تعرض الناس لكثير من أنواع التعذيب خاصة رجال الأديرة حتى أن بعض الناس كانوا يظنون أن هذه الحركة قامت للقضاء على الحركة الديرية • وقد قاوم الرهبان بشجاعة فائقة وعناد شديد « من أجل الحق والعدل » لكن بعضهم استسلم ، وقليل منهم تمكن من الفرار الى ايطاليا ، حتى أن بعض المعاصرين قد غالوا فى وصف القسطنطينية بأنها قد خلت نهائيا من الرهبان والديريين ، حتى أن ايطاليا استقبلت منهم فى عهد قنسطنطين الخامس وحده ما يقرب من خمسين ألفا[٦] •

ولعل ما يهمنا فى أمر هذا النزاع هو مدى تأثير هذه السياسة على علاقة الدولة البيزنطية بكل من البابوية ومملكة الفرنجة •

المعروف أن البابوية فى روما كانت تناصر عبادة الأيقونات ، وكانت تنظر الى الشرق دائما على أنه منبع الهراطقة والحركات الهدامة، وشعروا أن الأسرة الأيسورية تأثرت بالتعاليم الاسلامية واليهودية التى تناهض مثل هذه الظواهر[٧] لذلك وقف البابا جريجورى الثانى موقفا عنيدا ومتشددا من الامبراطور ليو ، واعتبره خارجا عن الدين ، وحاول ليو مراسلة البابا دون جدوى لأن البابا جريجورى لم يقبل

---

(٥) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ص ١١٨ •

(6) Diehl «History of the Byzantine empiré p. 60.

(7) Vasiliev «op. cit.» p. 312.
Ostrogorsky «op. cit.» p. 142.

تدخل الأباطرة فى شئون العقيدة ، خاصة بعد ما كتبه اليه الامبراطور ليو الثالث بأنه امبراطور وقس ، وان من حقه الشرعى أن يعتنق ما يراه من آراء دينية تتفق مع العقيدة المسيحية الخالصة ، ولعل هذه الفكره قد ورثها ليو عن الأباطرة السابقين أمثال جستنان والذين رأوا ضرورة سيطرة الامبراطور على الناحية الدينية ، وهو ما يعبر عنه بالقيصرية البابوية Caesaro - Papism .

لم يعبأ البابا بجميع هذه الآراء ، وعد ليو الثالث خارجا عن الدين ، وحركته هذه ما هى الا هرطقة دينية ، وبعث اليه بقوله « أن الغرب اللاتنى بات يلتف حول خليفة بطرس الرسول ، وان دول الغرب وضعت آمالها عليه ، ولئن جرؤ الامبراطور على أن يقدم على تحطيم أيقونات القديس بطرس كما ذكر فى رسالة له ، فان غرب أوربا سوف تهب قاطبة للانتقام منه ، وقد بين البابا للامبراطور البيزنطى أنه لا سلطان له على غرب أوربا المسيحى ، وبأنه عاجز عن الاقتراب من مدينة روما »[٩] .

ورث البابا جريجورى الثالث ٧٣١ — ٧٤١ م الذى خلف جريجورى الثانى على العرش البابوى نفس المشكلة اللاأيقونية ، بل اشتد فى موقفه مع الامبراطور ليو الى حد أن عقد مجمعا دينيا فى روما سنة ٧٣١ أصدر فيه اللعنة والحرمان الكنسى على الامبراطور ، واعتبر اللاأيقونين هراطقة خارجين عن طاعة الكنيسة ، ولا بد من طردهم من رحمتها[١٠] ، خاصة وان الامبراطور البيزنطى أصر على عقد مجمع دينى آخر سنة ٧٣٠ قرر فيه تحريم الصور المقدسة ومعاقبة المخالفين خاصة البطريق جرمانوس الذى رفض توقيع القرار فعزل من منصبه وحل محله البطريق أنستاسيوس . فأصبح لقرار سنة ٧٣٠ وضع آخر اذ لم

---

(8) Marian Wengel «The Finding out about the Byzantınes». p. 112.

(٩) اسحق عبيد « روما وبيزنطة » ص ٥٠ .

(10) Marian. Wenzel. «op. cit.» p. 112.
Cam. Med. Hist. «Vol. 4. p.p. 10-12.

يوقع قط من قبل الامبراطور ولكن اكتسب شرعية بتوقيـــع البطريق الكنسى عليه(١١) .

بدأت الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا تتعرض للانهيار نتيجة لهذه السياسة الدينية ؛ فتحررت وسط ايطاليا من السلطة البيزنطية وأصبحت تحكم كلية من قبل البابوية والسلطة الغربية ، بينما ظل جنوب ايطاليا تحت السيطرة البيزنطية(١٢) .

وكاجراء مضاد قام ليو الثالث بمصادرة الضريبة البابوية المسماة بوقف القديس بطرس والتى كانت تفرض على كنائس كالابريا وصقلية وكانت تحصل سنويا ويبلغ مقدارها ما يوازى ثلاثمائة وخمسين أوقية من الذهب .

وفى العام التالى قام بتحويل عدد كبير من الأبروشيات التابعة للكنيسة الرومانية الى تبعيه الكنيسة الشرقية ، وهذه الأبروشـــيات ليست فى كالابريا وصقلية فقط لكنها شملت معظم المنطقة التى كانت تتبع والى الليريا . وهذه المنطقة كانت تضم شبه جزيرة البلقان تقريبا ما بين دلماشيا وتراقيا والدانوب فى الجنوب وكريت وضمت كذلك جميع مناطق اليونان القديمة مثل سالونيكا وأثينا وكورنثه . وكان هذا ايذانا وبداية لعملية انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية كلية(١٣) وبذلك لم يعد سلطان الامبراطور على هذه المناطق سياسيا ودينيا فقط بل أصبح عسكريا واقتصاديا ، فقد كان للامبراطور القدرة على اخضاع البطريرك الدينى لسلطانه السياسى(١٤) .

خلف الامبراطور ليو الثالث على العرش البيزنطى ابنه قنسطنطين

---

(11) Vasiliev, pp. 316 — 317.
(12) Vasiliev. ibid. p. 317.
(13) Romilly Jenkins «Byzantium the imperial centuries». p.p. 66-76.
(14) Thompson «op. cit.» Vol. I, p.p. 144 — 145.

الخامس كوبرنيموس ٧٤١ — ٧٧٥ م . وسار قنسطنطين على نهج أبيه في السياسة اللاأيقونية ، بل انه تشدد فى هذا الموضوع بصورة كبيرة فلم يحرم عبادة الأيقونات فقط ، بل حرم أيضا عبادة السيدة مريم والقديسين ، وقال بأن الدعوات التى تقدم لهم لا قيمة لها ، وعاقب كل من رجا تدخلهم وشفاعاتهم[١٥] .

وقد قام كوبروينموس بحركات اعدام لعدد كبير من الرهبان الديريين وتصدى لثورات كبيرة قام بها صهره أرتافادوس Artavadus من أجل اعادة الأيقونات المقدسة . وقد نجح أرتا فادوس فى حمل قسطنطين على مغادرة العاصمة ، وحل أرتافادوس محله فى حكم الامبراطورية وتمكن فى خلال العام الذى حكم فيه أن يعيد عبادة الصور مرة أخرى ، واستطاع قسطنطين الخامس أن يسترد عرشه مرة أخرى وقمع الثورة بعنف وأطاح بقائدها أرتافادوس[١٦] .

اضطر قسطنطين الى عقد مجمع دينى آخر سنة ٧٥٤ ليثبت فيه العقيدة المسيحية الصحيحة وهى نبذ عبادة الصور ، وجعل مقر المجمع قصر هيريا على الشاطىء الاسيوى المطل على البسفور فى مواجهة القسطنطينية .

حضر المجمع ما يقرب من ثلاثمائة أسقف ولم يكن بينهم أحدا من البطاركة وذلك لأنهم جميعا هجروا القسطنطينية ، ورفضت الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس المشاركة فى هذا المجمع ، حتى المندوب البابوى رفض الحضور[١٧] وقرر المجتمعون أن كل من يعبد الأيقونات سواء أكان من الرهبان أو من العلمانيين سيعاقب طبقا للقوانين الامبراطورية كخارج على أوامر الاله ، وكعدو لعقيدة الآباء الأول للكنيسة ، وقرروا أن يعامل

---

(15) Baynes «op. cit.» p. 232.
(16) Vasiliev «op. cit». p. 318.
(17) Ibid.

عباد الأيقونات على أنهم هراطقة وثوار على ناموس الكنيسة وبذلك أصبح للامبراطور قنسطنطين سلطانا دينيا على البلاد مما أثار البابوية وفتح السبيل أمامها للاتجاه ناحية الفرنجة(١٨) •

وقد كان للأحداث التى جرت فى الشرق أثرها على الممتلكات البيزنطية جنوب ايطاليا ، ولكن من الواضح أن هذه المنطقة كانت بعيدة عن الاضطرابات الدينية(١٩) بل ان الظروف السياسية أدت الى انهيار النفوذ البيزنطى هناك ، فانهار معه ما يرتبط بالامبراطورية الرومانية من فكرة العالمية « أى امبراطورية متحدة » فازداد التوتر بين روما والقسطنطينية ، فالمعروف أن البابوية كانت تدرك أهمية مساعدة الدولة البيزنطية لها فى مقاومة الضغط اللومباردى — كما ذكرنا — ولذا رأت أن من السياسة السليمة أن تغفل ما يقع بين بيزنطة وروما من اختلافات دينية ، وأن تحافظ على ولائها وطاعتها للامبراطور البيزنطى(٢٠) •

رأى البابا ستيفن الثانى ٧٥٢ — ٧٥٣ ان ما يبذله الفرنجة من الحماية للبابوية ضد اللومبارديين لأقوى أثرا ، وأكثر قبولا من حماية البيزنطيين، ولذا التقى البابا ستيفن بالملك بيبين القصير كما ذكرنا واتفق معه على المساعدة الحربية ضد اللومبارديين وهو ما عرف فى التاريخ باسم « هبة بيبين »(٢١) •

ولعل هذه الظروف ساعدت على زيادة الهوة بين القسطنطينية وروما فقد حاول الامبراطور قنسطنطين الخامس أن يفسد التحالف بين البابوية وملك الفرنج لتعلو هيبة الامبراطورية البيزنطية فوق العالم المسيحى ؛ ولخوفه المستمر من صعود نجم ملك الفرنجة • لذلك بعث

---

(18) M. Hussey. «The Byzantine, World.» p. 30.
(19) Vasiliev. Ibid. p. 321.
(٢٠) ديفز « شارلمان » ص، ٤٧ — ٤٨ •
(21) Diehl «History of the Byzantine Empire» p. 61.

قنسطنطين الخامس سفراء الى الملك بيين بعــد أن انتصر بيين على اللومبارديين ، وعقد معهم صلحا يقضى بأن يدفعوا جزية لملك الفرنجة ، وأن يعيدوا للبابوية أملاكها ، عندئذ تقدم سفراء قنسطنطين الخــامس مطالبين باعادة رافنا للامبراطورية ، لكن بيين رفض مطلبهم وأخبرهم بأنه لم يدخل الحرب لحساب أحد ، وانما حمل السيف لخلاص روحه ، ولارضاء القديس بطرس ومن ثم فانه سيهب الأراضى التى وضــعت فى يده لهذا القديس ، أما الامبراطور البيزنطى — فى رأى بيين — فانه لا يستحق املاكا فى ايطاليا بسبب عجزه عن الدفاع عن البابا من ناحية ولأنه مهرطق من الناحية الأخرى •[٢٢]

ولم تقف جهود قنسطنطين عند هذا الحد بل تجاوز ذلك الى أنه أرسل مع هؤلاء السفراء مشروعا لربط مملكة الفرنجــة مــع الــدولة البيزنطية وذلك لافساد التحالف مع البابوية ، ويقضى هــذا المشروع بعرض رغبة الامبراطور قنسطنطين الخامس فى تزويج ابنة ليو الرابع الى الأميرة جيزلا Gisla ابنة بيين • ولكن هذا المشروع قوبل كسابقه بالرفض لتمسك بيين بموقفه مع البابوية[٢٣] •

وبذلك نرى أن العلاقة بين الدولة البيزنطية ومملكة الفرنجة بدأت تمر بمرحلة تحدى صريح فرأى البيزنطيون فى ملك الفرنجة عدوا من نوع جديد ، يريد أن يفرض نفوذه على البابوية أو يؤكد لنفسه سلطانا يستطيع من خلاله أن يحقق أحلاما وأطماعا لم يتحدد مداها حتى هذه الفتــرة •

رأى بيين بعد دراسة مستفيضة ألا يسفر عن عداءه للامبراطور بصورة قاطعة ، ولم يفصح عنه خططه الذى يسير عليه وهو قطــع

---

(٢٢) اسحق عبيد « الامبراطورية الرومانية » ص ٢٠٣ .

(23) Pirenne «op. cit. p. 227.

العلاقة نهائيا بين البابوية والامبراطورية البيزنطية ليفسح لنفسه طريقا فرأى تجنب الشقاق بينه وبين قنسطنطين الخامس حتى لا يشك فيه .

ومن ناحية أخرى كان يحرض البابوية ضد الامبراطورية البيزنطية، ويجسد لها اعتداءات الأباطرة البيزنطيين على ممتلكاتها فى ايطاليا ، ويصورهم على أنهم هراطقة شرقيين ، فبذلك أستطاع أن يحطم السلسلة الواهية التى كانت تربط الدولة البيزنطية بالغرب ، فاستهل بذلك الانقسام الذى تحتم على ابنه أن يتمه ، وما اتخذه بيبن وشارل من بعده من وسيلة لاتمام ذلك العمل انما جاء من قبل البابوية[٢٤] .

توفى الامبراطور قنسطنطين الخامس سنة ٧٧٥ م تاركا دولته فى ظروف سياسية لا تحسد عليها ، فقد ساعد بسياسته اللاأيقونية المتطرفة التى نشرت الرعب بين الناس الى زيادة العداء بين الدولة البيزنطية والبابوية وارتفاع نجم ملك الفرنجة الذى ظهر على أنه حامى البابوية ومنقذها فكان لا بد على من يتولى العرش من بعده أن يعمل اما على التوفيق بين الدولة البيزنطية والبابوية أو التخلى عن السياسة اللاأيقونية .

ورغم ذلك فكان الجيش الذى تركه ليحمى دولته جيشا قويا والاقتصاد الذى سار عليه كان ثابتا وقويا الى جانب أنه ترك ذرية من الأولاد يبلغ عددهم ستة أكبرهم ليو الذى ولد من أميرة خزرية لذلك نعت باسم « ليو الخزرى » ونصب امبراطورا بعد وفاة أبيه تحت اسم « ليو الرابع » .

لم يتمتع ليو بشىء من قدرات أبيه الشخصية أو الجسمية ، فقد كان مصابا بمرض لم يمهله على حكم البلاد أكثر من خمس سنوات[٢٥] .

---

(٢٤) ديفز « شارلمان » ص ٤٨ .

(25) Romelly Jenkins «Byzantium the imperial centuries» p. 90

تزوج ليو الرابع فى ديسمبر سنة ٧٦٩ « وقبل وفاة أبيه » من فتاة من عائلة نبيلة اثينية تدعى ايرين • وبدأ هذا الزواج شيئا غريبا وتصرفا تعجب الناس كيف يقدم عليه قنسطنطين الخامس ، فكيف يختار لابنه فتاة مثل ايرين ؟ عرف عنها حبها وشغفها بعبادة الصور المقدسة وعدائها للاأيقونية ، حتى أنهـا كانت على درجة من الجرأة لاعـلان معتقداتها(٢٦) •

اعتقد قنسطنطين الخامس أن زواج ابنه ليو من هـذه الفتـاة سيجلب الخير على الامبراطورية خاصة وان اسمها « ايرين » ومعناه السلام ، لكن الحقيقة انهـا كانت مصـدر الشـقاء والوبـال عـلى الامبراطورية •

كان ليو الرابع أقل اضطهادا للديرين والرهبان ، فأعاد لهم بعض نفوذهم ، وأعادهم الى أديرتهم ، كما أعاد كثير من الصور المقدسة خاصة صور السيدة مريم العذراء حتى عرف بين معاصريه بلقب « صديق أم الاله »(٢٧) •

ويعتبر هذا التغيير فى السياسة الدينية من اللاأيقونية الى الأيقونية بسبب تأثير زوجته ايرين ونفوذ البطريرك الجديد نيكتاس •

لم يمكث ليو فترة فى هذه السياسة التى ما لبث أن عاد بعدها الى اللاأيقونية سياسة أسرته التقليدية، فأمر سنة ٧٨٠م بحبس وجلد طائفة من كبار الموظفين الذين أصروا على عبادة الصور وتمجيدها على أن هذه العقوبة لم تكن فى شدة وعنف ما اشتهر به قنسطنطين الخـامس فى معاقبة خصومه ، أضف الى ذلك أن هذه كانت الحالة الوحيدة المعروفة

---

(26) Ibid.
(27) Ibid p. 91.

من اضطهاد عباد الصور زمن ليو الرابع • لكن ربما لو طال به الأجل لازدادت الاضطهادات(٢٨) •

توفى ليو الرابع سنة ٧٨٠ م بعد خمس سنوات فى حكم الامبراطورية ، وقد أجمع المؤرخون على أن الفترة التى حكمها ليو اتسمت بعدم وضوح خطته السياسية وتخبطها • لكنه تمكن قبيل وفاته من الحصول على وعد من الجيش والسناتو على تنصيب ابنه الطفل قنسطنطين ليخلفه على الحكم(٢٩) •

قنسطنطين السادس وايرين

أجمع المؤرخون على أن فترة حكم الامبراطور البيزنطى قنسطنطين السادس ، وأمه الامبراطورة ايرين تعتبر من أهم فترات تاريخ العلاقات السياسية بين الشرق والغرب من ناحية وبين البابوية ودولة الفرنجة من ناحية أخرى •

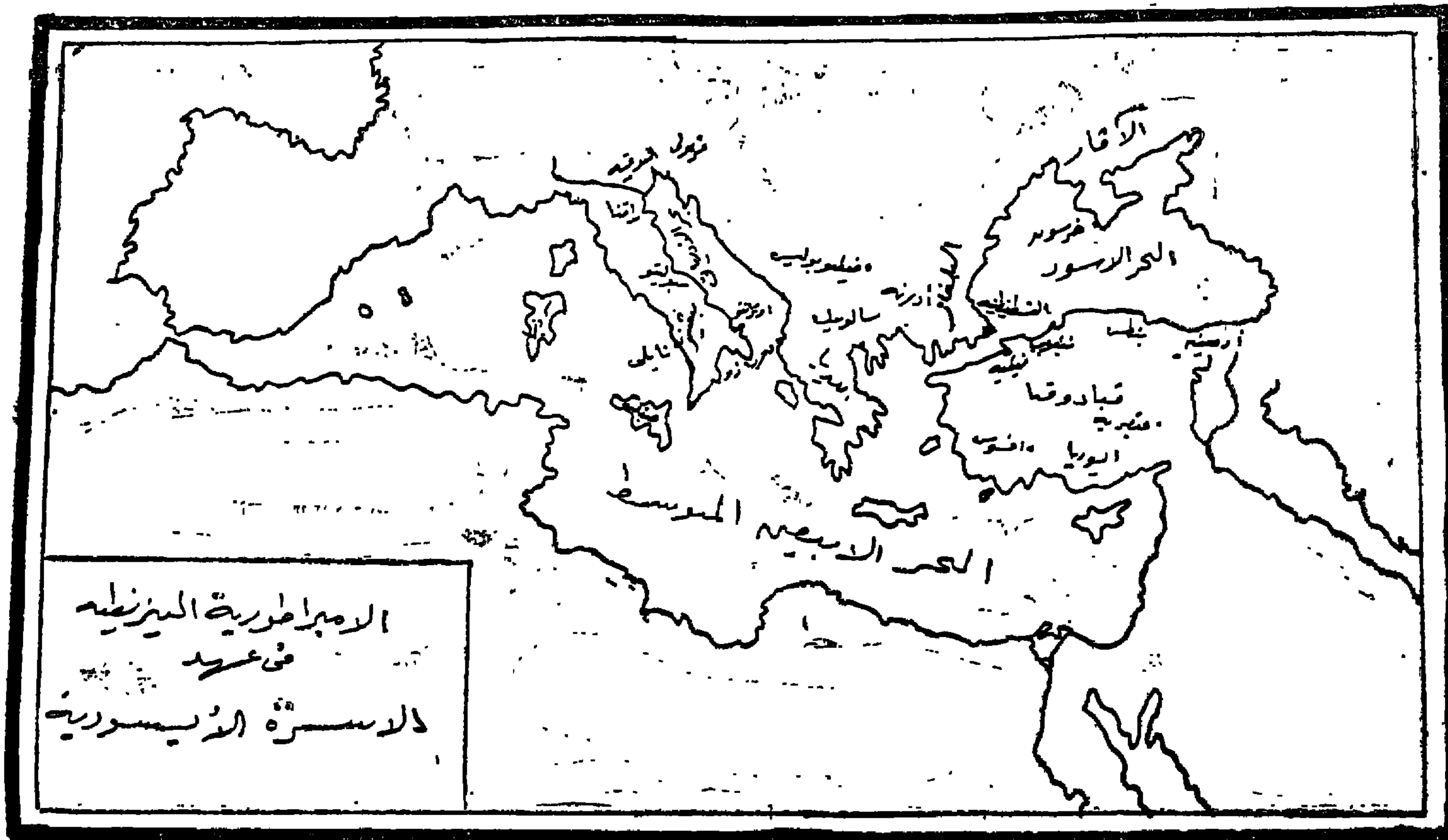
فقد عمل الامبراطور ليو الرابع على أن يخلفه ابنه الطفل قنسطنطين فى حكم الامبراطورية ، لذلك كان يظهر دائما بجانبه فى كثير من المراسم الهامة ، وعمل على تلقينه منذ صغره بعض فنون السياسة ، وقرر ابعاد اخوته الأربعة عن التفكير فى تقلد مهام الامبراطورية حيث كانوا أخوة غير أشقاء من أم تدعى **Eudocia** كان قد تزوجها قنسطنطين الخامس ، أما والدة ليو فهى ماريا ابنة ملك الخزر كما ذكرنا من قبل(٣٠) •

---

(28) Theophanes «op. cit.» p. 453.

(29) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 91.

(30) Joseph. Mc. Cape «The Empresses of Constantinople» p. 87.


الامبراطورية البيزنطية
في عهد
الاسرة الايسورية
البحر الابيض المتوسط
البحر الاسود
الآفار
خرسون
فيليبوبوليس
ادرنه
سالونيك
قبادوقيا
قيصرية
اسوريا
نابلي

ظل ليو الرابع قلقا طوال حياته على مصير ابنه قنسطنطين خائفا من أي عمل مضاد يمكن أن يدبر ضده من أعمامه الراغبين فى العرش ، وقد حصل ليو على وعد من رجاله ورجال القصر على أن يعملوا قصارى جهدهم لحماية الابن قنسطنطين ، وقرروا ضرورة اشراك الابن مع الأب رسميا فى الحكم سنة ٧٧٦ م •

قام ليو بتسجيل القسم الذى أقسمه رجال المدينة ورجال القصر على حماية ابنه ، والوقوف بجانبه ، وقام بتعليقه على مذبح الكنيسة الكبرى فى القسطنطينية •

وترجع قصة هذا القسم الى اليوم الذى جمع فيه ليو الرابع جميع الضباط ورجال السناتو ، والعاملين بالدولة ، وطالب منهم جميعا أن يقسموا على الصليب المقدس على ألا يخضعوا لسلطة غير سلطة قنسطنطين وألا ينصبوا على الحكم أحدا غيره • وبعد أن أقسم الجميل سجل هذا القسم كتابة ، وعلق على مذبح الكنيسة وقام على حراسته بطريرك القسطنطينية(٣١) •

وفى يوم الأحد التالى ليوم الجمعة الذى تم فيه القسم ، وكان ذلك مصادفا عيد الفصح توج قنسطنطين فى الصباح الباكر فى قصر هيبودروم Hippodrome ، وبعدها جهزوا له موكبا حافلا يتقدمه النبلاء والقياصرة ، وتوجهوا الى الكنيسة ، وتبع هذا الموكب مسيرة تتقدمها امه ايرين Iren التى سارت بتواضع وأدب جم يحيط بها مجموعة كبيرة من الوصيفات والخصيان والنساء •

وبعد مرور اثنى عشر شهرا اجتمعت العائلة المالكة وجميع رجال الطبقة العليا فى قاعة جورجيوس Gorgeous فى قصر ماجنورا Magnoura واحتفلوا بتنصيب قنسطنطين مرة أخرى • وفى هذه

(31) Ibid.

الليلة اكتشف ليو خيانة من جانب القيصر نقفور بمساعدة مجموعة من الضباط والخصيان، فأعلن ليو على الحاضرين تفاصيل المؤامرة، وقرر طرد نقفور من الخدمة، وانزاله الى طبقة الرهبان ونفيه خارج البلاد .

توفى ليو الرابع ، وآلت مقاليد الأمور وفقا لهذه الوصية الى ابنه قنسطنطين السادس ، وكان فى العاشرة من عمره ، لذلك آلت الوصاية عليه الى أمه ايرين .

وكانت ايرين آثينية الأصل مولعة بالأيقونات كما ذكرنا ، لهذا لاحت من سياستها ، الرغبة فى السيطرة على ابنها وتحويل السياسة الدينية فى الامبراطورية من الجانب اللاأيقونى الى الجانب الأيقونى ، كما أنها اتصفت بالطموح فعملت منذ تولية ابنها العرش على الاستئثار بالحكم والاستحواذ على السلطة لذا كانت لا تسمح بوجود أى عائق أو عقبة تقف فى سبيل تحقيق أغراضها .

كثرت أقوال المؤرخين حول مدى شغف ايرين بالأيقونات المقدسة وانها كانت تعتنقها سرا طوال حياة زوجها ، وتخفى عنه اتصالها برجال الدولة المؤيدين لهذه السياسة ، بل زادوا على ذلك تأكيدهم على أن ليو اكتشف قبل وفاته مؤامرة دبرت لهذا الغرض ، كما اكتشف أيقونات تحت وسادته(٣٣) .

انتظرت ايرين فترة عقب وفاة زوجها لترى مدى تأثير السياسة الجديدة التى ستفرضها على الامبراطورية ، خاصة على قوات الجيش لأنها قامت بطرد قائده الموالى للاأيقونية ، وأحلت محله آخر موالى للأيقونية .

عندئذ اشتعلت ثورة كبرى فى البلاد زعم القائمون بها أن المحرض

---

(32) Ibid. p. 82.
(33) I bid. p. 88.

عليها هم أعمام قنسطنطين ، لكن الحقيقة أنهم لم يعلموا عنها شيئا ، وتمكنت ايرين من السيطرة على الموقف ، وقبض رجالها على الأعمام وحولوهم الى سلك الرهبنة — ولم تنهى هذه الحبركة ثورات الجند المستمرة على سياسة ايرين(٣٤) .

وما يرويه لنا المؤرخ جوزيف فى كتابه الذى يحكى قصة « امبراطورات القسطنطينية » عن موقف ايرين من ثورة أولاد Eudicia أن سبب قيامهم بها رفضهم تنصيب امرأة وطفلا على عرش البلاد ، وقد شارك الأبناء اثنان من القياصرة ، واثنان من كبار النبلاء وبعض الضباط وجلهم اما جلدوا أو حلقت رءوسهم أو نفوا خارج البلاد .

ومن الثورات الأخرى التى يرويها لنا المؤرخ جوزيف الثورة التى قام بها حاكم صقلية اليبديوس Elipidius فقد أمرت ايرين الموظفين المحليين أن يرسلوه اليها مقيدا بالسلاسل ، ولما رفض هؤلاء تنفيذ قرارها أرسلت أسطولا الى صقلية قام بطرد حاكمها من البلاد ليخمد الثورة ، ويسترسل جوزيف قائلا : « ان الامبراطورة التى وصفها المؤرخون المتعصبين لها بأنها « أتقى التقيات » فقدت انسانيتها وأخلاقها عندما قامت بجلد زوجة الليبيديوس وأطفاله فطردت المرأة البريئة وحلقت لها شعرها ونفتها الى الدير لتدخل سلك الراهبات(٣٥) .

ايرين وعودة الى الأيقونات

لم ترغب ايرين فى تبديل سياستها الدينية مرة واحدة ، بل استمرت خلال السنوات الثلاث الأولى من حكمها تلوح بالسياسة الجديدة دون أن تعلن ذلك صراحة ، وذلك نتيجة لانشغال الامبراطورية فى هذه الفترة بالقضاء على الثورات الداخلية التى أشرنا اليها ، إلى جانب

---

(34) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 92.

(35) Joseph. «op. cit.» p. 90.

الحروب الخارجية مع السلاف الذين يسكنون اليونان ، كما رأت ايرين أن اللاأيقونية قد انتشرت بين عدد كبير من رجال الكنيسة وموظفى الحكومة سواء أكان ذلك عن اقتناع بها أم لاتخاذ اللاأيقونية وسيلة لتحقيق أغراضهم ، يضاف الى ذلك أن جانبا كبيرا من رجال الجيش اشتد تعلقهم بهذا المذهب ، بفضل اخلاصهم للامبراطور قنسطنطين الخامس[٣٦] .

ففى العام الرابع من وصاية ايرين على الحكم بدأت فى تنفيذ سياسة التسامح الدينى مع عباد الأيقونات بشكل لم يسبق منذ بداية سياسة مناهضة تلك العبادة ، وأخذ الرهبان يظهرون من جديد فى العاصمة ، وينشرون آرائهم ومبادئهم ، الأمر الذى كان محرما عليهم لسنوات عديدة مضت .

وقد سنحت الفرصة لايرين عام ٧٨٤ بوفاة البطريرك اللاأيقونى Paul الذى سبق أن عينه ليو الرابع سنة ٧٨٠ م ، وقد كان من رجال الكنيسة المخلصين ، فمهد لها ذلك أن تعين مكانه رجلا من رجال الكنيسة المشهورين بالأيقونية ، والذين سيعملون على نشر مبادئها مرة أخرى ويدعى تاراسيوس ولم يكن من رجال الكنيسة بل من العلمانيين الذين عملوا فى سلك الادارة المدنية . ويعلق المؤرخ جونكينز عليه بقوله « ان تاراسيورس كان نبيل الأصل ، وله قدرات دبلوماسية لم تتوافر لغيره ، وكانت الدولة فى حاجة اليها بمعنى آخر فان تاراسيوس كان جديرا بهذا المنصب[٣٧] .

لم يصادف رأس الأستاذ جونيكتز هوى فى نفس كثير من مؤرخى هذه الفترة الذين شكلت آرائهم اجماعا على سوء سياسة تاراسيوس ، وعدائه الشديد للاأيقونية .

---

(36) Vasiliev. «op. cit.» p. 322.
(37) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 94.

ولعل أهم ما قام به تاراسيوس عقب توليه رغبته فى عقد مجمع مسكونى جديد لمناهضة القرارات التى دعى اليها المجمع المسكونى الذى عقد سنة ٧٥٤ م ، وأمر باللاأيقونية •

ومن أهم النتائج التى لاحت فى المجال السياسى للامبراطورية الشرقية اتفاق تاراسيوس مع ايرين على توجيه الدعوة للبابا هادريان الأول للحضور ورئاسة المجمع ، ولعل هذا الموقف يوضح لنا معالم السياسة التى خططت لها ايرين مع البطريرك ، وهى ضرورة التحالف مع البابوية حتى يعيدوا للدولة البيزنطية الرباط الدينى القديم •

وصلت الدعوة الى البابا فى أغسطس سنة ٧٨٥ م ورد عليها فى أكتوبر بالموافقة على ارسال مندوب بابوى لحضور المجمع(٣٨) •

انعقد المجمع المسكونى فى كنيسة الرسل بالقسطنطينية فى ٣١ يوليه سنة ٧٨٦ م الذى حضره عدد كبير يقدر بحوالى ٣٥٠ عضوا وممثلين عن بطاركة انطاكية والاسكندرية وبيت المقدس ، غير انه ما كاد المجمع يبدأ أعماله حتى وقع حادث لم يكن متوقعا ، فلم تقدر ايرين عداء الجيش ومعارضة بعض الأساقفة الشرقيين •

فقد اندفعت طائفة من جند الحرس بالعاصمة والموالين لعبادة الصور شاهرين سيوفهم داخل قاعة الاجتماع حتى أرغموا الحاضرين على الانصراف ، ولم تتمكن الامبراطورة من الهرب الى خارج مكان الاجتماع الا بصعوبة بالغة ، وأصبح عليها أن تبدأ محاولتها من جديد ، فعملت على أن تكسب الى جانبها بعض الجنود من الولايات التابعة لها كما وجدت ذريعة لنقل مكان المجمع من القسطنطينية الى مدينة نيقية ، وبدأ

---

(38) Ibid & Vasiliev «op. cit» p. 322.

الاجتماع فى سبتمبر سنة ٧٨٧ م ، وهو الذى يعرف بالمجمع المسكونى السابع بل والأخير فى تاريخ الكنيسة الشرقية[٣٩] .

حضر المجمع ما يقرب من ثلاثمائة من رجال الدين وقرر المجمع ضرورة العودة الى عبادة الصور المقدسة ، وكل من يخالف ذلك تقرر قطعه من الكنيسة ، وكذلك تقرر اعادة المخلفات المقدسة مواضعها بالكنائس التى جرى إنتزاعها منها وتقرر أيضا انكار ما وقع من تحويل الأديرة الى أغراض دنيوية كل الى سيرته الأولى ، وحرص المجمع على رفع المستوى الخلقى لرجال الدين بأن أنكر بيع وظائف الكنيسة وهو ما يعرف بالسيمونية ومنع قيام أديرة تضم الراهبات والرهبان معا[٤٠] .

على أن أهمية مجمع نيقيه لم ترجع الى اعادة عبادة الصور المقدسة فحسب بل الى أنه هيأ لأنصار هذه العبادة ما افتقروا اليه من نظام فى نضالهم من خصومهم أول الأمر ، اذ جمع كل ما جدث من المناقشات الدينية المؤيدة لعبادة الصور التى استخدمها أنصار هذه العقيدة فيما بعد ضد خصومهم[٤١] .

وطبقا لما أورده ثيوفانيس من قرارات المجمع ما نصه « أننا نحن المجتمعون نوضح بكل دقة وعناية ، بأننا سنعيد الأيقونات المقدسة مرة أخرى مثل ايقونات الصلبان ، وجميع الأيقونات المرسومة بالزيت والمحفورة من الأحجار والمواد الأخرى المشابهة والتى تتناسب مع مقام كنيسة الاله المقدسة ويسمح بالأيقونات أن توجد على الأوانى والملابس وعلى الجدران والألواح الخشبية فى المنازل والشوارع ، ويسمح

---

(39). Ostrogorsky «op. cit.» p.p. 158-159.
Vasiliev «op. cit.» p. 322
(40) Vasiliev. Ibid. p. 323.
(41) Ibid.

بجميع الصور التى تصور سيدنا يسوع المسيح ، وأمه أم الاله المقدسة وجميع الملائكة والقديسين المبجلين ، والغرض من ذلك أن من ينظر الى هذه الأيقونات والصور ويلاحظهـا يؤدى به ذلك الى تذكر صـاحبها ومحبته • ولا بد أن نقدم الاحترام للصور والأيقونات وان نركع لها — ليس لغرض العبادة ، لأننا لا نعبدها بل نعبد الاله ، ويجب أن نوقد لها الشموع ونحرق لها البخـور بنفس الطريقة المتبعة للصليب المقـدس وللكتاب المقدس ولجميع الأشياء المقدسة ويجب اتباع جميع العـادات الدينية التى اتبعها المسيحيون فى الأزمنة السالفة »[٤٢] •

نتائج مجمع نيقيه

من أهم النتائج التى حققها مجمع نيقيه اعادة العـلاقات مـع البابوية ، فقد أرسل البابا هادريان ، كما ذكرنا مندوبا بابويا لحضـور هذا المجمع الى جانب أنه اعترف بتسميته بالمجمع المسكونى ، فقد حقق هذا المجمع أغراض البابا فى ضرورة عودة الصور المقدسة مرة أخـرى بعد طول سنين من النضال مع الأسرة الأيسورية ، لذلك رأى البـابا فى ايرين ضالته الكبرى وباركها ، رغم أن الكنيسة الغربية كانت أقـل كثيرا فى استخدام الطقوس والصور المقدسة ، عما ألفه الشرق[٤٣] •

أما عن الآثار الهامة لمجمع نيقيه ، فمن الممكن أن نجملها فى آثار داخلية وآثار خارجية •

ا — الآثار الداخليـة :

حدث إنقسام داخل الكنيسة الشرقية بعد صدور قرار مجمـع نيقيه ، واتضح هذا الانقسـام جليا فى مستقبل الأيام • فكان الهدف الأساسى ، الذى يمحى أى هدف آخر لهذا المجمع المسكونى مواجهـة

---

(42) Theophanes «op. cit.» p.p. 458-463
(43) Lamb. «op. cit.» p. 167.

اللاأيقونية ، لكن بعد بدء الاجتماع ظهرت بوادر فى الأفق تنذر بوقوع خلافات فى الآراء .

بدأ الخلاف ، واحتدمت المشكلة نتيجة للأسئلة التى أثارها الأساقفة اللاأيقونيين الذين كانوا على استعداد للتخلى عن مبادئهم ، والانضمام الى الجماعة الأيقونية ، وكان الأسقف تاراسيوس متفهما ومن الممكن أن يعيدهم الى سلك الأيقونيين اذا ثبت حسن نيتهم ، أما الأسقف سافاس Savas فكان متأثرا بسوء نيتهم وبأنهم لن يفعلوا ذلك لكن تارسيوس قد نجح فى التوصل الى حل وسط يرضى الطائفتين ، ولم يفعل ذلك الا للضغوط التى تعرض لها من قبل اللاأيقونين .

والمشكلة الثانية التى أثارها المجمع كانت مشكلة المطارنة اللاأيقونيين الذين نسبت اليهم تهمة بيع وشراء الوظائف الدينية فى الكنيسة والمعروفة « بالسيمونية » فما كان من تاراسيوس الا أن غفر لهم هذا الذنب بعد أن تابوا عن أفعالهم وقدموا ما يثبت ذلك .

وبعد مرور ثمان سنوات أخرى ظهرت حركة معارضة من جانب رجال الدين حول موضوع زواج قنسطنطين السادس ، وهذا ما سنعرض له بعد ذلك فى قضية زواجه ، وكيفية تدخل أمه فى هذه الموضوعات(٤٤) .

فمن المعروف تاريخيا أن ليو الرابع توفى سنة ٧٨٠ تاركا ابنه قنسطنطين فى العاشرة وتحت وصاية أمه .

لذلك حاولت الأم فى هذه الفترة أن تظهر على المسرح السياسى وأن تثبت لدولتها مكانا فى العالم ، وأن تتصاهر مع القوة العظمى التى لاحت فى سماء السياسة فى هذه الفترة وهى قوة شارلمان الذى حقق فى هذه الفترة أكثر من انتصار فى الغرب ولمع اسمه وحطم قوى اللومبارديين . فأرادت ايرين عندما بلغ ابنها الثانية عشر من عمره وفى

(44) Romilly Jenkins «op. cit.» p. 97.

عام ٧٨٢ بالذات أن تعقد زواجا سياسيا بين ابنها قنسطنطين ، وابنة شارلمان روترود Rotrud (٤٥) .

راسلت ايرين شارلمان فى هذا الموضوع ، خاصة وان العلاقات بين الشرق والغرب فى هذه الآونة ستوضح موضوعات المناقشة فى المستقبل.

وقد اغتبط كل من شارلمان وايرين لهذا الموضوع الى درجة أن ايرين بعثت الى البلاط الفرنجى فى آخن كاتب العدل ايليسيوس Elissaus ليعلم الأميرة روترود اللغة اليونانية والآداب اليونانية ، والطقوس الدينية المعقدة فى القصر البيزنطى(٤٦) .

وبعد مرور أربع سنوات على هذه الاستعدادات أى فى عام ٧٨٦م أصبح قنسطنطين فى السادسة عشرة من عمره ، فأعاد شارلمان بنفسه اعلان موافقته على خطبة قنسطنطين لابنته(٤٧) .

وعندما همت ايرين بعقد مجمع نيقيه سنة ٧٨٧ م ، ورأت أن بداية انتصارها الدينى قد لاح فى الأفق بحضور المندوب البابوى ، فكرت فى الغاء مشروع زواج ابنها من ابنة شارلمان وذلك لخوفها من اتحاد قوة شارلمان مع ابنها الذى بلغ سن الرشد وأصبح من حقه أن يحكم ، ولم تكن عنده أى نوايا للتنازل عن الحكم .

فاذا ما تم زواجه من ابنة شارلمان فسيؤدى ذلك الى تقوية حزب ابنها على حسابها(٤٨) .

ويرى المؤرخ هودجكن Hodkin ان البابا هادريان لعب دورا فى هذا الموضوع ، فبينما كان يتظاهر بتشجيع ايرين فى جهودها لاعادة عبادة الصور ساورته المخاوف — كما ساورت أسلافه من قبل — من النتائج

---

(45) Pirenne «Mohamed and Charlemagne» p. 229.
(46) Harry Mauglais «op. cit.» p. 95.
(47) Romilly «op. cit.» p. 98.
(48) Mauglais «op. cit.» p. 96.

التى تترتب على التحالف بين بلاطى بيزنطة وآخن ، ولذا عمد الى اخطار شارلمان بما جرى من العلاقات بين ايرين والخليفة هارون الرشيد ، وأشار بالتفصيل الى ما يقوم به البيزنطيون من التآمر فى ايطاليا لا سيما بين الأمراء المقطعين من اللومبارديين فى الجنوب(٤٩) .

وفى سنة ٧٨٧ م أرسلت ايرين سفارة الى أريغيس دوق بنفينتو لتقلده خلعه البطركية على أنه من أتباع قنسطنطين السادس ، وبادر هادريان باخطار شارل بكل ما حدث ، غير أن أريغيس مات قبل قدوم السفارة ، وخلفه فى الحكم جريموالد فى أغسطس سنة ٧٨٧ م لذلك أبى شارلمان أن يزوج ابنته من قنسطنطين السادس(٥٠) .

أما عن مصير الفتاة روترود ابنة شارلمان فبعد فشل زواجها من قنسطنطين زوجها أبوها من فردريك كونت مين Count of Maine وانجبت ابنا سمته لويس الذى أصبح فيما بعد رئيسا لدير القديس Saint Denis (٥١) .

بدأت ايرين البحث عن زوجة جديدة لشارلمان تتفق مع مطامعها ورغباتها ، وتيسر لها ذلك ، فأرسلت الى رجل تقى من احدى قرى كبادوكيا فى آسيا الصغرى ، عرف بين الناس بسمعته الطيبة ، وكرم أخلاقه وتدينه ، وطلبت منه الموافقة على تزويج احدى بناته الثلاث وتدعى Maria of Amnia وتبلغ من العمر ثمانية عشر عاما لابنها قنسطنطين(٥٢) .

وكان نظام الزواج المعمول به فى البلاط البيزنطى فى هذه الفترة هو أن تصطف مجموعة كبيرة من أجمل فتيات العالم ليختار منها العريس

(49) Hodkin «op. cit.» p. 96.
(50) Bukeler «F.W.» Harun Al Rashid and Charles the Great» p. 16.
(51) Einhard «The life of Charlemagne» p. 47.
(52) Joseph. Mc. Cape «op. cit.» p. 92.

واحدة ، لكن هذا لم يكن الا اجراءا وتقليدا شكليا ، اذ المعـروف أن العروس تكون معروفة مسبقا ومتفق عليها ، وقد اقتبس البيزنطيون هذه العادة عن بلاط الخزر(٥٣) .

تمت اجراءات الزواج من هذه الفتاة البيزنطية فى نوفمبـر سنة ٧٨٨ م ، وكان قنسطنطين فى مثل عمر عروسه فى الثامنة عشر .

لم يعش العروسان فى محبة ووئام ، لخضوع قنسطنطين فى هذا الزواج لرغبة أمه ، فأراد قنسطنطين فى العام التالى أن يثبت شخصيته ويبعد نفوذ أمه عن دولته .

ففى عام ٧٩٠ م ، شـارك مجمـوعة من المتآمرين الرغبـة فى التخلص من ايرين ، بنفيها الى جزيرة صقلية ، فعلمت ايرين بالمؤامرة فى مهدها ، فقبضت على المتآمرين ، ومنهم ابنها وجلدتهم بالسياط ، وقامت بنفيهم الى جزيرة صقلية .

ولم يفلت قنسطنطين السادس من العقاب هو الآخر فقـد جلد وسجن وقتا طويلا داخل القصر ، وذهبت ايرين الى أبعد من هذا بأن فرضت على الجيش أن يقسم يمينا بعدم الاعتراف بابنها كامبـراطور طالما بقيت على قيد الحياة ، وأصبح بذلك اسم ايرين يفوق اسم ابنها ويوضع قبل اسمه فى المراسم الرسمية(٥٤) .

ولكن اذا كانت جميع الفرق قد أقسمت لها يمين الولاء ، فان فرق أرمينيا رفضت أن تكون السلطة فى يد امرأة ، وأن يستمدوا أوامرهم من امرأة ، لذلك أرسلت ايرين الخصى اليكسيوس ليغرى هـؤلاء أو يجبرهم على الطاعة ، ولكنهم تمكنوا من استمالة اليكسيوس الى جانبهم

---

(53) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 98.
(54) Joseph. Mc. Cape «op. cit.» p. 93.
Romelly Jenkins «op cit.» p. .
Ostrogorsky «op. cit.» p. 160.

وجعلوه قائدا عليهم ، حتى عمت الثورة بين جميع الفرق وتمكن الجيش من محاصرة القصر ، وأملوا شروطهم ، وقاموا بجلد ستاراكيوس ، وأبعدوه بالقوة الى أرمينيا ونفوا ايرين وعزلوها من سلطاتها ، الى قصر الاليو يثيريان Eleutherian الذى شيدته من قبل وملأته بالتحف والأموال لأى ظرف سياسى يحيق بها .

لذا تنازلت ايرين عن العرش فى ديسمبر سنة ٧٩٠ م وترك ستاراكيوس منصبه وتولى قنسطنطين السادس السلطة[٥٥] .

غير أن ما اشتهر به قنسطنطين من الضعف وما تعرض له من الهزيمة فى حرب البلغار سنة ٧٩٢ ، وازدياد نفوذ أنصار ايرين ، جعل قنسطنطين يوافق على توسلات أمه لعودتها للحكم ، لذا استسلم قنسطنطين لسلطتها حتى اعترف بها شريكة معه فى الحكم الامبراطورى ، مما أدى الى ثورة الفرق الأرمنية مرة أخرى واعترضوا على هذا العمل السياسى مما حدا بايرين الى أن تقبض على قائدهم الكسيوس — الذى كان موجودا فى هذه الفترة بالقسطنطينية ، وأودعوه السجن ، بل شجعت ابنها على أن يقوم بسمل عينيه[٥٦] .

فشلت ايرين بعد ذلك فى الحملة التى وجهت لحرب البلغار ، لذلك تحركت ضدها مؤامرة قادها الكسيوس ونقفور أعمام الامبراطور وهم أولاد يودوكيا Eudocia ، فأوحت الى قنسطنطين أن يقوم بسمل عينى أحدهم وقطع ألسنة الثلاثة الآخرين ، فأدى ذلك الى ثورة فى الرأى العام ضد قنسطنطين ، الى جانب أنها دفعته الى القيام بحملة ضد الجيوش الأرمينية ، وأن يقمع ثوراتهم بطريقة وحشية ، وكان غرضها من ذلك أن تلوث سمعته وأن تجعل جميع المكاسب مرتبطة باسمها فقط[٥٧] .

---

(55) Ibid. p. 160.
Joseph. op cit.» p. 94.

(56) Joseph. Ibid. p. 94.

(57) Ibid. p. 93.

وبقى لنا الآن أن نعرف مصير الزوجة التى تزوجها قنسطنطين رغم أنفه ، والتى قدمت من قريتها الى القصر الملكى ، فرغم الكراهية أنجبت ماريا ابنتان توفت احداهن وبقت الأخرى التى عاشت فى القصر الامبراطورى وقدر لها هى الأخرى أن تحمل لقب امبراطورة بعد مرور ثلاثين عاما عندما تزوجت من ميخائيل الثانى (٥٨) .

بدأت الامبراطورة الأم تبحث عن وسيلة لتؤثر بها على وضع ابنها السياسى فاستغلت سوء العلاقة التى تربط بينه وبين زوجته ماريا الأمنية Maria of Amnia لتدفع اليه فى طريقه باحدى وصيفاتها التى اشتهرت بالجمال وبسوء الخلق ، حتى يقع فى غرامها ، ويطلق زوجته فينقلب عليه رجال الدين ورجال الدولة .

وفعلا نجحت ايرين فى مخططها ووقع فى حب الوصيفة ثيودوت Theodote وبدأت أمه تغريه على خطبتها وطلاق ماريا . وفعلا نفذ ذلك وفى ٣ يناير سنة ٧٩٥ م طلق ماريا ، فقامت بارتداء الملابس السوداء وحلقت شعرها ، واتجهت الى سلك الرهبنة(٥٩) .

وقد كان لهذا الحدث دوى كبير فى الأوساط الدينية التى كانت تنظر الى الزواج على أنه رباط أبدى يحرم الطلاق ، وأعلن القساوسة معارضتهم ورأس المعارضة الأب Plato رئيس دير سكاديون Saccudion فى بثيينيا Bithynia ، وقامت الامبراطورة الأم بتشجيع المعارضة ضد ابنها(٦٠) .

وعلى أثر تمادى رجال الدين فى المعارضة ، أمر بالقبض على رهبان الدير وعذبهم ونفاهم مما أثار الرأى العام ضده .

تزوج قنسطنطين من ثيودوت وعاش معها . وفى سبتمبر سنة ٧٩٦

---

(58) Romelly Jenknis «op. cit.» p. 95.
(59) Joseph. !op. cit.» p. 95.
(60) Joseph. Ibid. p. 96.
Ostrogorsky. «op. cit.» p. 160.

توجهت الأم والابن الى الحمامات الساخنة فى بروسا Prusa وتركوا ثيودوت فى قصر بورفيرا Porphyra • وبعد وصولهم الى الحمامات أرسلت لهم ثيودوت تخبرهم بأنها وضعت وأنجبت مولودا ذكرا •

لذلك أسرع قنسطنطين الى المدينة ، وترك أمه ، فانتهزت هذه الفرصة ، وقامت باثارة الرأى العام فى هذه المنطقة ضد ابنها وتمكنت من اجتذاب عدد كبير من الضباط والجنود الى صفها ، وبدأت تجهز لمؤامرة مقبلة •

وفى الصيف التالى خرج قنسطنطين بحملة ضد المسلمين ، وخافت ايرين من عودته ظافرا ، حتى لا تعود اليه شعبيته مرة أخرى • لذلك استدعته الى القسطنطينية فعاد بدون قتال[٦١] ، وبينما هو عائد ليلحق بزوجته التى توفى ابنها المولود حديثا فى قصر بلاخرناى Blachernaa قام رجال الجيش التابع لأمه بالقبض عليه ، لكنه تمكن من الهرب . واستقل قاربا الى الشاطىء الأسيوى ، حيث لحقت به ثيودوت •

أصبحت هذه اللحظة حرجة جدا حيث لحق بقنسطنطين عدد كبير من الضباط والجنود وقبضوا عليه وساقوه الى قصر بورفيرى Porphyry وسجنوه به[٦٢] •

وفى يوم الثلاثاء ١٥ أغسطس سنة ٧٩٧ م ، وفى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر ، وبناء على أوامر أمه ايرين سملت عينى قنسطنطين السادس وفى نفس الحجرة الارجوانية التى شهدت مولده ، ورأى فيها النور لأول مرة ، حرم فيها من نور الحياة الى الأبد[٦٣] •

ويعلق المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس على هذا الحدث بقوله : « ان الشمس أظلمت سبعة عشر يوما بعد حدوث هذه الجريمة البشعة ، وان

(61) Romelly Jenkins «op. cit.» p. 101.
(62) Ibid, p. 101.
(63) Mauglais «op. cit.» p. 98.

السفن التي تجوب البحار سارت على غير هدى ، فلم تستطع أن ترسو الى مرافئها ، وقالت جميع الناس وأكدت أن الشمس فقدت أشعتها لأن الامبراطور أصبح ضريرا »(٦٤) •

وبذلك تمكنت ايرين من السيطرة على مقاليد الحكم ، وأصبحت امبراطورة على الامبراطورية الشرقية ، ولقبت نفسها بلقب امبراطور Basilieus لا امبراطورة Basilissa

ولا بد أن نحلل الأسباب التي دفعت هذه المرأة والتي نعتت في سجلات التاريخ بأنها أشهر قاتله ، ما هي الأسباب التي دفعتها لارتكاب مثل هذه الجريمة ، هل هي الرغبة الشخصية الجامحة في الوصول الى مقاليد الحكم حبا في السيطرة والتحكم ؟ أم غير ذلك •

ان ايرين عندما قامت بفعلتها هذه سببت الرعب في جميع أرجاء العالم في الخارج والداخل • فان قيامها بسمل عيني ولدها جعلته أعمى لا يقوى على ممارسة الحكم ولا يصبح قادرا على ذلك : أما رأى ثيوفانيس البيزنطي في ذلك فهو أنها قامت بسمل عينيه من أجل قتله والتخلص منه نهائيا ، ولكن المؤرخ روملي جونكينس يتساءل عن سبب قيامها بذلك فيقول ان هناك تفسيرا واحدا وهو ما سنعتبره علامة تضيء لنا الطريق في الكشف عن سر هذه الجريمة • وهو السبب الديني •

فقد عرفت الأم أن قنسطنطين قد بدأ يعمل على الغاء قرارات المجمع المسكوني السابع « مجمع نيقيه » والذي أعيدت فيه الأيقونية الى العقيدة المسيحية ، وسوف يعود مرة أخرى الى اعتناق مبادىء قرارات مجمع هيريا الذي عقد أيام قنسطنطين الخامس سنة ٧٥٣ وفيه قرروا العقيدة اللاأيقونية •

فقد شعر قسطنطين السادس بأنه سيكسب كثيرا اذا عاد الى اللاأيقونية مرة أخرى ، ولن يحيق به ضررا اذا تخلى عنه رجال الدين

(64) Theophanes «op. cit.» p. 472.

الأيقونيين الذين بدأوا يلعنوه على أنه فاسق وزانى • فانه لن يكسب كثيرا بمساعدتهم ، ولن يخسر كثيرا اذا تخلوا عنه •

فالمعروف فى التاريخ أن جده قنسطنطين الخامس قد تزوج ثلاث مرات ولم نسمع أى معارضة من جانب رجال الدين اللاأيقونيين فى هذه الفترة عن عمله هذا ، وزيادة على ذلك فقد تمتع قنسطنطين السادس بشعبية وحب كبير من القوات التى ترابط على الجبهة الشرقية وكلها أو معظمها كانت تعتنق اللاأيقونية ، فاذا نجح قنسطنطين السادس — كما تصورت أمه — فى الهرب ، وتنصيب نفسه قائدا عليهم فسينصروه وسيتمكن من الاطاحة بأمه وبالأيقونيين جميعا ، وبذلك لن يتمكن رهبان أديرة ساكوديون Saccaudion من الوقوف فى وجهه(٦٥) •

أما الذين كرهوا قنسطنطين السادس فى داخل العاصمة البيزنطية ووقفوا فى وجهه فجميعهم من الأرثوذكس •

وهناك شىء هام عثرنا عليه فى الوثائق الغربية وهو يخسع لنا علامة على الموقف فى هذه الفترة ، وهو أنه فى أثناء الفترة التى كانوا سيقومون فيها بسمل عينيه ، فان قنسطنطين السادس كان يقوم باتصالات سياسية مع شارلمان فى اكس لاشابل حيث استقبل مبعوث قنسطنطين المدعو ثيوكيتستيوس Theoctistus بكل تقدير واحترام(٦٦) •

ولكن ما هى أسباب هذه السفارة ، وما أغراضها ؟

فالمعروف عن شارلمان أنه أدان الأيقونية والمجمع المسكونى السابع فيما عقده بعد ذلك فى مجمع فرانكفورت عام ٧٩٤ — كما سنرى — والذى شاعت شهرته الشرق والغرب • فكان من السهل على قنسطنطين أن يعمل على عقد تحالف بين الشرق والغرب على أساس تحالف واتفاق

---

(65) Romelly «op. cit.» p.p. 101-102.
(66) Ibid.

دينى ، وهذا ما سيعنى بالضرورة تحول بيزنطه عن سياستها الدينية الى نفس السياسة اللاأيقونية والتى خرجت من مجمع هيريا سنة ٧٥٤ م لذلك فقد كانت هناك أسبابا قوية أمام ايرين دفعتها الى الاقتصاص من ابنها الذى اعتبرته ليس مجرد عقبة فى سبيل نفوذها السياسى بل اعتبرته متهورطق سوف يدفع بمملكتها الى طريق الاثم والظلام • وهذا النمط من التفكير سيمكننا من الحكم على هذه الامبراطورة بأنها ليست قاسية وغير طبيعية فقط ولكنها تتمتع بقصور فى التفكير الى جانب النزوات السيئة والمنحرفة(٦٧) •

لذلك فان القوى العظمى فى هذه الفترة والممثلة فى البابوية ، وشارلمان ملك الفرنجة ، رأت أن وجود امرأة تحكم تحت اسم الامبراطورية الرومانية فى الشرق يعتبر عملا غير شرعى ، بل انهم اعتبروا اقصاء قنسطنطين السادس عن عرش البلاد قد أخلى العرش الامبراطورى(٦٨) •

وفى هذه الفترة من التاريخ ، كان اسم شارلمان قد أصبح يدوى عاليا فى الآفاق — كما رأينا — وقد استطاع أن يسدى كثيرا من الأعمال الجليلة للبابوية وللكنيسة المسيحية ، فأصبح بحق هو زعيم العالم الرومانى ، هذا فى الوقت الذى نشاهد فيه الامبراطورية البيزنطية تحكمها امرأة ويتحكم فى مصيرها الطواشيه(٦٩) لذلك فقد استحق شارلمان تقدير البابوية بتنصيبه امبراطورا •

آثار مجمع نيقيه الخارجية :

لم يتأثر الموقف بين القسطنطينية والبابوية ، بما جرى فى مجمع نيقيه من عودة بيزنطة الى الأرثوذكسية ، وما يتبع ذلك من شدة

(67) Romelly «Ibid».
(68) Mauglais «op. cit.» p. 99.
(69) Ostrogorsky «op. cit.» p. 183.

حماسها لتأييد عبادة الصور ، وما قد يؤدى ذلك الى تسوية النزاع بين كنيستى روما والقسطنطينية • والواقع أن مجمع نيقيه لم يـــكن له أثر كبير فى التوفيق بين هاتين الكنيستين ، اذ أن روما توقعت ان ما جرى اتخاذه ضدها من اجراءات أثناء فترة النضال حول الأيقونات ســـوف يتوقف سواء كان ذلك فى المجال الدينى أو السياسة الكنسية ، ولـــذا صارت تتوقع أن تعود الأوضاع الى ما كانت عليه ، فتعود الى البابوية أملاكها التى اغتصبها البيزنطيون ، ويرجع لسلطة البابا ما كان له من السلطة فى جنوب ايطاليا والليريا ، غير أن القســـطنطينية رفضت أن تستجيب لهذه الطلبات ، ولم يحدث فى مجمع نيقيه اثارة لهذا الموضوع ، اذ أن رسالة البابا هادريان الى حكام بيزنطة ، والتى تضمنت هـــذه الحقوق ، جرى فيها استبعاد العبارات التى أشارت الى حقوق البابا فى انتقاد ما حدث من مخالفة قوانين الكنيسة بتعيين تاراسيوس بطريكا ، والى اتخاذ لقب مسكونى ، والتى أشارت الى ما لكنيســـة روما من الصدارة ، وبذلك فقد البـــابا ماله من نفـــوذ فى الشرق ، مثلما فقـــد الامبراطور البيزنطى سلطانه فى الغرب(٧٠) •

أما آثار المجمع المسكونى على مملكة شارلمان التى كان لها هـــذا الوزن العالمى الكبير ، فقد رأينا الصدى العميق الذى أحدثه هذا المجمع وقراراته فى نفس شارلمان ورجاله •

فقد رفض شارلمان قرارات مجمع نيقيه نهائيا ، وذلك لأن هـــذه القرارات كما رأينا من قبل قد أعطت قداســـة كبيرة للأيقـــونات الى الحد الذى تصور شارلمان — أنه قد وصل الى درجة عبادة الأيقونيـــة وهذا يعد كفرا وهرطقة • فقد كانت كنائس الفرنجة فى هذه الفتـــرة لا تعنى كثيرا بوجود التماثيل والأيقونات ، ويعزو الأستاذ لامب ذلك الى ندرة الفنانين الذين يقومون بصناعة هذه التماثيل وليست الناحيـــة

(70) Ostrogorsky «op. cit.» p.p. 183-184.

الدينية ، كما أنه لا يوجد عند الفرنجة غير بعض رسوم على الحائط غير مقنعة ، وبعض الآثار المقدسة مثل عبادة القديس مارتن **Saint Martin** الى جانب أن شارلمان كان يريد أن يقوض السيادة الروحيـــة للدولة البيزنطية على العالم الرومانى •

وللوصول الى هذا الهدف قام شارلمان ومستشاره الكوين بهجوم سافر على العقيدة التى نادى بها البيزنطيون • فكلف الدارســين فى قصره باصدار الكتاب الكارولنجى Libri-Carolini ليثبت للعـــالم المسيحى أجمع أن الكنيسة البيزنطية قد استسلمت للهرطقة ليس برفض الأيقونات ولكن بعبادتها(٧٢) •

والمعروف أن قرارات نيقية قد رأت ضرورة التمســك بالصــور المقدسة باعتبارها وسيلة للعبادة والصلاة وأدوات مساعدة لتعليم الأميين تاريخ الكنيسة • وكانت هناك تفرقة بين العبادة والتقديس فهذه التفرقة لم تكن مفهومة عند شارلمان ومستشاره الكوين(٧٣) •

فقد ترجمت كلمة Revere التى تعنى التقديس لشــارلمان بمعنى عبادة لذلك ثارت ثائرته ، ورأى أن معنى ذلك هو العودة الى الوثنيــة مرة أخرى ، فقد قال ان مجمع نيقية وكذلك البابا هادريان قد وافقــوا على موضوع عبادة جميع الشعارات ، فهل من الممكن أن صليبا خشبيا يكون مشابها لله كليــة « يجب ألا تحطــم الصــور » كمــا « يجب ألا تعبد »(٧٤) •

وقد وافق على رأيه هذا ثيودولف والكوين الانجليز ، وأكــدوا جميعا أن مجمع نيقية الذى عقــد بالشرق كان خاطئــا ، وكان لغضب

---

(71) **Lamb. «Charlemagne» p. 167.**
(72) **Mauglais «op. cit.» p. 96.**
(٧٣) ديفز « شارلمان » ص ١٤٥ .
(74) **Lamb «op. cit.» p. 168.**

شارلمان الشديد أثره البعيد المدى ، فقد رأى أن البيزنطيين مخادعين ، والبابا هادريان قد أنقص من قدر نفسه بتصديقه لقراراتهم •

أرسل شارلمان الكتاب الكارولنجى Libri Carolini مع مندوب من قبله الى روما حيث قدمه الى الكاهن الأعظم فى سلك الاكليروس . ويحوى الكتاب خمس وثمانون احتجاجا موجهــا الى البابا[٧٥] لذلك اضطر البابا أن يرسل الى شارلمان مندوبين عنه ليحضروا المجمع الدينى الذى قرر شارلمان عقده فى فرانكفورت سنة ٧٩٤ م ليناقش قــرارات مجمع نيقيه •

والمعروف أن البابا قد مثل نفسه فى مجمع نيقية من قبل بارسال مندوب عنه ، وقد سبق أن وافق على القرارات ، ولكن الكتاب الكارولنجى ناقش هذا الموضوع وتوصل الى أن المندوب البابوى وقع تحت التهديد الدينى ، وكل ذلك أراد به شارلمان ومعاونوه أن يثبتوا أن الهرطقــة كانت مقصودة • وأن البيزنطيين كانوا يعبدون الصور كما أرادوا الحط من قدر قنسطنطين وايرين فى عين العالم المسيحى[٧٦] •

والثابت تاريخيا أن شارلمان اعتبر نفسه محقا فى الدعوة الى عقد مجمع دينى لمناقشة أمر من أمور العقيدة ، وهذا أمر جديد على أى ملك من ملوك الجرمان •• وقد قرر مجمع فرانكفورت تحريم عبادة الصور والرجوع أى عبادة الثالوث المقدس فقط ، فلذلك ومن أجل الترجمــة اللاتينية الخاطئة لقرارات مجمع نيقية فقد نصب شارلمان نفسه مسئولا عن الناحية الدينية للأمة المسيحية بقوله « لقد تسلمت من الله فى صدر الكنيسة حكومة مملكتنا »[٧٧] فشارلمان يعنى بكلمته هــذه أنه رئيس الكنيسة وحاكم للمملكة ، وقد تبين فى مجمع فرانكفورت ان كلا من روما

(75) Pirenne «Mohamed and Charlemagne» p. 230.
(76) Manglais «op. cit.» p. 97.
(77) Lamb. «op. cit.» p. 168.

والقسطنطينية قد وقعتا فى الخطأ الجسيم ، ولا بد من أن تسود عقيدته الاصلاحية(٧٨) .

أثار مجمع فرانكفورت قضية دينية أخرى ، وهى قضية Filioque أى « ومن الابن » فقد أنكرت هذه النحلة نظرية مساواة الابن بالأب وهى عقيدة تعتبر ضرورية للخلاص فى الشرق والغرب معا .

وأصل هذه العقيدة يرجع الى الأساقفة الأسبان ، وقد وصلت هذه العقيدة الى البلاط الكارولنجى فى اكس لاشابل ، فوجدت لها مناصرا ومدافعا فى شخص شارلمان ، وكان جل همه من استخدام هذه العقيدة ، القضاء على عقيدة الأباطرة البيزنطيين ، لذلك وافق مجمع فرانكفورت رسميا على عقيدة الابن بدون موافقة البابوية(٧٩) ولكى يبين ابتعاده عن الهرطقة أمر شارل ترتيل مذهب نيقية فى كنيسته الخاصة مضافا اليـه لفظه Filioque *التى* معناها ومن الابن . هذا التفسـير الذى أجمعت الكنيسة اللاتينية على قبوله ، لم يلبث أن شاع استخدامه فى فرانكيا قبل أن يرفع أمر صلاحيته الى روما(٨٠) .

---

(78) Ibid.

(79) Mauglais «op. cit.» p. 97.
(Lamb. «op. cit.» p. 205

(٨٠) ديفز « شارلمان » ص ١٨٨ .

صدى الاحيـــاء الامبراطورى

على الامبراطورة ايرين

كان للجريمة البشعة التى قامت بها ايرين ضد ابنها قنســطنطين السادس أن ساد الاستنكار جميع أجزاء العالم شرقية وغربية ، وعلى الرغم من أن الأنباء لم تنتشر عن هذه الجريمة الا فى بطء فان شــارل فيما يبدو تلقى أول خبر عنها حين ظهر فى آخن وسل ايرين حــوالى سنة ٧٩٧ ه ، ومن القصر صارت الأخبار تنتقل فى بطء الى الأقاليم ، ولم تصبح مألوفة الا بعد طرد البابا ليو ، وكأن الحادثين وقعا فى وقت واحد وكان لوقوعهما معا أهمية كبيرة ، فالبابوية والامبراطورية هوتيا ســويا الى الأرض اذ تلطخت ســمعة البــابوية بالعــار بينما حــل بالامبراطورية الدمار •

وقد بدأت ايرين تمارس سلطاتها الامبراطورية كأنها لم تفعل شيء، ولم تسبب أذى وعجزا لابنها الوحيد بقية حياته فقد قامت ضــدها فى بادىء الأمر ثورتين داخليتين تمكنت من اخمادهما بسهولة ، وقضت على جميع الحركات المناوئة •

بدأت ايرين تصدر المراسيم الامبراطورية موقعا عليها اســمها ، وحاولت أن تجذب اليها قلوب عامة الشعب حتى تقضى على حــركات التمرد ، ولتتمكن من جذب الطبقة الدنيا اليها ، لذلك قامت ببناء وتشييد المؤسسات الخيرية ، والغت كثــيرا من الضرائب المفروضــة ، وقامت بتوزيع الأموال والهبات على الفقراء • وحاولت كذلك أن تثبت مكانتها فى قلوبهم وكانت تركب المركبة الذهبية التى يجرها أربع جياد بيض عند توجهها الى الكنيسة ، فكان هذا المظهر يثير فى نفوس العامة الهيبة الامبراطورية(٨١) •

---

(81) Joseph. «op. cit.» p. 98.

وقد حاولت ايرين فى بداية عهدها قبل أن يتوج شارلمان امبراطورا أن تتودد اليه كثيرا لكى تخفف من حدة الجريمة التى ارتكبتها فى حق ابنها كما أنها رأت فيه كما رأى العالم الغربى كله فى هذه الفتـــرة الشخصية التى فرضت نفسها سياسيا ودينيا .

ففى عام ٧٩٧ م أرسلت ايرين من قبلها مبعوثان بيزنطيـــان الى اكس لاشابل ، وقد قابلهم شارلمان مقابلة حسنة(٨٢) .

وفى عام ٧٩٨ م أرسلت ايرين مبعوثا من قبلها وهو الاستراتيجوس ميخائيل حاكم صقلية ، توجه الى شارلمان وحمل معه الهدايا والتحيات . وأوضح له أن ايرين قد سجنت ابنها وانه فقد بصره وأقصى عن الحياة السياسية نتيجة لجرائمه ، وانها تحكم الآن الامبراطورية البيزنطيـــة وحدها ، وترغب فى مصادقة ملك الفرنجة(٨٣) .

وقد حاول المبعوث أن يستميل شعب الفرنجة الى ايرين ، فبدأوا يعرضون صور ايرين وهى تركب المركبة الحربية التى يجرها الجيـــاد البيض الأربع ، ويمسك بلجام كل جواد منهم ضابطا من طبقة النبلاء بينما تنثر هى الصدقات والأموال على الناس . لكن رغم ذلك فلم يهتم شعب الفرنجة ولا المواطنون فى اكس لاشابل بهذا الموضوع ولم تثر انتباههم هذه الصور(٨٤) .

أما عن شارلمان الذى كان يقيم فى هذه الفترة فى بادربون فقـــد عامل جميع رجال البعثة ورئيسها الاستراتيجوس معاملة طيبة .

ولكن الظروف سارت على عكس ما كانت تتمنى ايرين التى نجحت الى حد ما فى ارضاء البابوية وبعض الفئات ، حتى كان يلقبها بعضـــهم

---

(82) Deanesly «op. cit.» p. 380.
(83) Lamb. «op. cit.» p. 170.
(84) Deanesly «op. cit.» p. 380.

بلقب « أتقى التقيات » لكنها تعرضت لثورات على الحدود ولحــروب لم تتمكن من صدها مما لطخ سمعتها فى التاريخ خاصة فى الشرق مــع الخليفة هارون الرشيد وفى الشمال مع البلغار كما سنرى(٨٥) •

وفى هذه الظروف وبينما كان شارلمان ورفاقه يعمــلون على أن يجعلوا منه حاميا على المملكة المسيحية اللاتينية ليتســاوى بذلك مــع الامبراطور البيزنطى الذى يعتبر حاميا للكنيسة المسيحية اليونانية ، فان البابوية فى روما كانت تدبر لأن تجعل من شارل حاميا بصــورة أخرى على المملكة المسيحية كلها فالبطــريرك الرومانى ســوف يتحول الى امبراطور الرومان(٨٦) •

فالمعروف ــ كما درسنا ــ أن البابوية منذ عهد البابا ستيفن الثانى قد عملت على التحالف مع مملكة الفرنجة ، وملكها شارلمان ، حتى جاء البابا ليو الثالث الذى رأينا سياسته مع شارلمان ، وكيف أنقــذه من أعدائه الذين تآمروا عليه محاولين قطع لسانه ، وسمل عينيه ، فرد له الجميل ــ كما رأينا ــ بتنصيبه امبراطورا على الرومان فى يوم عيــد الميلاد سنة ٨٠٠ م •

والواقع المتعارف عليه بديهيا فى هذه الفترة ، انه لم يكن ثمــة الا امبراطورية واحدة ، وأنه اذا تولى الحكم امبراطوران أو أكثر فانهم انما يحكمون دولة واحدة ، ومن الخطأ اعتبار أن الامبراطورية الرومانية الغربية سقطت سنة ٤٧٦ م •

وما قام به حستنبيان من سياسة حربية ، انما تخفى وراءها فكرة وجود امبراطورية واحدة ، فظلت هذه الفكرة قائمة الى أن تم تتــويج شارلمان سنة ٨٠٠ م فى روما ، وبذلك قضى تتويج شارلمان على جميع

(85) Romelly «op. cit.» p. 113.
(86) Deanesly «op. cit.» p. 379.

الأفكار التقليدية وصوب ضربة قاصمة للمصالح البيزنطيــة ــ اذ أن بيزنطة ــ روما الجديدة ظلت تعتبر حتى ذلك الحين الامبــراطورية الوحيدة التى انتقل اليها تراث الامبراطورية الرومانية القديمة ، وعلى أساس هذه الفكرة لم تعتبر بيزنطة تولية شارلمان عرش الامبراطورية الا عملا من أعمال الاغتصاب .

أما البابوية فكانت تؤمن بفكرة قيام امبراطورية واحدة ، ولم يكن فى نيتها اقامة امبراطورية جــديدة ، وانمــا أرادت أن تجعــل الامبراطورية التى نشأت حديثا تحل محل الامبراطورية البيزنطية ، اذ أصبح من المسلم به فى الغرب أن عرش القسطنطينية يعتبر شاغرا بعد عزل الامبراطور الشرعى قنسطنطين السادس سنة ٧٩٧ م(٨٧) .

لذلك اعتبر شارلمان نفســه عقب تنصــيبه امبــراطورا انه ليس امبراطورا على مملكة الفرنجة ولكنه امبراطور الرومان ، ولا يعتبر نفسه خليفة لرومولوس أوغسطولوس ؛ ولــكن خليفة لليو الرابع وهرقــل وجستنيان وثيودسيوس وقنسطنطين الكبير أباطرة الجزء الشرقى(٨٨) كما أنه يعتبر نفسه وريثا لقنسطنطين السادس الذى أقصى عن العرش ــ وفى رأيه ــ ربما يكون قد فارق الحياة . فمن وجهة النظر السياسية الغربية أنه لا يسمح لامرأة أن تحكم الامبراطورية(٨٩) .

لذلك فشارلمان خليفة لقنسطنطين السادس لأن الامبراطورية فى نظره ونظر البابا ليو الثالث تعتبر وحدة غير قابلة للانقسام وتضم جميع الشعوب المسيحية ، فانها انتقلت اليه كاملة غير منقوصة ، فبفضل ارادة الله ورضى الشعب الرومانى . أما الفكرة الشائعة عن وجود امبراطوريتين

---

(87) Ostrogorsky «op. cit.» p. 185.
(88) Bury «op. cit.» p.p. 506-507.
(89) Vasiliev «op. cit.» p. 326.

رومانية وبيزنطية ، ولم يلبث أن جرى التسليم بها ، فلم تكن من رأى البلاط الفرنجى[٩٠] .

أما البيزنطيون ، فمن الطبيعى أنهم لم يعتبروا ارتقاء شارل العرش الا محاولة صبيانية لاحداث الانشقاق ، ويختم مؤرخهم روايته فى ازدراء وسخرية « وعلى هذا النحو قضى السيف بين الأم وابنتها ففصل فى غضب سريع الابنة الجميلة روما الجديدة العتيقة التى شاخت وهرمت ووهن تفكيرها »[٩١] .

والوضع المنطقى عند شارل أن يقرر بأن البيزنطيين بقبولهم قرارات نيقية وتساهلهم فى استبداد ايرين فقدوا كل مالهم من دعوى فى الامبراطورية ، فالواجب الأول المفروض على كل امبراطور وفقا ليمين التتويج هو الحفاظ على وحدة المذهب الكاثوليكى كما قررته الأناجيل والآباء والمجالس المسكونية ، على أن الحكام المختارين لم يقوموا بهذا العمل بل ارتكبوا أشنع الجرائم ، فأى برهان أسطع من هذا للدلالة على أن الشعب البيزنطى لم يعد كفؤا لأن يختار سادة العالم المسيحى فعليهم اذن اما أن يعترفوا بزعامة شارلمان ، واما أن يجرى اعتبارهم ثائرين على الرسوم الكاثوليكية وخارجين عليها .

أما عن الامبراطورة ايرين نفسها وبجانبها مستشاريها وحكومتها البيزنطية فقد نظروا الى حادث التتويج على أنه لا يخرج عن أى محاولة للثورة على الحكومة الشرعية فى القسطنطينية ، لكن أخذتهم الرهبة من شارلمان الذى ربما يفعل مثل غيره ويحاول أن يتقدم لغزو القسطنطينية فى الظروف السياسية الخارجية السيئة التى يمر بها :

---

(٩٠) ديفز « شارلمان » ص ١٨٥ .
(٩١) المرجع السابق نقلا عن
Constantine Mauasses «Bouquet, Scriptores» p. 398.

وربما يقوم باقصاء ايرين عن العرش ويستولى على التاج الامبراطوري بالقوة[٩٢] •

لذلك رفضوا الاعتراف نهائيا بتتويج شارلمان وثاروا ثورة كبيرة على هذا الوضع ، ولم يحرك موقف ايرين ساكنا عند الشعب اللاتينى في الغرب لأنهم شعروا أن ايرين إمرأة سيئة السمعة تولت مقاليد الأمور بطريق غير شرعى ، وتصور شارلمان أنه يستطيع بسهولة بتنصيبه امبراطورا الحصول على اعتراف من البيزنطيين بحكمه بأى طريق شرعى أو غير شرعى حتى لو كان طريق الرشوة[٩٣] •

كما حاول البطريرك ستاراكيوس وأتيوس ورجال السناتو والجيش البيزنطي أن يظهروا شارلمان على أنه رجل بربرى غير متعلم لا يليق بهذا المنصب ، وليس له شرعية تولى الامبراطورية الرومانية[٩٤] •

وايرين فى هذه الفترة كانت فى ظروف لا تحسد عليها فقد كانت عند وصول اخبار تتويج شارلمان امبراطورا تعانى من حالة مرضية ، وقد نقل اليها هذه الأخبار رجالها المخادعون ، فشعرت باهانة كبيرة وبأن مركز الامبراطورية البيزنطية ، قد ضرب ضربة قوية ، لأن جميع البيزنطيين — كما ذكرنا — يعتبرون الامبراطورية وحدة واحدة غير مجزأة ، وأن مطالبة شارل بالامبراطورية يعتبر اغتصاب للعرش[٩٥] •

أما الظروف الأخرى التى كانت تمر بها ايرين فهى هزائم جيشها المتكررة ، ففى الجبهة الشرقية استمرت ايرين تدفع الجزية السنوية المقررة عليها بحوالى سبعين ألف دينار للخليفة هارون الرشيد • ولكن السلام لم يستمر طويلا ، فنشب القتال من جديد بين الفريقين ، وذلك

---

(92) Vasiliev «op. cit.» p. 326.
(93) Stephenson «Medievol history» p. 153.
(94) Lamb. «op. cit.» p. 179.
(95) Deanesly «op. cit.» p. 387.

لعدم احترام البيزنطيين للهدنة المعقودة مع المسلمين ، فاضطرت ايرين أن تزيد من مقدار الجزية التى تدفعها .

أما فى الجبهة الشمالية مع البلغار فقد توالت هزائم البيزنطيين أمام البلغار مما دفعهم الى دفع الجزية ، غير أن الصلح لم يستمر طويلا بسبب اصرار البلغار على زيادة ما تدفعه بيزنطة من الجزية ، فلم يسعها الا أن تدفع ما طلبه البلغار صاغرة ، وذلك يدل على ما بلغته الدولة من الذلة والمهانة بعد أن كانت لها مكانة مرموقة زمن قسطنطين الخامس[٩٦] .

وهناك ظروف داخلية شديدة جعلت ايرين تشعر بالأسى وهو الصراع الذى دار داخل القصر الامبراطورى بين وزيريها ستراكيوس وأتيوس .

والمعروف أن الأول قد ترك العمل فى السلك الكهنوتى ، وفضل العمل مع ايرين التى رفعته الى أعلى الدرجات وضربت به كثير من رجال الدولة اللأيقونيين وقد بلغ الصراع بين الرجلين الى درجة أنها لم تجد حلا لذلك .

وقد تحقق لها حسم الموقف عام ٧٩٩م عندما شعرت بالمرض الشديد، فانتهز ستراكيوس فرصة بعدها عن السياسة ودبر محاولة لانقاذ ابنها السجين محاولا اعطاءه السلطة التى سوف تشاركه فيها زوجته ثيودوت التى رافقته فى محنته . وعندما شفيت ايرين اكتشفت المخطط لذلك عقدت مجمعا دينيا أدانت فيه ستراكيوس الذى ما لبث أن توفى وأحلت محله فى جميع المهام السياسية زميله ومنافسه اتيوس[٩٧] .

---

(٩٦) الباز العرينى « الدولة البيزنطية » ص ٢٠٠ — ٢٠١ .
(97) Joseph. Mc. Cape. «op. cit.» p. 98.

الفصل الخامس

محاولات الوفاق بين الامبراطوريتين
البيزنطية والرومانية الغربية

* فتح باب المفاوضات مع الامبراطورة ايرين ..
* مشروع الزواج بين ايرين وشارلمان
* الاطاحة بايرين على يد نقفور سنة ٨٠٢ م
* استئناف المفاوضات زمن نقفور
* فشل المفاوضة
* مقتل نقفور على يد البلغار ٨١١
* استئناف المفاوضة زمن ميخائيل رانجابيه
* ارسال مبعوثين بيزنطيين الى آخن
* اعتراف البيزنطيين بشارلمان امبراطورا سنة ٨١٢ م .

الفصـــل الخــامس

محاولات الوفاق بين الامبراطوريتين البيزنطية والكارولنجية

كان شارلمان مقتنعا فى قرارة نفسه ، ووفقا للأيدولوجية السياسية المعاصرة أن تنصيبه امبراطورا للرومان لا يكتسب صفته الشرعيــة الا باعتراف الامبراطورية البيزنطية ، وهى التى تمثل الشطر الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، ورأى شــارلمان أنه من المــكن أن يقــوم البيزنطيون بعزل الامبراطورة ايرين ، وينصبوا بدلا منها امبــراطورا رجلا ، وبذلك ينتفى السبب الذى بنى عليه البابا وشارلمان معارضتهم لحكم امرأة للامبراطورية الرومانية ، ثم تحتدم المشــكلة وتتعثــر ولا يتمكن من فرض سلطانه الامبراطورى على العالم الرومانى(١) .

ورأى شارلمان كذلك أن دخوله فى حرب ضد البيزنطيين سيؤثر على مركزه كملك على اللومبارديين ، لذلك تجاهل فى الخمسة شــهور الأولى من تتويجه موضوع الاتصال بالدولة البيزنطية ، وبعد ذلك بدأ يفكر فى وسيلة جديدة يســتطيع بها الحصــول على الاعتــراف بتتــويجه من الامبراطورة ايرين(٢) .

لذلك اتفق شارلمان والبابا ليو الثالث على ضرورة فتح باب المفاوضة مع ايرين ، وانتهاز فرصة وجودها للحصول على اعتراف رسمى بتنصيبه امبراطورا ، ففكروا فى عقد زواج سياسى يجمع بين الشطرين الغربى

(1) Vasiliev «op. cit.» p. 327.
Ostrogorsky «op. cit.» p. 186.
Deanesly «op. cit.» p. 387.
(2) Lindsay J. «op. cit.» p. 390.

والشرقى ، فيتزوج شارلمان من ايرين ، وبذلك يتحد الشطرين ويصبح شارلمان رسميا امبراطورا على العالم الرومانى كله(٣) .

والواقع أن فكرة ربط الشرق بالغرب عن طريق الزواج السياسى سبق وان فكر فيه ملوك الفرنجة وأباطرة البيزنطيين من قبل بدءا من جيزلا Gisla ابنة بيين القصير الى روترود ابنة شارلمان . والآن أصبح التفكير فى الامبراطورة البيزنطية ايرين نفسها .

لذلك أعد شارلمان بعثة دبلوماسية من رجال القصر ، وممثلين عن البابوية وتوجهوا فى سنة ٨٠٢ م الى البلاط البيزنطى ليعرضوا على الامبراطورة مشروع الزواج من شارلمان .

وتضاربت أقوال المؤرخين فى حقيقة شعور شارلمان من ناحية هذا الزواج ، فقد ذكر بعضهم بأنها كانت امرأة عجوز دميمة الخلقة لذلك فان زواجه منها سيكون اضطرارا للدافع السياسى فقط وبعضهم قال انها امرأة ساحرة الجمال ، وعلى أى الأحوال . فان نتائج هذا العرض كان معلوما مسبقا لشارلمان ، وهو أن الشعب البيزنطى لن يرضى مطلقا بأن يتوج عليه ملكا من سلالة الفرنجة(٤) .

أما عن رأى ايرين الشخصى ، فقد قابلت هذا العرض بسعادة بالغة وبقى أعضاء البعثة فترة بالقسطنطينية ، وأرسلت ردها على الامبراطور شارلمان مع مندوب من قبلها يدعى ليو سباثياريوس Leo-Spathiarius ليعلن له موافقتها الشخصية(٥)

ساد رأى مضاد لرأى ايرين داخل القصر ، كان يحاول أن يفسد العرض فقد حاول الطواشى اثيوسى الذى تولى السلطة — كما ذكرنا

---

(3) Theophanes «op. cit.» p. 475.
Lindsay J. op. cit.» p. 390.
(4) Lamb. «op. cit.» p. 179.
(5) Deanesly «op. cit.» p. 387.

بعد ستاراكيوس ان يزوج ايرين من قريبه نكيتاس قائد الحرس[٦] .

طال انتظار رجال البعثة فى القسطنطينية ، وأثناء تواجدهم قامت ثورة فى داخل القصر قادها نقفور أمين الخزانة .

ففى مساء ٣١ أكتوبر سنة ١٨٠٢ م وبينما كانت ايرين ترقد مريضة فى قصر الاليوتيريان Eeutherian طـرق بابها مجمـوعة من النبلاء والضباط بعد أن غافلوا حراسها ، وهناك أبلغوها بالثورة وطالبوها بالتنازل عن الحكم ، واستولوا على ممتلكات القصر وأحاطوه بالحراس .

وفى فجر هذا اليوم توج نقفور فى الكنيسة امبراطورا . والعجيب أن عامة أهل القسطنطينية الذين شملتهم ايرين بسخائها وعطفها وبرها تجمعوا فى الميدان العام ، وصبوا اللعنات على نقفور والأسقف ايتوس فظلوا يهتفون باسم ايرين[٧] .

وصل نقفور الى حجرة ايرين فتوسلت اليه أن يبعثها تقضى بقية حياتها فى مقر الايثوريان ، فطلب منها نقفور فى مقابل موافقته على هذا الطلب أن تقسم على الصليب وتذكر له جميع الأماكن التى توجـد بها كنوز ومقتنيات القصر ، وهذه الكنوز كانت مخبأة ومفرقة فى عدد من قصور القسطنطينية ، حتى انهم اضطروا الى الاستعانة بقسطنطين السادس الأعمى ليدلهم على الحائط الذى أخفوا فيه الكنـوز عنـدئذ نقلوها شبه سجينة الى دير كانت قد شيدته من قبل فى جزيرة الأمراء ، « وهى مجموعة من الجزر الصغيرة المواجهة للقصر على بحر مرمره » ، وبعدها انتقلت الى جزيرة لسبوس ، ولم تمكث الا مدة قصـيرة حتى توفيت فى ١٩ أغسطس سنة ٨٠٣ م[٨] ويومها طويت صفحة فى التاريخ

---

(6) Joseph. Mc. Cape. «op. cit.» p. 99.
(7) Ibid.
(8) Joseph. Mc. Cape. Ibid. p.p. 99-100.
Ostrogorsky «op. cit.» p. 186.

البيزنطى ، وانتهى حكم أسرة حكمت زمنا طويلا تحت اسم الأسرة الأيسورية .

استئناف المفاوضات السياسية مع شارلمان
زمن نقفور وميخائيل الأول رانجابيه

تقلد نقفور العرش البيزنطى فى ظروف سياسية متقلبة من الداخل والخارج ، ففى الداخل توترت العلاقات بين حزب الرهبان وبين السلطتين الكنسية والحكومية ، لا سيما بعد أن عين الامبراطور فى كرسى البطريركية العالم المؤرخ نيقفورس عقب وفاة تاراسيوس فى ٢٥ فبراير سنة ٨٠٦ م .

اشتهر البطريرك نيقفورس بما اشتهر به ثاراسيوس من التعمق فى العلوم الدينية والدنيوية ، بل انه فاق تاراسيوس فى كونه مؤرخا ومؤلفا ، اذ ألف مجموعة من الكتب دافع فيها عن الصور المقدسة ويتفق نيقفورس مع تاراسيوس فى أن كلا منهما كان من كبار موظفى الحكومة قبل أن يتولى كرسى البطريركية ، والتزم كل منهما فى سياسة الاعتدال ، على أن تعيين أحد العلمانيين فى كرسى البطريركية ولد المرارة والسخط عند رجال الدين المتعصبين ، فقد رأوا أن زعيمهم الدينى ثيودور أحق بهذا المنصب من الآخرين(٩) .

أما فى الخارج فقد استمرت الحروب على الجبهات الشرقية والشمالية فقد امتنع نقفور عن دفع الجزية وأرسل رسالة شديدة اللهجة الى هارون الرشيد فى يوليه سنة ٨٠٣ فرد عليه هارون الرشيد برسالة وصفه فيها بأنه « كلب الروم » وجهز قواته على الحدود(١٠) ونكاية فيه دارت اتصالات سياسية بين شارلمان وهارون الرشيد .

(9) Ostrogorsky «op cit.» p. 187.
(10) Romelly «op. cit.» p. 119.

ويرى الأستاذ بكلر « أن ما دفع نقفور بعد ذلك الى تسوية الأمور مع شارلمان يرجع الى أن الحكومة البيزنطية ساورها الشك فى قيام تحالف بين هارون الرشيد أو على الأقل حدث شىء من التفاهم بين آخن وبغداد »(١١) .

وأما بالنسبة للجبهة الشمالية ، فقد تولى عرش البلغار ملك اشتهر بالقوة والمكر هو الملك كروم Krum ووجوده على العرش أقلق البيزنطيون لذلك دارت بينهم المعارك الطاحنة التى أدت الى نهاية حياة نقفور .

ومن أهم الأحداث الخارجية التى شغلت بال نقفور موضوع المفاوضات الذى بدأها شارلمان ملك الفرنجة أيام ايرين ، فكان لابد من إستئنافها حتى توضع الأمور فى وضعها الصحيح .

لكن نقفور كان عنيدا ورفض الدخول فى مفاوضة مع شارلمان رغم أن أساسها كان مخالفة نقفور على أن تبقى الامبراطورية وحدة واحدة لا تتجزأ من حيث الفكرة مثلما كانت أيام دقلديانوس على أن يحكمها أشخاص عديدون(١٢) .

رفض نقفور هذه الشروط لذلك شن شارلمان حربا بحرية قوية على الشاطىء الدلماشى ، فطلبت البندقية ودلماشيا « التابعتين للبيزنطيين » من شارلمان أن يحميهما من أخطار البيزنطيين ، فسارع شارلمان لنجدتهما وجعل قيادة الحملة لابنه بيبن سنة ٨٠٩ م(١٣) .

نجح بيبن فى تحقيق الهدف العسكرى والسياسى من هذه الحملات ورغم ذلك فضل نقفور الاستمرار فى المعارك الحربية على الدخول فى مباحثات مهينة مع شارلمان(١٤) .

---

(11) Bukeler «op. cit.» pp. 23 — 24.

(١٢) ديغز « شارلمان » ص ١٨٦ .

(13) Romelly «op. cit.» p. 121.

(14) Deanesly «op. cit.» p. 387.

والحقيقة أن نقفور كان مخطئا فى دخوله الحرب الخاسرة مع شارلمان فلم تكن هذه المعارك متكافئة ، وكان من الممكن أن يحصل على مكاسب كبيرة اذا عقد صلحا مع شارلمان ومن أهم هذه المكاسب ربما استعادة البندقية وايستريا ، وأن يجعل من فرانكيا حدا غربيا يقف أمام مطامع البلغار[١٥] .

لكن نقفور كان عنيدا ، ونتيجة لعناده ضاعت البندقية وأصبحت تابعة لشارلمان ، مما دفع نقفور الى الموافقة على الدخول فى المفاوضات مع شارلمان . لذلك أرسل المبعوثين سباسياريوس Spathiarius وأرسافيوس Arssafius الى شارلمان فى أكتوبر من هذا العام فى مدينة آخن ، فاستقبلهم شارلمان استقبالا حسنا .

وقد عرض المبعوثون على شارلمان رغبتهم فى الصلح ، فقدم لهم مشروعا بأن يتنازل لهم عن البندقية ، والسواحل الدلماشية ونابلى وكالابريا وصقلية . على أساس اعتراف البيزنطيين به امبراطورا وعلى أن يكون على قدم المساواة مع الامبراطور البيزنطى ، لذلك رفض نقفور هذه الشروط[١٦] ، والغيت المعاهدة . وذلك لأن البيزنطيين كانوا يرفضون أن يطلق لقب « امبراطور الرومان » على أى شخصية من غير البيزنطيين[١٧]

والحقيقة أن شخصية نقفور كانت متشددة ، وكان يفكر فى أن يطيل الصراع مع شارلمان ، ولا يحقق له غرضه فى أى اعتراف به ، ولكن الظروف كانت ضد رغبة نقفور .

فالظروف السياسية التى صادفت نقفور فى البلقان جعلته لا يستطيع أن يستمر فى نضاله مع الغرب .

---

(15) Romelly «op. cit.» p. 121.
(16) Mauglais «op. cit.» p.p. 99-100.
(17) Ostrogorsky «op. cit.» p. 199.

وفي هذه الفترة اشتدت الأزمة البلغارية بهجوم كروم ملك البلغار على الحدود البيزنطية لذلك قرر نقفور تأديبه ، فخرج اليه فى حملة عبر السفوح والجبال . فطلب كروم منه الصلح الا أن نقفور أصر على تأديب كروم ، فتقدم بقواته حتى قارب العاصمة البلغارية . الا أن كروم ، وأتباعه لجأوا الى الجبال وباغتوا البيزنطيين ولقى نقفور مصرعه فى هذه الحرب(١٨) .

وفي المعركة التى قتل فيها نقفور أصاب ابنه ووريثه فى الحكم ستوراكيوس جراح شديدة ، غير أنه استطاع أن يهرب مع بعض أتباعه الى أدرنه وهنا جرت المناداة به امبراطورا لما له من أحقية فى الحكم ولهذا الاجراء أهميته الرسمية والدستورية على الرغم من أنه لم يكن ثمة أمل فى شفاء ستوراكيوس . وأما التسوية النهائية فانها تمت بالقسطنطينية حيث جرى نقل ستوراكيوس اليها ليقوم — برغم اصابته الخطيرة — بتتويج من يخلفه على الحكم .ولما لم يكن لاستراكيوس ابن يرثه فى الحكم فمن الطبيعى أن يتولى العرش أقرب الناس اليه وهو صهره ميخائيل رنجابى(١٩) .

ميخائيل رانجبابيه .. ومفاوضات شارلمان : ٨١١ — ٨١٣ م .

أجمع المؤرخون على أن هناك اختلافا كبيرا فى المواصفات الشخصية بين كل من نقفور وخليفته ميخائيل رانجابيه فقد كان ميخائيل شخصية ضعيفة ، لم يتمكن من أن يصمد أمام الصعاب الداخلية والخارجية التى قابلت سلفه ، الى جانب أنه وقع تحت تأثير شخصيات عديدة داخل الدولة(٢٠) .

---

(18) Bury «History of the Eastern Roman Empire» p. 342.
(19) Ostrogorsky «op. cit.» p. 200.
Vasiliev. p. 327.
(20) Ostrogorsky «op. cit.» p. 199.

والمعروف أن نقفــور قد رفض العرض الذى قدمه شارلمــان لاستئناف المفاوضات للاعتراف به امبراطورا للرومان الى جانب أن الامبراطور نقفور منع البطريرك نقفور من أن يرســل للبابا قرارات المجمع على ما جرت به العادة ، واظهر العــداء الصريح لشارلمــان وللبابوية(٣١) ٠

ولكن عندما تقلد ميخائيل الحكم أرسل الى شارلمــان مبعوثين يحملون اعترافا رسميا مكتوبا باللغة اليونانية وذلك مقابل الموافقة على نفس شروط المعــاهدة التى سبق أن عرضها شارلمــان على مبعوثى نقفور من قبل(٢٢) ٠

ويرى الأستاذ بكلر أن ما أصاب نقفور من خيبة أمل فى القضاء على التفاهم الودى بين هارون الرشيد وشارل هو الذى أرغم آخر الأمر ميخائيل رانجابيه على أن يعترف بشارلمــان امبراطورا(٢٣) ٠

وقد أيد اينهارد « مؤرخ حياة شارلمــان » هذه الأحداث بقوله « ان أباطرة الدولة البيزنطية : نقفور وميخائيل ، وليــو حاولوا أن يعقدوا علاقــات صداقة وتحالف مع شارلمــان ، فأرسلوا اليه عدة سفارات حتى انه فى أثناء الفترة التى كان اليونانيون « البيزنطيون » يشكون فى أن شارلمــان كان يعد للاستيلاء على الامبراطورية منهم لأنه حصل على اللقب الامبراطورى ، فانهم عقدوا تحالفا قويا معه حتى لا يجد سببا فى الهجوم عليهم أو الاستيلاء منهم ٠ وفى الحقيقة أن قوة الفرنجة كانت موضع حسد وحقد البيزنطيين والرومان لأن الحكمــة البيزنطية تقــول اجعــل الفرنجة أصدقائك ولا تجعــلهم جيرانك »(٢٤) ٠

(21) Ibid p. 198.
(22) Mauglais «op. cit.» p.p. 99-100.
(23) Bukeler «op. cit.» p. 27.
(24) Einhard «op. cit.» p. 43.

وبذلك نرى أن عهد ميخائيل رانجابيه وضع نهاية للمفاوضات التى استمرت بين البيزنطيين وشارلمان ما يقرب من اثنتى عشرة سنة . وحصـل شارلمـان من المبعوثين البيزنطيين على اعتراف رسمى به امبراطورا ، فقد حيوه على أنه Basilieus أى امبراطورا على الرومان باللغة اليونانية(٢٥) .

وذكر مؤرخ الحوليات الألمـانى هذا الحدث بقوله :

ان المبعوثين البيزنطيين وهم أسقفا واثنان من الدبلوماسيين هما ثيوجنوتوس Theognatius وأرسافيوس Arsaphius توجهوا الى الكاتدرائيـة الكبـرى فى آخن وقـرروا كمـا ذكر باللاتينيـة
«Scriptum Pacti ab eo Charles in ecclesia Suscipientes Mare Sua» «id est Graeco Linguo Landes ei Dixerunt Imperatorem eum et Basiteum Appellantes».

فقد أصبح هناك اثنان من الأباطرة للامبراطورية الرومانية(٢٦) . وبذلك نرى أن اعتراف المبعوثين البيزنطيين بشارلمـان فى آخن على أنه باسيليوس أعطى شرعية وقانونية لتعيينه امبراطورا عـام ٨٠٠ م ومنذ عام ٨١٢ وما بعده أصبح هناك امبراطوران على الرغم من الحقيقة التى تقول بأنها ستظل امبراطورية واحدة(٢٧) .

ويرى الأستاذ ليندساى Lindsay أن عام ٨١٢ يعتبر تاريخا هاما بالنسبة لشارلمان ، فهو التاريخ الذى حدد فيه مركزه الامبراطورى فمنذ هذا الوقت ، وبعد اعتراف البيزنطيين به أصبح امبراطورا على الامبراطورية الرومانية الغربية ، وأعادها للوجود مرة أخرى(٢٨) .

---

(25) Eastan. «The Era of Charlemagne» p.p. 130-132.
انظر الوثيقة الخاص بالاعتراف بشارلمان نهاية الكتاب
(26) Romelly Jenkins op. cit.» p. 127.
(27) Vasiliev «op. cit.» p. 377.
(28) Lindsay «op. cit.» p. 390.

أما المؤرخ بيورى فيذكر أن ما حدث سنة ٨١٢ م أحيـا نظريا الوضع الذى كان معمولا به فى القرن الخامس ، ميخائيل الأول وشارلمان وليو الخامس ولويس التقى يقفون أمام بعضهم مثلما كان أركاديوس مع هنريوس وفالنشيان الثالث مع ثيودسيوس الثالث ، فقد أصبحت حدود الامبراطورية الرومانية تمتد من حدود أرمينيـا الى شواطىء الأطلنطى(٢٩) .

(29) Bury «op. cit.» p. 325.

الباب الثانى

نظـام الحكم بالادارة فى الامبراطوريتين البيزنطية والكارولنجية

الفصل الأول

نظام الحكم والادارة فى الدولة البيزنطية
على عهد الدولة الأيسورية

* سلطات الامبراطور
* التقسيم الادارى
* كبار المعاونين
* القوانين والتشريعات فى عهد الأيسوريين
* الاكلوجا
* قانون الفلاح
* القانون البحرى الرودسى
* قانون الجند
* الجيش البيزنطى ـ البحرية
* النظام النقدى .

الفصــل الأول

نظــام الحكم فى الامبراطورية البيزنطية

تعتبر الامبراطورية البيزنطيــة ــ كما قدمنــا ــ هى الوريث الشرعى للامبراطورية الرومانية المقدسة • والواقع أن النظم السياسية التى ســادت الامبراطورية الغربية انتقلت الى العالم الشرقى بانتقال الأباطرة اليه ، فأصبحت بذلك استمرارا للماضى واستكمالا له •

كان الامبراطور هو الرئيس الأعلى للامبراطورية ، له الســلطة التشريعية كما أنه القائد الأعلى للجيش البيزنطى الى جانب أنه الرئيس الدينى والكنسى •

والمعروف أن الامبراطور فى الامبراطورية الشرقية كان يطلق عليه لقب Basilieus ، وذلك لاصطباغ الجزء الشرقى من الامبراطورية بالصبغة الهلينية(١) •

وكان الامبراطور البيزنطى يحكم امبراطوريته حكما لا نستطيع أن نطلق عليه حكما استبداديا دكتاتوريا ، لأنه كان يعتبر حقيقة ممثلا لشعبه ومعبرا عن ارادته لأن هذا الشعب كان له الحق فى تعيينه لهذا المنصب •

ويرى الأستاذ « نورمان بينز » أن جميع السلطات النافذة داخل حدود الامبراطورية الرومانية جمعت فى شخص الامبراطور وهــو مصدرها الأوحد الا أن هذه العبارة لا تعبر تعبيرا كامــلا عن الرأى الرومانى فى الامبراطور •

---

(1) Diehl. «Byzantium, Greatnes and Decline» p. 39.

فلم يكن الامبراطور « ملك الملوك » Basileus « كما كان يسمى رسيما بعد سقوط الامبراطورية الفارسية التى كان حاكمها المنازع الوحيد له على هذا اللقب » مجرد حاكم للولايات الخاضعة لروما ، فكما قال المسيح انه وارث هذا العالم وخلى نائبه أن يدعى ادخال العالم فى دائرة ملكه أليس هو الآخر مخلصا للعالم(٢) .

والآن لابد لنا أن نعرف كيف كان يصل الامبراطور الى السلطة ؟

الحقيقة أن السناتو والجيش والشعب كان لهم الحق فى انتخاب الامبراطور أما ونحن نعالج نظام الحكم فى العصر الأيسورى ، فلا بد لنا أن نعرف كيف تقلد أول امبراطور لهذه الأسرة عرش البلاد .

كان تقليد ليو الثالث الأيسورى ٧١٧ — ٧٤١ م عرش الامبراطورية يعتبر تقليدا عسكريا أى أنه حصل الى هذا المنصب بفضل الجيش الذى كان صاحب سلطة شرعية فى تعيين الامبراطور .

ويرجع أصل ليو الثالث الى اقليم ايسوريا بجنوب شرقى آسيا الصغرى وكان لتعيينه قائدا على ثغر الأناتوليك فى عهد أنستاسيوس الثانى أن فكر فى الوصول الى الحكم خاصة وأن الدولة البيزنطية فى هذه الفترة كانت تتلقى الضربات فى أكثر من جبهة وأهمها الجبهة الاسلامية (٣) .

بدأ ليو تحديه السافر للامبراطور ثيودسيوس بعد أن بدأت الحملات الأموية الاسلامية بقيادة مسلمة بن عبد الملك تواجه الثغور البيزنطية . فكان لصمود ليو ، وانتصاره أكبر الأثر فى قهر قوى ثيودسيوس الذى فر من ثغر الأرمنياك الى نيقوميديا حيث قبض عليه .

---

(2) Baynes N. «The Byzantine Empire» p. 76.
(3) Ostrogorsky «op. cit.» p. 138.

فتنازل عن العرش لليو الذى نادى به الجيش والشعب امبراطورا فى ٢٥ مارس سنة ٧١٧م (٤) .

كان النظام المعمول به ى البلاط البيزنطى أن تنصيب الامبراطور لا يكتسب صفته الشرعية الا بعد تتويج البطريرك المسيحى له . وذلك ليصبح ممثلا شرعيا للحكومة البيزنطية المسيحية .

وكان التتويج الكنيسى يتم فى كنيسة القديسة صوفيا ويشهده رجال السناتو وممثلو الجيش والشعب الذين يهتفون للامبراطور الجديد داخل الكنيسة وخارجها (٥) وكان القوم يحسون أن التتويج يمنح الامبراطور مكانة الهيبة كنائب لله جلت قدرته على الأرض ، كما كان الأمبراطور يشعر شعورا قويا أنه رأس الكنيسة المسيحية . فقد كتب ليو الأيسورى للبابا يقول « انى امبراطور وقس » وأدعى أنه الوكيل « الذى أمره الله أن يطعم قطيعه » ووافق البابا على ذلك ما دام الأمبراطور مقيما على مذهب السلف القويم (٦) كما أن الأمبراطور كانت له سلطة تعيين البطريرك ، حيث كان يتم تعيينه بواسطة هيئة الأساقفة ، وكان يعتبر نائبا للامبراطور ، ومن حقه عزله (٧) .
ومن مراسم التعيين ضرورة تتويج زوجة الامبراطور كامبراطورة ويتم ذلك فى احتفال خاص .

يلى الامبراطور فى السلطة السناتو الذى لم يكن له نفس الصفة الرومانية القديمة ، وكان يتكون من جميع أرباب الوظائف والرتب الحاليين والسابقين الذين هم فوق مستوى معين ثم من ذرياتهم، فكأنه كان بذلك هيئة غير محدودة الشكل تجمع بين ذوى النفوذ وأهل الثراء وأرباب المراكز ذات المسئولية فى الامبراطورية .

---

(4) Ibid.
(5) Bury «Selected, Essays» p. 114.
(٦) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٧٠ .
(7) Bury. Ibid.

وكانت السلطات الفعلية للسناتو غير محددة ، وكان أعضاء طبقة رجال السناتو يستمتعون بحقوق ومزايا معينة ينص عليها القانون الرومانى القديم • ويعتبر السناتو هيئة شبه دستورية تعبر عن آراء أغنى عناصر الدولة وأقواها •

وبذلك اعتبر أخطر هيئات الدولة الدستورية خاصة اذا كان الامبراطور ضعيفا •

ومع أن انتصار ليو الثالث الأيسورى كان يمثل انتصار الأرستقراطية فان ليو نفسه كامبراطور لم يسمح للسناتو بأى تدخل فى شئون الدولة حتى ضعفت سلطاته ، وقام بالغائه نهائيا ليو السادس ٨٧٠ — ٨٨٦ م (٨) •

كان هناك مجلسا صغيرا يساعد الامبراطور فى قراراته وهو منبثق من السناتو ومتفرع منه ، الى جانب وزير للخارجية الامبراطورية ، وهو مستشار ووزير يتصل اتصالا وثيقا بالامبراطور ، ويقابله يوميا • ورغم ذلك فكانت سلطاته الخارجية محدودة لتدخل الامبراطور فى معظم هذه الامور • ومن واجبات المستشار اعداد الترتيبات اللازمة لاستقبال السفراء الأجانب وتجهيز البعثات السياسية الامبراطورية الى بلاط الملوك الأجانب واختيار أفرادها (٩) •

وفى القرنين الثامن والتاسع اللذان نحن بصدد دراستهما نرى أن الامبراطورية البيزنطية كانت مقسمة اداريا الى خمس وعشرين لواء منقسمين الى قسمين شرقى وغربى • الأول مكون من الألوية « الثيمات » البحرية وهما مقاطعتا كيبرهايوت وساموس البحريتان على شاطىء بحر ايجه •

(٨) رنسمان « المرجع السابق » ص ٧٨ — ٧٩ •
(9) Theophanes «op. cit.» p. 378.
(10) Baynes «op. cit.» p.p. 146-147.

وكانت الطائفة الثانية مكونة من الألوية الأوربية بما فى ذلك الالوية البحرية وهى خيرصون «القرم»ودلماشيا وصقلية وكان قواد الطائفة الأولى «Strategi» يتناولون من الحكومة المركزية راتبا ثابتا ولهم مرتبة تعلو مراتب الطائفة الأخرى التى كان أصحابها يتناولون مرتباتهم من الضرائب المحلية . وكان للقائد العسكرى Strategos لمنطقة خيرصون مرتبة خاصة انفرد بها ، وكان رئيسهم جميعا وهو قائد لواء الأناضول الذى خلفت وظيفته وظيفة سيد الجند Magister Militum للشرق ، وكانت له على الدوام مرتبة وأسبقية خاصة وكان فى القرن الثامن وأوائل التاسع صاحب المنصب العسكرى الرئيسى[١١] .

وكان ديوان القائد العام به أحد عشر طبقة من الموظفين لمساعدته فى شئون الحكم المدنية والعسكرية ، ولم يكن للضباط العسكريين دور فى الادارة بل ان الذين هيمنوا عليها هم القضاة والكتاب .

وأهم شخصية فى الولايات هو والى المدينة Prefect فهو أعلى شخصية بعد الامبراطور ويعد نائبا له على المدينة والمسئول عن القانون والنظام ، ومن وأنجبه الاشراف على جميع ألوان النشاط التجارى بالمدينة ، كتثبيت الأسعار والأجور وساعات العمل والترخيص بفتح الدكاكين الجديدة ، ومراقبة تنفيذ القوانين الاضافية الخاصة بالصادرات وكان عليه أن يتحقق من مراعاة الناس ليوم الأحد الرعاية الواجبة[١٢] .

كان ديوان الوالى ينقسم الى قسمين قسم يتولاه محكم Symponus بيده ضبط شئون النقابات والاشراف على تنفيذ مختلف التعليمات واللوائح التجارية والواجبات المدنية الملقاة على عاتق السكان وقسم يتولاه مستشار دار الوالى الذى كان موكلا بشئون القضاء والسجون .

---

(١١) رنسمان « المرجع السابق » ص ٩٩ وما بعده . نقلا عن Bury «Imperial administration System» p.p. 69-70.

(١٢) العرينى « والى المدينة » ص ٥٨ .

وكان كل من القسمين مزودا بهيئة من الموظفين كافية ومنوعة .
وكان يساعد والى المدينة فى عملة الكويستور الذى كان يجمع بين وظيفة الكويستور باختصاصها القديم وبين نظيره فى عهد جستنيان ، وكانت بعض اختصاصاته تشريعية حيث كان يعد مشروعات القوانين الجديدة كما كان رئيسا لمحكمة الاستئناف فى القضايا المقامة ضد الحكام والنبلاء كما كان من ناحية أخرى الوكيل العام للشعب وعليه ختم الوصايا وفضها وتولى تنفيذها والاشراف على ادارة أملاك القصر[١٣] .

أما عن الناحية المالية ، فكانت تحت امرة عدد من الدواوين يرأسها وزير المالية الذى قام ليو الأيسورى برفع مرتبته بين غيره من العاملين فى الامبراطورية ، وكان تحت رئاسته عددا كبيرا من الموظفين ومن الوظائف الهامة أيضا منصب مراقب الخيل والبريد Logothete of the Dromus الذى كان مديرا عاما للبريد ورئيسا لوزارة الخارجية ، كما كان يهيمن على الرسائل المتبادلة بين الامبراطور وغيره من الوزراء .

وكانت الوظائف المحيطة بشخص الامبراطور والامبراطورة ، والمتصلة بالخدمة فى القصور يحتفظ بها للخصيان . وكان لكل قصر كبير معاونيه الذى يتبعه معاون ثان مهمته الاشراف على ثياب الحفلات وعلى أثاث البلاط ، ولم يقم أحد بذكر عدد صغار الموظفين فى الامبراطورية وواجباتهم ، وكان للامبراطور والامبراطورة مشرفون على المائدة وعلى خزانات الملابس ، على أن كبير الخصيان كان كبير الأمناء Para Coemomenus الذى صار فى أواخر القرن التاسع وأثناء العاشر الوزير الأكبر فى الامبراطورية[١٤] .

---

(13) Ibid.
(14) Bury «op. cit.» p. 120.

القوانين والتشريعات فى عهد الأيسوريين وحتى سنة ٨١٣ م

يرى كثير من المؤرخين أن الامبراطورية البيزنطية اعتمدت فى دوامها واستقرارها على التمسك بأصول القانون الرومانى ، وقد عاد هذا بالفائدة على الأهالى الذين كان يمكنهم الالتجاء الى حماية القانون ، وأن شعور رعايا الامبراطورية بأنهم كانوا يعيشون تحت حكم قضائى أرفع مما لدى جيرانهم قد أوجد شعور ولاء قوى للامبراطورية بالرغم مما كانوا يعانوه أحيانا من ضرائب باهظة .

ولقد كان تأثير رجال القانون على الادارة عظيما ، وربما اعتبر ذلك أحد العوامل التى أدت الى وجود طابع المحافظة على الحضارة البيزنطية تلك المحافظة التى صارت مضرب الأمثال .

فالقانون الرومانى القديم أدخلت عليه تعدلايت كثيرة تحت تأثير العادات الاغريقية والشرقية وتعاليم المسيحية . والواقع أن هناك سلسلة طويلة من القوانين والتشريعات الهامة التى كانت ركيزة كبيرة ارتكزت عليها قوانين الأسرة الأيسورية ، منها ما شرعه لنا الامبراطور جستنيان وهرقل من بعده .

والواقع أن ما أصدره الامبراطور جستنيان من قوانين لم تستطع معظم أقاليم الدولة البيزنطية أن تدرك قيمتها وأن تفهمها نظرا لأنها صدرت باللغة اللاتينية ، وما أصدره جستنيان من المتجددات باللغة اليونانية لم تعالج الا القانون العام(١٥) فرأى ليو الثالث أن الولايات الشرقية كانت تؤثر العرف حتى على شرائع جستنيان ، كما أن الامبراطورية قد بدأت فى التقلص بعد الفتح الاسلامى وتغلب الصقالبة والبلغار على البلقان ، فسادت اللغة اليونانية وأصبحت هى اللغة الوحيدة فى التفاهم ، فكان لابد من اصدار تشريع باليونانية(١٦) .

---

(15) Cam. Med. Hist. oVl. IV. p. 708.
(16) Vasiliev «op. cit.» p. 270.

لذلك قرر ليو الثالث الأيسورى أن يصدر قانونه الذى اشتهر عبر التاريخ ، وذلك ليفى حاجة شعبه ، وليعوض النقص التشريعى فى البلاد .

أ — الاكلوجا

أسند ليو الثالث الى هيئة كبيرة من كبار رجال دولته القانونيين سنة ٧٢٦ م مهمة اصدار مجموعة قانونية جديدة تفى بالغرض المطلوب وقد استعان أفراد هذه الهيئة بالمجموعات القانونية الرومانية القديمة وبقوانين جستنيان وصدرت هذه المجموعة تحت اسم Ecloga الاكلوجا . ومعناها المختارات .

ومما جاء فى مقدمتها « أن قوانين الأباطرة قد أصبحت صعبة المنال اما لتفرقها فى الكتب الكثيرة أو لصعوبتها على الفهم أو لقلة تداولها فى الأوساط خارج العاصمة « المحروسة من الله » ومما جاء فى هذه المقدمة أيضا أنه يجب على القضاة أن يتجردوا من العاطفة أو أن يحكموا بالعقل والعدل وألا يحتقروا الفقراء والمساكين وألا يتركوا الأقوياء المجرمين طلقاء الأيدى وأن يمتنعوا عن قبول الهدايا ، وكذلك نصت المقدمة على وجوب دفع مرتبات القضاة من الخزينة الصالحة حتى لا تتم نبوءة عاموس « لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعلين فتسلط علينا غضب الرب بتجاوز وصاياه »(١٧) .

وبصدور هذا القانون لم يعد فقهاء القانون الرومانى مصادر موثوق بها ، بل صار التشريع والفقه قائمين على « الوحى » والتمست النظرية القانونية مبرراتها من نصوص مستمدة من الانجيل ، وزالت الفكرة القائلة بأن الزواج يعتبر من الأسرار المقدسة ، فتعذر بذلك الحصول على الطلاق ، وتجلى نفوذ الكنيسة ورجالها فى أمور أخرى

---

(١٧) أسد رستم « الروم » ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .
أنظر ترجمة لمقدمة الاكلوجا فى نهاية الكتاب .

مثل زيادة العقوبات على الجرائم الجنسية ، واحلال عقوبة التشويه وبتر الأعضاء محل عقوبة الاعدام بوصفها أقصى عقوبة فى القانون رغبة فى منح المذنب فرصة للتوبة (١٨) .

واذا أردنا أن نفصل محتويات الاكلوجا ، فانهـا تقع فى ثمانى عشر موضوعا وانها ترتبط فى مجموعها بالقانون المدنى ، ولا تمت بصلة ضئيلة للقانون الجنائى ، تناولت الزواج والخطبة والمهر والوصـايا وحالة من لا يتركون وصايا قبل وفـاتهم والأوصيـاء وعتق الرقيق والشـهود والبيـع والشراء والقرض والرهن والضـمان أو التأمين والاحكار والاقطاعات ونقض العقـود وأمتعة الجند وتقسيم غنـائم الحرب ، وما يتعلق بالقانون الجنائى لا يتعدى ما جاء فى الاكلوجا عن العقوبات(١٩) .

وتختلف الاكلوجا عن قوانين جستنيان اختـلافا بينا فى بعض الأحيان فهى تأخذ بالعرف أحيانا وباجتهادات القضاة السابقين أحيانا أخرى . ويتساوى أمامها الغنى والفقير الأمر الذى لا نلقاه دائما فى مجموعات جستنيان ، والاكلوجا مسيحية أكثر من الدجستا التى صدرت فى عصر جسـتنيان تحل فيها الاستشهادات بنصوص الكتاب المقدس محل الاستشهادات بالشرع الرومانى القديم ، ولكن مع هذا كله لا يرى رجال الاختصاص فى الاكلوجا ما رآه المؤرخ اليونانى باباريغو بولو الذى صنف فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فانه رأى فى الاكلوجا أسسـا لم يتوصل اليـها القانون فى الغرب الا بعد ألف سنة(٢٠) .

ومن أهم مواد الاكلوجا التى تمس بناء الفرد والدولة « ان الكسل

---

(18) Moss. «op. cit.» p.201.

(١٩) العرينى « الدولة البيزنطية » ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٢٠) أسد رستم « الروم » ص ٢٩٩ .

يورث الجـريمة ، وكل فائض ناتج عن عمـل الغير ينبغى أن يعطى للضعفاء لا للأقوياء [٢١] .

وتجلت آثار الاكلوجا فى القانون المدنى بما أصدرت من قوانين الزواج بوجه خاص ، فلم يعد يعترف الا بالزيجات المسيحية وحدهـا وأنقصت أسباب الطلاق الى أربعـة ، وان لم تبلغ نهائيـا كما رغبت الكنيسة ، كما أن درجات تحريم زواج الأقارب رفعت من أربع الى ست وحرم أبناء عمومة الدرجة الثانية من الزواج . وفضلا عن ذلك زادت الاكلوجا أحوال النســاء تحسينا ، فصار للزوجة نصيب معادل لنصيب الزوج فى أملاكهما المشتركة وفى الوصاية على أطفالهما فى حين زاد الأطفال تحررا من السلطة الأبوية ، وحصلت الكنيسة على حق الهيمنة فى الوصاية على اليتامى[٢٢] .

وبذلك زعم الأباطرة الأيسوريين أن تشريعاتهم تفوق فى الروح الانسانية تشريعات غيرهم من البيزنطيين ، حتى أن هذا التشريع ظل معمولا به طوال القرنين الثامن والتاسع حتى قيام الأسرة المقدونية سنة ٨٦٧ م مع صدور بعض التعديلات والتصويبات الى جانب أن كثيرا من البلاد المجاورة والبلاد الصقلبية تأثرت بهذا القانون تأثـيرا كبيرا ، فكان مرجعهم الأول فى كتبهم التشريعية[٢٣] .

ب — قانون الفلاح

صدر فى عهد الأيسوريين ثلاثة قوانين الى جانب الاكلوجا من أشهرهـا « قانون الفلاح » أو المزارعين ، ويرجع صدور هذا القانون الى الوقت الذى صدرت فيه الاكلوجا سنة ٧٢٦ م أو بعد ذلك[٢٤] .

(21) Bury «Constitution of Later Roman Empire» Vol. II p. 414.

(٢٢) رنسمان « الحضارة البزنطية » ص ٨٣ .

(23) Ostrogorsky «op. cit.» p. 141.

(24) Vasiliev «op. cit.» p. 244.

ويتبين لنا قانون الفلاح كيف روعى أن تسيطر القرية التى أسندت اليها تبعة الضرائب على مقدرة الفلاحين المالية فى دائرتها ، ولكن بلغ من ثقل الضرائب أن الفلاح الفقير كان يميل الى تحويل أرضه الى كبار ملاك الأرض أو الملاك من رجال الدين الذين كانوا يقيمون على مزارعهم العبيد أو أرقاء الأرض لا يبارحونها مدى الحياة ، هذا برغم التشريعات المتكررة لمنع هذا التحويل ، وهكذا أصبح هو أيضا من أرقاء الأرض ، وتطور الأمر الى أن عم رق الارض ، وأخذ يحل محل الرق القديم •

وقد بذل الأباطرة اللاأيقونيين مافى وسعهم لتحرير أرقاء الأرض لكن لم تغن محاولاتهم شيئا وتكررت مشكلة الضياع الكبيرة Lati Fundia التى جابهت الامبراطورية الرومانية فى الامبراطورية البيزنطية لكن على نحو آخر ، وكان الفرق أن مالك الأرض البيزنطى كان الى حد كبير أكثر زراعة لحقوله لا يستغلها للرعى وحده ، وان عماله كانوا من أرقاء الأرض الذين كتب عليهم ألا يبارحونها الا من الرعاة العبيد(٢٥) •

والسبب فى إهتمام العلماء بهذا القانون اهتمامهم بظواهر جديدة من الفلاحين كالملكية الفردية الحرة ، والملكية الجماعية أو المشاع أو حرية الانتقال ومنع الخدمة الاجبارية ، كما أشار الى ما يقع بين الفلاحين من أنواع السرقات مثل سرقة الأخشاب والحقول والبساتين ، ومخالفة رعاة الماشية للوائح وما تتعرض له الحيوانات من الأذى أو ما تجلبه من الضرر(٢٦) •

ومن المغالاة أن نأخذ برأى المؤرخ ثيودور أو سبنسكى بأن هذه

---

(٢٥) تاريخ العالم « الحركة البيزنطية فى مظاهرها المختلفة » تأليف :
F.H. Marshall. p. 707.

(26) Vasiliev. «op. cit.»

الظواهر الجديدة شملت الدولة بأسرهـا وأن الفلاح زمن الأيسوريين دخل عهد جديد فشكل طبقة جديدة حرة مستقلة . وقد نغالى أيضا اذا قلنا مع شارل ديل وجورج ماسـيه أن ليو الثـالث وقسطنطين الخامس حاولا بهذا التشريع أن يوقفا توارى الممتلكات الحرة الصغيرة وأن يحدا من طغيان الممتلكات الكبيرة، وأن يضمنا للفلاح ظرف أفضل ولا يجوز التمادى فى القول مع بعض العلماء أن ليو وابنه اضطرا أن يدخلا فى شرع الدولة عرفا خاصا صقلبيـا فى أساسه لكى يستهويا العناصر الصقلبية فى الدولة ، ويوقفا ميل هـؤلاء الى التحالف مع البلغار والتعاون معهم(٢٧) .

وما يصح استخلاصه من قـانون الفلاح أنه حدث فى الدولة البيزنطية أن قام الى جانب القنية نوع من الفلاحة الحرة ومجتمع فردى حر ، ويرى فازيليف أنه ليس معنى ذلك الغاء القنية Serfdom فى الامبراطورية البيزنطية ، بل انها موجودة وهى القـاغذة الأساسية فى الكيـان الاقطاعى(٢٨) .

وترى الأستاذة هاسى Hussey أن المجتمع القـروى عكس صورته قانون الفلاح لأن هذا القانون يصف المجتمع القـروى الذى يسكنه ملاك أحرار من الفلاحين ، وهم من الفئة التى اسـتفادت من السياسة الامبراطورية فى القرن السابع والتى منحت الفلاحين الأرض مقابل آدائهم للخدمة العسكرية ، وهذه الأرض يمتلكها الآباء ويورثها أكبر الأبناء فى الأسرة(٢٩) .

وعلى الرغم من أن هذا القانون كان يهتم بهذه الفئة من الفلاحين الا أنه هناك تفصيلا للحياة الزراعية والرعوية .

---

(٢٧) أسد رستم « الروم » ص ٣٠٠ .

(28) Vasiliev «op. cit.» p. 245.

(29) Hussey «The Byzantine World» p. 130.

فهذا القانون يصور الفلاح الذى يعمل فى حقول الكروم وحقول التين ومزارع القمح بمساعدة العبيد والعال المرتزقة الذين يقوون أيضا برعى الماشـــية والابل والخنازير •

ويطرح القانون كذلك العقوبات والأحكام التى تصدر وتوقع فى مختلف الأغراض ، خاصة وأن جميع الأراضى الزراعية متجاورة ولا بد من حدوث النزاع الى جانب الأحكام التى توقع على الرعـــاة الذين يبيعون شيئا من المـــاشية سرا ، وما يحصل عليه الرعاة من تعويض فى حالة ما اذا هاجمتهم حيوانات برية متوحشة ، أو حدوث هياج لأى من الحيوانات والمواشى(٣٠) •

الى جانب ذلك أشار القانون الى كثير من الموضوعات منها أن الفـــلاح ربمـــا يتعـــرض لـــكوارث يصـــعب عليـــــه تحملهـــــا أو يتصرف فيها ، فمن الممكن أن تتلف المحاصيل أو تهلك المـــاشية أو تسرق خاصة على الحدود الشرقية لآســـيا الصغرى حيث يحدهم الفرس والعرب والأتراك ، الى جانب الغارات الدائمة من جانب بعض العناصر المسيحية على الحدود والتى أدت الى انهيار كثير من ديار الآباء والأجداد، أو ربما تتعرض البلاد لاغارات من أسراب الجراد أو أى أنواع أخرى من الحشرات الضارة أو تتعرض لأوبئة فتاكة ، كل ذلك ربما يؤدى الى هلاك المحصـــول ويجعل من الصعب على الفلاح أن يقوم بســـداد الضرائب المفروضة عليـــه ، حتى ان بعضهم يلجـــأ الى القديســـين الموجودين فى المناطق المحيطة بهم • ليتبركوا بهم ويطلبوا منهم حمايتهم من الضر والأذى مثل القديسة ثيودورا فى سيكيون Sykcon التى تعارف الناس على أنها تمنع الكوارث والأذى الذى يلحق الناس من العواصف والجراد والنحل الذى يتسبب فى تلف المحاصيل خاصة

---

(30) Hussey Ibid.

الكروم ، كما أنها تحمى جميع الحيوانات المنزلية من أى أذى[٣١] .

لذلك نرى أن قانون الفلاح تمتع بأهمية هامة فى العـالم حتى انه جرى ترجمة هذا القانون الى اللغة الروسية ، وصارت هذه الترجمة تعتبر جانبا بالغ الأهمية يحمل عنوان « القانون الذى بمقتضاه يقوم جميع الأمراء على تنظيم أمورهم »[٣٢] .

ويعطينا قانون الفلاح صورة لحياة المجتمع الزراعى البيزنطى فى القرن الثامن والتاسع ، يقول « تحف بالقرية البساتين وحدائق الكروم من حولها السياجات وفى خارجها الحقول المزروعة وليس بها سياجات ولكنها تابعة مع ذلك للملاك من الأفراد . وفى الحلقة الخارجية توجد المراعى وهى ملك مشاع للجميع ، ولكنها لو أخليت بما بها من شوائب وعوائق ثم زرعت انتقلت ملكيتهـا الى يد فالحهـا ، وكانت تعرض عقوبات فادحة على كل من ألحق الضرر عن عمد أو اهمـال بممتلكات القرويين فكان سـارق جرس المـاشية يعد مسـئولا عما يحل بتلك المـاشية من ضرر كما كان سارق كلب الغنم مسئولا عن القطيع بأكمله ، والرجل الذى يسمح لسائمة بالدخول الى المناطق المحصودة قبل أن تختزن جميع محصولات جيرانه كان يعرض نفسـه للغرامة ، وذلك لأن السائمة قد تشرد فتؤذى الجيران[٣٣] .

ويرى الأستاذ ديل أن قانون الفلاح كان نتيجة للتأثيرات التى أحدثتها هجرات الأقوام السلافية فى الانظمة الزراعية فى الامبراطورية البيزنطية[٣٤] .

---

(31) Ibid. p. 131.
(32) Vasiliev «op. cit.» p. 245.
(٣٣) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٥٠ .
(34) Diehl. «Histoire de l'empire Byzantine» p. 69.

Rhodian Sea Law

القـانون البحرى الرودسى

من أهم ملاحق الاكلوجـا القـانون الذى صدر باسم القانون البحرى الرودسى وهو عبارة عن قانون بحرى تجارى يبحث فى توزيع المسئوليات عند تعرض السـلع التجارية لخطر اما من جراء العواصف البحـرية أو القرصنة[٣٥] فالمعـروف أن الامبـراطورية البيزنطيـة كانت تتمتع بخط كبير من السواحل ، وعدد لا حصر له من الجزر حتى أن نسبة كبيرة من سكان الامبراطورية كانوا يتعيشون على العمل فى البحار ، فبعضـهم يعملون بالصـيد والبعض بالمـلاحة فى الشركات البحرية أو الأسـطول الامبراطورى وظلوا يتمتعـون بهذه الأهميـة البحرية فى العالم حتى حلت محلهم الجمهوريات البحرية الايطالية فى القرن الثانى عشر[٣٦] •

وهذا القانون عبارة عن مجموعة من التنظيمات لفئة التجار الذين يعملون على السفن الصغيرة ، فهو يصف الاستعدادات والسـلطات الممنوحة لكل طاقم السفينة والركاب وعلى سـبيل المثال « فقد كان يسمح لكل فرد بمكان له للاقامة فى السفينة ، فالرجل يمنح حجرة يزيد اتساعها ثلاثة أضعاف مساحة الحجرة التى تقيم فيها المرأة » •

وقد حدد القانون الرودسى كثيرا من الأخطار التى يتعرض لها طاقم السـفينة ، وحدد ضرورة تجنبها مثل الحرائق التى تحدث فى السفينة أو استيلاء القراصنة عليها أو تحطمها فى عرض البحر •

ومنع القانون الرودسى جميع الركاب من اشعال الخشب أو قلى السمك أو شواءه داخل السفينة ، ومنحوا قائدها صلاحيات لمنع الركاب

---

(٣٥) أسد رستم « الروم » ص ٣٠١ •

(36) Hussey «op. cit.» p. 131.

من فعل ذلك ، فلهم أن يحصلوا على ما يريدون من الطعام من المطعم الصغير الموجود بالسفينة ، ولقائد السفينة الحق فى ترك الركاب على الشاطىء اذا وجد ذلك ضروريا لسلامة السفينة ، ويسمح لهم بالركوب فى الحالات الطبيعية ، وذلك حتى يجنبهم أخطار هجمات القراصنة ، وله الحق في ترك كميات من حمولة السفينة اذا زادت عن الوزن المحدد ، حتى اننا اذا درسنا جميع بنود القانون البحرى الرودسى نجد أنها تتشابه مع نظم التأمين البحرية المعاصرة (٣٧) .

ويفرض هذا القانون الخسارة التى قد تتعرض لها بضائع السفينة على التاجر ، ومالك السفينة وهو عادة القبطان والركاب الموجودين عليها أيضا (٣٨) .

وظل هذا النظام معمولا به ، حتى بعد الغاء جميع التشريعات الأيسورية ، ويرى بعض الباحثين أن وجود القراصنة البحريين بمناطق بحر ايجه الى جانب الخرائط البحرية الخاطئة ، كل ذلك كان يعرض التجار لأخطار كثيرة جدا فى الطريق مما سبب ابتعاد الناس عن المغامرات البحرية ، وقد تدخلت الدولة بالتشريع البحرى الذى يحفظ حقوق الركاب والعاملين على السفن ، ويجعل حساب الربح والخسارة مفروضا على الجميع (٣٩) .

قانون الجند

يرى الباحثون أن قانون الجند الذى ظهر ملحقا للاكلوجا مع غيره من القوانين ليس الا صورة للدجستا Degesta التى أصدرها من قبل الامبراطور جستنيان ، والتي تنظم العمليات العسكرية ، وأساس هذا القانون العقوبات التي تفرض على العسكريين الذين

---

(37) Ibid.
(38) Vasiliev. «op cit.» p. 249.
(39) Ibid.

يتمردون على الدولة أو يفعلون ما يخل بواجبهم تجـاه وطنهم ، وعلى الذين يفرون من ساحات القتـال أو يخـالفون الأوامر أو يرتكبون الفواحش[٤٠] . والواضح أن ليو حاول السيطرة على دولته الجديدة التى حدد لها مذهبا دينيا مخالفا لمـا كان سائدا ، فكان لابد أن يحكم سيطرته على الجيش الذى يعتبر حاميا ومدافعا عنه ، ففى رأيه أنه طهر العقيدة المسيحية من جميع الخرافات والأباطيل ، لذلك عمل على تطهير الجيش من أى أعمال تتنافى مع الأخلاق والآداب العامة .

أما نظام الثغور Themes وهى انزال فرق معيـنة أى تجمعات نظامية معينة من الكتائب للدفاع عن نواح ثابتة معينة ، ثم تعيين قائد تلك الفرق أو Strategus رئيسا للحكومة المدنية أيضـا ومن ثم سميت النواحى باسم ألوية الثغور ، وفى البداية كان كل لواء يسمى باسم الفرقة التى تحتله[٤٣] .

ويرى الباحثون أن ليو الثالث حاول أن يجعل من ثيمات آسيا الصغرى ستا بدلا من أربع وذلك خوفا من تمرد هذه الولايـات أو اندلاع ثورات بها ربما تؤدى للسيطرة على العرش مثلما حدث من قبل مع الامبراطور ثيودسيوس الثالث .

وكانت الثغور فى آسـيا الصـغرى على الترتيب فى الأهمية الأناتوليك ، والأرمنياق ، وتراقيسيا والابسيق والبكلار والراجح أنه جرى قبل مهاجمة المسلمين لأقاليم الأطراف أن انفصل من ثغرى الأناتوليـك والأرمينـاق جهـات تكونت فيـها حكومـات الاطراف « كيلرجيات » اتخذ قادتها من الاجراءات والتدابير ما يستطيعون بها الدفاع عنها مستقلين عن قائدى الثغرين الكبيرين وعلى هـذا النحو قام ثغر سيلوقية غرب فيليبثيه بعد انفصاله عن ثغر الأناتوليك ، ونشأ

---

(40) Ibid.

(41) Bury «The eastern Roman empire» p. 322.

ثغر خرسيانون من بعض جهات منتزعة من ثغر الأرميناق ، ولما ازدادت حدة الاغارات الاسلامية فى القرن الثامن الميلادى ، دعموا تلك الجهات بحاميات اتخذت اسم حراس الحدود Akritoi ومهمتها مساعدة قادة الثغور [٤٢] .

أما الثغور فى أوربا فلم يتجاوز عدد الثيمات أربعا فى القرن الثامن وهى تراقية مقدونيا هيلاس وصقلية[٤٣] .

الجيش البيزنطى

لعب الجيش دورا بارزا فى جميع مدن العصور الوسطى خاصة فى الدولة البيزنطية التى أحاط بها أعداؤها من كل جانب ، لذلك فان التنظيم العسكرى للدولة يعتبر الأساس الأول الذى بنى عليه الأباطرة سياستهم ، فقد كانوا يعملون على تحقيق هدفين أساسيين هما الدفاع عن الامبراطورية ورخاء الجيش[٤٤] .

كان تقدم الامبراطورية واتساع حدودها واجتيازها للصعاب رهينا بقوة الجيش وحسن استعداده وطاعة رجاله للقيادة ، وحسب قول أحد الأباطرة أن « الجيش بالنسبة للدولة كالرأس من الجسد »[٤٥] .

فلم يكن البيزنطيون بفطرتهم شعبا عسكريا ، أجل أن الجرأة العسكرية كانت تثير اعجابهم ، بيد أنها لم تكن هى الصفة المرغوبة الوحيدة كما كانت فى الغرب الآخذ بسنن الفروسية ، وكان القائد المظفر يظل خادما للدولة يحظى بكل تقدير ، فالضرورة هى التى قضته

---

(٤٢) العرينى « الدولة البيزنطية » ص ١٦٩ .
(٤٣) أسد رستم « الروم » ص ٣٠٢ .
(44) Diehl «Byzantium, Greatness and Decline» p. 40.
(45) Ibid.

عليهم أن يصوغوا أنفسهم فى الوقت المناسب على أسس عسكرية وأن يولوا الشئون العسكرية كل التفاتهم وعلمهم ، وكان ذلك كله فى مصلحتهم فكانت بيزنطة طوال القرون الوسطى هى البلد الوحيد الذى كانت تدرس فيه فنون الحرب وأدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش بعناية ودقة(٤٦) .

الجيش وعناصره

أ — المجندين :

منذ العصور الرومانية القديمة والجيش يتكون فى أساسه من مجموعة من الرجال الذين يجندون من سكان الامبراطورية ، خاصة وأن الخدمات العسكرية كانت تحتاج الى كل مواطن رومانى يتراوح عمره ما بين الثامنة عشر والأربعين وذلك سواء أكان التجنيد اجبارى أم تطوعى ، فهؤلاء يكونون الصفوة المختارة وأهل الثقة من الجنود وهذا ليس لأنهم من أحسن العناصر ولكن لأنهم ممثلين لوطنهم ، فهؤلاء هم ورثة الفرق الرومانية القديمة . وهذه الحقيقة تخالف الاعتقاد السائد بأن هذه العناصر الوطنية كانت تمثل فى اعدادها نسبة كبيرة فى الجيش البيزنطى(٤٧) . وقد كانت الفرق تتألف من مجندين محليين ليسوا على المستوى المطلوب . لذلك فان القوات المسلحة الممتازة كانت تتألف من الجنود الفلاحين القادمين من تراقيا ومقدونيا ومن سكان جبال كبادوكيا وايسوريا وأرمينيا وهناك فئة أخرى من الفلاحين كانت تنتسب الى الألوان وكانوا من الطبقات الفقيرة. وقد نزعوا من أراضيهم ، وكانوا لا يعلمون شيئا عن فنون القتال .

لذلك اضطرت الحكومة الى أن تقبل البدل النقدى مقابل الخدمة العسكرية ، وفى بعض الأحيان كانت تشجع كل من هو فى سن

---

(46) Oman «History of the Art of War» p. 37.
(47) Diehl. «op. cit.» p. 41.

الجندية حتى يوفى بالتزامه فى المجال العسكرى • كما أن الحكومة بدأت فى الاعتماد على قوات المرتزقة من أجل تقوية الجيش ومساعدة فرق المجندين[٤٨] •

القوات المرتزقة :

لم يجد الأباطرة البيزنطيين غضاضة من الاستعانة بالجنود الممتازة الذين كانوا يساهمون فى القتال ويقدمون خدماتهم • وقد تلاحقت الطلبات من الأجانب المقيمين فى الامبراطورية وعلى حدودها ومعظمهم من الأتراك ومن أهالى ياردين ، وعبيد من مقدونيا ، وآخرين كان يطلق عليهم الحلفاء ، وكانوا أصلا عبارة عن قوات الجنبية يرسلهم حاكم دولتهم الى الامبراطور البيزنطى ويعملون تحت امرة القيادة العسكرية والضباط القادمين معهم •

وهناك نوع آخر من الحلفاء يسمون «Confederates» هؤلاء هم بقايا المرتزقة من الجنود البرابرة متعددى الجنسيات والذين كانوا يقدمون خدماتهم للامبراطورية •

ومن ذلك نرى أن الجيش الامبراطورى كان خليطا من جنسيات متعددة تحت القيادة البيزنطية الموحدة ، وأهم العناصر التى شاركت فى الجيش فى فترة دراستنا أعنى القرنين الثامن والتاسع كانوا من الخزر والصقالبة والروس والسلاف والأيبريين ومن جورجيا ومن ماردين والقوقاز والعرب والأتراك ورجال الشمال سكان شبه جزيرة اسكندناوه والنورمان المقيمين بايطاليا[٤٩] • وكان الامبراطور يعاملهم معاملة حسنة ، على أنهم أحرار ، وكانت رواتب ضباطهم مغرية قدرت لتكفى احتياجات هؤلاء الجنود خاصة القادمين من أرمينيا والقوقاز ولتكفى نهم وجشع الجنود المغامرين الاسكندنافيين والروس

(48) Ibid.
(49) Diehl. «op. cit.» p. 41.

وزيادة على ذلك فقد منح الأرض لمجموعة من الجنود الذين إنضموا تحت لواءه وسجلت لهم ، وأصبحت حقا يحكمه القانون ولا يمكن لأى شخص أن يسلبها منهم ، فهى أقطاع لهم ومن حق ملاك هذا الاقطاع أن يمنحوا لقب « الفارس » .

وبالاضافة الى هذه المميزات فقد تمتعوا باعتبارات خاصة ، فقد أولاهم الامبراطور ثقته التى زادت عن الثقة التى منحها لجنوده الوطنيين . فقد اعتبر الامبراطور أنه اذا دفع مرتبات الجنود المرتزقة وأغراهم بالمال فسيكونوا رهن اشارته وتحت طلبه وسيدافعون عن أى عدوان على الامبراطورية ، فلذلك جعل عليهم قيادات قوية ومخلصة لأن هؤلاء الجنود هم عماد أمن الامبراطورية لذلك فان قوات الحرس الخاص الرفقاء Hetaeria كان معظمهم من الجنود الأجانب خاصة الروس الاسكندنافيين والخزر(٥٠) .

ونتيجة لهذه السياسة فقد اندفع الجنود المرتزقة على الامبراطورية من جميع ارجاء بلاد البرابرة .

وتقدر اعداد الفرق المواجهة للمسلمين فى آسيا الصغرى حوالى ٧٠٫٠٠٠ جندى ، فاذا أضفنا اليهم اعداد الحرس الامبراطورى وقوات الجيش الموجود فى أوربا ، فذلك يعطينا صورة العدد المقدر للجيش بحوالى ١٤٠٫٠٠٠ جندى على الأكثر(٥١) .

وكانت قوة الجيش البيزنطى تقوم على فرسان الخيالة الثقيلة وكانوا يلبسون الزرد من الفولاذ ودروعا ويقومون بطبع علامات على الجبهة للضباط وصف الضباط وكانت لهم عباءات من التيل والصوف يلقونها على دروعهم تبعا لحالة الجو ، وكان سلاحهم السيف والخنجر

---

(50) Ibid.

Oman «op. cit.» p. 43.

والقوس والكنانة والرمح • وكانت الخصلة المربوطة بالزرد وراية المزراق والعباءة تلون تبعا للفرقة • وكان المشاة فى معظم الأمر من النابلة الحقيقية ، وذلك على حين أن بعض الولايات كانت تقدم بدلا من ذلك رجالا من حملة الحراب ، ولكن كان هناك أيضا فرق من المشاة الثقيلة يلبسون الدروع ويحملون البلط والرماح والسيوف والتروس وهم الذين يقفون على الممرات الجبلية الوعرة التى لا يكاد الراكبة يصلحون للعمل بها • وكانت النار الاغريقية هى الظاهرة الرئيسية فى الحرب البحرية البيزنطية لا يستخدمها العسكريون الا لدفع المحاصرين عن أنفسهم(٥٢) •

وكانت قوات الخيالة تتلقى تدريبات شاقة ولهم نظام عبر عنه المؤرخون فى كتاباتهم عن الفترة ما بين القرن السادس والعاشر ، وقد كانت هذه الفرق محاربين موسميين ، قادرين على تحمل أى نوع من المشاق والحرمان ، وكان تفوقهم الدائم على أعدائهم فى الحروب يرجع الى التطور الدائم فى طرق القتال وأساليبه • حتى أن المؤرخين نعتوهم بأنهم هم ورثة الجنود الرومان القدماء الذين أخضعوا العالم لسلطانهم(٥٣) • وفى المجتمع البيزنطى لم تكن هناك ضياع وعزب ذات مستوى عالى مثل التى يمتلكها الجنود ، فقد كانوا هم وذويهم يتمتعون داخل اقطاعاتهم بمميزات كبيرة ، وفى داخل المجتمع المدنى كان رجال الجيش أعلى الطبقات ، ويمتازوا عن الأشخاص المدنيين(٥٤) وينحدر من فرق الخيالة فرقة « التاجماتا » وهى فرق الحرس الامبراطورى الأربعة كان لها دورها الكبير • فقد ظهرت أهمية هذه الفرق فى القرن التاسع وهى فرقة المدارس Scholae والديادبة Excubitors ووحدة الجند المساة أريثموس Arthmos

---

(52) Oman «op. cit.» p. 184.
(53) Diehl. «op. cit.» p. 44.
(54) Ibid. p. 45.

والهيكاناتى Hicarati فكان اذا خرج الجيش البيزنطى بهجوم مضاد خرجت فرق التاجماتا من القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور أو دومستق المدارس فيلحق بها عند نقاط معينة من الطريق العسكرى العظيم الذى يخترق آسيا فصائل من جند الألوية المختلفة(٥٦) .

البحرية :

ظلت البحرية البيزنطية على أعلى مستوى من اللياقة العسكرية منذ القرن السادس وحتى القرن الثامن . ولكن ظهور العرب وانتشار الاسلام فى الشام ومصر ، وسيطرتهم على سواحل البحر الأبيض المتوسط وهزيمتهم للبحرية البيزنطية فى المواقع المتواصلة على سواحل الشام كل ذلك أدى الى انحسار فن القتال البحرى وانهياره أمام العبقرية الاسلامية البحرية الممثلة فى الأمويين الذين سيطروا على جزر البحر الأبيض مثل جزيرتى كريت وصقلية .

ولم يتحقق النصر البحرى للبيزنطيين فى غضون الفترة التى ندرسها الا على يد ليو الأيسورى سنة ٧١٧ م عندما تمكن بفضل الخدع الحربية من هزيمة جيش الأمويين بقيادة مسلمة بن عبد الملك . وبعدها أهملت البحرية البيزنطية وحتى القرن العاشر(٥٧) .

وكانت السفن الحربية فى العادة تغص برجال البحر على طول الشواطىء الأسيوية وفى الجزر وفى اليونان . وقد بنى رجال البحرية ترسانة كبيرة للسفن صنعت فيها السفن الحربية المسماة Dromons كانت تسع ثلاثمائة رجل منهم سبعون جنديا بالاضافة الى بعض الصنادل والقوارب الصغيرة يحملها من ١٣٠ لى ١٦٠ رجلا ، وهؤلاء كانوا يحملون النار الاغريقية التى استخدمت فى الحروب البحرية منذ القرن السابع والخترعها أحد المهندسين من أهل الشام(٥٨) .

---

(55) Bury. «Imperial Administation System» p.p. 47-68.
(56) Ibid. p. 53.
(57) Deihl. «op. cit.» p. 51.
(58) Ibid, p. 52.

النظـام المـالى والنقـدى

استلزم الانفاق على الجيش والأسطول نظاما محكما للضرائب ، فقد كان شراء المتطوعين خاصة يتطلب نفقات طائلة ، وكانت الضريبة على الأرض أساس المـالية البيزنطية ، وكانت جملة الضرائب التى يراد جبايتها تعلن بمرسوم عـام ويحدد الوالى والحكام التابعون له القدر الذى تؤديه كل منطقة من المنـاطق ، وكانت وحـدة الضرائب قطعة من الأرض تسمى Jugun تتفاوت فى الحجم حسب قدرة الأرض على الانتاج ونوع المحصولات التى تزرع فيها ، لكن أصبحت الضريبة تفرض فى آخر الأمر على الفرد(٥٩) •

أما النظام النقدى فهو أهم مؤشر يدل على الاستقرار الاقتصادى فى هذه الامبراطورية ، وعلى أنه كان يضارع النظم النقدية المعمول بها فى أى دولة من دول العالم شرقية وغربية •

وقد قسم المتحف البريطانى النقود البيزنطية الى سبعة أقسـام متفرقة أولها يبدأ بعهد الامبراطور أركاديوس سنة ٤٩١ م.ويمتد حتى عصر قنسطنطين الرابع سنة ٦٨٥ • واختيارهم لسـنة ٤٩١ كبداية للعملة البيزنطية أنه قبل هذا التاريخ كانت جميع العملات رومانيـة وليست بيزنطية(٦٠) ، وحتى العملة التى سكت حتى القرن السـادس الميلادى كانت تغلب عليهـا الصبغة الرومانية • والقسم الثانى من جستنيان الى ثيودسيوس الثالث ٦٨٥ — ٧١٧ م وقد اتسمت بانخفاض عدد دور الضرب لكثرة الهجمات الاسلامية ، وثانيا نتيجة السياسة التى اتخذتهـا الامبراطورية لتركيز شـئون الدولـة بأكملها داخل القسطنطينية •

---

(٥٩) موسوعة تاريخ العالم « الحركة البيزنطية » تأليف
F.H. Marshall. p. 708.

(60) David. T. Rice. «The Byzantines» p. 142.

والفترة الثالثة تبدأ من عهد ليو الثالث الأيسورى الى عهد ثيوفيليوس ٧١٧ — ٨٤٢ م وتشمل فترة النزاع اللاأيقونى والتى اتسمت ليس فقط بحذف الصور الدينية من أوجه العملة ، لكنها فى وقت من الأوقات استعاضت عن الصليب المحفور على الوجه الآخر لصورة العملة ، وهذا يدل على الحد الذى وصلت اليه الآراء الدينية فى تلك الفترة • وقد كانت صورة العملة فى هذه الفترة متمسكة بالدين والتقاليد متسمة بالخشونة والجفاف ، ليس لها أى مسحة فنية وهى تختلف كلية عن العملة التى سكت فى الفترتين الرابعة والخامسة(٦١) • ففى الفترة الرابعة ، والتى تبدأ من عهد ميخائيل الثالث الى حنا الأول ٨٤٢ — ٩٧٦ م والخامسة من عهد باسيل الثانى الى قنسطنطين الثامن ٩٧٦ — ١٠٨١ م • والتى ظهرت فيها صور الأباطرة على العملة ولاحت فيها روح الأسرة المقدونية •

وبعدها فى القسم السادس تظهر نقود أسرة آل كومنين من الكسيوس الأول الى الكسيوس الرابع ١٠٨١ — ١٢٠٤ م وفيها تظهر ملامح التدهور الاقتصادى والسياسى •

أما الفترة التى حكم فيها الأباطرة اللاتين فى القسطنطينية ١٢٠٤ — ١٢٦١ م ، فلم تسك فيها أية عملة ، وكانت العملة السائدة هى العملة البندقية الفضية ، والتى ليست فيها أية مسحة بيزنطية أما العملة الرسمية فهى تلك التى سكت فى سالونيكا ونيقيه وطرابيزون والتى سكها الأباطرة البيزنطيون الذين حكموا هذه المناطق ، وبعد عام ١٢٦١ عادت دور الضرب البيزنطية الى عملها فى القسطنطينية ، وبدأت فى سك العملة المحلية ، فظلت العملة التى سكت فى طرابيزون معمولا بها أيضا طوال وجود الامبراطور البيزنطى حتى هزمه الأتراك العثمانيون سنة ١٤٦١ م •

---

(61) David. Rice. «Ibid» p. 143.

أما العملة التى حددوا لها القسم السابع فهى خاصة بآل باليولوجوس ١٢٦١ — ١٤٥٣ م (٦٢) .

احتفظت العملة البيزنطية طوال تاريخها بقيمتها سليمة لم يمسها سوء ، وكانت الامبراطورية البيزنطية تسير على نظام العملة الذهبية ، وكانت وحدة العملة تزن حوالى ٦٠ حبة ، وكانت تعرف فى بادىء الأمر باسم Solidus صولديوس ، وفى العالم الشرقى باسم النوميسما Nomisma وهى تساوى ١/٧٢ واحد على اثنين وسبعين من رطل الذهب ،فى الوقت الذى كان يتعامل فيه الغرب بالبيزانت ومن بداية الدولة الأيسورية وحتى نهاية عصر قنسطنطين الخامس ٧٤٠ — ٧٧٥ م سكوا عملة تسمى سيميسيس Semissis تساوى نصف الصوليدس وسكوا عملة أخرى اسمها Tremissis تريميسيس وهى تساوى ثلث الصوليدس . حتى كان عهد باسيل الثانى فبدأوا فى سك أشكال مختلفة من النوميسما الخفيفة والثقيلة(٦٣) .

وكانت العملة الذهبية تسك بالقسطنطينية فقط ، أما غيرها من المعادن فتسك بأى مكان بالامبراطورية . لذلك سادت العملة الفضية فى عصر جستنيان فى كل من روما ورافنا وقرطاجة ، والبرونزية تسك فى نفس هذه المناطق بالاضافة الى سالونيكا ونيقوميديا ، والخزر وايطاليا والاسكندرية وصقلية .

ومنذ منتصف القرن الثامن ، تقلصت العملة البيزنطية وخرجت من ايطاليا وشمال افريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط ، حيث دخلت معظم هذه المناطق فى الاسلام وخرجت عن النفوذ البيزنطى(٦٤) .

---

(62) Ibid. p. 145.
(63) David. Rice. Ibid. p. 145.
(64) Ibid. p. 146.

أما العملة الفضية فكانت نادرة بالقياس بالعملات الذهبية ومن أهم العملات الذهبية التى تداولت فى هذه الفترة السميليساريسيا التى تختلف فى وزنها من عصر الى آخر ، وهى تساوى ١/١٢ من النوميسما وقد سك الامبراطور هرقل عملة فضية تسمى هيكساجرام ، ولكن قنسطنطين الخامس استبدلها بعملة تميزت بكتابات تؤيد الفكرة والعقيدة اللاأيقونية مع حذف الصور المشخصة عليها(٦٥) .

أما العملة البرونزية فبدأ التعامل بها منذ عهد أنستاسيوس الأول ٤٩١ — ٥١٨ م حيث سك مجموعة كبيرة من الفلسات Follis وهى تساوى ١/٢٤ من النوميسما ، حيث انتشر التعامل بها فى العصر الأيسورى .

وقد اهتم الأيسوريين اهتماما كبيرا بالنظم والتشريعات المالية والرقابة الصارمة على أوجه الايرادات والنفقات ، كما اهتموا بالضرائب المفروضة على الشعب البيزنطى ، ومن أهم القوانين التى اتخذوها لتعود بالنفع المالى على ضريبة الدولة مضاعفتهم لضريبة الحبوب المعروفة باسم Corn Tax وهى معروفة منذ عهد قنسطنتين الكبير (٦٦) .

---

(65) Ibid.

(66) Deanesly «op. cit.» u. 409.

الفصل الثانى

نظـام الحكم والادارة فى الامبراطورية الكارولنجيـة

* نظـام الحكم فى عهد شارلمـان
* حدود امبراطورية شارلمـان
* حكومة شارلمـان
* مجالس الأعيـان
* النظـام الادارى ـ الكونت ـ الأسـقف ـ نظـام المبعوثين
* المراسيم والتنظيمات الامبراطورية
* القوانين والتشريعات
* التنظيمات المـالية
* التنظيمات العسكرية

الفصـــل الثانى

نظـــام الحكم والادارة فى عهد شارلمـــان

حكم شارلمـــان مملكته وامبراطوريته فيما بعد ، على أساس ومبدأ سياسى هام وهو أن الحكم هبة من الله سوف يسلبها منه متى شـــاء ، وتلقى عن الكوين النصائح الهـــامة منهـــا « أن الامبراطورية ليست الا مسئوليـــة ضخمة ، فبينما يقوم الملك بسياســـة أمة والحدة ، يعتبر الامبراطور صانعا وحافظا لذلك النظـــام الاجتماعى الذى لم تكن الممالك فيه الا أحداثا عابرة »[١] .

استطاع شارلمـــان أن يقبض على زمام مملكته المتســـعة الأرجاء ، كما أضاف الى حدودهـــا أضعاف ما كانت عليه زمن آبائه ، فاشتملت مملكة الفرنجة على حدود تمتد ما بين الراين واللوار والمحيط وجزائر البليار الى جانب أنها ضمت جزءا من المانيـــا سكنه الشعب الذى سمى بالفرنجة الشرقيين ، والذى تحده سكسونيا والدانوب ونهـــر الراين والســـال الذى كان يحد بين الثورنجيين والســـوربيان . وبين موطن الألمينيين والبافاريين[٢] .

تمكن شـــارلمان من ضم اكيتانيا وجاسكونى ومعظم المنطقة التى تقع على تخوم نهر ابرو حيث يرتفع ويضم نافار ، ويجرى فى معظم الأراضى الخصبة فى أسبانيـــا ، كما ضمت ممتلكاته كل ايطاليـــا من أوســـتا Aosta الى كالابريا Calabria حيث يقـــع خط

---

(١) ديفز « شارلمان » ص ١٩٢ .

(2) Einhard. «op. cit.» p. 40.

الحـــدود بين بنفينتو واليونان الى جانب أن هناك منطقة السكسون « سكسونيا » والتى تعتبر جزءا من ألمانيا وتعتبر من حيث المساحة ضعف المنطقة التى يسكنها الفرنج كما ضمت كلا من بانونيا وداكيا ودلماشيا ما عدا البلاد التى تقع على الساحل فقد تركت للامبراطور البيزنطى احتراما للاتفاقية المعقودة فيما بينهما(٣) •

استطاع شارلمان أن يفرض سيطرته أيضا على القبائل الجرمانية التى تسكن ألمانيا بين الراين والفستولا والمحيط والدانوب حتى أصبحوا يتكلمون جميعا لغة واحدة ، لكنهم كانوا يختلفون عن بعضهم كثيرا فى عاداتهم وملابسهم • وعلى رأس هذه القبائل كانت قبائل الويلاتابيان Welatabians والصربيان Sorabian والأبودريتى Abodriti والبوهيميين Bohemians الذين شن عليهم الحرب • أما القبائل الباقية والمتعددة ، فسلمت له من تلقاء نفسها(٤) •

والآن لابد لنا أن نستعرض الآراء التى عرضها المؤرخون حول أسلوب شارلمان فى حكم امبراطوريته •

يرى الأستاذ ديفز « أن حكومة شارلمان لم تكن استبدادية ، فعلى ارادة أتباعه والجيش الوطنى ترتكز كل سلطته ، والواضح أنه جرى الاعتراف بالسيادة الاسمية للشعب ، وأنه يلتمس موافقتهم على القوانين ومع ذلك فان حضورهم وموافقتهم يعتبر أمرا مطلوبا من الناحية النظرية »(٥) •

ويرى الأستاذ طومسون عكس ذلك : ان حكومة شارلمان كانت مطلقة وكلمة الملك فيها قانون ، وكان وزراء دولته هم موظفو قصره الذين تشغلهم واجبات القصر ، والتابعون للملك تبعية مطلقة وكانت تناط

---

(3) Ibid. p. 41.
(4) Ibid.

(٥) ديفز « المرجع السابق » ص ٢٢٥ •

بهؤلاء الموظفين أحيانا مهام حربية أو قضائية ، لكن الواجبات التى تفرض عليهم كانت أصـــلا خاصة بالقصر[٦] لكننا فى الحقيقة نــرى الرأى الذى يقول ان شارلمـــان قد حكم امبراطوريته حكما شخصيا لا حكما استبداديا ، لأن الامبراطور الذى لم يباشر سلطاته عن طريق جيش نظــامى تقــوم الامبراطورية على رواتبه ، ولم يعتمــد على بيروقراطية منظمة لتصريف شئون الادارة والحكم بل لم تستند ماليته على دخيـــلة أو ضريبة معينة تأتى الى الخزينة نقداً ولا يســـتطيع أن يسيطر على أمور الدولة الا من ناحية السـلطة الشــخصية والنفوذ الواسع ، ولا يستطيع طبعا أن يقوم بدور الحاكم المستبد ومن الدليل على ذلك مجالس الأعيان Plactia Generalia [٧] .

دأب شارلمـــان على أن يعقد مجلس الأعيان مرتين فى السنة فى مراكز مختلفة وهى التى حلت محل الاجتماعات الأستراسية التى كانت تعقد فى الأصل فى شــهر مارس ، غير أن ببين Pepin فى عــام ٧٥٥م غير موعد اجتماعها فجعله شهر مايو ، وفى عهد شارلمان كان الوقت الذى يعقد فيه اجتماع الربيع وفقا لهواه ، وكان يعقد اجتماع آخــر فى الخريف ، ولكن كان اجتماعا خاصا بالملك والأعيان يناقشون فيه المسائل الخاصة . ولم تكن تعلن نتائج مداولاته الا فى اجتماع الربيع التالى الذى كان له طابع قومى ، وكان يشترك فيه الكونتات والأساقفة والأشراف وأتباعهم .

كان الملك فى اجتماع الربيع يطرح للمناقشة المراسيم أو اللوائح القضائية التى يكون قد أعدهــا من قبل ، وكانت المناقشة نفسها قاصرة على الأعيان وكان الكونتات والأشراف المدنيون يتشاورون بمنأى عن الأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار الاحبار فى قاعــات مختلفة أو فى

---

(6) Thompson «The Middle Ages» p. 479.

(٧) فشر « تاريخ أوربا فى العصور الوسطى » ج ١ ص ٩٧ .

الهواء الطلق اذا كان الجو صافيا ، وكانت هذه الاجتماعات تؤجل من يوم الى يوم حتى تنتهى الى قـرار وفى هذه الأثنـاء كان شارلمـان مستعدا للاشتراك فى المناظرات اذا طلب اليه ذلك[٨] .

وفى آخر الأمر كانت ترفع اليه القرارات فيبدى رأيه فيها وكان طول وقت الاجتماع يختلط بالجمهور الذى صحب الأعيان الى الاجتماع بغير كلفة ، ويتقبل منهم ما أحضروا له من هدايا ويشترك فى مناقشات مع كل من قابله ، وقد أظهر فى هذه المناقشات قدرة فائقة على التفاهم مع الجمهور .

وكان اجتماع الربيع فرصـة لشارلمـان ليقف على حالـة البلاد بطريق غير رسمى ، فقد كان يسأل المتحدثين اليه عن مختلف الوسائل ورأيهم فى الأوضاع القائمة ، وعن وجود شكاوى وعن خرق للقانون والنظام وذلك ليضمن فى قراراته التشريعية علاجا لها[٩] .

أما عن بلاط شارلمـان فكان به كل ما تستلزمه الحكومة المركزية من أداة فلديه كبير الأساقفة ، ورئيس القسس يتوليان كل ما يتعلق بالكنيسة من أمور ، والمفروض أنهما يشرفان على سلطة الامبراطور فى شـغل الوظـائف ، ويفصـلا فى الأمـور الهيـنة دون الرجـوع للامبراطور[١٠] .

ومن وظائف البلاطأيضا وظيفة حجاب القصر الذين صارت لهم مكانة كبيرة فى الأمور الزمنية كذلك ناظـر القصر الـذى كان يرأس المحكمة المالية باعتباره من ممثلى الملك . ومن موظفى داره صاحب بيت المـال والكونستابل وناظر الاسطبلات الملكية الذين ينهون بخبرهم الى الملكة ويخضعون لاشرافها ، ثم كان لديه ديوان الرسائل الذى يجرى

---

(8) Thompson « op. iit.» p. 481.

(9) Ibid.

(١٠) ديفز « شارلمان » ص ٢٢٢ .

فيه تحرير القوانين والعهود وفقا لصيغ معروفة ، وصاحب ديوان الرسائل هو المسئول الأول عنه ، وكان يسمى المستشار وهو من رجال الكنيسة[١١] .

وقد تمتع الموظفون الكنسيون فى بلاط شارلمان بالصدارة وهذا يجيزه الطابع المزدوج لحكم شارلمان .

وقام مجلس البلاط بدور كبير فى خطة حكومة الفرنجة وهو أرستقراطى فى تشكيله لأن الجمع الذى يحضر المجلس الوطنى الكبير لا يدبر الأمور فان ذلك امتياز بل واجب انفرد به الزعماء الذين يعتبرون موظفين بالامبراطورية لأن منهم أساقفة ورؤساء أديرة وكونتات ودوقات وأمراء أطراف « ماركيزات » ولا يتولى العلمانيون وظائفهم الا بمشيئة الامبراطور وارادته[١٢] .

والمعروف أن طائفة الموظفين المدنيين زمن شارلمان ان صح استخدام هذا المصطلح للدلالة على رجال تابعين لمهنة غير معينة فى ذلك العصر أعوزها العدد والمهارة والأمانة أو لم يكن عملا سائرا حسب أى نظام ، واذا أصر الامبراطور على النظر فى كل شىء بنفسه ، فان كثيرا من المسائل الخطيرة مرت دون أن تسترعى أيما انتباه على حين استرعت أمورا تافهة اهتماما ليس بعده اهتمام . والواقع أن فقدان النظام الثابت أدى الى فقدان الحكم العادل بين الناس والى تهاون الموظفين فى تنفيذ المرسومات الامبراطورية أو تنفيذها على صورة جائرة كما أدى الى قلة الضبط والرقابة على الأساقفة والكونتات الذين بيدهم شئون الحكومة المحلية فى الأقاليم ، غير أن عزمات الامبراطور المهيب خففت من تلك الآفات مدة اذ دأب شارلمان على التنقل فى أرجاء امبراطوريته من جهة الى جهة ومن ناحية الى أخرى ليتفقد أفراد الرعية وأحوالهم ، وينصف شكاواهم ويجعل شخصه فى متناول الجميع

---

(11) Thompson «op. cit.» p. 479.

(١٢) ديفز « المرجع السابق » ص ٢٢٤ .

من الناس ، حتى اذا لم يستطع أن يقوم على ذلك بنفسه ارسل المبعوثين الامبراطوريين للقيام على هذه المهام نيابة عنه[١٣] •

ولابد لنا أن نفصل هذه المقتطفات حتى نصل تماما الى النظام الذى سار عليه شارلمان فى الامبراطورية •

النظام الادارى :

كان الجهاز الحكومى الذى سيطر به شارلمان على شئون امبراطوريته الضخمة جهازا غلبت عليه السمة الجرمانية شأن الجهاز الذى استخدمه الميروفنجيون •

كان يعاون الملك مجلس مكون من أولئك الرجال المخلصين الذين اختار الملك أن يعتمد عليهم وهم فى أغلبهم حكام علمانيون أو كنسيون يمثلون الأقاليم التى تتقسم اليها هذه المملكة ممن يحملون ألقاب كونت ودوق وأمراء التخوم أو الأطراف النائية ، وكذلك من الأساقفة ورؤساء الأديرة[١٤] •

وكان الأمراء والأدواق يعينون أو يعزلون بمشيئة الملك وحده لكنهم كانوا فى الغالب رجالا يملكون ضياعا واسعة آلت اليهم بحق الوراثة وبناء على ذلك فقد كانت مناصبهم الرسمية تنزع الى أن تكون فى واقع الأمر وراثية أيضا يطالبون بها كأنما هى حق مكتسب لهم وكانت هذه هى الحال بصفة خاصة فى المناطق النائية التى لم تفقد الا من وقت قريب ما كان لها من نظام لا يكاد يفترق عن الاستقلال على أن هؤلاء الحكام الكبار كانوا دائما معرضين للعزل بناء على ارادة الملك كما حدث لدوقى اكوتين وسوابيا[١٥] • ومن أهم مهام الكونتات فى بادىء الأمر أنهم كانوا مندوبين على الملك فى حكم الأقاليم

---

(١٣) فشر « المرجع السابق » ص ٩٧ .

(14) Thompson «op. cit.»

(15) Ibid.

فيقوم الكونت بقيادة قوات الأمن وممارسة القضاء وجمع الضرائب في الاقليم الذى يحكمه ويعرف باسم باجوس Pagus وينقسم الى وحدات تعرف بالمئينية Centenae تولى حكمها موظفون أقل رتبة اشتهروا باسم حكام المئينيات وهم الضباط للأقســام الادارية الاقليمية ، على أن حاكم المئينية عند الفرنجة كان يختاره أصلا ملاك الأراضى ،وفى العصور المتقدمة كان يرشحه الكونت ، والمئينية تنقسم أيضا الى أعشار أو بلاد العشور Tithing ونسـمع أحيانا عن متولى العشر الذى يقتسم مع قسيس الأبروشية حكومة هذا المجتمع الصغير(١٦) .

كان بالاقليم الذى يحكمه الكونت ممثلون عنه عند غيابه من أهمهم الرؤســاء Vicars والفيكونتات على الترتيب ، وكان الكونت يدافع فى دائرته المحدودة عن الملك ولا يعتبر مسـئولا الا أمام الملك وحده ، على أن التقاليد لم تزل تتطلب منه عند ممارسة القضاء أن يهتدى بمن فى اقليمه من الرجال الأخيار العدول الذين يطلق عليهم « المحلفون » .

وما كان يعقده من المحاكم فى الاقليم وفى بعض المقاطعــات « المئينيات » لم تكن سوى مجالس قومية ، اذ أن طائفــة من الذين يشهدون المحكمة تستمع الى ما يؤديه المتقاضون وأصدقاؤهم من ايمان وتراقبهم أثناء الحكم ، وتقضى باعتبارها من المحلفين بمقتضى البينة وتصدر الحكم على أساس قانون العرف .

فالكونت من الناحية النظرية لا يتصرف الا على أنه رئيس المحكمة والمتحدث باسمها وفى المحكمة يجرى كل ما للاقليم من مصلحة عامة ،

---

(16) Moss. «op. cit.» p. 256.

ديفز « شارلمان » ص ٣١ .

Thompson «op. cit.» p. 480.

فيتم اصدار القوانين والتصديق عليها وتقدير الضرائب وجمعها واعلان الخدمة العسكرية وتقرير زمنها ومكانها وصفتها(١٧) .

فالمحكمة ليست جمعية تنعقد فى الهواء الطلق ، اذ يجتمع المتقاضون فى مبنى المحكمة والجمعية العامة للاقليم درجت على أن تنعقد فى مقر الكونت ، ووجود هذه المواضع والمراكز لا يثير الدهشة عندنا اذ أن أبسط المجتمعات وأصغرها تحتاج الى ما تلوذ به من الأماكن ، ولم تكن دار الكونت تزيد على ذلك .

ومن الدور المقامة على الحدود فى بواتو وأوفرن وفى اقليم بريتانى وفى هسى وثورنجيا جرى ذكر عدد كبير منها فى الأوقات التى سادت بها الاضطرابات . وهذه اتخذت مواقع ليس لها من امتياز سوى أنها مواقع دفاعية . ويتحدث المؤرخون عنها على أنها حصون ومعسكرات وما كان منها فى بواتو أطلقوا عليها صخورا وثقوبا ومنها أماكن اشتهرت بأنها أكبر حجما وأعظم أهمية . ففى غرب الراين يشترك الباجوس مع الاقليم الرومانى فى الحدود فظهرت عاصمة الاقليم من خلال خرائب مدينة رومانية أو من داخل أسوارها المحطمة . وهذه المدن الصغيرة كانت دائما عظيمة الأهمية ، ولم تكن فورمز وكلن وتربيه ومتز وماينز فى الشرق وباريس ولاؤن ونوبون وسواسون فى نوستريا وليون ومرسيليا وناربون فى الجنوب الا أسماء تكرر ذكرها فى تواريخ هذه الأزمنة . ومن هذه المواضع ما يرجع وجوده الى أزمنة الرومان ، واذا كان للصيغ والعبارات القانونية أهمية فان من هذه المواضع بجنوب غالة ووسطها ما احتفظ ببعض آثار دستور البلدية الرومانية اذ نسمع عن مجلس شيوخ المدينة Curia وعن دار المحفوظات Gasta-Muncipalis وعن حامى المدينة Defensor Civitates وهو موظف استحدث وظيفته فى القرن الرابع الامبراطور فالنشيان .

---

(١٧) ديفز « المرجع السابق » .

Thompson, «op. cit.»

أما الموثقون الذين ندين لهم بهذه الاشارات ، فانه بلغ من شدة حرصهم على حرفية قانون ثيودسيوس أنهم استخدموا ألفاظا لاتينية لنظم تيوتونية • فكيفما كان الأمر فليس لهذه الآثار الباقيـة أهمية تذكر • ففى المدينة الصغيرة أو فى الاقليم طغت قوة الكونت الاستبدادية على كل شىء وتشـير كل الدلائل على أن المدن الصـغيرة اندمجت لأغراض ادارية فى الاقليم الذى تنتمى اليه (١٨) •

وبذلك يتضح أن شارلمـان سـار على نفس النظام الادارى الذى جعل من الكونت حاكما للاقليم ، كما أنه بفضل ما اشتهر به من شخصية قوية وفتوة دافعة استطاع أن يحافظ على ما أقامه من وحدة الاشراف والضبط على أملاكه المتراميـة الأطراف ، وقد خول للكونتات مراجعة أتباعهم ورقابة أعمال موظفى السادة الاقطاعيين من الكنسيين والعلمانيين سـواء(١٩) •

أما عن الأساقفة الذين يعينون فى نفس الأقاليم التى يعمل بها الكونت فكانوا يشغلون وظائفهم بتفويض من الملك أيضا • فاذا كان الكونت يشـغل وظيفته بتفويض فعلى ، فالأسقف يشغلها بتفويض ضمنى وكان تعيين مرؤسيها من اختصاصهما وحدهما • وكان تقسيم الأبروشيات الى شماسيات وتقسيم الشماسيات الى عمديـات تحت اشراف رؤساء القساوسة عرفا متبعا منذ العهد الذى بدأت تنتشر فيه المسيحية من المراكز المدنية الى المراكز الدينية(٢٠) •

نظـام المبعوثين :

كان لرغبة شارلمـان القومية فى احكام السيطرة على مملكته ، وتأكده من تنفيذ جميع قراراته وحسن تطبيق الكونتات والأساقفة

---

(١٨) ديفز « المرجع السابق » ص ٣٢ •
(19) Moss. «op. cit.» p. 259.
(20) Thompson «op. cit» p. 481.

لما يصدر اليهم من أوامر لصالح المملكة أن قام بالاهتمام بنظام المبعوثين الملكيين •

لم تكن هذه الوظيفة جديدة على دولة الفرنجة ، اذ عرفت فى العصر الميروفنجى عندما كان أى رسول موفد من القصر الملكى فى مهمة خاصة يحمل لقب مبعوث Missus فقد كان ببيين القصير وشارل مارتل قد اعتادوا على ارسال مبعوثين لمراقبة أحوال الدولة كان يطلق عليهم Missi - dis Currents (٢١) لكنه حدث فى عصر شارلمان أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨٩ م عندما بلغت الدولة الكارولنجية أقصى اتساعها بعد غزو بافاريا أن أصبح لهؤلاء المبعوثين أهمية كبرى بوصفهم مندوبى شارل العظيم الذين يحملون تعليماته ومراسيمه الى الأقاليم والحكام ، ويجمعون أخبار تلك الأقاليم . وهؤلاء الحكام لعرضها على الملك فى العاصمة وليتأكدوا من طاعة هذه الأقاليم والتزامها بتعاليم شارلمان(٢٢) •

وبمقتضى ذلك النظام قسمت المملكة بأجمعها الى مجموعات تتألف كل منها من عدة كونتيات يطوف بها اثنان من المبعوثين كل عام أحدهما من رجال الكنيسة والآخر من العلمانيين ويتوليان الشئون القضائية •

وكان مجال واجباتهما كبيرا ومتعددا ، فلم يكن من واجبهما فقط الاشراف على يمين الولاء الذى تقسمه الرعية للامبراطور ، وأن يتحققا من انتظام ورود ايرادات غابات التاج وممتلكاته ، وأن المراسيم مفهومة ومنفذة ، وأن المجرم يلقى جزاءه على جريمته وأن العدالة تجرى مجراها وأن الخدمة العسكرية تنفذ على وجهها الصحيح ، بل لقد أمرا

(21) Oman «The dark ages» p. 378.

(٢٢) سعيد عاشور « النهضات الأوربية » ص ٧٦ .

Oman «op. cit.».

كذلك بالتفتيش على الكنائس والأديرة لكى يتأكدوا أن القسس يراعون نظمهم وأن الرهبان يتبعــون باخــلاص قواعد القــديس بندكت وان ما أصدره الامبراطور من لوائح عن ترانيم الصــلوات ينفذ وأن كتب الايمان مطهرة من كل خطــأ وأن المبانى تصــان وأن الشــعب يحضر القداس فى أيام الآحاد ، وأن يعرف عقيدته فيعلم قانون الايمان وبذلك أطلق عليهم لقب Missi Dominici ‏(٢٣) •

والراجح أن المبعوثين فى المرحلة السابقة على التتويج (٧٦٨ — ٨٠٠) قاموا بجولاتهم فى فترات غير منتظمة الى أية جهة بالمملكة . استرعت من الملك اهتماما خاصا ، فمثلا حدث سنة ٧٩٠ م حين ترتب على اهمال لويس التقى الارتباك فى ماليــة مملكة أكتيانيا أن أرســل شــارل اثنين من مبعوثيــه لتحقيــق ما هو مطلــوب من الاقتصــاد والاصلاح • ويقوم المبعوثون بالطواف بأنحــاء المملكة كلها مــرة أو مرتين • ففى سنة ٧٨٩ ، ٧٩٠ كلفهم بأن يحصلوا على يمين الولاء من جميع الرجال : « والآن أعد سيدى شارل وأولاده بأننى رجله المخلص وسوف أكون كذلك كل أيام حياتى » • وفى الجولة الثانية صــاروا يتحرون أيضــا عما اذا كان الكونتات فى كل اقليم يحكمون بين جميع الرجال وفقا لقــانونهم الوطنى ، كما قضت بذلك ارادة الملك • وأول واجبات المبعوثين أن يستمعوا الى الشكاوى ضد الكونت وأن يلزموه اذا دعت الضرورة بأن ينصف هؤلاء الشاكين ، واذا لم يمتثل الكونت لأوامرهم زاروا مقره الرسمى وأقاموا به وتكفل بنفقات اقامتهم حتى يكسب ودهم فيحقق ما طلبوه منه لصالح المدعى المظلوم ، ثانيا : يقومون بمســاعدة الكونت اذا قام تابع كبير من أتباع الملك بعرقلة العدالة • ثالثا : يشــاركون الأسقف بما يقومون به من زيارات دورية فينزلون العقوبة بكل رجال الدين العلمانيين منهم والنظاميين الذين يتهاونون فى

(23) Lavisse «Histoire de France» Vol. II p. 319.
Stewart C. Eastan «The Era of Charlemagne» p. 142.

نظـام الكنيسة ، رابعا : يقومون بالاشراف على كل ما يمنحه الملك من أراضى التاج بالاقليم من الضياع المحبوسـة على الخير ويثبتـون كل الحالات التى جرى فيها سوء استعمالها أو اهمالها ويقررون الضرائب والخدمات المطلوبة ، خامسا : يتحرون كيف يتحقق شرط الخدمة العسكرية وعما اذا كان الكونت قام بتنفيذه على ما ينبغى القيام به(٢٤) .

وقد دأب المبعوثون على رفع تقـاريرهم الرسـمية الى مجلس البلاط الذى كان ينعقد لهذا الشـأن فى الخريف من كل عام ، وعلى ضوء ما يتلقاه شارلمان من معلومات يصدر قوانينه ويضع سياسته(٢٥) .

ومع ذلك فان الوظيفة ما زالت فى هذه المرحلة فى مبدئها ومستهلها فلا نسـمع فى هذا الوقت عن جـولات معينة ، ولم يـكن للمبعوثين محكمة خاصـة تمتاز عن محكمة الكونت ، فاذا ظهروا حجبوه فترة من الزمن أو جلسـوا الى جانبه فى دست المحكمة لينظروا أنه يحكم دون وجل أو محاباة ، على أنه لم يرد فى هذه القوانين المبكرة ما صـار لهم فيما بعد من اختصـاصات عديدة . فلم يكن المبعوثون يتخذون من فئة ممتازة ، بل جرت العـادة باختيارهم من بين فقراء أتباع الملك(٢٦) .

ومن أهم الاجراءات التى اتبعهـا شارلمـان للمحافظة على دقة نظـام المبعوثين أنه لجأ الى عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم بل نقلهم كل عام قبل أن ينشئوا علاقات ، وتصبح لهم مصالح مع أهالى الدائرة ، وبهذه الطريقة ضمن شارلمـان قيـام المبعوثين بواجبهم فى التفتيش على الكونتات والأساقفة تفتيشا دقيقا(٢٧) .

كان الامبراطور يزود المبعوثين بالتعليمات والنصـائح الـلازمة

---

(٢٤) ديفز « المرجع السابق » ص ١٤٢ .
(25) Stephenson «Medieval History» p. 180.
(٢٦) ديفز ص ١٤١ .
(٢٧) عاشور « النهضات الأوربية » ص ٧٧ .

التى تمكنهم من السيطرة على أرجاء الامبراطورية ، والتى تساعدهم على تنفيذ تعليمات الامبراطور .

وهناك المرسوم العام الذى أصدره شارلمان لمبعوثيه سنة ٨٠٢ وفيه يتضح أنه كان يختار مبعوثيه من الرجال المسيحيين الأتقياء ومن النبلاء ورجال الدين . وكان يبين لهم أنهم مسئولون عن التحقيق فى جميع الشكايات والمظالم التى تقع على الناس بما يرضى الله ويرضى ضمائرهم . ومن خلال البنود التى شملها المرسوم نلمح أنه حاول أن يطمئن رعاياه بأن العدل والحماية ستشمل جميع سكان امبراطوريته ، فكان يقول : انه لن يتجرأ أحد مطلقا على سرقة أو نهب أية كنيسة من الكنائس ، كما أن الأرامل واليتامى والحجاج الذين يحتاجون من يحميهم من اللصوص والقتلة ، سيجدون الحماية فى شخصه وفى رجال مملكته(٢٨) .

الى جانب أنه حذر الكونتات وحكام الأقاليم من استبعاد أى فرد من الالتحاق بجيوش الامبراطور ، بسبب قرابة أو رشوة أو أى وسيلة من وسائل التملق . الى جانب أنه بين للمبعوثين ضرورة الاهتمام بموضوع الضرائب المفروضة على سكان الامبراطورية ، والتأكد من أنها تجمع وتورد لخزينة الدولة ، وأن جميع من يستحقون دفع الضرائب قد قاموا بتسديدها لا يستثنى منها أحدا لأى سبب من الأسباب .

ولم تكن التعليمات التى صدرت للمبعوثين تخص المدنيين فقط بل شملت رجال الدين ايضا ، فقد شمل المرسوم التزام بضرورة امتثال مقدمى الأديرة والرهبان للأساقفة بالطاعة ، والعمل بدستور الكنيسة والدير ، كما أنه أمر مقدمى الأديرة أن تكون لهم مهابة وسيطرة على الرهبان ، وأن يعاملونهم بأسلوب لين ، ويبتعدوا عن الخشونة والجفاف

(28) Stewart Eastan «The Era of Charlemagne» p. 144.
أنظر الترجمة الكاملة لنص الوثيقة فى نهاية الكتاب .

الذى ينفر الناس منهم ، وبذلك يبثون الرحمة والمحبة فى قلوب رعاياهم وتصبح هذه الصفات هى السمة المميزة لهم .

ومن ناحية أخرى طالب الرهبان أن يعيشوا فى أديرتهم حياة صارمة طبقا لقانون الدير ، أنه اذا فتر الدافع الدينى فى قلب الراهب ، فهذا يؤدى الى استياء الرب(٢٩) .

وعلى الرغم من جميع هذه الاحتياطات والتدابير التى اتخذها شارلمان الا أن المبعوثين الملكيين تعرضوا فى كثير من الأحيان للرشوة ومحاولة الاستمالة .

وخير دليل على هذه الحقيقة ما خلفه لنا ثيودولف أسقف أورليان فيما سماه « نصيحة الى القضاة » حيث كان مبعوثا ملكيا فى وقت من الأوقات الى منطقة الجنوب فى فرنسا ، فكان ما كتبه ثمرة الخبرة التى اكتسبها .

يرى ثيودولف « أن أسوأ العيوب هو شيوع استخدام الرشوة للحصول على حكم فى صالح الراشى فكل انسان فاسد ومرتشى، الحاجب على بواتيه والمستشارون القانونيون على منصتهم ، بل أن زوجة القاضى نفسها قد أغواها فريق له مصلحة خاصة » .

ومن الجلى أن ثيودولف عالج فى حديثه كثيرا من الأشياء التى حاول الكثيرون ارشاءه بها منها الأوانى الزجاجية والجواهر الشرقية والنقود الذهبية الرائعة التى تحمل حروفا عربية والديباج الموشى بأشكال الثيران وبنماذج هندسية ذات تصميم أسيوى وهناك أيضا الأسلحة والخيل ، على أن أثمن هذه الكنوز جميعا وعاء من الفضة يرجع الى عهد الامبراطورية الرومانية يحمل ظاهره نقوشا بارزة توضح أعمال هرقل اليومية . أما المتقاضون من الفئات المتواضعة فلم يكونوا أقل اصرارا على تقديم ما لديهم من هدايا جلود قرطبة المبيضة أو

---

(29) Ibid. p. 145.

المصبوغة والمنسوجات الكتانية والصوفية والأحذية والقبعات والقفازات فضلا عن مناشف الوجه على حين أن شخصا ماكرا عرف فيما يحتمل ذوق الأسقف الأدبى فأخرج اليه لفافة ورق الكتابة الارجوانى مبتسما ابتسامة الظفر بالأرب ، لكن القاضى النزيه يرفض كل هذه الهدايا . على أنه ربما قبل بعض الهدايا الصغيرة من بعض الأصدقاء رغبة فى عدم جرح مشاعرهم مثل ثمار الحدائق والبســاتين والخبز والبيض والجبن المصنوع من لبن المــاعز وصــغار الدجاج الليــنة والطيور الصغيرة حجما واللذيذة طعما(٣٠) .

هذا وقد تعرض نظام المبعوثين فى نهاية عهد شارلمــان لأخطار غير الرشــوة التى عرضــنا لها ، وهى نهوض الأرستقراطية الاقليمية نهوضا أخذ يشكل خطرا على الحكومة ، فقد كان من المبعوثين نبلاء من البلاط الملكى يتولون مناصب الدوقات والكونتات ، ويختارون اختيارا دقيقا من المخلصين للملك وكثيرا ما كان الطموح أو الطمع يغلب على هؤلاء النبلاء ، فأخذوا يثبتون أقدامهم فى المجتمعات الاقليمية ويحولون ألقابهم وممتلكاتهم الحكومية الى ملكية تخضع للارث ، وقام من جراء ذلك مظهر للتفكك السياسى زادت حدته بعد وفاة شارلمــان ولم يعد فى موسوع أحد من هؤلاء النبلاء أو النفعيين من أصــحاب المصلحة الذاتية أن يقــاوم العوامل الحادثة التى عجلت باضمحــلال النفــوذ الكارولنجى فى القرن التاسع(٣١) .

المراسيم والتنظيمات الامبراطورية : Capitularies

لم يكن شارلمــان بصفة خاصة قانعا بكونه قائداً عسكريا وحاكما ثيوقراطيا ، وانما بذل جهودا فى اقامة نظام ادارى له من الفعاليــة

---

(30) Moss. «op. cit.» p. 263.

(٣١) كانتور « تاريخ العصور الوسطى » ترجمة على الغمراوى ص ٦٦

ما جعل من دولته دولة لها طابع خاص نهضت فيها بيروقراطية تعتبر من أقوى وأنشط البيروقراطيات .

وتضمنت المرحلة الأولى من اصلاح الحكومة الكارولنجية تأسيس مكتب للمستشارين يتولى العمل فيه علماء ديريون لاصدار الوثائق فى شتى نواحى حياة مجتمع الدولة والكنيسة التى يهم أمرها الملك . وقد صدرت الوثائق الملكية الكارولنجية هذه فى صور مجموعات شرائع تسمى Capitularia تتناول كل منها تباعا مختلف المشاكل . والمشاكل التى تواجهها الحكومة تلك الكابيتيولاريا التى تعتبر فى الواقع امتدادا للمراسيم الرومانية الامبراطورية فى صورة جديدة مغايرة[٣٢] فعلى سبيل المثال يفرض مرسوم يحض الكنيسة على رجال الدين أن يوفوا بالتزاماتهم التربوية وأن يعيشوا وفق النظام والتقليد الواجب اتباعه بينما تخاطب مجموعة أخرى من الشرائع أولئك القائمين على تدبير شئون الضياع الملكية بالتعليمات الضرورية لادارة الأطيان المنوط اليهم أمر ادارتها ومدعاة مثل هذه الأوامر أن ممتلكات الملك الكارولنجى كانت تمثل المصدر الأول من دخله . ونرى مرسوما آخر يستخدم مقدرات الوعى فى مشكلة دعوة الجيش الى الحرب . فقد كان النظام العسكرى للدولة الفرنجية لا يزال قائما على المبدأ الجرمانى الذى يقضى على كل القادرين على القتال أن يسارعوا بالانضمام الى الجيش الملكى بكل ما يستطيعون حمله من أسلحة الضرب والنزال . ولما كان شارلمان والوزراء يدركون عدم الجدوى فى هذا النظام فقد صدرت هذه الشريعة بقصد أن تتحد القرى وتتكاتف لارسال فرسان بدلا من هذه الجمهرة من الناس لأن هذا يفوق فى جدواه كل

---

(٣٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

جموع الفلاحين الذين يسارعون بالعصى والمناجل كيفما اتفق[٣٣] .

وقد يكون من قرارات شارلمـــان على الاطلاق ذلك القرار الذى تناول مشكلة الحكومة المحلية ، فحينما كان الملك يحل مع مستشاريه وبلاطه وجيشه فى أية بقعة من بقاع الدولة ، لم تكن هناك بطبيعة الحال صعوبة فى توكيد الولاء على أهالى المحل ، ولكن الصعوبة فى توكيد هذا الولاء كانت تتوافر فيما وراء المناطق التى وصلت فيهـــا وسائل المواصلات والنقل الى درجة من السوء والانقطاع ولذلك كانت مسألة السيطرة على الدوقات والكونتات المحليين شاغلى البلاط الملكى ؛ ونعرف أن هذه المسألة أرقت الميروفنجيين وأن اخفاقهم فى مواجهتها كان عاملا من عوامل انهيار السلطة الملكية فى القرنين السادس والسابع ، فظل بذلك عقبة أمام الكارولنجيين ، بل انها ظلت مشكلة قائمة تواجهها الدولة فى العصور الوسطى ، وقد توصـــل الكارولنجيون الى ارســـال ممثلين للبلاط الملكى فى نوبات دورية للتفتيش على الموظفين المعومين حتى يحولوا دون انضمامهم الى الأرستقراطية المحلية ـــ كما ذكرنا .

ويرى أستاذنا الدكتور سعيد عاشور أن هذه المراسيم المتباينة كان هدفها اقرار النظام والعدالة فى الدولة وكان طابعها العام التسرع وعدم الدقة ، كما يؤخذ عليها أنها على الرغم من سلامة هدفها لم تحاول أن تتعرض لجذور الفساد الحقيقية فى الدولة[٣٤] .

---

(٣٣) كانتور « المرجع السابق »
Stewart Eastan «op. cit.» p.p. 142-148.

ملحق مترجم فى نهاية الكتاب
عن نماذج من الأوامر والمراسيم التى اصدرها شارلمان الى مبعوثيه ليقوموا بتنفيذها .

(٣٤) سعيد عاشور « النهضات الأوربية » ص ٧٨ .

القوانين والتشريعات فى عصر شارلمان

اذا أردنا أن نتحدث عن جهود شارلمان فى مجال القانون والتشريع نجد أنه يقل كثيرا عن معاصريه من البيزنطيين ، وعن الرومان القدماء الذين كانت لهم يد طولى فى هذا المضمار .

واذا أردنا أن نقارنه بغيره من المجموعات الجرمانية نجد أن القوط الشرقيين يفوقونه من حيث مجموعات القوانين التى خلفوها لنا والتى نظمت مجتمعاتهم فى ظل الديانة المسيحية .

أما اذا عقدنا هذه المقارنة مع ملوك الفرنجة سواء أكانوا من الميروفنجيين أو الكارولنجيين ، نجد أن شارلمان له الصدارة ، وان تشريعاته وقوانينه ومراسيمه وتنظيماته ومبعوثيه الذين تحدثنا عنهم يمثلون نظاما دقيقا وتقدما ملموسا فى هذا المجال .

لم يقدم شارلمان تعديلات هامة فى مجال القانون ، وأهم ما قدمه فى هذا المجال أنه اختار مجموعة من القضاة الأكفاء ليقوموا بتنفيذ الأحكام القضائية ، وهؤلاء أطلق عليهم لقب Scabini وهم مشرعى القوانين الذين يستطيعون أن يصدروا الأحكام المناسبة لكل موضوع من الموضوعات . وفى داخل ايطاليا نفسها كانت الحكومة الكارولنجية تصدر ملاحظات رسمية لمشرعى القوانين حتى تعطيهم صورة واضحة ومعلومات تخص عادات وقوانين الغزاة الجرمان .

كما كان الكارولنجيون يصدرون هذه التعليمات أيضا الى البافاريين والألمانى والسكسون والفريزيان وغيرهم . أما فى الأراضى الفرنجية القديمة فانها استمرت على قوانينها المنبثقة من أحكام الفرنجة الأوائل مع بعض التعديلات البسيطة[٣٥] .

والآن لا بد لنا أن نحدد نوعية هذه القوانين والتشريعات التى

(35) Stephenson «The Carolingian Empire» p. 181.

نظمت دولة الفرنجة الكارولنجيون والامبراطورية الغربية على عهد شارلمان .

فالثابت تاريخيا أن شارلمان كما سماه المؤرخون — الصليبى الأكبر جعل من الدين والكنيسة الأساس الأول فى تنظيماته وتشريعاته .

فأول مرسوم أصدره شارلمان ارتبط بأمور كنسية وبعدها أصدر مرسوما آخر لاصلاح دستور كنيسة الفرنجة(٣٦) .

ولم تكن قوانين هذه المرحلة كثيرة العدد ، فمنها اثنان يرتبطان بسكسونيا وثمانى بايطاليا وخمسة تتعلق بكل المملكة ، على حين أن ما وجهه الى المبعوثين من ارشادات عديدة يفسر تفصيل الادارة ولم تجر هذه القوانين أيضا على نظام معين فالاجراءات الهامة ظلت مغمورة فى مجموعات من القوانين الكنسية جرى نسخها حرفيا من المجالس القديمة ومن الالتزامات بمراعاة يوم الأحد ، وحضور القداس ، وحب العدالة والاعتقاد فى اله واحد(٣٧) .

ونرى أن نظام المبعوثين من أهم الأعمال التى ترتبط بالقانون والتشريع ، وان صفة الرقابة وتنفيذ القرارات التى يصدرها شارلمان للمبعوثين سواء كانت فى مجال الادارة أم فى مجال الدين كلها تؤكد على أن القانون كانت له السيادة التامة على دولة شارلمان .

ومعظم التشريعات التى يصدرها شارلمان حتى للمدنيين تحمل فى مضمونها أهدافا دينية تحث على الأخلاق والفضيلة وتمنع من مجافاة الكنيسة . كما تدخل كما رأينا فى بعض المسائل الدينية المعاصرة والتى عالجناها فى الباب السابق مثل مشكلة اللاأيقونية التى سادت فى الدولة البيزنطية فى عصره ، والتى رد عليها فى الكتاب الكارولنجى سنة ٧٩٠ م ومشكلة التبنى وهرطقة ومن الابن Filioque بل وأكثر من ذلك

---

(36) Lamb «Charlemagne» p. 197.

(٣٧) ديفز « المرجع السابق » ص ١٣٩ .

أنه رأس مجمع فرانكفورت الدينى سنة ٧٩٤ م ، الى جانب أنه شرع القوانين اللازمة للكنيسة ووضع لها دستورها(٣٨) .

فمن ناحية الدستور فانه جريا على نهج القديس بونيفاس أعاد السلطة للمطارنة وحدد أقاليمهم ، وأقر ولاية رؤساء الأديرة على رهبانهم وولاية الأساقفة على كهنتهم وجعل دفع العشر واجبا قانونيا يلتزم به جميع العلمانيين ، وجعل الحكم بحرمان الشخص من الكنيسة نافذ المفعول فى القانون ونظم حقوق الاعفاءات وجعل الدعاوى التى بين رجال الدين وسائر الأفراد يتولى سماعها الكونت ، والأسقف معا .

أما من حيث النظام فانه منع رجال الدين من الزواج أو اقتناء الجوارى أو دخول الحانات أو حمل السلاح أو ممارسة الصيد وتطبيب الصقور والصيد بها أو الاشتغال بأعمال دنيوية ، وشرح للأساقفة طبيعة أعمالهم ، وأنهى للعلمانيين بالحالات الثلاث التى يجوز فيها قانونا أن يعملوا يوم الأحد وهى القيام بنقل أثقال الجيش ، ونقل الميره ودفن الموتى ، وغير طقوس الكنيسة والحانها وقرر كتابا جديدا للمواعظ ، وقرر ما اعتبره صالحا من الصوم والصلوات على أنه كلما رجع الى رأى البابا فى كل هذه التدابير ، على أنه فى حالة من الحالات أجاز للبابا هادريان بأن يقوم بتسوية حدود أقاليم اكس وأسبوروم وتارنت ، وفى حالة أخرى سمح له بأن يوافق على نزول رئيس الأساقفة انجيلوم بالقصر بصفة مستمرة ، وللبابا أن يقترح أحيانا اجراء اصلاح من الاصلاحات ، على أنه لا يستطيع أن يأمر به حتى فى المملكة اللومباردية(٣٩) .

ومن أهم الأعمال التشريعية التى خلدت اسم شارلمان هى قيامه بتدوين التراث التشريعى والقانونى لجميع القبائل والشعوب التى

(38) Pirenne «A history of Europe» p. 85

(٣٩) ديفز « شارلمان » ص ١٤٣ .

خضعت لحكمة خاصة السكسون والفريزيان والثورنجيين • وقام بذلك بعد تنصيبه امبراطورا(٤٠) فكان الغالبون الرومان يسيرون على موجز قانون الريك Breviarium — Alarici وهو موجز قانون ثيودسيوس الذى جرى تصنيفه أصلا للقوط الغربيين بأكتيانيا فى سنة ٥٠٦ م ثم صار اتخاذه فيما بعد مجملا شاملا •

كما قام شارلمان أيضا باصلاح قانون الفرنجة الذى كان ناقصا حتى عهده ، فكان لهم مجموعتان من القوانين الشريعة السالية التى تحذر على الاناث وراثة العرش وشريعة البحريين الخاصة بالفرنجة البحريين •

وهاتان الشريعتان مختلفتان فى كثير من بنودهما • فقرر شارلمان ضرورة تعديل كثير من هذه البنود المتضاربة ، واصلاح جميع القرارات الغير صالحة ، والتى يعتبر وجودها والتعامل بها ضار على مملكته(٤١) •

ويرجع أساس هذه التعديلات والأصلاحات الى التوصيات التى أوصى بها المبعوثون ، وما أخذت به محاكم الكونتات من اليمين على ألا تتبع من القوانين سوى قانونه ، وأعقب ذلك بأن أصدر مجموعة من الملاحق والمتجددات القانونية للمرسومات القانونية Capitula Legibus addenda لم ينطبق منها على كل القوانين الا مرسوم واحد أما الأخرى فاقتصر تطبيقها على قوانين بعض الأمم(٤٢) •

ومن أهم الأعمال التى قام بها شارلمان وخلفها للأجيال الفرنجة حفظ التراث القومى لشعبه ، فقام بجمع وتسجيل جميع الأغانى التى تغنوا

(40) Einhard «op. cit.» p. 57.
(41) Ibid.

(٤٢) ديفز « المرجع السابق » ص ١٩٩ •

فيها بأعمال ملوكهم وحروبهم وحفظها للذكرى والتاريخ(٤٣) .

ومن أهم تشريعاته أنه اهتم بلغة الفرنجة القومية فدرس قواعدها الى أنه غير أسماء الشهور الرومانية القديمة — والمتداولة بين الفرنجة بأسماء تحمل لغته القومية ، كما غير أسماء الرياح بأسماء أخرى .

وعلى سبيل المثال أطلق على شهر يناير Wintar Manoth وفبراير Hornung ومارس Lentzin Manoth ... الخ(٤٤) .

ويرى أستاذنا الدكتور عاشور أنه على الرغم من جهود شارلمان السابقة فى تحسين النظم القضائية وتدوين القوانين وتحقيق العدالة عن طريق التمسك بشهادة الشهود . الا أن الرشوة ظلت سائدة والعدالة استمرت مهضومة حتى بيئس أصحاب الحقوق وفوضوا أمرهم الى الله ويبدو أن شارلمان على الرغم من حماسته وجلده على العمل كانت تنقصه مواهب المشرع الناجح ، فلم تمس تشريعاته جوهر الحقائق ، ولم ينفذ من قوانينه الا نسبة ضئيلة تكاد لا تبلغ العشر(٤٥) .

كما أن لثيودولف أسقف أورليان انتقادت شديدة لما فى القانون الجنائى من شذوذ وانحرافات بالغة فبمقتضاه صارت جريمة السرقة عقوبتها الاعدام ولا يعاقب مرتكب جريمة القتل الا بغرامة تافهة وهذه الانحرافات لم يجر مس أصلها ، وتقرر دفع ديات رجال الدين فى كل القوانين ووسيلة الديات تعتبر فى ذاتها مسألة لا تهم الامبراطور(٤٦) .

التنظيمات المالية :

كانت الادارة المالية بدائية ، اذ ان نظام الخدمات العامة المحكم الذى كان لدى الرومان قد اندثر فى عهد الميرفنجيين وجعل نظام

---

(43) Einhard. p. 57.
(44) Ibid. p. 58.
(٤٥) سعيد عاشور « النهضات الأوربية » ص ٧٩ .
(٤٦) ديفز « المرجع السابق » ص ٢٠٠ .

الضرائب فى أبسط الصور ، اذ اقتصر على رسوم المعديات وعلى مكوس الطرق والدخولية فضلا عن المكوس المفروضة على حيازات فردية معينة ، وكان يطلب من الناس فى بعض حالات معينة صيانة الطرق والكبارى والتحصينات ، فضلا عن استضافة مندوبى الامبراطور ومدهم بالمؤن . على أنه ينبغى ألا تضللنا اللوائح والتنظيمات الكثيرة والتفصيلية التى نجدها فى مجموعات الأوامر والمراسيم التى أصدرها شرلمان رغبة فى تنظيم التجارة وضبط الأسعار تفصيلا يخفى عنا الحقيقة المجردة وهى أن المبدأ الذى تقوم عليه مالية الدولة عنده وعند غيره من ملوك الجرمان تقوم على فكرة الخزانة الملكية . وكان الأساس فى ايرادات الدولة هو ما يحصل من الضياع الملكية من ريع تزيد فى مقداره الغرامات والمصادرات وغنائم الحرب والهدايا الاجبارية(٤٧) .

ومن أهم ما ميز عصر شارلمان فى الناحية المالية أنه قام بادخال نظام موحد للموازيين والمكاييل(٤٨) .

أما عن النقد والتعامل به فى العصر الكارولنجى فالمعروف — كما سنرى أن النظام الاقطاعى بما يشمله من ضياع زراعية ، بدأ يقضى كثيرا على أهمية النقود فى التعامل التجارى .

ومن أهم العملات التى كانت سائدة فى العالم الغربى فى هذه الفترة الصوليدوس الذى سكه الجرمان وعليه صور ملوكهم ، وشاع استخدامه فى معظم بلاد العالم من سوريا الى اسبانيا ومن افريقيا الى حدود غاله(٤٩) .

ومنذ بداية القرن الثامن بدأ الصوليدوس فى الاندثار من

---

(47) Moss. «op. cit.» p. 257.

(٤٨) ديفز « المرجع السابق » ص ١٤١ .

(49) Pirenne. «Economic and Social History» p. 107.

الامبراطورية الكارولنجية • خاصة بعد ذيوع النظام الاقطاعى والاهتمام بالزراعة دون التجارة •

ومنذ عهد بيين القصير حلت العملة الفضية فى التعامل محل العملة الذهبية — وعندما تولى شارلمان حكم الفرنجة سار على نفس النظام النقدى الذى انتهجه أباه • لكنه أعطى له شكلا نهائيا مميزا •

فقد رأى شارلمان مثل غيره من الأباطرة العظام ضرورة التقيد بنظام يتلاءم مع احتياجات الدولة •

ويرى الأستاذ بيرين أن ذكاء شارلمان ودقته وأهم تشريعاته لم تظهر فى أى مجال من المجالات مثلما ظهرت فى الاصلاح النقدى • خاصة بعد أن تغير وضع المجتمع الى مجتمع زراعى • يعمل بدون أسواق(٥٠) •

فقام شارلمان بسك عملة فضية جنيه يساوى ٤٫٨١ جرام •

وكان الجنيه ينقسم الى ٢٤٠ دينير Denier أو ما يسمى بنس Pence وهو من المعدن الخالص •

وهذه البنسات الفضية تزن كل وحدة منها ٢ جرام ، ونصف البنس يسمى أوبولى Oboli ، وكان يستخدم فى التعامل • والى جانب هذه العملة وجد Sou. الصو أو الشلن الذى كان يساوى ١٢ بنسا والليبره التى تساوى عشرون شلنا(٥١) •

وأهم ما دفع شارلمان الى سك العملة الصغيرة الحاجة اليها فى المعاملات التجارية البسيطة والتى تتم فى المدن الأسقفية الصغيرة والتى يتم البيع والشراء فيها بالدينير •

وعمل شارلمان كذلك مافى وسعه للمحافظة على معدل وزن العملة

---

(50) Pirenne. Ibid. p. 108.
(51) Ibid. p. 109.

لمنع الغش فيها • لذلك فقد منحت الدولة لنفسها فقط الحق فى سك العملة وركزته فى دور سك النقود الخاصة بالدولة والتى تعمل تحت الاشراف المباشر للحكومة •

لذلك شرع شارلمان عقوبات صارمة على المزيفين الذين يمتنعون عن استخدام الدينير القانونى فى المعاملات •

وزيادة على ذلك فان التداول النقدى كان محدودا لأن رصيد معدن الفضة الذى تسك منه العملة كان يأتى من العملة الفضة القديمة ذات الوزن الضئيل والمؤرخة من العصر الميروفنجى أو الرومانى القديم ، وكان يأتى للدولة من حصيلة الغنائم التى حصلت عليها من حروب البرابرة والجرمان أو من منتج الفضة القليل الموجود فى غاله فى منطقة مثل ميل *Melle* فى اكتيانيا(٥٢) •

أما النقود القديمة فكان يعاد سبكها وضربها مرة أخرى فى دار السك الملكية ، وينقش عليها شعار جديد والغرض من ذلك منع الغش والتزييف •

وقد عملت جميع البلاد الخاضعة للامبراطورية الكارولنجية بهذا النظام النقدى ، فساروا على الدينير الفضة ، وعلى السو والجنيه كعملة حسابية • ثم أطلقوا بعد ذلك على الدينير لفظ بينى **Penny** والسو **Sou** سموه شلن ثم جنيه •

أما عن العملة الذهبية فقد سادت وانتشرت فى المناطق الخاضعة للحكم البيزنطى مثل جنوب ايطاليا وصقلية ، قبل احتلال النورمان ،

---

(52) Ibid.

وكذلك فى البلاد الخاضعة للحكم الاسلامى مثل أسبانيا(٥٣) .

أما الضرائب فبالرغم من أنها كانت تفرض على الأفراد لأغراض معينة ، فلم يكن هناك نظام ضرائبى عام للأغراض الحكومية(٥٤) .

ومن أهم التشريعات المالية اصداره تعليمات تحرم الربا وتحدد سعر القمح وقد استمد كل هذه الأفكار من تعاليم الكنيسة كما أنه أصدر اجراءات صارمة ضد الذين يهاجمون المسافرين على الطرق الرئيسية والذين يجبون رسوما غير مشروعة ، كما أنه عمل على حماية التجار ، كما أرسل انذارات متكررة الى النقابات التى كانت تسير على نظم وثنية(٥٥) .

التنظيمات والتشريعات العسكرية(٥٦)

كانت الخدمة العسكرية من أفدح الأعباء التى تفرضها الدولة الكارولنجية على رعاياها ، كما أن نفقات التسلح كانت تبهظ الرجل الحر الفقير الذى كان لا يزال عرضة لحمل السلاح طبقا لما جرت عليه عادة الجرمان ، واتخذت بعض الاجراءات للتخفيف عنه ، فلم يعد يدعى للخدمة بأية منطقة سوى الطبقات الغنية ان كانت الحملة موجهة الى منطقة نائية من الحدود ، وكثيرا ما كان يسمح لاثنين أو ثلاثة من صغار الملاك بالاشتراك معا فى ارسال رجل واحد الى الجيش وتزويده

---

(53) Ibid. p. 110.

يذكر المؤرخ لامب Lamb أن الظروف السياسية واعتلاء شارلمان عرش الامبراطورية جعلته يصر على ضرب عملة جديدة يسك عليها لقب Carlus - impratori «الامبراطور شارل» وعليها شارات المسيح أيضا انظر

Lamb «Charlemagne» p.p. 184-185.

(54) Thompson «op. cit.» p. 485.

(٥٥) ديفز « شارلمان » ص ١٤٢ .

(56) Eastan «The Era of Chalemagne» pp. 136 — 142.

« انظر ترجمة للوثيقة الخاصة بالتنظيمات العسكرية من واقع مرسوم عسكرى لشارلمان »

بالعتاد على أن ذلك لم يكن كافيا ، فقد ولت منذ زمن طويل تلك الظروف التى كانت تيسر فى الأزمان السابقة البدائية حشد مجموعة مسلحة مكونة من جميع الأعضاء الأحرار فى القبيلة الذين يتساوون على وجه التقريب فى الوضع الاقتصادى اذ تزايد التفاوت فى ثروة الأفراد ، وأخذ القتال يصبح رويدا رويدا الحرفة الوحيدة التى اختص بها السادة الاقطاعيون ، كما يقوم به كل من يملكون الخيل والدروع وينتمى الى الفئة الأخيرة كل من وهب اقطاعا أو توصلوا عن طريق التوصية الى الارتباط بعلاقة تبعية مع السيد الاقطاعى اقترنت بالالتزام بالقيام بالخدمة العسكرية(٥٧) .

على أن أهمية نظام شارلمان الحربى تقوم على اعتراف بالملكية أساسا للخدمة ، وبالرغم من أن الحد الأدنى لنصاب الملكية كان يختلف تبعا للظروف المذكورة آنفا ، فان نصاب الملكية كان المظهر الأساسى لهذا الجانب من تشريعاته .

وكان من واجب الكونت عندما يدوى النفير العام أن يتأكد من أن جميع الملاك الأحرار فى اقليمه قد استعدوا للحرب ، وكان الحد الأدنى لنصاب الملكية محدودا بامتلاك عدد معين من الحقول Manses

فمن امتلك هذا العدد المعين انخرط فى سلك الجيش . ومن ملك أقل منه كان عليه أن يجد أحد أصحاب الملكيات الصغيرة ليكمل النصاب المطلوب وقد ورد هذا الالتزام فى أحد المراسيم هكذا .

« ان كل من يمتلك أربعة حقول ملكية كاملة أو بصفته من أصحاب

---

(٥٧) كانتور « تاريخ العصور الوسطى » ص ٦٥ يقول « لما كان شارلمان والوزراء يدركون عدم الجدوى من النظام الجرمانى الذى يقضى على كل القادرين على القتال الانضمام الى الجيش الملكى فقد صدر المرسوم الذى يطلب أن تتحد القرى وتتكاتف لارسال فرسان بدلا من هذه الجمهرة من الناس لأن هذا يفوق فى جدواه كل جموع الفلاحين الذين يسارعون بالعصى والمناجل كيفما اتفق .

الاقطاع عليه أن يسلح نفسه من ماله الخاص ، وأن يقـدم نفسـه للجيش ، ، وأما من يمتلك حقلا واحدا وليعن الثانى الأول ليـؤدى الخدمة العسكرية عنهما معا • ومن كان يملك حقلين فليشترك مع مالك آخر لحقلين وليعد أحدهما نفسه بمساعدة الآخر ، أما ملاك الحقـل الواحد فليؤلفوا من بينهم مجموعة من أربعة وليذهب واحد منهم الى الجيش وليبق الآخرون(٥٨) •

ان مرسوم سنة ٨٠٧ م الذى كان ينطبق على الجزء الجنوبى من شمال المملكة الفرنجية ، والذى جعل الحد الأدنى لنصاب الملكية ثلاثة حقول جعل المبدأ ينطبق على الملكية الفـردية لغـير ذوى الأراضى ، وأوجب على كل من يملكون خمسة شلنات أن يؤلفوا مجموعة من ستة تكون مسئولة عن اعداد محارب واحد •

وكان على الكونتات أن يحضروا النفير العام مع كل رجالهم الا القليلين الذين يتخلفون لحماية زوجة السيد ولتدبير شئونه المنزلية وكذلك الأساقفة ورؤساء الأديرة ، فبالرغم من اعفـائهم من الجنـدية كانوا يرسلون أتباعهم المدينين ، ولم يكن يسمح بالتخلف الا لاثنين منهم فى كل حالة ، وكان المتخلفون على أى حال يؤدون غرامة ثمنا لهذا الامتياز ، وعلى هذا النحو كان الجيش يجند بعض من ضياع الأعيان الذين كانوا تابعين للملك مباشرة(٥٩) •

ولم تكن شروط أداء الخدمة العسكرية وقتذاك ثابتة ، كمـا أن الطلب للتجنيد كان متناسبا مع الظروف ، لكن النتيجة الحتمية كانت نقل الواجب من الفرد الى الأرض التى كانت فى حيازته ، وعلاوة على ذلك فان اعتبار القطيعة هبة فى امكان أى مالك أن ينقلها الى أحد أتباعه ولا اشراف عليها الا للتاج من حيث أن صاحب القطيعة كان ملزما بتلبية

(8) Thompson. «op. cit.» p. 480.
(59) Ibid.

نداء الجيش ، كانت الخطوة الأولى فى تدعيم النظام الطبقى الاقطاعى الذى كان فيه لكل سيد ، وكان مسئولا أمامه مباشرة باعتباره مستأجرا لأرضه ، وكان كلما ذهب سيد حر الى الحرب اصطحب معه أتباعه الذين كانوا يحاربون معه ، ومن أجله كانوا مرتبطين به بأوامر خاصة(٦٠) .

وكانت الغرامة المفروضة على أى رجل حر يتخلف عن الحرب تقدر بحوالى تسعين صولدا ، كما فرض القانون الكارولنجى على كل الرجال الأحرار أن يزودوا أنفسهم بالهوبرك Houberk أو البـــرنى Byrnie وهو زدد منسدل من الرقبة الى الركبة ذوكــم واســع واصل الى الكوع أما الجزء الأسفل فمشطور الرقبة تيسيرا لركــوب الخيل ، وكانت أسلحتهم الرمح والدروع(٦١) .

ومن أهم الأعمال التى قام بها فى المجال الحربى أيضا قيامه ببناء الجسور الحربية من السفن على نهر الويزر ونهر الألب ونهر الدانوب وتشييد سلسلة من المعاقل التى اهتم بحفر خنادق حولها لحماية الطرف الشمالى والطرف الشرقى من غارات الدنيين والصقالبة . والمعروف أن جسورا أخرى قامت من حين الى آخر بجهات مختلفة من سكسونيا .

ومن مظاهره الحربية أنه اعتاد أن يسير وسط الجيش الوطنى عند توجهه الى مجلس البلاط ، ولا يمتاز فى ثيابه عن سائر نبلاء الفرنجة ، فلا يميزه عن غيره سوى ما يحمله فى يده من قضيب مذهب الرأس(٦٢) .

---

(60) Moss. «op. cit.» p. 258.
(61) Stewart, Eastan «The Era of Charlemagne». p. 138.
(٦٢) ديفز « شارلمان » ص ٢٢٠ .

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والثقافية

للــدولة البيزنطيــة

فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين

الفصل الاول

حياة البيزنطيين الاجتماعية فى القرنين
الثامن والتاسع الميلاديين

* « حياة الأباطرة الخاصة — هواياتهم — ألعابهم — حياتهم العائلية »

* « القسطنطينية كعاصمة للدولة — وصفها — المنشئات — الشوارع والميادين — ميدان السباق — المقصورة الامبراطورية — المسارح الحمامات »

* « السكان — عناصرهم — أعدادهم »

* « الحياة الاجتماعية فى المجتمع البيزنطى — أسماء العائلة — الخطبة — الزفاف — المرأة — الأطفال — الأغوات — ملكية الأسرة — تعاليم الكنيسة — المسكن والأثاث — الملابس — تطور الثياب — ملابس النساء — الطعام وعاداته — أنواع الطعام — وسائل التسلية — الجنائز والموتى — القبور والمدافن » .

الفصـــــل الأول

الحيــاة الاجتماعيــة

الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية موضوع هام ومتجــدد والمعلومات التى أمدنا بها المؤرخون كثيرة ومتنوعة ، ووثائق هذه الفترة تبين لنا أن الحياة الاجتماعية التى عاشها البيزنطيون تأثرت تأثرا كبيرا بالبيئة الشرقية المجاورة .

فقد كان التأثير اليونانى والفــارسى عميقا وقويا فى كثــير من العادات والتقاليد .

وسيرا على خطة البحث أردت أ نأبدأ كــلامى بعرض لحيــاة الأباطرة الخاصة ثم نتبعه بالحياة الاجتماعية للشعب البيزنطى عامة .

وقبل أن ندخل فى هذا الموضوع آثرت أن أنوه بالرأى الــذى عرضته الأستاذه هاسى Hussey والذى ترى فيــه أن المجتمــع البيزنطى لم يكن مقتصرا على طبقة معينة لأن ابن الفلاح يستطيع أن يصل الى منصب الامبراطور ، وابنة الخادمة تتزوج امبراطورا وتصل الى العرش ، فأى فرد يتمتع بقسط من الذكاء والعمل يستطيع أن يتدرج الى أعلى المناصب(١) .

ويؤيدها فى ذلك الأستاذ داود رايس فى أن المناصب العسكرية ربما تفتح لأصحابها الطريق لتولى المناصب العليا ، كما أن المنــاصب المدنية ربما تؤدى الى هذا السبيل ، وربما تلعب الصدفة دورها فيحصل الفرد العادى على أعلى المناصب .

وعلى سبيل المثال الامبراطورة ثيودورا زوجة جستنيان ابنة لاعب السيرك الحقير ، والتى تمتعت بدرجة كبيرة من الذكاء والجاذبية ، فكانت سعيدة الحظ وتقلدت منصب الامبراطورة(٢) .

---

(1) Hussey «The Byzantine World» p. 125.
(2) David. «op. cit.» p. 105.

ونبدأ الآن عرضنا لتاريخ البلاط البيزنطى الذى ينقسم الى قسمين يفصل بينهما حكم أسرة آل كومنين •

القسم الأول : وهو خاص بموضوعنا من القرن الخـامس وحتى ظهور آل كومنين سنة ١٠٥٧ م •

وهذه الفترة كانت فيها التقاليد الرومانية هى السائدة مع بعض المؤثرات التى وصلت من البلاط الفارسى(٣) •

كان للامبراطور حياة مقيدة ومضيق عليها أكثر من أى فـرد من أفراد الرعية فكان يسكن القصر الامبراطورى الذى سماه الغربيون باسم دافينى Daphine وقد تعـددت واختلفت قاعات القصر ، فهنـاك قاعـات فخمـة مخصـصة للاسـتقبالات مثـل قاعـة Tribunal, Des Dixneufeits وقاعة Magnauro وقاعة Chalcé

وقد مرت قاعة Magnaure بتطورات عديدة بدءا من عصـر جستنيان وزودها ثيوفيل ببعض الترميمات والاصلاحات لأنها أعـدت لاستقبال السفراء • وكان هناك تقليدا متبعا داخل القصر الامبراطورى فيقوم الحارس بفتح أبواب القصر مع بزوغ الفجر ، بينما يقوم الخادم الخاص بغرفة الامبراطور بطرق الباب ثلاث مرات بمفتاح لايقاظه ، وعندما ينتهى الامبراطور من ارتداء ثيابه يتوجه الى قاعة العرش حيث يصلى ، ثم يجتمع بمسـتشاريه أو ببعض الأجانب وعنـدما ينتهى من الاجتماع يحرك الحارس المفاتيح محدثا صوتا لينصرف الجميع ويغلق باب القصر(٤) •

عاش الأباطرة داخل القصور متمتعين بحريات تامة ، كمـا أنهم كانوا يغادرون القصر ليلا لتفقد شوارع القسطنطينية دون أن ترافقهم

(3) Brehieh. «La Civilisation Byzantine» T. XXXII. p. 61.
(4) Brehier. Ibid. p. 62.

أية حاشية ، كما نجد أنه على الرغم من الجدول الزمنى الحافل بالأعياد والالتزامات التى تفرضها الحكومة ، الا أن الأباطرة كان لديهم متسعا من الوقت لمزاولة اهتماماتهم الخاصة ، والتى كانت تختلف تبعاً لميولهم علاوة على الاحتفال بأعياد الكنيسة ، فقد كانت العبادات تحتل مكانة كبرى فى حياة غالبية هؤلاء الأباطرة ، فقد كان القصر الامبراطورى يتضمن محرابا خاصا به حيث يقوم رجال الدين باقامة القداس ، وكان الأباطرة يحبون الانضمام الى جوقة المرتلين مثلما كان يفعل ليو الأرمنى الذى اغتيل بينما كان يرتل فى صلاة السحر ليلة ٢٦ ديسمبر سنة ٨٢٠ م[٥] .

واذا أردنا أن ندرس حياة الأباطرة باختصار بدءا من تتويجهم فى كنيسة القديسة صوفيا حتى اعداد الجنازة المهيبة لهم عند مماتهم فى كنيسة الرسل المقدسة ، ليس أمامنا غير كتاب « الطقوس » الذى ألفه الامبراطور قنسطنطين السابع فى القرن العاشر الميلادى ، وفيه يعرض حياة الأباطرة السابقين له بمنتهى الدقة ، والحياة الدينية التى يحياها الامبراطور ، ويتحدث عن نهايته والترانيم والتراتيل الدينية والهتافات والمراسم التى تحدث فى الاحتفالات والمواكب الرسمية ويتحدث فيه عن كل حركة تصدر من الامبراطور ، كل ايماءة ، وكل تصرف يصدر عن الأباطرة طبقا لقواعد البروتكول المحددة ، كما يذكر أن حياة الامبراطور كانت مملوءة بالاحتفالات والمناسبات التافهة كالاحتفالات الدينية والعلمانية ، ففى كل صباح كانت المواكب الدينية تملأ حجرات القصر وفى أيام معينة يتوجهون الى الكنيسة ، ومع نهاية العام تكثر الاحتفالات بأعياد ميلاد المسيح[٦] .

وكان بالقصر الامبراطورى وسائل مختلفة للتسلية مثلما كان الوضع فى بلاط الأباطرة خلال العصور الوسطى ، فقد كان هناك من المعتوهين

---

(5) Ibid. p. 63.

(6) Diehl. C. «Byzantium, Greatness, and Decline». p. 38.

والأقزام والمهرجين من يبعث السرور فى نفس هؤلاء الحكام عن طريق دعاباتهم وطلاقة ألسنتهم ، وكان هناك من الأباطرة من يمارس لعبة النرد للتسلية • وقد عرفت بيزنطه لعبة الشطرنج منذ القرن السادس وهى لعبة قادمة من الهند وانتقلت الى بيزنطه عن طريق الفرس •

ومن أهم الألعاب التى مارسوها لعبة البولو التى وصلت من التبت الى بلاد الصين وبيزنطه ، وهى عبارة عن لعبة كرة من الخشب تلعب على ظهـــر الخيـــل •

وأصبحت لعبة البولو هى اللعبة الرياضية المفضلة لدى الأباطـــرة حيث كانوا يمارسونها بالاشتراك مع النبلاء فى ميدان مخصص لذلك داخل القصر •

ولدفع الكرة كان اللاعبون يستخدمون بيزر — (مطرقة خشبية ذات رأسين ، تنتهى على شكل مضرب كرة مقوس) كما كانوا ينقسمون الى فريقين يتبادلان قذف الكرة • وهنا نذكر أن مدرجات مخصصة لهـــذه اللعبة كانت موجودة فى كل من أفسوس ، وطرابيزون(٧) •

وكانت المصارعة الرياضية والملاكمة والمصارعة اليونانية من الألعاب التى تحظى بنصيب كبير من اهتمام هؤلاء الأباطرة ، ويبدو أن ميدان السباق الواقع فى مدخل البسفور فى بلدة سانت ماماس كان مخصصا لاستخدام الأباطرة فى هذه الألعاب ، وكان هناك منتزه خاص بالاباطرة وهـــــو منتزه فيلو باتيون Philopation الذى يقـــع خارج قصر السورس Source تحيط به الجدران كثيرة الأشجار التى يتم ريها بالمـــــاء •

كما كان هؤلاء الأباطرة يقومون برحلات الى تراقيا وآسيا الصغرى يرافقهم خلالها جماعة من حرس البلاط وهم من الأجانب المأجورين •

---

(7) Brehier. Ibid. p. 67.

ولم يقم الحكام دائما فى القصر الكبير ، بل كانوا يتوجهون الى القصور العديدة التى يمتلكونها فى ضواحى القسطنطينية بحثـا عن الراحة وكانت هذه القصور تقع بالقرب من قصر السورس Source أو بجوار القرن الذهبى أو الشاطىء الغربى لبحر مرمرة أو فى مواجهة ساحل آسيا الصغرى فى خلقدونيا وهيرا التى عقد بها المجمع الدينى الذى أدان عبادة الأيقونات سنة ٧٥٤ م •

ومثلما كان يفعل المواطنون البيزنطيون ، كان الأباطرة يترددون على ينابيع المياه المعدنية فى المنطقة البركانية الواقعة عند سفح جبـل اليمبيا فى بيثينا والذى يقع بدوره بين بروسيا ودوريلى حيث توجـد حمامات دلفى التى قام جستنان باعادة بنائها والتى ذهبت اليها ثيودورا يقوم على حراستها ٤٠٠٠ رجل(٨) •

وهناك أدلة كثيرة على أن الامبراطور كان يتناول طعامه مع أسرته فى جو بسيط لا يختلف فى ذلك عن رعاياه ، ولا يقوم بخدمته موظفين بل بعض العبيد ، وذلك باستثناء الولائم الرسمية الموضحة فى الجدول • الخاص بالبلاط • ومن جهة أخرى فاننا نرى أن المائدة الملكية لم تكن أفخم من موائد الرعايا •

ولنترك الأباطرة محاولين أن نتغلغل فى أعماق العاصمة البيزنطية القسطنطينية لنرى مزيدا من الحياة والنظم الاجتماعية التى اتبعهـا السكان الذين اكتظت بهم هذه المدينة العريقة •

وقبل أن نبدأ حديثنا عن القسطنطينية كعاصمة للامبـراطورية البيزنطية والحياة الاجتماعية داخلها أريد أن أذكر أن عناصر السـكان التى عاشت فى هذه الامبراطورية كانت من جنسيات مختلفـة • ففى بداية التاريخ البيزنطى كان الأباطرة ومن يحيطون بهم جميعـا من الرومان يتكلمون اللاتينية ويجرى فى عروقهم دماء الجرمان وغيرهم

---

(8) Ibid. p. 68.

من العناصر التى قهرها الرومان فى غاله واسبانيا وسوريا وشمال افريقيا • ولكن بعد انتقال العاصمة الرومانية الى القسطنطينية لعب الاغريق دورا كبيرا فى شئون الحكم وعند نهاية القرن السادس حلت اليونانية محل اللاتينية كلغة رسمية فى الامبراطورية ، واحتلت الشخصيات التى تتكلم اليونانية مكان الصدارة فى الوظائف الحكومية فى الامبراطورية ، كما نشأت أسر جديدة نتاج التزاوج فى هذه المنطقة مثل مقدونيا والبليبونيز وآسيا الصغرى وأرمينيا[٩] •

والمزية التى امتاز بها التكوين الاجتماعى لسكان الامبراطورية انهم يتمتعون بحقوق المواطن مهما كانت جنسياتهم ، وسواء أكانوا أغنياء أم فقراء ، وقد شبهوا بسكان الولايات المتحدة فى أيامنا هذه • فقد كانوا يكونون وحدة ثقافية • وقد كانت القسطنطينية هى محور الحياة الاجتماعية فى العالم البيزنطى ، ويماثلها جميع مدن الامبراطورية فى أن الحياة الاجتماعية والثقافية فيهم كانت بيزنطية محضة[١٠] •

وقد احتلت القسطنطينية مكانة فريدة فى الامبراطورية الشاسعة حتى أصبحت هى العاصمة السياسية والاقتصادية والادارية والأدبية • كما أنها هى المدينة الملكية التى رنى اليها العالم بأبصاره ، فقد كانت فى نظر البيزنطيين المدينة التى يحرسها الله[١١] •

ومن حيث الموقع كانت القسطنطينية فى العصور الوسطى همزة الوصل بين القارتين الأوربية والآسيوية ، وذلك بحكم موقعها حيث كانت تعتبر جزءا من كل منهما • وفى الوقت الذى كانت الحياة المدنية قد توارت عن الغرب حيث كان سكان روما يتحصنون داخل الخرائب القديمة التى حولوها الى قلاع كانت القسطنطينية هى المدينة

---

(9) David. T. Rice «The Byzantines» p. 20.
(10) Ibid.
(11) Diehl. «op. cit.» p. 94.

المسيحية الوحيدة الجديرة بأن تحمل آسم العاصمة وداخل أسوارها التى ظلت منيعة كان شعبها هو الشعب الوحيد الذى استطاع أن يخلق حضارة لها طابع جديد خاص بها لتسطع على العالم البيزنطى وعبـر حدوده[١٢] .

ويرى الأستاذ ديل أن الطابع الكلاسيكى ظل مميزا للقسطنطينية ويدل على ذلك التماثيل القديمة التى كانت تزين الميـادين الكبيرة ، والقصور الفخمة والكنائس حيث كان يطلق عليها « مدينة العجائب » فالمبانى العالية ، والأروقة الكبيرة والأعمدة المرتفعة حتى أنهـم كانوا يقولون ان القسطنطينية هى أحد عجائب الدنيا السبع[١٣] .

ومن أهم العجائب القصر الامبراطورى الذى لا يضـارعه فى الروعة أية بناء ، والأبنية الموجودة بالقصر لا تحصى حتى أنهم يقولون ان القصر يعتبر مدينة داخل مدينة . فمنذ عصر قنسطنطين الكبير وحتى القرن الحادى عشر كان كل امبراطور من الأباطرة يضيف لهذا البناء جديدا ، لذلك تكدست المبانى كما كان به صـالات اسـتقبال وأجنحة وقصور وثكنات ، حمامات ، مكتبات وكنائس وسجون وقاعات كبـيرة وشرفات تطل على البسفور وبحر مرمرة الى جانب الأدراج والأبراج والحدائق التى صممت بدون تنظيم أو خطة هندسية[١٤] .

وكانت الأسوار تحيط بالقسطنطينية من جميع الجهات ، حتى أنها تشبه الى حد كبير أسوار بابليون ، وقد أقيم عليها عدد كبير من الأبراج التى تتميز بارتفاعها الشاهق ، ولو رأيت كل برج من هذه الأبراج على حدة لكان موضع اعجاب .

---

(12) Brehier «La Civilastion Byzantines» T. XXXII. p. 78.
(13) Diehl «Byzantium, Greatness and Decline» p. 99.
(14) Ibid.

وفى خطاب مرسل من مانويل كريزلوراس سنة ١٤٠٦ الى يوحنا الثامن ١٤٢٥ — ١٤٤٨ نجد وصفا مسهبا لتاريخ مدينة القسطنطينية فى العصر السابق لهم ، يصف فيه كريزولوراس بلهجة لا تخلو من الفخر آثار القسطنطينية العظيمة وأعمدتها الضخمة ، وأروقتها وقصورها : وحلبات السباق فيها وترساناتها ، ومحطاتها البحرية المسورة ، وأبراجها المقامة فى الماء ، وصهاريجها ذات القباء التى ترتكز أحيانا على عدد كبير من الأعمدة وحماماتها العديدة ، ونافوراتها العامة ، كما وصف جمال ضواحيها التى كانت أبنيتها تنافس أبنية المدينة نفسها من حيث الفخامة والعظمة[١٥] .

وكان بالمدينة القصر الكبير ، وممراته المسقفة . ووراءه تقع كنيسة القديسة صوفيا ، وتمتد منه الحدائق حتى البسفور . ثم يجىء السور الضخم المنحنى الذى تقوم عليه كذلك الناحية الجنوبية من ميدان السباق ، وهو يطل على مرفأ القصر المزخرف ، وكنيسة القديس سرجيوس ، والقديس باخوس . ومعهما حتى منخفض ملىء بقصور أصغر حجما ، وعلى مسافات متقطعة الى اليسار يظهر السور البحرى بما يعلوه بين حين وآخر من أبراج ، وقد شقت فيه فتحات تسمح بوجود مرافىء صناعية صغيرة ترسو فيها السفن[١٦] .

ويذكر بنيامين التطيلى أن القسطنطينية كانت تعتبر مدينة هامة لأن بها أعدادا لا حصر لها من الكنائس والأديرة والملاجىء التى أنشأها الأباطرة والأمراء الاتقياء وكثير من أهل القسطنطينية الاغنياء وشيدوا هذه الكنائس للعبادة والتأمل ولحفظ الآثار المقدسة المتبقية من آباء الكنيسة الأوائل ، وآثار الرسل السالفين . كما حفظوا بها أعدادا كبيرة من الأحجار الكريمة والذهبية . وقام الحجاج بزيارة

(15) Brehier «op. cit.» p. 79.
(16) Pears. «Destruction of the Great Empire» p. 192.

القسطنطينية باعتبارها أثرا مقدسا ، خاصة كنيسة أياصوفيا أو الكنيسة الكبرى كما كانت الشمس فى هذه الآونة .. كذلك كنيسة الرسل المقدسين التى قلدها البنادقة وبنو مثلها للقديس مرقس . وقد بنيت كنيسة أخرى فى القرن الثامن لها قداسة هامة(١٧) .

وكان شارع الميز Mesé بالقسطنطينية هو الشارع الرئيسى الذى يربط ما بين مدخل المدينة الى أسوارها وبين البوابة الذهبية الى القصر ويبلغ طوله حوالى ٥٧٠ مترا ويطلق عليه اسم أغوارا ، وكان يقع ما بين كنيسة أيا صوفيا وقصر الأباطرة الكبير . ويمتلىء الشارع بالباعة الذين يقفون فى صفوف متراصة تحيط بهم التماثيل الجميلة والآثار النادرة ، وأهم الأسواق فى هذا الشارع سوق أركاديوس وثيودسيوس ومارسيان واتنسطنطين الذى يعتبر أهمهم جميعا . وعند مدخل سوق ثيودسيوس يوجد قوس النصر المزدان بريش الطاووس — الذى اكتشف عام ١٩٢٧ م — الى جانب المسلة الكبيرة التى أحضرها قنسطنطين الكبير من مصر ، وأقيمت على قاعدة التمثال الموجودة داخل حلبة السباق « الهيبودرم » وامتاز هذا الشارع باتساعه واستقامته ورصفه ، وكانت توجد به ممرات فى كل ناحية كما أنه كان قريبا من وسط المدينة(١٨) .

كانت تجارة المعادن الثمينة تتركز فى هذا المكان ، حيث كانت الحكومة تجبر تجار الذهب والفضة على اقامة متاجرهم فيه .

وقد احترق هذا السوق أثناء ثورة النيقا Nika فى عهد جستنيان ثم أعيد بناؤه فى نفس المكان فيما بعد ، كما ورد ذلك فى كتاب والى المدينة فى القرن العاشر ، وكان الصرافون يضعون مناضدهم

(17) Diehl «op. cit.» p. 102.
(18) David. T. Rice. «op. cit.» p.p. 34-35.

المليئة بقطع الذهب والفضة Clavija كما كانت هنــاك ســجونا يقيد فيها المجرمون تقع فى مواجهة مناضدهم[١٩] •

ومن سوق أركاديوس يوجـد طريق يؤدى الى كنيسة الرســل المقدسين وقصر بلاخرناى والى الأسوار الغربية من القرن الذهبى • وهناك شارعا آخر لكنه أصغر يؤدى الى بوابات المدينة الموجودة فى الأسوار •

وكثير من هذه الشوارع كانت مزدانة أيضا بالآثار والقطع الفنية الجميلة •

أما الشوارع الجانبية الأخرى فى المدينة فكانت معظمها ضــيقة ومتعرجة ، والنقل داخلها بواسطة الابل والحمالين ، والنــاس فيهــا يفضلون السير على الأقدام •

وفى هذه الشوارع كانت توجد الأسواق المختلفة تبيــع مختلف السلع وهى تتشابه كثيرا مع بعض أسواق الشرق فى أيامنا هذه[٢٠] •

ومما يبعث الحياة فى شوارع القسطنطينية هؤلاء الباعة الجائلون الذين يلتمسون عملا أو ينادون على بضــائعهم ، وهناك من يقومون بتكفيت الذهب والاسكافيين ، وبائعى مصل اللبن « وهو السائل الذى ينفصــل عن اللبن الرائب » الذين كانوا يحملون ثمار الكرنيب على أكتافهم وقد استعملوهــا كأوان بالاضافة الى تجار النسيج وصانعى مطاحن الفلفل ، والعتالين الذين كانوا يأخـذون قدحا من النبيذ وقليلا من القدير[٢١] كأجر لهم بعد عناء النهار ، وكانت الشوارع تضم كذلك بعض المنجمين والسحرة والعرافين ، ومدعى النبوة ممن كانوا يثيرون الهلع بين الناس عندما يعلنون عن اقتراب نهاية العالم[٢٢] •

---

(19) Brehier «op. cit.» p. 88.
(20) David «op. cit.» p. 25.
(٢١) القدير • يخنه كثيرة التوابل •
(22) Brehier «op. cit.» p. 90 & Pears «op. cit.» p. 195.

ورغم أن الشوارع تبدو ضيقة الا أنها كانت تسمح بمرور العربات التى تسير بلا محركات ، وذلك من القرنين الخامس والسادس أما عربات الأثرياء فكانت ذهبية اللون تزينها نقوش وتجرها البغال ذات السروج الموشاة بالذهب •

ورغم ذلك فقد وجدت أحياء قذرة وفقيرة بالقسطنطينية الى جانب الحوارى الضيقة المظلمة حيث لا يتمكن المرء من الرؤيا فى وضح النهار حيث كانت جرائم القتل والسرقات شائعة ، كما تواجدت الأكواخ المتواضعة على مقربة من القصور ، ولم تكن هذه الأحياء والحوارى تعرف شيئا عن خدمات الطرق ، وقد أدى نقل البلاط الى قصر بلاخرناى الى اقامة حى أرستقراطى جديد صحى وأكثر تهوية من ضواحى القصر الامبراطورى(٢٣) •

وقد انتشرت القصور الضخمة التى قام ببناؤها الشخصيات الكبيرة فى هذا الحى الذى لم يكن به الا عدد قليل من السكان حتى ذلك الوقت ، حيث وجدت حدائق كبيرة وخزانات للمياه حيث كانت المياه متوفرة بالقسطنطينية حتى نهاية القرن التاسع(٢٤) •

وكانت حركة الشوارع تزداد عبر العصور عند مرور المواكب الرسمية التى كانت تجتذب حشود كبيرة من الجماهير وتتسبب فى وقوع حوادث ، ومثالا لذلك نذكر حفل تنصيب البطريرك جيرمان سنة ٧١٥ ، فكانت الجموع تندفع بسرعة حتى ان والده القديس اتيان كانت على وشك الهلاك • وهناك رواية مليئة بالصخب تروى دخول نقفور فوقاس القسطنطينية بعد اعلان بتنصيبه على الامبراطورية

---

(٢٣) تم نقل القصر الامبراطورى مؤخرا فى القرن الثانى عشر فى عصر آل كومين • أنظر

Diehl «op. cit.» p. 100.

(24) Brehier «op. cit.» p. 91.

سنة ٧٠٧ فقد نزل من السـفينة الحربيـة الامبراطـورية فى حى الهيدروم ، وهناك امتطى جوادا أبيض يزينه رداء أرجوانى محلى بالذهب يتقدمه ستة أشخاص يحملون رايات من النسيج الفاخر ، وكان عليه أن يخترق هذه الحشود الكبيرة التى كانت تهتف حتى يتسنى له مواصلة السير الى القديسة صوفيا مارا بطريق النصر ، وكانت جماهير الشـعب كبارا وصغارا أغنياء وفقراء نبلاء وأفراد عصـابات قاطنوا الأحياء ، وقاطنوا المينـاء ، مئات الألوف من الحرفيين ، وأعـدادا لا تحصى من الرهبان جنود وبحارة فلاحو تراقيا وبيثينيا كل هؤلاء كانوا يحملون المشاعل المضيئة على الرغم من حرارة شمس الصيف ويحرقون البخور ويلوحون بأعلام صغيرة كما كانت الأبواق وطبول الخيالة والدفوف والصنج تدق فى كل مكان ، وكانت هتافات جماهير الشعب المستمرة ، والتى لم يسبق لها مثيل تدوى فى أرجاء المدينة ، كيف يستطيع المرء اذن أن يتخيل دخول كل هذه الجموع الكبيرة وهى تهتف وتصيح تحت قباب كنسة القديسة صـوفيا العظيمة التى كان الضوء يؤثر على درجة ألوان ما تضمه من لوحـات منقوش عليـها بالفسيفسـاء ذات أرضية مذهبة الا أن مواكب النصر هذه بما يصاحبها من أبهة كانت استثنائية ، فهناك مشاهد متواضعة كانت تثير فضول الناس منها على وجه الخصوص منظر الحيوانات الغريبة التى جلبها من مناطق وبلاد أخرى مثل الأفيال التى يقودها السايس أو الزنوج يركبون الجمال ، وغالبا ما كانت هناك مناظر منفرة تمـر فى الشـوارع مثل طواف المحكوم عليهم بالاعدام أو بقطع عضو من جسدهم من المجرمين والمتآمرين ، وأكثرهم من الشخصيات الكبيرة حيث يركبون الحمير بالمقلوب ويضربون على عضو التناسل . ولم تكن الجماهير تهرب من رؤية هذه العروض الكئيبة ، بل كانت تهتم بمشاهدتها وتبدى فظاظة وامتعاض عند رؤيتها ، اما أميرات البلاط ، فلم يكن يستطعن

الظهور علانية ، بيد أنهن لم يكن يجرأن على مشاهدة هذه المناظر الا في الخفاء(٢٥) .

ميدان السباق والعروض

كان لميدان السباق أهميـــة كبرى في القسطنطينية حتى القرن الثاني عشر ويرجع هذا الميدان والمسابقات التي كانت تقام فيه الى قبل ظهور المسيحية ، حيث اعتاد الناس على قيام المسابقات والمباريات الكبرى المنتظمة ، والتي لعبت دوراً كبيرا في حيـــاة الناس في هذه الفترة . وكان ميدان السباق مكانا تعرض فيه الانتصارات الامبراطورية حيث كان الأباطرة يضعون الحذاء الارجواني — رمز الســيادة — على رءوس المنافسين المقهورين أو الأعداء المغلوبين ، كما كان محكمة جنايات يتخذ فيها القضاة مجالسهم بانتظام .

وكان ميدان السباق Hippodrom بالقسطنطينية متســعا ومستديرا ويحتوى على مدرجات ومقاعد من الرخام تصلح لاستقبال ما يقرب من ٤٠٠٠٠ متفرج(٢٦) .

وكان سباق المركبات التي يجرها جوادان أو أربع جياد ترجع في الأصل الى أصول اغريقية قديمة ، وتعد الرياضة المفضلة عند الاغريق والرومان . وكان سكان القسطنطينية أيا كانت طبقتهم الاجتماعية من الامبراطور حتى أبسط عامل يتحمسون لفوز العربات ، وكانوا يرتدون ثيابا بنفس الألوان التي يرتديها المتسابقون .

وكان الاهتمام بالخيول والمســابقات من أهم ما يشغل الأوســاط الأرستقراطية والموضوع الرئيسي لأحاديثهم . وكانت المناقشات حول ألعاب السيرك كثيرة ، أما الفقراء فمنهم من كان لا يملك قوت يومه ، لكنهم كانوا يبذلون أي شيء في سبيل تشجيع فرق السباق .

والمعروف أن ولع قنسطنطين الخامس بالخيول أدى الى تلقيبه

---

(25) Brehier «op. cit.» p. 92.
Depelais «L'Habitation Byzantine» p. 175.

(26) Tamara, T. Rice, «Byzantium» p. 59.

بلقب « كوبرنيموس » وبما أنه من أتصــار اللاأيقونية ، فقد أمر بتحطيم لوحات الفسيفساء الذهبية « وذلك فى العمــود الذى أقامه أغسطس فى أحد ميادين روما ، ويبدأ منه عد الأميال للطرق المؤدية الى قصر الامبراطور » وهى تعبر عن المجامع المسكونية ، ووضع بدلا منها صورا لسائقى عربات الخيل المفضلة لديه . ومما يثير الدهشــة أكثر ولعه بخيول البطريرك حتى أنه كان يقدم لها الطعام بنفسه من قمح وفاكهة ، وكان يبلغ تعدادها ما يقرب من ألف جواد .

وقد حظى سائقوا عربات الخيل بأهمية كبرى فى الدولة ، فكانوا ينالون الكثير من التقدير والاحترام(٢٧) .

كان الاغريق يعزون أصل الفرق الأربعة لانتصــار الاســكندر الأكبر فى الألعاب الاوليمبية ، وكان منظر السائق وهو يقود عربته التى تجرهــا أربعة خيول فى غمرة السباق من أحد المناظر المفضلة لتزيين الأقمشة الفاخرة فى القرن السادس والتى كانوا يجلبونها من آخن « عاصمة شارلمــان فيما بعد » .

ويوجد داخل الميدان المســلة التى أقامهــا تحتمس الثــالث فى هليوبوليس سنة ١٧٠٠ ق م ، والتى أمر ثيودسيوس الكبير بنقلها الى القسطنطينية سنة ٣٩٠ ، وترتكز هذه المسلة على أربعة أحجار مكعبة من البرونز أقيمت على قاعدة تزينها نقوش بارزة تعبر عن الامبراطور وهو يرأس الألعاب .

كذلك العمود البرونزى الذى تم احضاره من دلفى ، وهو عبارة عن ثلاثة ثعابين ملتفة كانت رأسها منتصبة قديما لترتكز عليها الجرة ذات الثلاث أرجل المصنوعة من الذهب والتى أهديت الى أبولو بعد انتصار بلاتس سنة ٤٧٩ ق م ، وأخيرا المسلة المصنوعة من الحجارة

---

(27) Brehier «op. cit.» p. 95.

الصماء وقد غطيت بطبقات من البرونز ، كما أن هناك عدداً كبيرا من التماثيـل المنحوتة مثل تمثال الذئبه وهى ترضـع روموليوس وتماثيل أخرى تم انتزاعها من المعابد الوثنية مثل تمثـال هرقل الذى نحته المثال ليزيبه وذلك الى جانب تماثيل شخصـيات البلاط مثل تمثـال الامبراطورة ايرين وهى جاثمة على عمود وسط آنية(٢٨) .

المقصورة الامبراطورية والاصطبلات :

كان ميدان سباق القسطنطينية مثل سيرك روما العظيم من حيث أنه كان مجاور للقصر الامبراطورى ، وكان الامبراطور يتوجه اليه مباشرة من مسكنه الى المقصورة المخصصة له .

وأغلب علماء الآثـار يرون أن هذه المقصـورة كانت تقع أعلى الاصطبلات الواقعة فى الطرف الشرقى ، والتى كانت عبارة عن مبنى عمودى ذى مدرجات وكان الامبراطور يغادر قصر دافين ويمر فى رواق طويل يحف بمحيط ربع ميدان السباق للوصول الى المقصورة ، الا أن ذلك لم يكن مطابقا للواقع ، كما أن المقصورة كانت مشيدة على غرار المقصورة فى روما وتجاور كنيسة القديس اثيان فى دافينى ؛ وكان لها سلم حلزونى يصل بينها وبين الكنيسـة ، الا أن الامبراطور كان يمر من سلم عريض من الأحجار يؤدى الى الأبواب البرونزية لهذه المقصورة(٢٩) .

وفى اليوم المحدد للسـباق تفتح أبواب ميدان السـباق عند الفجر ليسـمحوا للجمهور بالتواجـد . وعند شروق الشمس يلبس الامبراطور العباءة وجميع شارات الامبراطورية ويحمل فى يديه شمعة مضيئة ، ويتوجه كعادته أولا الى الكنيسة لأداء الصلاة . فى هذا

---

(28) Tamara, T. Rice, «op. cit.» p. 60.
(29) Brehier «op. cit.» p. 98.
Baynes «op. cit.» p. 33.

الوقت كان على سايس الجياد التأكد من أن الجياد فى أماكنها وأن المتسابقين يعرفون أماكنهم ، وان جميع مقاعد الهيبدروم قد امتلأت • عندئذ يدخل الامبراطور الى القاعة ويحيه الضيوف من النبلاء الذين دعاهم لحضور السباق معه ، ثم يدخل قائد السباق ويخطر الامبراطور بالاستعداد • وبعدها تفتح أبواب المقصورة الملكية ببطء ويمر الامبراطور بجانب الضيوف حتى يصل الى المقصورة ويجلس على العرش ويمكنه من مكانه أن يحيى الجماهير المحتشدة فى داخل الميدان فيبدأ بالمجموعة التى تواجهه فيرسم الصليب على الهواء لتحيتهم ثم يلتفت الى الجهة اليمنى واليسرى ويؤدى نفس الحركة ، ويلوح بمنديل ليبدأ المتسابقون • عندئذ تبدأ الجياد الأربع السباق(٣٠) •

المسارح :

ان الاهتمام الذى حظت به ألعاب ميدان السباق فى بيزنطة ، حمل المؤرخون على اهمال العروض الأخرى خاصة العروض المسرحية ، وعلى الرغم من أن لفظ مسرح كان يستعمل للدلالة على أية قاعة اجتماعات ، فان هناك ما يدل على أنه كان يستخدم كذلك للدلالة على الأبنية المخصصة للعروض المسرحية •

وقد شيد سبتميوس سفيروس أول مسرح على الطراز القديم فظل موجودا حتى القرن الخامس عشر وكان البرنامج فيه مخصصا لاقامة المسرحيات الهزلية والمأساوية والفرق الموسيقية وجميع أنواع العروض ، وكان المسرح التقليدى قد عفى عليه الزمن منذ فترة طويلة ليحل محله التمثيل الصامت ، وهو عبارة عن تمثيلية واقعية ومضحكة فى آن واحد ، وكان الممثلون يقومون بأدوارهم بدون أقنعة حيث أنهم كانوا يلجأون الى حركات الوجه التى كانت تحتل أهمية فى التمثيل ومن هنا ظهرت شخصية Sannio مقطب الوجه •

---

(30) Tamara, T.R. «op. cit.» pp. 60 — 62.
Baynes «op. cit.» p. 32.

وقد حدثت ثورة أخرى فى هذا المجال بظهــور المثــلات على المسرح ، وكذلك الأطفال ، وكان الممثلون والممثــلات يخفون حقيقة وجوههم باستخدام المساحيق ، وذلك بهدف تقديم شخصيات كثيرة متنوعة ومتباينة(٣١) .

وهناك سمة أخرى ميزت التمثيل الصامت ، وهى خلق شخصيات نمطية كانت تظهر دائما بنفس الهيئة ونفس الأزيــاء ونفس الطباع ونذكر منها على سبيل المثال شخصية أرداليون العجوز العابث وشخصية سكولاستيكوس مدعى المعرفة والعــلم وغيرهم من الشخصيات وكانت موضوعــات هذه التمثيليات مقتبسة من الحيــاة العمليــة كما كانت تستوحى أحيانا من الأســاطير ، وكان هذا النوع من التمثيــل يتميز بالضرب والصفير والكلمات البذيئة والمبهمة والتهريج الاباحى ، كما كانت هناك لوحات حية وعروض تقدمهــا الفرق ومواكب الى جــانب ظهور الأشباح مما يوحى باستخدام مجموعة كبيرة من الآلات . وقد عرفنا التمثيل الصامت من خلال نصوص قديمة ومهاجمة آباء الكنيسة لاباحة هذا النوع من التمثيل(٣٢) .

وقد حاولت المجامع الدينية منع التمثيل الصــامت خاصة فى اللوائح التنظيمية التى صدرت بعد المجمع المسكونى السادس ، فقد منع رجال الكنيســة الرهبان من مشاهدة هذه العروض ، ورغم هذا الحظر فقد استمر التمثيل الصامت وأثرى بنماذج من الشخصيات النمطية مثل شخصية العربى والأرمنى ، وهذا راجع لتوافد المهاجرين الأجانب(٣٣) .

الحمامــات :

كانت القصور والبيوت الكبيرة تتضمن حمامات خاصة أما بقية

---

(31) Brehier «op. cit,» p. 105.
(32) Ibid. p. 108.
(33) Ibid.

أفراد الشعب فكانوا يستخدمون الحمامات العامة المعروفة منذ قديم الأزل والتى كان يسمح للنســاء بدخولها فى ساعات معينة ، ويشهد عدد الحمامات الكبير على حب البيزنطيين الشديد للاستحمام ، وأغلب هذه الحمامات شيدهــا الأباطرة فى القسطنطينية ومدن الأقاليم وكان كل منها يحمل اسم مشيده(٣٤) •

وكان حب الاستحمام شديدا جدا حتى ان الناس فى القرنين الخامس والسادس كانوا يستحمون عدة مرات فى اليوم ، بل أن هناك من رجال الكنيسة أنفسهم من اعتاد على ذلك وهى عــادة قد أدانها الأطباء •

الا أنه ابتداء من القرن الثامن كان هنــاك رد فعــل ضد كثرة الاستحمام وقد كان لزيادة التقشف والزهد أثر كبير فى ابراز هذه الحركة ، وكان الامتناع عن الاستحمام يعد سلوكا ممدوحا وذلك على الرغم من أنه كان يتم تشييد حمامات داخل الأديرة • ونصت الجداول الزمنية على أن يكون الاستحمام ما بين ثلاث وثمان مرات فى الشهر تبعا للموسم ، وكان من المفضل الاستحمام حوالى الساعة الثامنة أو التاسعة صباحا ، أما النساء فكن يأخذن حمامهن فى الســاعة العاشرة فقط(٣٥) •

لم يتغير نظام الحمامات منذ العهد الرومانى الا قليلا جدا ، وكانت الحمامات الكبيرة تتميز بالفخامة الشــديدة • فكانت واجهتهــا تزين بالأعمدة ونقوش أسطورية منحوتة ، أما فى الداخل فكانت الحوائط تزين بلوحات الموزايكو المنقوشة بمشاهد مسرحية أو رياضية وصور الأباطرة والفلاسفة ونجوم على شكل آدميين ، اما حمامات Zeuxippe فكانت تزخر بالتماثيــل التى ترجع الى عهود قديمة • وكانت هناك

---

(34) Hussey «op. cit.» p. 132.
(35) Brehier «op. cit.» p. 59.

أروقة تؤدي الى حجرات تقع على جوانب القاعات الرئيسية بالاضافة الى حجرات للثياب بل ومراحيض أيضا ، وكان المكان الذى يتم فيه الاستحمام مستدير الشكل وتغطيه قبة مثله فى ذلك مثل حمامات البخار القديمة(٣٦) .

وكان الماء يسخن فى مرجل من البرونز يوضع على فرن من الحديد أو من الحجارة غير قابلة للاشتعال ، وكان الماء ينساب الى المغطس من حوض يشبه برميل يحتوى على ماء دافىء عن طريق ماسورة تنتهى على شكل رأس آدمية أو رأس حيوان .

وكان الكتاب يتناولون موضوع حمامات البخار التى يتم تسخينها بواسطة الأفران الأرضية ، كما كان متبع فى العصر الرومانى ، وكانت الحمامات تتضمن كذلك أحواض سباحة ساخنة أو باردة يمكن الاستحمام فيها وهذا النظام بدأ العمل به من عصر جستنيان وظل معمولا به حتى القرن العاشر الا أنه بدأ فى التلاشى بعد ذلك(٣٧) .

السكان

حياتهم .. وعاداتهم الاجتماعية

أولا : عناصر السكان :

تعددت الجنسيات التى سكنت الجزء الشرقى من الامبراطورية ، ويرجع ذلك الى أن هذه الامبراطورية ضمت عناصر مختلفة خاصة من مناطق الشرق . وكانت الأغلبية العظمى من الاغريق الذين يعدون من السكان الأصليين للمدينة ، وكما هو الحال فى جميع المدن الكبرى كان هناك كثير منهم ينحدرون عن أهل الأقاليم بل وعن آباء وأجداد

---

(36) Ibid.
(37) Brehier «op. cit.» p. 59.

من الأجانب المهاجرين الذين ما لبثوا ابتداء من الجيل الثانى أن تأثروا بأسلوب التفكير المحلى ، وأحسوا بالفخـر لكونهم من مواليد المدينة واستأثروا بلقب الريفيين على عكس سكان الأقاليم[٣٨] •

والواضح أن جميع العناصر والأجناس التى تواجدت فى هـذه المنطقة اختلطت بصورة كبيرة ، وطبقا لمـا أورده علماء الأجناس . فان الفريجيين الذين سكنوا المنطقة السهلية شرق بحـر مرمره قدموا من الغرب واضطروا الى التوجه صوب الشرق نتجة للهجمات القادمة عليهم من تراقيا • وكانت هناك هجرات قادمة من مقدونيا الى غرب آسيا الصـغرى أثناء العصر الهيلينى ، وقد عملوا على أن يعيشـوا بمعزل عن السكان الأصليين لهذه المنطقة ، وساروا على نفس طريقتهم فى الحياة والمعتقدات والعادات الاجتماعية • وأخيرا فى القرن الثامن اندفعت مجموعات من السلاف لتعيش فى منطقة بيثينيا ، لكنهم لم يتفاعلوا فى هذا المجتمع الجـديد ، ولم يكن لهم تأثير هـام فى هذه المنطقة[٣٩] •

وفى عام ٨٠٢ منح نقفور الأول الأراضى للبحارة والجنود مكافأة لخدماتهم الحربية ، وهذه الأراضى فى المناطق البحرية ، لكن هؤلاء المستقرين لم يؤثروا فى السكان الأصليين كلية •

ولعل أهم سكان القسطنطينية والمناطق المحيطة يرجع مظعمهم الى عناصر البحر الأبيض ، فقد كانوا اغريقا فى مظهرهم وحديثهم ، واذا نظرنا الى أخلاقهم ومظهرهم سنستطيع بدون شك أن نميزهم بسهولة عن الطبقات الصغيرة التى كانت تسكن أعالى آسيا الصغرى ، فقد كانوا لا يختلفون عن سكان مناطق شرق أوربا باستثناء السلاف ، وقد

---

(38) Brehier «Ibid» p. 84.
(39) David. . «op. cit.» p. 23.

كان هؤلاء السكان يشبهون اليونانيين فى هذه الأيام من حيث ولعهم بالجدل والاثارة والحيوية فكانوا يميلون الى النقاش الطويل ، وكانوا دائمى الثورات لأتفه الأسباب مما كان له أكبر الاثر فى عدم استقرار القائمين على الحكم • فأتت حياتهم مملوءة بالأحداث والتغيرات والاستقرار لا يعنى فى نظرهم الا التبلد والكسل(٤٠) •

أما سكان مناطق آسيا الصغرى التابعة للدولة البيزنطية فكانوا من الفريجيين والحيثيين والغاليين والايرانيين والساميين الى جانب الصقالبة الذين بدأت هجراتهم تفد فى القرن السادس على الامبراطورية كذلك الأرمن الذين كانوا يكونون الجزء الأكبر من المهاجرين ، فقد كانوا يفرون من اضطهاد الفرس لهم ، وبعد ذلك بدأوا يحتكون مع العرب المسلمين المقيمين على حدود بلادهم • وكانوا يقدمون بدافع من طموحهم للحصول على وظيفة فى البلاط الامبراطورى • وهنا نذكر أن البطريرك انطوين جاوليـاس Antoine - Gauleas كان ابنا لأحد الجنود الفريجيين النازحين الى القسطنطينية •

وفى عام ٧٧٨ كان قضاة الشرق الخمس يحملون ألقابا أرمنية ، وقد تم اكتشاف دليل طريف على الجهود التى كان يبذلها هؤلاء المهاجرون لاكتساب الصفة والطابع الاغريقى ، وهو عبارة عن معجم أرمنى — اغريقى فى شكل كتيب محادثة ، وقد عثر على ورقة بردية اغريقية فى الفيوم يرجع تاريخها الى النصف الأول من القرن السابع(٤١) •

وكان هناك عنصرا هاما من عناصر السكان لم يمتزج بمن حوله بسبب ديانته وهم اليهود الذين لم تحدث زيادة فى أعدادهم بعد

---

(40) David, Ibid, p. 25.
(41) Brehier «op. cit.» p. 85.

القرن السابع[٤٢] • وقد تعرض اليهود فى ظل الحكم البيزنطى لاضطهادات كثيرة وضرائب متعددة ، ولم يتقلدوا أعمالا هامة كالتى تقلدها الأرمن مثلا ، ولا يمكن ليهودى أن يظفر بالمعاملة الحسنة ، ولا الانضمام الى الأرستقراطية الا اذا اعتنق المسيحية ، فنجد مثلا أن شقيقة الامبراطورة ايرين تزوجت من رجل يهودى خرج على دينه اسمه سارانتا بيجيسى[٤٣] •

كما لا ننسى فى غمرة حديثنا أن هناك أعدادا من العرب لا بأس بها تواجدت فى الامبراطورية ، والحقيقة أنهم لم يغيروا شيئا فى الشكل الهلينى للامبراطورية ، الا أنهم كانوا مسئولون عن دخول كثير من الأفكار والعادت والتقاليد الى الامبراطورية[٤٤] •

أعداد السكان

لقد تغير عدد السكان على مر القرون تبعا للتغيرات التى طرأت على الامبراطورية • ومن الطبيعى ألا نجد فى المصادر ما يشير الى أرقام محددة بل أن هناك بعض الدلالات الثابتة التى تسمح بتكوين فكرة عن عدد السكان على وجه التقريب • وتفيد المعلومات الواردة عن هذه المدينة فى القرن الخامس أنها كانت تتضمن ٣٢٢ شارعا ، ٤٣٨٨ منزلا مخصصين لسكن الملاك ، ٢٠ مخبز عام ، ١٢٠ مخبز خاص •

ولم يكن هناك عقارات للايجار ، يفصل بينها أربع شوارع مثلما كان الحال فى روما • وهنا نتساءل عما اذا كان المقصود من منزل مخصص لسكن مالكه هو القصور الأرستقراطية • ومهما يكن من أمر فان ٢٥ ساكن فى كل من هذه المنازل هو ما كان شائعا يؤدى فى النهاية

---

(42) David. «op. cit.» p. 26.
Theophanes «op. cit.» p. 474.
(43) Brehier «op. cit.» p. 82.
(44) David «op. cit.» p. 26.

الى ١٠٩٫٧٠٠ ساكن وهو عدد يبدو ضئيلا بالمقارنة الى عدد الخدم والعبيد الذين كانوا يقطنون هذه البيوت • على ذلك ، ينبغى أن يكون عدد السكان قد بلغ ٥٠٠٫٠٠٠ الى ٦٠٠٫٠٠٠ على الأقل فى ذلك الحين •

وهناك رأى آخر أن عدد السكان كان حتى الفتح اللاتينى سنة ١٢٠٤ م يقرب من مليون نسمة(٤٥) •

ولكن المؤكد أن عدد السكان كان يأخذ فى التناقص نتيجة للابادة والكوارث التى كانت تقع بين حين وآخر منهـا الزلازل الأرضيـة والطاعون والحرائق والفتن وما يصاحبها من مذابح ، الا أن المهاجرين كانوا يأتون رغما عنهم أو طواعية لسد هذا النقص فى عدد السكان وقد سجلت خمسة زلازل أرضية من عام ٣٩٨ حتى عام ٧٥١ م وخمسة أوبئة طاعون والعديد من الفتن وحركات التمرد(٤٦) • والمؤكد أنه بعد وبـاء سـنة ٧٤٦ ، ٧٤٧ كان عـدد السـكان حـوالى ٥٠٠٫٠٠٠ نسمة(٤٧) • ولم يكن عدد السكان موزعا بالتسـاوى داخل المدينة • بل كان هناك تفاوت كبير جدا ، وكانت السواحل أكثر المناطق كثافة سكانية على امتداد خليج البسفور وبحر مرمرة وفى حى Psamathio ومنافذ شـارع الميز والميادين وفى منطقة التلال السبعة •

فى القرن السابع اتجـه السكان نحو حى البلاخرناى الذى أدخله الامبراطور هرقل ضمن مدينة القسطنطينية ، كما اتجهوا الى ما وراء البسـفور والى ضـواحى السـيكيس Sykes • وعلى العكس لم يكن وادى نهر ليكوس Lycos آهلا بعدد كبير من السكان •

(45) Pears «Destruction of the Greek Empire» p. 192.
(46) Brehier «op. cit.» p. 83.
(47) David «op. cit.» p. 35.

الحياة الاجتماعية فى المجتمع

البيزنطى

ظلت الأسرة الرومانية القديمة هى أســاس المجتمع فى الدولــة البيزنطية على الرغم من المفاهيم الجديدة التى أتت بها الديانة المسيحية. والأسرة تعــد مجتمعــا متكاملا يتكون من الآباء والأبنــاء والخــدم الأحرار والعبيد الى جانب الخصيان الذين يعيشون تحت سلطة رب العائلة الذى تتأكد سيادته باستخدام اسم العائلة المتوارث .

وقد طبق هذا النظام على الأسر الغنية والفقيرة على الســواء فى المدن والقرى وقد عمل العبيد والخصيان فى الأسر الغنية ، وعلى الرغم من محاولة الكنيسة القضاء على العبودية الا أن هذا النظام استمر الى نهاية الدولة البيزنطية ، أما الخصيان فقد استطاعوا أن يرتقوا الى أعلى المناصب فى الدولة ، حتى أنه كانت لهم وظــائف خاصــة بهم(٤٨) .

أســماء العائلة :

كانت هناك عادتــان مختلفتــان تطبقان فى القسطنطينية بادىء الأمر ، أولهما العادة الهيلينية وهى فى الأصل عبارة عن تسمية كل فرد باسم علم يليه اسم والده أو اسم أحد أجداده من جهة الأب ومنذ العصــور القديمة وهذه العــادة تقبل اضافة لقب . أما الثانية فهى العــادة الرومانية التى كان يتبعهــا المهاجــرون اللاتينيون فى تلك المدينة التى أسسهــا قنسطنطين وهى تشــمل الاسم واســم العائلة بالاضافة الى لقب(٤٩) . وقد بدأت عادات جديدة فى الظهور فى بداية هذا العصر ، فمن ناحية اختفى استعمال اسم العائلة الذى كان يحمله

(48) Hussey «op. cit.» p. 123.

(49) Tamara, T.R. «op. cit.» pp. 56 — 75.

العبيد المحررون . والاسم الوحيد يتبعه أحيانا تنويه بالبلد الأصلى ومن جهة أخرى فقد تعدد استخدام الألقاب التى لم يكن لها فى بادىء الأمر الا قيمة فردية الا أنه منذ العـــام الألف بدأت هذه الاقاب تتخذ طابعا وراثيا وكانت معظم العائلات تتميز كلا باسم خاص بها .

وظلت العادة الهيلينية القديمة متبعة « اســم فرد يتبعه اســم الأب ، غير أن اسم الأب كان دائما ما يتبعه لفظ « ابن » وهو عرف تتبعه الشعوب البدائية ، والسائد كما هو فى الغرب الأسماء المستعارة ذات الأصل الشعبى وأحيانا العامى ، فاتباع نفس الأسلوب فى تسمية العائلات فى بيزنطة وفى الغرب يظهــر الطـــابع الأوربى فى أعماق المجتمع البيزنطى وذلك رغم اتباع الشرقيين له وفى آسيا وخاصة عند العرب فاننا نلاحظ هذا التغيير الذى يظهر الاستقلال العائلى(٥٠) .

الخطبة :

يعد الزواج الأساس الشرعى لتكوين الأسرة فى المجتمع البيزنطى، وقد اهتم المشرعون بأمر الزواج فقد كانت له قدســية فى القوانين المدنية والكنسية .

وفى بيزنطة كان القانون المدنى الذى يعترف بالطلاق متعارضا مع تشريع الكنيسة ، وقد سمحوا به فى حالات معينة فقط أما الانفصال بدون مبرر والذى يقع من جانب أحد الأطراف فيعاقب بغرامات نقدية وعقوبات معنوية(٥١) . وقد حدد القانون حقوقا متساوية للزوجة مثل الزوج تماما فى حالة الطلاق(٥٢).

---

(50) Brehier «La Civilisation Byzantine»
Tamara «op. cit.» p. 123.
(51) David «op. cit.» p. 123.
(52) Ibid.

وقد حدد القانون سنا للزواج وذلك ليقضى على عادات البيزنطيين فى ترويج أبنائهم فى سن صغيرة • حيث كانت هناك عائلات تقوم بخطبة الأطفال قبل سن ٧ أعوام ، فحددها القانون باثنى عشرة سنة للبنات وأربعة عشرة سنة للأولاد ، وعندما كان الأمر يتعلق بالقصر كان يتم ابرام الاتفاق عن طريق قوانين مكتوبة • وكان الاتفــاق على الزواج يتم عن طريق الوالدين حتى ان الاتفاق كان يتــم بدون علم الزوجين اللذين يجبران على الخضــوع لارادة الآباء • وكان هنــاك وسطاء وخاصة من النســاء اللاتى كن تقمن باتمام زيجات مقابل أجر يحدده القانون(٥٣) •

الزفــاف :

فى اليوم المحدد للزواج تقوم العائلة بارســال الدعوات بصيغ معينة ، وكان تزيين حجرة الزفاف عشية الزواج يعد احتفالا كبيرا ، وكان يتم فرش الحجرة بأنواع فاخرة من السجاجيد وتوضــع تحفا ثمينة ، بينما كانت الجوقة الموسيقية تردد الأغانى الخاصة بالمناسبة وفى يوم الزواج يرتدى المدعوون الملابس البيضاء ، وهو سلوك تفرضه عادات قديمة ، وكان الموسيقيون يصاحبون الزوج عند ذهابه لاحضار العروس التى كانت تبدو فى كامل زينتها ووجهها مخضب بالمساحيق ، فيكشف عنها النقاب ليراها لأول مرة ، وحينئذ يبدأ الاحتفال بالزواج ، ووسط حاملى المشاعل والمغنيين وضاربى الصنج تتوجه العروس بخطى بطيئة نحو الكنيســة تحيط بها نساء العائلة والأهل والأصــدقاء بينما تنهال عليها الورود وزهور البنفسج من النوافذ أثناء مرورها ، وفيما عدا الاحتفال الدينى ، فان العــادات القــديمة ظلت قائمة ، وكانت العروس تدخل بيت زوجها يصاحبها الموســيقيون والمغنون بيد أن

---

(53) Berhier «op. cit.» p. 8.

القصائد الدينية كانت تحل محل أغانى الأفراح الشعبية وذلك تحت تأثير الكنيسة[٥٤] .

كانت تقام فى حفل الزواج وليمة لهذه المناسبة دون أن يخـالط الرجال النساء ، بل ان كلا من الجنسين كان يأكل على حدة ، وعلى أية حال فقد كانت الموائد تزخر بجميع الأوانى القيمة التى تمتلكها الأسرة ، وكان القاء القصائد والأشعار يستمر حتى الليل ، ويتم توصيل العروسين الى حجرة الزوجية ، وفى الصباح التالى يأتى الأهـل والأصـدقاء لايقاظهما مرددين بعض الأغانى ، وتجدر الاشارة هنا الى أنه كانت تقدم أحيانا بعض الروايات والتمثيليات الايمائية خلال اقامة الولائم على الرغم من تحريم الكنيسة ذلك .

ووفقا للقانون الرومانى فانه لا يجوز للزوج التصرف فى المهر . وانما يتعين عليه نقل ملكيته لورثته ، ولم يكن المهر يقتصر على الأموال غير المنقولة فقط ، بل قد يكون من العملات الذهبية والمنقولات والعبيد ، وأما بالنسبة للزوج فقد كان يقدم لزوجته هبة تعد بمثابة ميراث لها منه أو مؤخر صداقها عند وفاته ، وهذه الهبة غالبا ما تكون من المصوغات وغيرها من الأشياء[٥٥] .

المرأة فى المجتمع البيزنطى :

تعتبر المرأة العضو الثانى فى الأسرة ، لذلك آثرت أن أركز على دورها فى الأسرة ، فرأيت أن أبدأ كلامى بما جاءت به الاكلوجا وهى المرجع القانونى الهام الذى يعنينا فى دراستنا .

« فقد جاء بها أن المرأة لها الحق فى حفظ وصيانة جميع ممتلكات زوجها بما أنها هى أساس العائلة ورئيستها ، وحامية المنزل ، كما أنه

---

(54) Ibid.
(55) Ibid.

قد جعل للمرأة الحق فى أن ترفض أو تقبل تعيين زوجها أسقفا • فاذا وافقت على ذلك فلا بد أن تتركه وتتوجه الى الدير ، واذا لم توافق فله أن يرفض هذه الوظيفة الدينية »[٥٦] •

ولا بد أن نلقى ضوءا شاملا على المرأة فى العصر البيزنطى ، فقد كفلت المسيحية للمرأة حماية فعلية ، فمنذ عصر جستنيان وحتى عصر آل كومنين حرمت الزيجات المؤقتة والتقليل من نسبة الطـلاق وتكريم الزواج • وفكرة تبعية الزوجة لا تختلف عن المفاهيم الغربية فى نفس العصر ، بيد أن هناك فارقا يميز بين الحضارتين وهو حبس النسـاء البيزنطيات فى خدر الحريم يقوم بحراستهن أحيانا الأغوات ولم يكن الرجال يخالطون النساء فى اليونان القديمة ، كما كان نظام الأغوات قائما فى روما •

والأسرة البيزنطية تتسم فى ذلك بالطابع الشرقى والآسـيوى أكثر من الأسرة اليونانية القديمة وقد نظمت الكنيسة بنفسها العلاقات بين الجنسين بصورة لا تخلو من الصرامة الا أن هناك نواهى وممنوعات كانت تنطبق على الحياة الخارجية دون أن تمس تنظيم الأسرة وتكوينها ومثال هذه الممنوعات والنواهى تلك التى وردت فى المجمـع الدينى المنعقد فى سنة ٦٩٢ م فقـد كانت العـادات أقـوى من القـوانين وأرسخ[٥٧] •

وليس من شك أن الحرية الشديدة التى كانت تعترف بها أمـيرات الأسرة المالكة على مر العصور كانت تثير الدهشة ، ولكن هذا كان يعد استثناء فالعادات والأخلاقيات كانت أشد صرامة لدى أفراد الشـعب وغنى عن الذكر أنه فى بيزنطة مثلما فى غيرها كانت هناك بيوت وأسر لم يكن لسلطة الزوج فيها وزن يذكر قبل ارادة المرأة[٥٨] •

(56) Hussey «op. cit.» p. 123.
(57) Brehier «op. cit.» p. 11.
(58) Ibid.

لم يكن هناك أماكن للتسلية تتوجه اليها المرأة البيزنطية • فالرجل يستطيع أن يقابل رفاقه فى الأسواق ويتحدث اليهم ، وهذا ممنوعا على المرأة البيزنطية كما يمكن للرجال التوجه الى الحدائق العامة وتبادل الأخبار • أما المرأة فقد حرمت من الخروج بمفردها، ولا يسمح لها بالخروج الا للصلاة فى الكنيسة أو للذهاب الى الحمامات العامة ، واذا خرجت لا بد أن يصحبها أحد العبيد •

فكل أسرة حتى الطبقة الوسطى عندها اثنان على الأقل من العبيد يقومان على خدمتها ، فيساعدون الزوجة فى شئون المنزل ، ويشترون الحاجيات من الأسواق المحلية يوميا ، ويفتحون الأبواب فى المنازل ، وكانوا ينامون بعيدا عن أماكن النساء ليلا(٥٩) •

وكان البيت هو المكان الطبيعى للنساء ، وكن لا يبرحنه الا نادرا وكن يقضين أوقاتهن فى أشغال الابرة والتطريز ، بينما يلعب أولادهن بجانبهن ، وكانوا يقدمون الدمى للأولاد ليلعبوا بهم ، ويفضلونهم فى ذلك عن البنات • ومن هذه الألعاب الجياد والكارت ومنازل من الطين الصلصال والأطواق والكره والصفاره والفلوت بينما تلعب البنات بالشمع والصلصال والعرائس الجصية • وينتهى اللعب بهذه الألعاب عند الاقتراب من المراهقة حيث تنتهى فترة الطفولة(٦٠) •

ويذكر شاهد عيان المجتمع البيزنطى قائلا « ان لغة الاغريقيات أنقى من لغة أزواجهن ، وذلك لأنهن لا يتصلن بالأجانب ، ولا حتى ببنى وطنهن ويقول انهن لا يخرجن أبدا الا فى الليل عندما يذهبن الى الكنيسة ولزيارة بعض الأقارب المقربين جدا فيغطين وجوههن ويرافقهن بعض الخدم(٦١) •

---

(59) Tamara. «op. cit.» p. 58.
(60) Ibid.
(61) Brehier «op. cit.» p. 14.

وهناك رأيا آخر يقدمه الأستاذ داود رايس يرى أن المرأة البيزنطية نالت قسطا كبيرا من التعليم ، كما أنهن فى أوقات معينة كن يـديرن الضياع الخاصة بهن ببراعة كاملة . ودورهن يتضـح فى مجمـوعة السيدات اللاتى حكمن الامبراطورية كأباطرة ، الا أنهن لم يتمـكن من قيادة الجيوش فى الحرب ، ولم يحدث الا فى عهـد ميخائيل الأول رانجابيه ٨١١ — ٨١٣ عندما اصطحب زوجته بروكوبيا Procopia معه فى حملة ضد البلغار فأدى ذلك الى استياء عام فى الجيش(٦٢) .

الأغـــوات :

من أهم ما يميز ظروف المرأة فى ذلك الوقت استخدام الأغوات « الحضيان » فهم الرجال الوحيدون الذين يمكنهم دخول خدر الحريم « أو الدخول على النساء ، ويقل دورهم فى ثبوت أفراد الشعب » .

وكان عدد كبير من هؤلاء الأغوات يجلب من بلاد القوقاز ، وكان ذلك يكلف الدولة الكثير ، وهناك قوانين صارمة تحرم عملية حضـاء الأطفال والرقيق الذين يولدون فى الامبراطورية ، لكن نتيجة لكثـرة اعداد هؤلاء الحضيان نتأكد أن هذه القوانين لم تراعى وتطبق كما ينبغى وكانت هناك نسبة ضخمة من بطاركة القسطنطينية من الحضيان ، وكان الحضيون يجدون تشجيعا خاصا فى الخدمة المدنية حيث كان حـامل لقب من الحضيان يعد سابقا فى المرتبة لزملائه ، وكانت هنـاك رتب عالية يحتفظ بها الحضيان وحدهم . وحتى الجيش نفسه والأسطول غالبا ما كان لواء الامرة فيهما يعقد لحضى(٦٣) .

الخـدم والرقيـق :

كان يوجد فى البيت عدد كبير من الخدم الأحرار والمحررين تبعا

(62) David. .T R. «op. cit.» p. 112.

(٦٣) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٤٣ .

للمستوى الاجتماعى لرب الأسرة ، وفى كل العصــور كان رجال الدين يثورون على غرور وخيلاء الأغنياء الذين يستخدمون عددا كبيرا من المتملقين والمتطفلين ، وكان البيت المتواضع تتكون أسرته من الزوجين وأربعة أطفال يستخدم ما لا يقل عن أربعة من الخدم ومرضعة .

وقد استمر نظام الرق حتى العصور الوســطى الا أن القوانين والحياة العمليــة قد قللت من اســتخدامه بالمقــارنة الى نظام الرق اليونانى

وكانت عملية عتق العبيد تعد عملا طيبا ، الا أنه لم يلغى وكان للسيد السلطة المطلقة على عبده حيث كان يعاقبه كما يشاء ، ولم يكن جميع الأسياد بنفس الصرامة والعنف اللذين تشير اليها قصة شقيق القديس ثيوفانيس الذى أخذ يضرب أحد العبيد حتى أعياه التعب وسقط مغشيا عليه ..

وقد أزدهر نظام الرقيق فى الشرق فى نهاية العصور الوسطى بصورة لم يسبق لها مثيل[٦٤] .

ويؤكد المؤرخون على أن العبيد استمروا فى اضطراد حتى نهاية القرن العاشر ، ويحاول الأستاذ داود رايس أن يرفع من شأن هذه الطبقة بقوله : « ان العبيد الذين يعملون مع سادة أغنياء طيبى القلب أحسن حالا الى حد كبير من الأحرار الفقراء الذين يعيشون فى فقر وفاقة داخل المدن » . كما كان يسمح للعبيد بأن يعملوا مع ســادة آخرين فى أوقات فراغهم فحصلوا نظير ذلك على مبالغ كبيرة من الأموال تمكنوا عن طريقها من شراء حريتهم[٦٥] .

---

(64) Brchier «op. cit.» p. 16.
(65) David T. R. «op. cit.» p. 99.

الأطفـــال :

ان أهم حدث يقع فى نطاق الأسرة هو مولد طفل فيها وكان يصحب هذا الحدث عادات قديمة أدخلت عليها المسيحية بعض التغييرات ، وكانت هناك وسائل لتخفيف آلام الحمل من العقاقير الغريبة التى كانت لا تخلو من الخطر ، وكذلك بعض العمليات التى يدخل فيها السحر . وكان هناك منجمون يتنبأون بجنس الطفل ، وكذلك بطالعه لحظة مولده كما كانت تقوم بالاشراف على عملية الولادة قابلات غير ملمات بالأمور الطبية لكنهن يتبعن وصفات خرافية(٦٦) .

وعند ميلاد الطفل يتم تنظيفه بتغطيسه فى المـــاء ، ثم يوضع فى لفافة من الصوف ، وكان الطفل يلبسها حتى يتـــم أربعين أو ســـتين يوما ، وكانت مسألة ارضاع الأم لطفلها موضع نقاش فى بيزنطة . ويتم اصطحاب الطفل الى الكنيسة لتعميده بعد ولادته بأسبوع ، وقد بدأ اتباع هذا التقليد منذ القرن السادس ، أما الأستاذة تامارا رايس فتقول : ان التعميد يكون فى خلال ثمانية أسابيع من ولادة الطفل(٦٧) .

كان التعميد اجباريا ، وكانت شعائره عبارة عن تغطيس الطفـــل ثلاث مرات الا أن هناك ما يدل على أن عملية التعميد كانت تتم بترك الطفل فترة فى ماء المعمودية ، وقبل أن يتم التعميد كان القس يمنح الطفل الاســـم الذى يختـــاره له أبوه الروحى الذى يقف بالقرب منه ممســـكا بشمعة مشتعلة ، وكان من المفضل اختيار اسم قديس أو اسم عيد مثل باشاسيوس المأخوذ من عيد الفصح أو أسماء فضائل كصوفيا التى تعنى الحكمة ، وكان الفأل يلعب دورا فى اختيار الاسم ، فكان يتم اشعال عدد من الشموع ويطلق على كل منها اسم وتتم تســـمية

---

(66) Brehier «op. cit.» p. 17.
(67) Tamara, T.R. «op. cit.» p. 56.

الطفل بالاسم الذى تحمله آخر شمعة تنطفىء ، وتجدر الاشارة هنا الى أن هذا التقليد كان من القرن الخامس فصاعدا .

وبعد انتهاء التعميد يعود أفراد الأسرة الى البيت فى احتفال كبير ممسكين أحيانا بالشموع المشتعلة وهم يرددون ترتيلا كنسيا خاصا بهذه المناسبة وينثرون النقود طوال الطريق(٦٨) .

وقد كانت هناك مراسم خاصة حين يعمد أحد أفراد الأسرة الامبراطورية ويصف لنا مرقس الشماس تعميدا تم لابن أحد الأباطرة بقوله : « ازدانت القسطنطينية بالأعلام الحريرية ، وتلألأت بالذهب ، وازدحمت شوارعها بالناس ، ولبس جميع الناس الذين شاركوا فى الموكب المتوجه الى كنيسة القصر الملابس البيضاء حتى كانوا يبدون وكأنهم ثلجا أبيض تساقط على الأرض . ويصحب الموكب البطاركة وكبار رجال الدين ورجال الامبراطورية وكلهم يحملون الشموع المشتعلة كما لو كانت النجوم تتلألأ على الأرض . بعد ذلك يأتى الطفل يحمله أحد النبلاء وبجانبه والده السعيد مرتديا الملابس الأرجوانية(٦٩) .

ملكية الأسرة :

عرف القانون الرومانى والتشريعات الامبراطورية الملكية بأنها الأساس الاقتصادى للأسرة ، ولم يكن الأب الحائز الوحيد لتلك الملكية : نظام المهر — مؤخر الصداق — الأطفال الذين يخرجون عن وصايته .. الخ . الا أنه كان الوحيد الأهل بتحرير العقود التى تتعلق بها مثل الوصايا والهبات والايجارات وعتق العبيد .. الخ . ومن خلال هذه العقود يمكننا أن نكون فكرة عن ثروة الأسرة .

---

(68) Brehier «op. cit.» p. 17.
(69) Hussey «op. cit.» p. 124.

وقد حرص البيزنطيون على توفير أملاك دائمة للأسرة غير قابلة للتصرف فيها ، وقد كانت آسرة ثيوفانيس Theophanes كاهن الاعتراف تعد من الأسر الثرية فى القرن الثامن ، وقد كان أبويه اسحاق ونيودوت يمتلكان جزيرة فى بحـــر ايجه ، وعدداً كبيرا من العبيد ، وكان ثيوفانيس فى الثالثـــة من عمره عند وفاة والده الذى كان من العسكريين فى منطقة بحر ايجه • وفى العاشرة من عمره تمت خطبته وفقا للتقاليد السالف ذكرها على وريثة ثرية تدعى ميجاو وتزوجا نزولا عى رغبة والدته عندما بلغ الثامنة عشر • الا أن كلا من الزوجين أقام فى دير فأقام هو فى دير بوليخينيون Polecenion الذى يدخـــل ضمن ميراثه ثم شيد ديرا آخر فى كالوينموس Kalo Nymos فى أرض كانت ملكا لوالده •

هذه الشواهد تدل على أن الطبقات ميسورة الحال التى تقطن المدن كانت لها أملاك فى الريف توفر لها ما تحتاج اليه من تموين[٧٠] •

تعاليم الكنيسة وأثرها على الأسرة :

تركت التعاليم الكنســية أثرا كبيرا على حياة الأسرة داخليــا وخارجيا • وقد عمل أفراد الأسرة على التمسك بتعاليم الكنيسة أملا فى الحصول على الخلاص ، والظفــر بنعيــم الجنة ؛ لذلك فقد كان المسيحيون يمضون جزءا كبيرا من وقتهم فى الصـــلاة ؛ وقـــد أمـــروا بالتوجه الى الكنيسة كل يوم أحد ، واذا امتنع أحد عن الذهاب الى الكنيسة ثلاث أسابيع متتالية تعرض لتوقيع قرار الحرمـــان الكنسى عليه[٧١] •

وكانت الكنيسة تقوم بتنصير المولود وتباركه بعد ذلك ، واحتلت

---

(70) Brehier «op. cit.» p. 28.
(71) Tamara «op. cit.» p. 55.

حفلتى الخطبة والزواج مكانة دينية هامة • اذ تحتم على البيزنطيين أن ينتظروا قدوم قسيس العائلة الذى كانت له مكانة دينية هامة فى الاحتفالات ، واذا لم يقم رب العائلة باستدعاء القسيس تعرض لغرامة كبيرة ، وقد كان القسيس يقوم بتزويج الخطيبان وهو الذى يقوم بالدفن عند موت أحدهم •

المسكن :

كان البيزنطيون حتى القرن الخامس يسكنون فى منازل صغيرة تشبه الأكواخ ، وبعدها بدأوا فى بناء المنازل ذات الطوابق العالية التى ترتفع من خمس الى ثمانية أدوار • وكانوا يقسمونها الى شقق ، لكنه رغم هذه التطورات الا أن هذه الشقق اتسمت بالقذارة نتيجة الفقر والازدحام • وقد ازداد الفقر حتى ان الناس كانت تفضل أن تعيش فى المنازل الصغيرة التى تماثل الأكواخ عن العيش فى هذه الشقق(٧٢) أما السكان الأغنياء فكانوا يعيشون فى شقق فاخرة • وقد عرفنا أشكالا مختلفة من البيوت البيزنطية عن طريق الآثار الموجودة مثل اطار لوحة Yakto المصنوعة من الموزايكو التى تم اكتشافها سنة ١٩٣٢ م والتى تمثل أبنية ومنازل خاصة فى أنطاكية فى القرن الخامس • وبدلا من أن تعزل هذه المنازل تماما عن الطريق ، فقد كانت هناك نوافذ تخلل جدرانها بها فتحات مستطيلة أو ممرات مكشوفة ، وكل منزل منها يحمل اسم مؤسسه ، وكانت واجهته خضراء اللون يتخللها بابان مستطيلا الشكل سقفه من القرميد الأحمر منحدر من الجانبين تزينه أعمدة(٧٣) •

ومنذ القرن الخامس فصاعدا كانت بيوت الطبقة البرجوازية ميسورة الحال مكونة من طابقين أو ثلاثة تبنى اما من القرميد والدبش ، واما

---

(72) Tamora «Ibid» p. 62.
(73) Brehier «op. cit». p. 30.

من الحجارة المطلية بالجص ، والتى غالبا ما تكون متعددة الألوان وهذا مما توضحه الفسيفساء التى تميزت بها لوحة Yakto ولم يكن الرخام يستعمل الا فى القصور ، وأحيانا كانت الواجهة الرئيسية التى تطل على شارع ذى أروقة تزين بالزخارف ابتداء من السطح وعلى الأفاريز التى تفصل بين الطوابق ، وكانت الشرفات المثبتة بالتكتيف تسمح برؤية الشارع كما كانت النوافذ مستطيلة الشكل أو مستديرة وعبارة عن مربعات صغيرة من الزجاج داخل اطار من الجبس ، وكانت هذه النوافذ لها شبكة فى أغلب الأحيان ، كما كانت الأسقف منحدرة الجانبين مثلثة الشكل أو مسطحة ، وكانت نقوش الموزايكو والرسومات اليدوية التى تصور المدن تجمع بين هذين الشكلين للأسقف . أما الأسقف المسطحة فعليها فوانيس صغيرة معلقة فى قباب ، كذلك كانت البيوت الكبيرة تعلوها قباب وكان باب الدخول على شكل نصف دائرة مستطيل ، وهو عبارة عن مصراعين من الحديد يتم تزينهما بمسامير ذات رؤس ضخمة .

وفى واجهة بيوت الأثرياء توجد سلالم خارجية من الحجارة أو الرخام تؤدى الى باب سحرى يفتح من أسفل(٧٤) .

كان نظام البناء البيزنطى يمنع اقامة نوافذ فى واجهات المبانى مطلقا وظل هذا النظام حتى القرن الخامس . وكانوا يقيمون فناء حول كل بنيان وذلك لدواعى الأمن ، كما كانوا يقيمون الاسطبلات وحظائر الماشية بجانب المنازل ، وهذه الحظائر كانت كبيرة حتى تكفى جميع الجياد الموجودة(٧٥) .

أما بعد القرن الخامس فصاعدا ، فلم تكن المنازل البيزنطية معزولة أو بعيدة عن الحياة فى المدنية رغم الاحتياطات المسبقة ، وانما كانت

(74) Ibid. p. 32.
(75) Tamara «op. cit.» p. 63.

لها أبواب ونوافذ واسـعة تطل على العـالم الخارجى وهى فى ذلك تماثل البيوت الغربية ، فى القرن الثانى عشر . وهذا ما تدل عليـه قوانين الطرق التى كانت تحظر التعدى على الطريق العام[76] .

وفحوى هذا القانون أنه ما دامت هناك نوافذ تطل على الشوارع فيتحتم أن يكون عرض الشارع ١٢ قدما على الأقل ، وعندما بدأوا فى انشـاء شرفات بالمنازل قرر القانون أن تكون هذه الشرفة مرتفعة عن الأرض حوالى ١٥ قدما .

والنوافذ كانت تصنع من قطع مستطيلة من الزجـاج المثبت فى جدار من الجص ، لكن البيزنطيين لم يجعلوا القطع الزجاجية كبيرة لأن الزجاج كان مكلف جدا ، وكثير من النوافذ كانت تزين بقطع من القضبان الحديدية ، ولدواعى الأمن كانت الابواب الخلفية تصنع أيضا من الحديد ومعظمها من الخشب السميك المثبت بمسامير حديدية[77] .

أما فى الداخل فكان يتم تقسـيم المنزل الى عدة طوابق تتوسطها قاعة كبيرة تقع فى الطابق الأرضى أو الطابق الاول الا أن ارتفاعها كان بارتفاع المنزل نفسه ، وهى قاعة استقبال مخصـصة للرجال وكان خدر الحريم يقع فى أحد الطوابق العليا ، كما كانت الطوابق والأسقف ترتكز على أعمدة من الرخام أو من الخشب حسب امكانيات السكان المـادية .

وكان لتزيين المنزل أهميـة كبيرة حيث كان يتم تبليـط الأرض بالرخام أو الموزايكو وتكسية الحوائط بالرخام أو تزيينها برسومات دنيوية أو دينية كما كانت الأسقف من خشب الارز .. الخ . وأحيانا لم يفصل بين الحجرات الا حواجز من ألواح الخشب . اما حجرات

---

(76) Brehier «op. cit.» p. 32.
(77) Tamara «op. cit.» p. 64.

البيوت الشعبية فكانت تغطى بهيكل خشبى تربط بين عوارضه أعواد من البوص[٧٨] •

وتشهد القوانين ومؤلفات العديد من الكتاب على أن نظام المراحيض كان معمولا به فى جميع البيوت ، وكان يحاط بالمنزل ملحقاته مما يدل على حرص السكان الذين يستعملون عددا كبيرا من الخدم لتوفير الراحة لأنفسهم •

وفى بادىء الأمر كانت هذه الملحقات عبارة عن فناء يطل على الشارع ويتصل بممر عن طريق باب واسع حتى يتسنى للفرد ممارسة بعض تدريبات الفروسية • وفى وسط الفناء يوجد بئر أو صهريج ثم أصبحت هذه الملحقات عبارة عن حديقة يوجد بها أحيانا حمامات خاصة ، كما كانت توجد اصطبلات للخيول وللحيوانات فى البيوت الأكثر فقر ، وكان رسم الصليب على الحوائط والأبواب بل وعلى الاسقف يدل على تدين السكان ، بيد أن المجمع الدينى كان قد منع رسمه على الأرض ، وكانت توجد نقوش دينية على حوائط الممر ، وكثير من البيوت الكبيرة كانت تمتلك كنائس خاصة صغيرة اما العائلات الفقيرة جدا فكانت تمتلك مصلى صغير حيث تعلق الصور الدينية[٧٩] •

الأثـــاث :

كان الأثاث مريحا جدا وكثيرا • فهناك أسرة لها أربعة أرجل مربعة الشكل ومرتفعة قليلا من ناحية الرأس وهناك خزائن كانت لا تستخدم الا كمكتبات فكان بها أرفف توضع عليها الكتب مستوية ولهـا بابان لهما قفل وتعلوهما حلية زخرفية وكانت الصناديق تستعمل لحفظ الملابس والأشياء الثمينة كما كان متبعا فى الغرب[٨٠] وهناك الموائد

---

(78) Brehier «op. cit.» p. 32.
(79) Ibid. p. 37.
(80) Ibid, p. 33.

بأشكالها المختلفة من مستديرة ومربعة أو مستطيلة الشكل اما الشكل المستدير فكان يبدو أكثر فخامة وهو ما كانت عليه المـائدة الامبراطورية التى كانت تستخدم فى اقامة الولائم والى جانب الموائد المصنوعة من الخشب كانت توجد موائد أخرى مصنوعة من مواد ثمينة لا يقتصر أستعمالها على قصر الامبراطور بل كانت تسـتخدم كذلك فى منـازل الأغنياء ، اما المـائدة المربعة أو المستطيلة فقد كانت شائعة الاستعمال كما أن الكنيسة البيزنطية كانت تستخدمها كهيكل « محراب » وكانت ذات أربعة أرجل تصل بينها أحيانا عوارض وتحملها أرجل على شـكل أقواس[٨١] •

أما المقاعد فكان شكلها يختلف بين مقعد له ظهر أو مقعد له ظهر ومسـاند ويستخدم للجلوس الى مائدة الطعام ومقاعد بلا أظهـر أو مساند وهذا النوع هو الأكثر استعمالا آنذاك ، كما كان هناك مقاعد منخفضة بلا ظهر يقوم على حملها ستة أرجل مربعة الشكل يصل بينها أقواس[٨٢] •

أما الاضاءة المنزلية فقد كانت تتم عن طريق مصابيح تضاء بالزيت أو عن طريق الشموع أو المشاعل • وكانت هناك مصابيح لها وعـاء بيضاوى الشكل ، وله يد بدلا من المقابض المفرغة • أما المصـابيح القديمة فكان لوعائها فتحة واحدة للتهوية تسمح بمرور الزيت والابرة المصنوعة من البرونز أو العاج التى يتم عن طريقهـا رفع الفتيلة ، وكانت هذه المصابيح التى تمسك باليد أو تعلق تشبه فى الأصل شمعدان كبير له ثلاثة أرجل أو ثريا مستديرة من البرونز على شـكل قرص له ثقوب تمسك أو تعلق بواسطة سلاسل •

ومما لا شك فيه أن هذا الشكل الأخير من المصابيح كان يستخدم

---

(81) Ibid. p. 37.
(82) Tamara, T. p. 65.

فى اضاءة الكنائس وكان يصنع أحيانا من الذهب والفضة ، بيد أن الأحجام الصغيرة التى كان عليها بعض من هذه المصابيح والتى توجد فى المتاحف تدل على أنها كانت تستخدم فى اضـاءة المنـازل ٠ اما الشمعدان ذو ثلاثة أرجل المطعم أحيانا بالميناء فكان يعد جزءا من أثاث بيوت الأغنياء بيد أنه كان يستخدم فى الكنائس على الرغم من أن القوانين المدنية والدينية لم تكن تمنع استخدام العامة للشموع والمشاعل فى الحياة اليومية ٠ وقد كانت هناك أدوات للمطبخ وأدوات للزينة . الأولى تشمل الغلاية والغربال والمشعل ، وأدوات الزينة تشـمل آداة صغيرة تم اكتشافها لتنظيف الأذن مصنوعة من الذهب عليها كلمات تعبر عن بعض التمنيات الطيبة لصاحبها ومحارق للعطور من مصر مصنوعة من البرونز المشـغول والمفرغ وكذلك الموازين والأثقـال والسـاعات الكبيرة(٨٣) ٠

الملابس

عرفنا من خلال عدد كبير من الوصايا ، كيف أن الملابس كانت لها أهمية كبرى حتى لأن الأجيال كانت تتوارثها وتعتبرها جـزءا من رأس المـال يدخل ضمن تقدير الثروة ٠

ظل البيزنطيون يلبسون التوجا Toga الرومانية حتى القرن السادس ، ولم يكن هناك ما يميز رجل الدين عن العلمانى فى الملبس ٠

وكانت التوجا عبارة عن معطف فضفاض طويل ، والى جانب التوجا كان هناك نوع آخر وهو البلانتى Planete وهو عبارة عن غطاء واسع مستدير به فتحة فى وسطه يسمح بمرور الرأس بينما يتم رفع الأطراف على الذراعين ٠ والبلانتى رداء مدنى ، وكان يرتديـه

---

(83) Brehier «op. cit.» p. 39.
René Guerdan «Byzantium, its Triumph and tragedy» p. 99.

عامة الشعب أما زى النسـاء فانه عبارة عن رداء طويل غالبا ما تـكون له أكمام مطرزة يوضع فوقه خمار(٨٤) .

تطور الثياب :

ظهرت صيحات جديدة فى الثياب من القرن السابع فصـاعدا نتيجة الاتصـال بالجرمان وبالشعوب الشرقية ، فبعد أن كانت الثياب تقليدية واسعة وطويلة ذات ثنيات أصبحت ضيقة تكاد تلتصق بالجسم وأهمها السكارامنجيوم Scaro Magno اتخذته من بلاد آسيا حيث كان الفرسان يستخدمونه خلال حروبهم مع الفرس . وقد ظل الأباطرة والنبلاء يلبسونها خاصة عند ركوب الخيل وكانت ألوانها جميلة ورقيقة وغالبا ما كانت موشـاة بالذهب . وقد انتهى الأمـر بارتداء السكارامنجيوم فى جميع المناسبات حتى أواخر الامبراطورية(٨٥) .

طرأ تغيير بين على ملابس الرجال فى الأوساط الشعبية فنجد أن التونيك Tunique أصبح رداء ضيقا ذو أكمام ضيقة بعد أن كان يتميز بالاتساع . أما المونابلون Monaplon فهو نسيج خفيف وضيق نسبيا ، وكانت هناك سراويل ملتصقة بالجسـم تغطى الركبة بل وتغطى الساق كله . ومنذ القرن الخامس فصاعدا أقلع الناس عن ارتداء الصنادل القديمة وبدأوا فى ارتداء الأحذية الشرقية والأحذية ذات الرقبة القصيرة(٨٦) . أما النبلاء فكانوا يرتدون أحذية بدون كعب ومفتوحة من الأمام تسمى كامبايا Campagia والفرسان كانوا يرتدون الأحـذية ذات الرقبة الطـويلة . وبعد القرن التاسـع بدأوا

---

(84) Tamara «op. cit.» p. 69.
David. T. op. cit.» p. 101.
(85) Brehier «op. cit.» p. 43.
(86) Brehier «op. cit» p. 71.
Tamara T. «op. cit.» p. 71.

يلبسـون أحذية مدببة الأطراف • وكان العمال يرتدون معاطف قصيرة تسمى هيماثيون Himation والهيبوكاميسوس Hypokamisos أما ملابس الطبقات الراقية فكانت عبارة عن تونيك يلتف حول الجسم وملابس ترتدى فوقه تصل حتى القدمين • ولم يكن هناك اختلاف كبير يذكر بين ملابس الرجال والنساء • ويشير ليتوبراند الى أن الاغريق كانا يختلفون عن الفرنجة فى أنهم يرتدون معاطف تصل الى الأرض ولها أكمام طويلة بالاضافة الى شعورهم الطويلة التى كانت تبرز الطابع النسائى لهذا الزى(٨٧) •

أما عن أغطية الرأس فكانت نادرة فى العصور القديمة • لكنهـا انتقلت بعد ذلك الى الدولة البيزنطية عن طريق الشرق حتى أصبح غطاء الرأس أحد سمات النبلاء • ومن ثم صدرت فى شأنه قوانين صارمة • وفى الرسم الذى ظهـر على واجهـة أحد المخطوطات كان المحيطين بالامبراطور نقفور الأول يلبسون أغطية رأس حمراء أو بيضاء تخفى الجبهة ومزينة بالقيطان • وكانت أغطية الرأس للنبلاء وكبار الشخصيات تزين باللآلىء والأحجار الكريمة وتطرز ، ومن هذه الأغطيـة التوفـا Toupha وهو عبارة عن تاج يعلوه ريش يتدلى حول الرأس(٨٨) •

وأما عن مظهر الرجال فقد اعتاد البيزنطيون الأوائل جريا على سنة الرومان أن يحلقوا ذقونهم ويقصرون شعورهم ، اما الفلاسـفة فكانوا وحدهم يطيلون ذقونهم • وفى عهد جستنيان أطلق أفراد الطبقة الأرستقراطية ذقونهم وشواربهم وأطالوا شعورهم من الخلف ، وقاموا بقصها على الجبهة اتباعا لطريقة الهون الآسويين مما كان يعد عارا فى ذلك الوقت وكان قنسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٥ أول امبراطور يطلق لحيته(٨٩) •

---

(87) Brehier «Ibid» p. 46.
(88) Ibid.
(89) Tamara, p. 71.

ظل هذا هو الوضع طوال القرن السابع ، وفى القرن الثامن ثارت الآراء والمجامع الدينية ضد الرجال الذين يقومون بتضفير شعورهم مثل النساء أو بتجعيده باستخدام مشابك الشعر واطالته حتى يصل الى الوسط ، وضد اللذين يقومون بصبغ لحاهم وشعورهم باللون الأسود مستخدمين بيض الغربان .

لذلك أصدر الامبراطور قنسطنطين الخامس كوبرينموس أمرا الى الرعايا البيزنطيين بضرورة حلق ذقونهم . وبعدها فى القرن التاسع أصدر الامبراطور ثيوفيل الأصلع أمر الى رعاياه بحلق شعورهم ويعلق المؤرخون على ذلك بأنه أراد أن يتساوى جميع الشعب معه فى المظهر الأصلع (٩٠) . وقد لقى هذا القرار تعنتا كبيرا وضيقا من الشعب والبطاركة لأن اطلاق اللحية بالنسبة للبيزنطيين كانت علامة تميز الرجال عن الأغوات ، كما أنهم اعتادوا على أن يحلقوا للمجرمين شعورهم ولحاهم . لذلك فان قرار حلق الشعر ما لبث أن ألغى بعد وفاة ثيوفليس (٩١) .

ملابس النساء :

لم تتغير ملابس النساء منذ العصور القديمة بقدر ما تغيرت ملابس الرجال ، على الرغم أنها لم تعد بنفس الاتساع الذى كانت عليه من قبل ، وأضحت أقل توضيحا لتفاصيل الجسم . وتعد الآثار المنقوشة نادرة ذلك أنه لم يكن هناك الا صورا لامبراطورات وأميرات فى ملابسهن الرسمية عبارة عن سيتتخاريون تونيك . Sticharion, Tunique له حافة سميكة ومعطف فى أشكال مختلفة ، فتارة يكون عبارة عن قطعة من النسيج مربعة أو مستطيلة الشكل ، وتارة

---

(90) Tamara, Ibid, p. 72.
(91) Ibid.
Brehier «op. cit.» p. 48.

عبارة عن قطعة مستديرة يرفع طرفها الأعلى على الكتف لينسدل الى الأمام(٩٢) .

وفى حالة وجود قماش كاف يرفع الطرف المتدلى من الكتف الأيسر على الكتف الأيمن وطرف الايمن على الايسر أما الطرف الاعلى فيغطى الرأس وقد أصبح هذا الشكل علامة للمرأة المتدينة واستعمل كرمز للسيدة العذراء ، وهناك نوع آخر من المعاطف يشبه الحرملة التى يرتديها الرجال ، وكانت تثبت على الكتف بواسطة مشبك .

وكانت جميع هذه الملابس من الحرير مختلف الأنواع ، أما الأنيقات فكن يستعملن الكتان الذى يتم جلبه من مصر وبونت ومقدونيا وكن يخترن الأقمشة الرقيقة والمنسوجات الخفيفة على الرغم من انتقاد الوعاظ لخلاعة الملابس شديدة الشفافية (٩٣) .

أما عن طريقة تصفيف السيدات لشعورهن فقد كانت هناك طرقا قديمة معقدة تتبعها البيزنطيات ، لكنها كانت موضع انتقاد رجال الكنيسة ، الذين كانوا يهاجمون النساء اللاتى يجعدن شعورهن ويزيننه بالحلى المصنوعة من الذهب . وكانت النساء تقمن بتسوية شعورهن على الرأس لتتسدل من الجانبين بشكل ملتوى . وفى القرنين الخامس والسادس شاع بين سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس مبطن من اللباد يمسك بواسطة شرائط من اللؤلؤ الصغير ويقال أنه كان يوجد شعر مستعار على أن تلك المعلومة غير أكيدة . بيد أن الرجال والنساء على حد سواء كانوا يستعملون الشعر المستعار على مر العصور وكانت النساء تفضلن الشعر المجعد على الجبهة وخصلات الشعر الملتوية التى تنسدل على الصدغين مفروقة من منتصف الرأس ، وأحيانا كان الشعر يجمع فى شبكة من خيوط الذهب والفضة أو يمسك من

(92) David op. cit.» p. 102.
(93) Brehier «op. cit.» p. 49.

الخلف بواسطة أمشاط عريضة من العاج والصدف أو بشريط من الكتان(٩٤) .

وكانت زوجة فيلاريت Philarté « فى القرن الثامن » تضع على رأسها فاكيوليون Phakialion وهى نوع من عصابات الرأس « تربون » وكانت المرأة المتدينة تغطى رأسها بحجاب عند خروجها من البيت ايا كان غطاء الرأس الذى تضعه ، وكان استعمال العطور والخضاب من المكملات الأساسية لزينة المرأة . وهنا نذكر أن الامبراطورة كانت تهتم اهتماما كبيرا بصناعة العطور ، وكانت الحواجب الرفيعة المصبوغة باللون الأسود والعيون السوداء التى تبدو أكثر اتساعا باستخدام الكحل الذى يتم الحصول عليه من التفحيم غير الكامل لنباتات ذات أوراق سميكة ولحمية ، كل هذا كان يعد صيحة العصر .

وكان هناك نقدا لاذعا موجها للسيدات اللائى يصبغن شفاههن وخدودهن باللون الأحمر وحواجبهن وجفونهن باللون الاسود على أن الهجوم كان بلا جدوى ، كما طلب منهن أن يتزين فى مكان مغلق حتى يتجنبن أية مضايقة .

ومنذ عهد الامبراطورة ثيودورا فصاعدا كانت جميع الامبراطورات والأميرات وسيدات القصر يرتدين ملابس الامبراطور الرسمية . فكن يلبسن قفطان أو تونيك طويل من الحرير يلبسونه تحت ثوب ضيق يسمى الدالماتيك Dalmatic وكان يطرز ويحلى باللآلىء حول الرقبة والأكتاف والأطراف(٩٥) .

---

(94) Ibid.
Tamora. «op. cit.» p. 69.
(95) Tamara, Ibid, p. 70.

وقد كان الرجال والنســاء على حد ســواء يهتمون باســتخدام اللآلىء والجواهر والتى كانت تقدر قيمتها وفقا لمــا تحتويه من شغل دقيق أكثر مما تحتوى عليه من مواد نفيسة نذكر منها الصفائح الرفيعة من الذهب واللآلىء صغيرة الحجم والأحجار الكريمة التى كانت رخيصة الثمن آنذاك .

وتتضمن مجموعات المصوغات التى توجد فى حوزة المتاحف أو الأفراد نماذج عدة للحلى التى تتناسب مع نماذج الثياب المنقوشة على الآثار والتى تعد نموذجا لمــا تضمنته كنوز آسيا الصغرى . وهى عبارة عن عقود تتدلى منها الجواهر أو الحليات وأقراط كمثرية الشكل تزينهــا خيوط من الذهب أو الفضة مجدولة على شكل حيوانات مختلفة(٩٦) .

وكل ما ورد يعد نموذجا لمــا كانت عليه المجوهرات التى كانت تزين بها الثياب ، ويضاف الى ما سبق ذكره الخواتم المصــنوعة من الذهب والتى تحليها نقوش دقيقة وجميلة على شكل أوراق شجر أو حيوانات وتحمل اسم مالكها ، وكذلك حلى ذات طابع دينى مثل الخواتم ذات رسومات تمثل موضوعات أيقونية والصلبان التى كان يحملهــا الأساقفة على صدورهم ، بالاضافة الى الصناديق الصغيرة التى تتكون من قطع محاكة ومشدودة بدبابيس أقل مما كانت تحتله بالنسبة للملابس ذات الثنيات الكثيرة التى كان القدماء يرتدونها الا أنها كانت تستعمل فى الزينة مثل الكبشة على هيئة قوس أو قرص أو ترس . وكان الشكل الأول المستخدم فى تثبيت الكلاميد على الاكتاف . وكانت هذه المشابك تصنع من الذهب أو الفضة أو البرونز وتطعم بالآلىء والأحجار الكريمة تزينها نقوش وصور وحليات . كما كانت تلك المشابك تعتبر فى أغلب الأحيان شارات ورموز ، وعلى الرغم من أن الكلاميد بطل ارتدائه فى

---

96) David «op. cit» p. 102.

القرن الثانى عشر الا أنه لم يختفى نهائيا من الثياب الامبراطورية(٩٧) .
ومن أهم الحلى التى استخدموها العقود والأقراط والخواتم ، التى كانت تشكل على هيئة أسماء صغيرة وطيور بينهما صلبان . وعلى هيئة دائرة نصف القمر . ومعظم هذه الأشياء تصنع من الذهب ، وعندما ندر وجود الذهب شاع استخدام الفضة(٩٨) .

الطعـــام

فى غمار كلامنا عن الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية ، لابد ألا نغفل عادات الطعام التى ســـار عليها الناس فى هذه الآونة لأن الطعام وعاداته يعبران بصورة واضحة عن أهم نقاط الحياة الاجتماعية التى عاشها الناس .

فقد كان أفراد الأسرة يتناولون معا وجبات الطعام الا أن النساء لم يكن يظهرن على المـــائدة فى حالة وجود ضيوف غرباء .

عادات الطعـــام :

هناك ثلاث وجبات عادية للطعام : الافطار والغذاء والعشاء .
وكانت ربة البيت تقوم بتنظيف مائدة الطعام بواسطة قطعة من الأسفنج ثم تغطيها بمفرش يتفاوت فى أناقته تبعا للمستوى الاجتماعى وجدير بالذكر أن المفرش الذى كان يغطى المـــائدة الامبراطورية لم كن عريضا بالمرة ، وكانت توضع على المـــائدة مناشف وأقداح لغسل اليدين مما يدل على حسن التربية . وقد ظلت عادة تنـــاول الفرد للطعـــام حول مائدة مستديرة أو على شكل حرف S مستلقيا على متكأ قائما فى منازل الأغنياء حتى القرن العاشر حيث لم تعد متبعة الا فى الولائم الرسمية التى تقام فى القصر(٩٩) .

(97) Brehier «opè cit.» p. 51.
(98) David op. cit.» p. 103.
(99) Brehier «op. cit.» p. 52.

وكان الضيوف يخلعون أحذيتهم قبل تنـــاول الطعـــام ، وكانوا يجلسون على مقاعد أو دكك ويرتلون صـــلاة المائدة قبل تناول الطعام ، أما موائد الفقراء فلم يكن عليها الا قطعة من الخشـــب يغترف منهـــا الضيوف طعامهم بأيديهم • ومن هنا وجب غسل الأيدى قبل وبعد تناول الطعام ، الا أنه كانت هناك ملاعق ألا أن تلك الملاعق التى تم اكتشافها ضمن كنوز ليبساك وكيرينيا كانت تعدم نأدوات المـــائدة الفاخرة حيث كانت مصنوعة من الفضة تزينها نقوش على شكل حيوانات أو على شكل كتابات مزخرفة ومشغولة • ومن ثم لم يكن استعمالها شائعا •

وهناك رسومات تضمنتها بعض المخطوطـــات تبين لنا ما كانت تزخر به الموائد عند اقامة الولائم من أوانى المـــائدة ، وأوانى زجاجية مثل الأطباق المسطحة والاطباق العادية والاقداح والقصعات والاوعية ذات الأحجام المختلفة والكؤوس والقوارير وكلها تسميات أطلقها الكتاب على هذه الأوانى وتدل على تنوع كبير فى الأوانى فمنها ما يدل على الترف ومنها ما هو شائع الاستعمال(١٠٠) •

أما فى البيوت ميسورة الحال ، فلم يكن يستخدم على موائدها سوى الفخار المطلى الذى يرجع أصل استخدامه الى الشرق •

أنواع الطعـــام :

كانت هناك رسميات كثيرة تصاحب وجبات الطعام فى بيوت الطبقة الميسورة ، حيث كانت هناك ثلاث أطباق كبرى تقدم ، أحدها يحتوى على المشهيات لفتح الشهية والثانى عبارة عن لحم مشوى أما الطبق الثالث فكان خاص بالحلو الذى يتكون من الفواكه والحلوى • وهناك لوحة من الموزايكو اكتشفت بالقرب من أنطاكية نقشت عليها الأطباق المسطحة المصنوعة من الفضة ومعدة على مائدة من الرخام لتناول الوجبة

---

(100) Brehier op. cit.» p. 54.
René «op. cit.» p. 112.

التالية « خرشـــوف كبير وأناء يحتوى على صلصة بيضاء وأرجل خنزير مشوية وبيض موضوع فى كؤوس ذات ميناء زرقاء ومعها ملاعق ذلك يد طويلة بالاضافة الى سمك من نوع القبطان ذى اللحم الأبيض وفخذ خنزير مملح وبسط مشوى وقطع من الحلوى « جاتوه » مصنوعة من طبقات من البسكويت والفواكه الحلوة ، كما كان يوجد على المـــائدة أيضا خبز مستدير الشكل ، وكأس كبير له عروتين ملىء بالنبيذ الا أن هذه الوجبة الفاخرة ذات الطابع الحـــديث لا تعطينا فكرة عن الأكلات المفضلة وطرق الطهى عند الطبقات البورجوازية(١٠١) وقد أضاف الطبيب هيروفيل « عاش فى القرن العاشر » الى نظام خاص استوحاه من مذهب ابقراط عددا معينا من وصفات الطعـــام المميزة التى يمكن استكمالها بالأكلات الموجودة فى هجاء كبار رجال الاديرة وهو هجاء نسبت كتابته الى تيودور برودروم • ومن هذه المعلومات يتبين لنا أن الطهى كان يتميز بكثرة التوابل خاصة الفلفل الأسود والقرفة والخردل والثوم كما توضحه أكلة الخنزير المشـــوى المســـقى بالنبيذ المعسل • وقد كان الزيتون المخلل فى ماء مملح وصلصة السمك التى يتم اعدادها من ذم سمك البحر من الأكلات المحببة •

وكانت قوائم الطعام تضم لحم المواشى والطيور بالاضافة الى لحم الصيد المشوى • وقد ذكر هيروفيل من أنواع الســـمك ما يأتى سكوربياس Skorpias سلطان ابراهيم صخرى وبياح وهو من فصيلة البوريات والمرجان الذى يتبل بالتوابل • ويتم قلى هذه الأسماك بدقيق الخردل ، ويرش حولها صلصة مصنوعة من الناردين والكزبرة ومعظم الأسماك تؤكل مسلوقة مع صلصة غليظة تصنع من سمك النازلى المهروسة كما كانت الأسماك المملحة شائعة الاستعمال الا

---

(101) Ibid. p. 55.

ان هذا النوع لم يلق اقبالا من الطبقة الراقيـــة مثله فى ذلك مثـــل الكافيار[١٠٢] .

وعلى العكس كانت هذه الطبقة تقبل اقبالا شديدا على الضفادع والحفش والهيذة « وهو نوع من سمك موسى » أما التونة فقد كان أكله شائعا بين جميع الطبقات .

وقد أوصى هيروفيل بأكل الخضر وأنواع السلطة بالاضافة الى اللحم ، ولم يشر الى الرجلة المطبوخة وصلصة السمك والخس والسلق والكرنب والشمام والتين الأبيض الملح والفول والحلبة والفاصوليا التى تطحن وتحول الى دقيق . والعدس والهليون وعش الغراب . أما بالنسبة للحلو فهناك الفواكه الجافة والعنب واللوز والفستق وجوز الصنوبر وكوز الصنوبر والتفاح المطبوخ . أما بالنسبة للذواقة فقد كان هناك السفرجل المطبوخ بالسكر « كمبوت سفرجل » والرمان والبلح والقشدة بالعســـل . أما كبار رجال الدير فكانوا يختمون طعـــامهم بالتبيلة المكونة من قلب الكرنب والسمك الملح والمدخن ، و ١٤ بيضة وأنواع كثيرة من الجبن والزيت والفلفل الأسود ، ١٢ رأس ثوم ؛ ١٥ سمكة جافة من نوع الأسقمرى ويتم سقى هذه التبيلة بالنبيذ الحلو الذى يوضع فى قصعة . وفى أيام الصوم الكبير الذى لا يؤكل فيه اللحم والدهن كانوا يحترمونه احتراما كبيرا ، حتى انهم كانوا يحرمون أكل الأسماك باعتباره غذاء ثمينا ، بينما كانت القشريـــات والمحارات تعتبر من الأكلات التى لا لحم فيها ولا دهن كما كان مسموحا بأكل الجبن خلال الأسبوع الذى يعقب أحد الخمسين أى الأحد الواقع قبل ابتداء الصوم الأربعين وهو ما يسمى بأسبوع الجبن الا أنه كان محرما ابتداء من أول أحد فى الصوم الكبير .

وقد كان النبيذ مفضـــلا وأفضـــل أنواعه نبيذ قبرص وســـوريا

---

(102) Hussey «The Byzantine World» p. 126.
René Guerdan «op. cit.» p. 113.

وفلسطين وشمال افريقية • الا أنه بعد انتشـــار الاســـلام فى هذه البلاد قللوا من زراعة الكروم فقلت نسبته •

أما الخبز فقد كان هناك اقبالا شديدا على الخبز المصنوع من دقيق الحنطة الخالص الذى كان يوضع على كل الموائد البيزنطية فيما عدا موائد الفقراء • وهناك ثلاثة أنواع من الخبز يختلف النوعان الأولان منهم حسب نعومة غربلة الدقيق والثالث يتميز بلون النخالة والمصنوع من أنواع من الدقيق غير المحلية فكان يعتبر نوع من الخبز غير النقى • أما كبار رجال الدير فكانوا يأكلون الخبز المصنوع من الشميذ « جريش قلب الحنطة » أما الرهبان فيأكلون الخبز الخشن المصنوع من الرده النخالة والذى يدحرج فى الرماد(١٠٣) •

كانت الأطعمة تطهى على الفحم وتطهى بعناية واتقان • وقد صدر قانون يحتم على جميع المواطنين أن يحفظوا كمية من المؤن فى مخازن المنزل تكفيهم مدة ثلاثة شهور ، على سبيل الاحتياط خوفا من تعرض المدينة لأية حصـــار فى وقت من الأوقات(١٠٤) •

وقد اهتم البيزنطيون بتنقية المياه المستخدمة للشرب ، وشعروا بأهميتها فى منازلهم • وقد وصلت المياه الى المنازل عن طريق قنوات وما زالت أحد هذه القنوات التى أنشأها الامبراطور فالنز موجودة ضمن الآثار المتبقية فى قلب مدينة استنبول • وقد تيقن البيزنطيون أنه من السهل على أى عدو لهم أن يقطع المياه عنهم ومن الممكن أن يجبرهم على الاستسلام • لذلك قاموا ببناء مجموعة من الصهاريج الكبيرة تحت الأرض تتسع لحفظ كميات كبيرة من المياه •

وكانت هذه الصهاريج كبيرة ومحكمة البناء وجدارها محمى بأعمدة

---

(103) Berhier «op. cit.» p. 58.
(104) Tamara «op. cit.» p. 65.

وقواعد كانت مثارا للاعجاب مثل الكنائس • ومن أهم هذه الصهاريج المقامة ، ما شيده بالقرب من كنيسة القديسة صوفيا حتى أن الأتراك بعد أن استولوا على القسطنطينية سموه « قصر تحت الأرض »(١٠٥) •

لسنا فى حاجة الآن أن نعدد وسائل التسلية والمتعة التى عاش فيها البيزنطيين خاصة وأن القسطنطينية كانت تسمى مدينة المتعة • وأول ذلك كان ميدان السباق حيث كان مكانا للنزهة ولاجتماع الناس الى جانب أنه كان ميدانا للمنافسة والمسابقة • والألعاب والمسابقات التى كانت تقام فى الميدان ، كانت شائعة ومعروفة وكانت المقاعد تسع ما يقرب من ٤٠٫٠٠٠ متفرج وظل هذا الميدان للمسابقة حتى القرن الثانى عشر(١٠٦) •

كان الأباطرة مولعون باسعاد الناس ، وبذلوا قصارى جهدهم فى زيادة وتنويع العروض • فهناك مسابقات الجيـــاد ، والصيد والقنص للحيوانـــات البرية ، المهرجين ولاعبوا الأكروبات والعروض المسرحية خاصة المسرحيـــات الهزلية وأدوار التهـــريج وعروض السيرك وأخيرا المباريات بين الفرسان والألعاب السحرية وكل هذه الوسائل كانت لازمة للبيزنطيين فكما ذكر أحد المؤرخين : « أنه بدون هذه الأشياء فالحياة لن يكون لها طعما »(١٠٧) •

وقد احتل الصيد أهمية كبيرة كرياضة مفضلة وشـــائعة حتى ان منظر الصيد كان شـــائعا فى لوحـــات الموزايكو المتبقيـــة عن المبانى العلمانية ، وقد كان الرمح والقوس والســـهم هم الأسلحة المستخدمة فى الصيد ، الى جانب أنهم كانوا يستخدمون كلاب الصيد(١٠٨) •

(105) Ibid.
(106) David. T. R. «op. cit.» 109.
(107) Diehl «op. cit.» pp. 108-109.
(108) David «op. cit.» p. 110.

وقد كانت الحمامات العامة الى جانب أهميتها التى تعرضنا لها • الا أنها كانت لها أهمية اجتماعية اذ أنها تعتبر مكانا هاما لاجتماع الناس والتسامر والتسالى مع بعضهم البعض ، وقد كانت هناك الحدائق العامة التى يتلاقى فيها الرجال ، كما كانوا يتخذون من الأسواق مكانا للتلاقى والتحدث وسماع الأخبار اليومية(١٠٩) •

وقد كانت شوارع القسطنطينية مكتظة بالناس وقد أتى اليها الناس من كل فج وصوب منهم من أتى للتجارة أو لعمل قانونى أو للمتعة •

وكانت الشوارع والميادين تعج من الصباح حتى المساء بأشكال وأوان مختلفة من الناس • فاذا زارها أحد فانه يتذكر الكوبرى الكبير • كما أنه يرى اختلاف الأشكال والملابس والتجار ، فمن الناس من يلبس الملابس الحريرية الموشاة بخيوط الذهب ويركبون الجياد الأصيلة ويشبهون الأمراء والتجار المحتشدون من كل بقاع العالم وهناك العبيد المغامرون من الأرض والاسكندنافيين ، والجنود فى ملابس عجيبة الأشكال والألوان والحراس شديدى الطول أمثال النخيل وهم من الروس والخزر الى جانب الجنود الزنوج ، والمرتزقة اللاتين الذين يتقلدون السيوف الطويلة وأشكالهم كالبرونز ، الى جانب نساء جميلات يلبسن أحدث الملابس ويتحلين باللآلىء ، يسرن فى الشوارع على الأقدام أو فى محفات ، الى جانب الباعة الجائلين الذين يحملون بضائعهم(١١٠) •

كل هذه المناظر والأشكال المختلفة تضفى الحياة على شوارع القسطنطينية وأبهة لا تنتهى • وتزداد المدينة جمالا عندما يقوم الامبراطور بالتوجه الى أى كنيسة من الكنائس المشهورة فكان يخرج

---

(109) Tamara «op. cit.» p. 57.
(110) Diehl «op. cit.» p. 109.

فى موكب ويمر فى المدينة ممتطيا جواده • كانت الشوارع تزين وتعلق الأعلام وتضـاء وتنثر الزهـور ويلبس الحراس الملابس الرسـمية ويتقلدون السيوف المصنوعة من الذهب •

ومن المناسبات التى تتلألأ فيها المدينـة عندما يرزق الامبراطور بمولود ولد ، فتحتفل المدينة احتفالا يستمر سبعة أيام يستطيع المرء خلالها أن يأكل ويشرب ما يشتهى فى أى ميدان أو شارع من الشوارع على نفقة الامبراطور ، كما كانت هنـاك عروض أخرى والاحتفـالات ، ومهرجانات كبيرة فى بعض المناسبات الخاصة مثـل زواج الامبراطور أو فى أثناء تتويجه امبراطورا(١١١) •

والى جانب هذه المزايا كانت هناك متناقضات فى حيـاة الناس بالعاصمة البيزنطية فهناك بيوتا يسكنها أناس سيئى السمعة والسلوك ، هناك من يسبون الأديان فى الطرقات ومن يقامرون ، الى جانب حانات الخمر التى اضطر البوليس الى اصدار قرار باغلاقهـا من السـاعة السابعة مسـاء حتى يمنع أولئك الذين يقضون يومهم فى الشرب حتى يصـلون الى حالة من الثمل تجعلهم يدخلـون فى مشـاجرات دامية ومصادمات ، كما كانت الشوارع غير آمنة مسـاء لتكاثر اللصوص الذين غفلت الشرطة عنهم ، كما كانت توجد نسبة من الفقراء الذين سكنوا دورا غاية فى البساطة والفقر ، فعملت الحكومة على أن تزود الفقراء الذين يعملون فى خـدمة الـدولة بالخبز المجـانى مثل الذين يشتغلون فى صيانة الحدائق وسقايات المياه أو من يساعدون فى العمل فى مخابز الدولة (١١٢) •

كما قامت الحكومة بتشييد دور للصدقات ومستشفيات للشيوخ والعجزة يرأسها فى العادة الامبراطور أو أحد الأشراف وتلحق عادة

(111) Diehl, Ibid, p. 110.
(112) René Guerdan «op. cit.» p. 110.

بأحد أديرة الرجال أو النســاء وهو الذى يديرها • وكانت الدولة تنشىء ملاجىء الأيتام لأطفال الفقراء • وقد أصبح مدير ملاجىء الايتام منذ زمن مبكر موظفا هاما فى سلك وظائف الدولة ووضعت تحت تصرفه مبالغ ضخمة • وفى عصر الأسرة الأيسورية التى ســارت على سياسة اللاأيقونية تولت الكنيسة ادارة ملاجىء الأيتام الى حين(١١٣) •

الجنائز والموتى

رغم أن القانون الرومانى كان يحرم دفن الموتى داخل المدن الا أن الكثيرين كانوا يرغبون فى الرقاد بجــوار القديسين ، فازدادت عدد المدافن والقبور حول الكنائس •

ومن ناحية أخرى كانت جميع الطبقات تحترم التقاليد الجنائزية التى ترجع الى عصور الوثنية القديمة منها استئجار النادبات والنساء مشعثات الشعر اللاتى كن يرددن قصائد منظومة مسبقا خاصــة بتلك المناسبة • ومن المحتمل أن تكون هذه الظــاهرة التى تتســم بالطابع المسرحى للأحزان تدور داخل الكنيســة نفسها كما كانت الجموع تشارك فيها أحيانا وبعد ذلك وقبل أن يحمل النعش يأتى الحاضرون بدعوة من المقدس ليقبلوا الميت قبلة الوداع •

وهناك تقاليد أخرى يمكن ارجاعها الى تلك العصور الوثنية القديمة منها على سبيل المثال قص شعر الميت واغلاق بيته طوال العام الا أن أهمها تقليد قبلته الكنيسة وهو اجتماع الأهل والأصدقاء فى يوم محدد حول قبر الميت للبكاء عليه من جديد ، وتقديم القرابين وتقديم فطائر من الحلوى ، بينما كانت هناك عادات ما زالت قائمة فى سوريا وأرمينيا — ورغم تحذيرات رجال الدين ضدها — مثل عادة تقديم الذبائح من الثيران والخراف على قبور الموتى •

---

(113) Bury «Imperium, Administration System» p. 130.

وبينما كانت هذه الاجتماعات تتم فى الغرب فى اليوم الثـالث والسابع والأربعين بعد الجنازة وفقا لتقليد مأخوذ عن اليهود ، وكان احياء هذه الذكرى فى الشرق يتم ثلاث مرات كذلك فى اليوم الثالث والتاسع والأربعين(١١٤) •

وقد فرض الشعب على الكنيسة احياء الذكرى فى اليوم التاسع والتى لم يرد ما يشير اليها فى الكتاب المقدس ، كما لم يرد شيئا عن ذكرى الأربعين لا فى الكتاب المقدس ولا فى العادات الوثنية •

وقد أثبت فرانز كومون أن هذه العادة ترجع الى الديانة البابلية التى كانت تقوم على التنجيم حيث كانت أرقام ٣ ، ٧ ، ٤٠ تعد أرقاما تامة لأنها تشير الى اتمام دورة قمرية وقد استند فى ذلك الى نص كتبه فيتوس فالناز فى أنطاكية فى القرن الثانى الميلادى وقد كانت الأمور المتعلقة « برجم المرأة » خاضعة لحسابات القمر حيث كان يتم حساب الظواهر الشهرية التى تطرأ على المرأة ، وفقا لظهوره ، كما كان يستعان به فى حسـاب مدة تكوين الجنين فى الرحم • وهنـاك ما يؤكد أن القداس الثلاثى على أرواح الموتى كان يقام منذ القرن الرابع حيث نصت عليه الدساتير البابوية الصادرة فى أنطاكية والداعية الى قيام الصلاة وتقديم الصدقات والتى كانت لا تحرم اقامة المأدبة الجنائزية ، وقد كان لكل من شراح التوراة والعلمـاء ورجال الدين تصورات فيما يتعلق بتفسير هذا التقليد دون أن يستطيعوا الرجـوع الى المصـدر الحقيقى ، وكان الشعب يعتقد أن روح الميت تبقى على الأرض حتى اليوم الثالث وتحاسب فى التاسع ، وتتمثل أمام العرش الالهى فى اليوم الأربعين حيث تظل الى يوم البعث(١١٥) •

وفيما عدا الحداد الملكى ، فان المعلومات عن الحداد عامـة غير

(114) Brehier «op. cit.» p. 19.
(115) Brehier, Ibid, p. 20.

كافية ، فكان الامبراطور يظل مرتديا ملابس الحداد البيضاء ولا يخلعها الا مع قداس الأربعين ، بينما يرتدى الرعايا الملابس السوداء ويخلعونها فى اليوم التاسع ومن مظاهر الحداد أيضا قص الشعر والجلوس أرضا وتمزيق الثياب •

القبور والمدافن :

كان يتم وضع جثمان الموتى فى توابيت من الحجارة أو الرخام أو البورفير « حجر السماق » وقد تكون مزينة بنقوش تبعا للطبقة الاجتماعية التى ينتمون اليها ، وأعظم هذه التوابيت ، توابيت الأباطرة التى تم وضعها فى كنيسة الحواريين ، والتى اكتشفتها بعثة الآثار بمدينة القسطنطينية سنة ١٩٢١ ، كما كانت هناك أحواض مزينة برسوم تشير الى بعض قصص الانجيل ، ومخصصة للشهداء والقديسين والأسر الراقية وعلى مر العصور تم دفن شخصيات كبيرة فى مقابر فخمة أقيمت فى الكنائس وهى عبارة عن بناء مستدير الشكل يتم حفره فى الشيست وهو صخر بركانى صفائحى ، ويبلغ طول قطره حوالى ١٥ مترا •

وكان يتم تقسيم هذا البناء الى أربع حجرات بواسطة صليب يونانى ويغطى بسقف على شكل قبة نصف اسطوانية ومقابر محفورة فى الأعمدة لحماية التوابيت ، وقد تم ترقيمها بالحروف اليونانية ، بيد أن هناك قبورا أخرى وجدت داخل حفر ووجدت بداخل احداها تابوت عبارة عن صخرة كبيرة من الرخام الأبيض منحوتة ومزينة بنقوش على جوانبها الأربعة ، وأهمية هذه القبور المقامة تحت الأرض ترجع الى أنها ملحقة بدير •

أما قبور عامة الشعب فكانت تتميز بالبساطة الشديدة حيث كانت عبارة عن حفر فى الأرض(١١٦) •

(116) Ibid, p. 23.

الفصل الثاني

الحياة الثقافية فى الدولة البيزنطية
فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين

* الحياة الثقافية فى الدولة البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع •

* أ ـ اللغة ـ ب ـ الفلسفة واللاهوت •

* « أصول الحركة اللاأيقونية » ـ « الثقافة الدينية » ـ « الاتصال بالدول الاسلامية » ـ « وراثة الروح الهلينية » ـ « العقيدة الأرثوذكسية للصور المقدسة » •

* « يوحنا الدمشقى والمجمع المسكونى السابع » ـ « ثيوفانيس المعترف » ـ « ثيودورس الاستوديونى » ـ « نيقفورس المعترف » ـ « جرجس الراهب » •

* جـ ـ الأدب ـ « النثر الأدبى » ـ « البلاغة » ـ « القصص » ـ « التاريخ » ـ « الرسائل والخطب » ـ الشعر وفنونه » •

* ـ د ـ العلوم العلمية ـ « الرياضيات » ـ « الفلك » ـ « الكيمياء » ـ « الطب والجراحة » •

الفصـــل الثانى

عنيت الامبراطورية البيزنطية طوال تاريخها بالاهتمام بالناحية العلمية والثقافية وقد تعددت ألوان العلوم والثقافات بتعدد العصور المختلفة ، وما يهمنا منها هو ما ساد القرنين الثامن والتاسع الميلاديين .

فالمعروف أن الامبراطورية البيزنطية تقع عند نهاية الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى منطقة هلينية بين العالمين الرومانى والشرقى حتى ان ثقافة الامبراطورية تأثرت بجميع هذه الأصول .

وحاول الكتاب التركيز على أن كل منطقة من المنـــاطق المحيطة بالامبراطورية تركت أثرا مباشرا على الثقافة ، لكن الحقيقة التى يجب أن ينتبه اليها الباحثون هى اننا لا نستطيع أن نعطى لأى مؤثر من هذه المؤثرات درجة أعلى من الآخر ، فلا المؤثر الشرقى الهلينى ، ولا الرومانى الغربى كان مسئولا وحده عن تكوين الأسس الثقافية فى الدولة البيزنطية ، لأنها كانت عالم ثقافى متكامل دانت للشرق والغرب والوسط بدرجات متساوية [1] .

وطوال العصور الوسطى ، كان الانســـان فى العالم البيزنطى ــ مثلما كان فى العالم القديم ــ لا يستطيع أن يصل الى المناصب العليـــا الا اذا حصل على قدر من التعليـــم يؤهله للمنصب الذى يريده ، فقد اعتمدت الوظائف على الكتابة المنمقة والمحادثة اللبقة ، فأقبل الأولاد والبنات على التعليـــم لكنهم لم يصلوا جميعا الى سلك الجامعة ، لأن التعليم العالى كان يحتم ضرورة الاستعانة بمدرسين خصوصيين وهذا لا يتاح الا لأبناء الطبقات العليا[2] .

---

(1) David, Rice «op. cit.» p. 30.

(2) Hussey «The Byzantine World», p. 134.

ويرى الباحثون أن الفترة الممتدة من القرن الرابع الى أوائل السابع يمكن اعتبارها فترة تفاعل بين القيم الوثنية والمسيحية تمخضت عن اصطباغ التراث الهلينى بلون مسيحى أرثوذكسى ، هذا مع العلم بأن المسيحيين انقسموا على أنفسهم حيال الثقافة الهلينية ، فمنهم من رأى امكانية الاستفادة من ذلك التراث فى دعم العقيدة ، وفريق ثان رأى عكس ذلك . واستمر الحوار بين الاثنين طوال القرون الثلاثة الأولى للمسيحية ، وشهد القرن الرابع محاولات جديدة للتوفيق بين الاتجاهين وهكذا ، بدأت المسيحية فى امتصاص التراث الوثنى تدريجيا(٣) .

وقد احتلت المدارس فى المدن المكانة الكبرى كمركز للاشعاع الثقافى فى العالم البيزنطى ، ومنذ القرن السادس كان الصبى يتعلم اما فى المدارس الخاصة أو الحكومية . أو فى ملاجىء الأيتام التى كان يؤسسها الأباطرة ، وافتتحت أعداد كبيرة من المدارس لتستوعب الحشد الهائل من التلاميذ بغض النظر عن جنسياتهم أو طبقتهم الاجتماعية . الى جانب المدارس الكنسية الموجودة منذ عهد المسيحية الأولى الى جانب الأكاديميات الموجودة بالبطريركية الكبرى بالعاصمة وغيرها من الأقاليم التى توجد بها كنائس ، وكذلك المدارس الديرية . وهذه المدارس الدينية كانت تؤهل الدارس بها للالتحاق بالسلك الكنسى ، وكان المدرسون الذين يقومون على التدريس بها معظمهم من الرهبان ، واللاهوت هو مادتهم الدراسية الأولى(٤) .

وكانت هناك أكاديميات لها سمعة عالمية : فجامعة أثينا حصلت على شهرة عالمية منذ عهد قنسطنطين الكبير وثيودسيوس ، لكنها

---

(3) Vasiliev «op. cit.» p. 291.
(4) Tamara T. «op. cit.» p. 56.
Hussey «op cit.» p. 136.

أغلقت فى عصر جستنيان ، وحلت محلها جامعة القسطنطينية التى ورثت التراث العلمى الزاخر ، والموجود بالولايات الشرقية خاصة الاسكندرية وانطاكية وبيروت ، والذين دخلوا فى طاعة الاسلام .

وقد قلت عدد كراسى الدراسات اللاتينية بالتدريج فى عددها حتى انتهت نهائيا ، وظلت الجامعة هى مكان التدريب على المهام المدنية والادارية ، ودعمت بموظفين ماليين ، واداريين ، وكان قمة ازدهارها من منتصف القرن الثامن وحتى نهاية القرن الثانى عشر .

وقد عمل الأباطرة البيزنطيون على تكريم المدرسين سواء الذين يعملون فى التعليم العام أو الخاص ، وبدأوا يروجون لأهمية التعليم فى الامبراطورية وشجعوا عليه وأثبتوا أهميته ليس فقط للأفراد الذين هم فى حاجة اليه بل للمواطنين سواء[٥] . كما كانوا يقومون بدفع مرتبات المدرسين وعزلهم اذا ثبت تقصيرهم ، وكانوا يفتشون على الفصول بين حين وآخر ليختبروا التلاميذ ويستمعوا الى ما يلقى بها من محاضرات .

وقد كانت النساء تقمن بتعليم أولادهن فى المنازل بدلا من الذهاب الى المدارس ، فكن يستبقين ابنائهن من الجنسين حتى سن السابعة ويعلمنهم بأنفسهن ، مثلما كانت تفعل والدة بسيللو ، وثيودوت فقد كانت تمنع خادمتها من أن تقص قصصا خيالية مليئة بالوحوش المخيفة ، وانما كانت تحكى لهم قصصا من الكتاب المقدس فتسحر الأطفال ، ومن هذه القصص ما يتناول طاعة اسحق لوالده ، ومباركة يعقوب لطاعته أمه ، وقصة طفولة يسوع[٦] .

---

(5) Hussey Ibid.
(6) Brehier «op. cit.» p. 18.

أسلوب التعليم بالمدارس والجامعات :

عندما يبلغ الطفل سن الخامسة أو السادسة ، يبدأ فى تعلم القراءة والكتابة • وكان يتم ذلك على أيدى مدرسين متخصصين • ومما يدل على اهتمام البيزنطيين بالتعليم أن الوعاظ كانوا لا يكفوا عن تحذير الآباء من القيام بمسئولياتهم تجاه أبنائهم بتوجيههم الى العلم ، فمن السهل على أى انسان أن يترك كل شىء فى حياته ، ويهب نفسه لمعلمه • لأن الدولة البيزنطية ــ كما رأينا ــ اهتمت بهؤلاء المدرسين وأولتهم مكانة مرموقة(٧) •

وعندما يبلغ التلميذ العاشرة أو الثانية عشر من عمره يبدأ فى دراسة النحو ، وهى كلمة تعنى كثيرا • وأكثر مما نتصوره لهذا العلم فلا يقوم التلميذ بعرفة تصريف الأفعال وتركيبها ، وبناء الجملة فقط بل يدرس كذلك العلوم الكلاسيكية • وبعد أن ينتهى من قراءة كل صفحة من صفحات الكتاب يبدأ فى تحليلها ، وتفسير كلماتها الصعبة والنادرة ودراسة أصول هذه الكلمات ، والفائدة من دراستها ، والهدف الذى يهدف اليه كاتبها(٨) •

ومن أهم الكتب المحتم على التلميذ دراستها أشعار هومر فيبدأ بدراسة الأوديسا وحفظها عن ظهر قلب ثم يتحول الى دراسة الالياذة • والتلميذ النابه يستطيع أن يحفظ ما يقرب من خمسين سطرا يوميا من هومر ، ويتمكن من معرفة وفهم أى اقتباس يصادفه من قصائد هومر فى أى كتاب يقرأه(٩) •

ومما يدلنا على مدى الاهتمام بدراسة كتابات هومر أن حدود

---

(7) N. Baynes «op. cit.» p. 152.
(8) Ibid.
(9) Tamara «op. cit.» p. 56.

المعرفة التى كان يحصل عليها التلميذ كانت لا تخرج على هذا النطاق ويتضح لنا ذلك من هذا الحوار فى شكل أسئلة وأجوبة فى المدرسة :

س : من هو والد هكتور ؟

ج : بريام •

س : ما أسماء اخوته ؟

ج : الكسندر وديفوبوس •

س : ما اسم والدتـه ؟

ج : هيكيوبا •

س : من أين عرفت ذلك ؟

ج : من هومر • لكن هلينيكوس وغيره من الكتاب عرضوا ذلك الموضوع — انتهى(١٠) •

وعندما يبلغ التلميذ الرابعة عشر أو الخامسة عشر من عمره ، يترك دراسة النحو الى دراسة البلاغة • وبلغت كثرة كتب البلاغة التى يدرسونها الى درجة أن كان الأبناء يستعينون بخدامهم ليحملوا لهم الحقائب الثقيلة المملوءة بالكتب ، والتى كان الآباء يضجرون من كثرتها • وكان على التلميذ أن يدرس أعمال مجموعة كبيرة من الأدباء أمثال ديموستنيس وهيردوت وثيكوديدس ، وايسوكراتس ، وليسياس فأعمال ايسوكراتيس كانت سائغة ، بينما كان عليهم أن يحفظوا كتابات ديموستنيس وسيكوديدس عن ظهر قلب • وكان على التلميذ أن يقرأ بصوت مرتفع ليحسن من نطقه ، وليمرن صوته على الالقاء الحسن ، الى جانب أن قراءتهم للبلاغة كان يشترط فيها ضرورة تنغيمها بنغمة جيدة(١١) •

---

(10) René Guerdan «Byzantium its triumph and Theology,» p. 69.
Baynes «op. cit.» p. 152.

(11) Ibid.

أما الواجب المنزلى ، فكان تحت اشراف المدرسين ، ويقسوم التلميذ باعداده فى المنزل ومن شروطه أن يقرأ كل علومه فى المنزل بصوت مرتفع جدا الى حد أن الجيران المحيطين بهم كانوا لا يذوقون النوم ، وأصيب بعضهم بالأرق من شدة الضوضاء التى يسببها التلاميذ .

وبعد أن يحذق التلميذ دراسة الأدب اليونانى ، يبدأ فى كتابة التمرينات ، وصياغة الموضوعات الأدبية والانشائية ، مثلا يصفون مدينتهم ، ويناقشون بعض الأسئلة الهامة مثل : هل يجب أن يتزوج الرجل أم لا ؟ ثم يدخلون فى مناقشات أصعب . وكان المدرسون يجلسون على كراسى تعلو الأماكن المعدة لجلوس التلاميذ ، ويمسك كل واحد منهم بعصا ينهال بها على رؤوس التلاميذ فى حالة الخطأ .

أما عن مواعيد الدراسة فكانت تبدأ فى فصل الخريف ، وتستمر بدون توقف حتى بداية الصيف ، وبعدها يأخذ التلاميذ أجازة أثناء شهور الصيف الأربعة ليتجنبوا الحر الشديد .

وكانت الدراسة تبدأ من الصباح بالنسبة للصغار ، أما الكبار فكانت محاضراتهم تمتد حتى المساء . ولم تغلق المدارس أبوابها الا فى الأعياد الدينية الرسمية كأعياد الميلاد مثلا ، وفى هذه الأجازة يمكن للتلميذ أن يتوجه الى السيرك ليشاهد الألعاب المختلفة باذن من مدرسه أما الأعياد الغير رسمية ، فكانت تمنح فيها أجازات قصيرة ، ورغم ذلك كان الآباء يشتكون من أن الوقت قد ضاع على أبنائهم بدون دراسة . الى جانب أنهم خصصوا أياما محددة كانت تقام فيها مساجلات أدبية فتلقى الخطب ، وتعرض المسرحيات الأدبية يحضرها الآباء والأصدقاء (١٢) .

---

(12) Baynes «op. cit.» pp. 154 — 155.

وفى هذا السن أيضا كان على الأولاد ضرورة حفظ الإنجيل عن ظهر قلب ، ودراسة أساطير ايزوب ، وفى السنوات النهائية للدراسة كانوا يدرسون العلوم التى يتكون منها المجموعة الرباعية من الفنون السبعة الحرة ، وهى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى(١٣) .

وهناك حقيقة لابد من الاشارة اليها وهى أن العلوم اللاهوتية لم تدرس فى جامعة القسطنطينية ، بل فى المدارس الدينية كما ذكرنا ، ولابد أن نعرف أن التعليم الذى تكلمنا عنه وجد صعوبة فى تنفيذه فى عصر اللاأيقونية ، فنجد العالم باخوميوس يقارن فى القرن الثامن بين علم اللاهوت الصائب الحق وبين العلم المدنى الذى يضل كثيرا من الناس ، ويشبه البطريق نقفورس العلم الأول بسارة والثانى بهاجر « زوجتى ابراهيم عليه السلام » .

وجاءت متاعب الكنيسة فزادت الشكوك تأججا ، بيد أن الأمور كانت أكثر استقرارا عند حلول القرن التاسع ، كما أن السلطات الكنسية كانت أقل مظنة وارتيابا(١٤) .

وفى عهد الأسرة العمورية ارتفع شأن التعليم العالى فى مختلف فروعه ففى عهد ميخائيل الثالث ألف عمه القيصر باراداس مدرسة عليا فى القسطنطينية ، وكان مقرها فى القصر الامبراطورى ، وكان يدرس بها الفنون السبعة الحرة التى أشرنا اليها . وقد درست فى هذه المدرسة جميع الأعمال الأدبية والفلسفية القديمة ، وكان التعليم متاحا بها لجميع المواطنين وكانت معفاة من المصروفات ، وتقوم بدفع مرتبات الموظفين من ميزانية الدولة . ومن أهم أساتذة هذه المدرسة فوشيوس البطريرك(١٥) .

---

(13) Tamara. T. «op. cit.» p. 56.
(14) Theophanes «op. cit.» pp. 189 — 190.
(15) Vasiliev, «ou. cit.» p. 296.

أنواع العلوم السائدة فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين :

أولا ــ اللغــة :

ظلت اللغة اللاتينية عدة قرون هى لغة البلاط والحكومة ؛ ولغة الطبقات العليـا فى المجتمع البيزنطى • وفى عهد ليو الثالث كانت

---

(16) Ibid.

(17) Bury «op. cit.» lov. III, p. 445.

اليونانية هى لغـة الادارة والتحدث ولغة الكنيسة • لكننـا لا نقول ان جميع سكان القسطنطينية كانوا من أصل يونانى ، فقد كان معظمهم رومان اما ديانتهم فهى المسيحية على المذهب الأرثوذكسى • لكنهم اعتبروا أنفسهم يونانيين •

وفى عهد ليو الثالث احتل اليونانيون مكانة مرموقة فى الدولة وأصبحت معظم الوظائف العليا فى أيدى الآسيويين ، خاصة الأرمن الذين أصبح معظمهم قادة للجيش • ويرجع ذلك الى أن جميع الأباطرة الأيسوريين كانوا من أصل أسيوى ، ليس فيهم الا الامبراطورة ايرين وهى التى كان يجرى فى عروقها دم يونانى ، أما ميخائيل رانجابيه فكان من أصل أسيوى يونانى[١٨] •

وبذلك نرى أن القرن الثامن شهد انهيـار اللاتينيـة تماما فى الامبراطورية وحلت محلها اليونانية كتابة وتحدثا ، ولم تسـتخدم اللاتينية الا فى العملة وفى الصيحات اللاتينية المحرفة والمبتذلة والتى يصاح بها فى الاحتفالات الرسمية •

أما اللغات الأخرى التى كانت تدرس ، فكانت قليلة ، أجل ربما كان هناك كثير من علماء العبريـة ، كما أن البلاط له المترجمون الذين يخدمون غاياته الدبلوماسـية واحتيـاجاته ، ومن الجـلى أن هناك بالقسطنطينية أعدادا كبيرة ممن يجيدون العربية وأرمنيون لا جدال فى أنهم كانوا يتذكرون لغتهم القومية • لكن رغم ذلك كان البيزنطى لا يحب أن يتفقه فى لغات غيره من أهل البلاد الأخرى ، فكان لا يريد أن يحمل نفسه على اعتبار الألسن المتبربرة مادة تليق بالتضلع العلمى الجدى[١٩] •

---

(18) Finlay «The Byzantine Empire» p. 185.

(١٩) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٨١ .

الفلســفة واللاهوت :

كانت الفلسفة من أهم العلوم التى أولاها البيزنطيون عنايتهم ، فهى واحدة من الفنون الحرة التى سادت العصور الوسطى ، كما أن بيزنطة — كما رأينا — ورثت كثيرا من العلوم الهلينية القديمة • وأولها الفلسفة •

فاليونان هى التى أنجبت الفلاسفة الكبار أمثــال ســقراط — وأرسطو ، وأفلاطون ، لذا فان دراســة هذه الفلسفات تعد من أهم علوم العصر • فكانوا يدرسون فلسفة أرسطو كمقدمة لدراسة افلاطون خاصة فى القرن الثامن الذى شهد احياء للدراسات الفلسفية • وكان يتحتم لدراسة وفهم أفــلاطون ضرورة الالمــام بأصول الحســاب والهندسة[٢٠] وقد ارتبطت دراســة الفلســفة فى الفترة التى نعنى بدراستها ارتباطا وثيقا بالعلوم الدينية اللاهوتية ، وتنوعت الدراسات فيها حيث كانوا يعتبرونها مادة مساعدة لدراسة دستور الكنيسة وعلومها وكانت المناقشات الفلسفية تعود بفائدة كبيرة خاصة فى أثناء الفترات التى يزعمون أنها « فترات هرطقة » والتى استمرت حتى عصر يوحنا الدمشقى الذى يعتبر من أهم فلاسفة هذه الفترة رغم القصور الذى اعترى الدراسات الفلسفية قبل ذلك[٢١] •

ولعل الحركة اللاأيقونية قد نمت هذا الفكر ، وفتحت مجالا كبيرا للمجادلات الدينية ، وشرح وجهــات النظر ، وفتحت الســبيل أمام المعارضة لتفلسف وجهة نظرها ، وقد أرجع فلاسفة هذه الفترة أصول الحركة اللاأيقونية الى ثلاث أسس هامة •

---

(20) Baynes «op. cit.» p. 158.
(21) Hussey «op. cit.» p. 138.

اولا — الثقافة الدينية :

ورث المسيحيون اليونانيون الذين سكنوا الامبراطورية محبة الصور المقدسة والأيقونات من ماضيهم الوثنى • وعندما أعدمت الكنيسة فى عصورها الأولى هذا الفن الذى يتشابه مع الوثنية ، اختفت الأبعاد الثلاثية ، وظهرت فى صورة جديدة مسيحية فى نسختين من الكتاب المقدس •

وهناك مسيحيون شرقيون آخرون فى سوريا وأرمينيا كانوا أقل اهتماما — نسبة لثقافتهم السابقة — بعبادة الصور ، لذلك فان الأباطرة الذين حاربوا هذه العقيدة ، كانوا أصلا من أرمينيا وأيسوريا زيادة على ذلك ، فان العالم الشرقى الذى لا يتكلم الاغريقية كان منذ القرن الثامن مونوفزتيا فى عقيدته ، لذا فاننا نرى أن المونوفزتية أسهمت بفكرها الدينى فى ايجاد أسس للجدل اللاأيقونى(٢٢) •

ثانيا — الاتصال بالدول الاسلامية :

بعد انتصار العرب واستيلائهم على فلسطين وسوريا ومصر ، وجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها على اتصال دائم مع العالم الاسلامى عسكريا وفكريا ، وبدأ كل من الاسلام والمسيحية فى فرض دينه على المنطقة(٢٣) •

لذلك ظهر تفاح بين بعض العلماء الأرثوذكس والكاثوليك وبين بعض علماء المسلمين ، وكان الداعى لهذا الجدل أن الخلفاء اعتادوا عند توليهم عرش الخلافة أن يوجهوا الى الملوك المعاصرين كتبا يدعونهم فيها الى الدخول فى الاسلام ، فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب ومن

---

(22) J. Meytndorff «Byzantine, Theology, p. 42.
(23) Ibid.

أسباب هذا الجدل أيضا أن خطر التحول عن المسيحية تحول بتزايد تقدم العرب فى جميع نواحى حياتهم ، فكان من الضرورى أن تنظم مناعة فى العقيدة للمسيحيين فى الثغور وفى جميع الأقطار الشامية وفى مصر أيضا ، وكان سكان هذه الأقطار من الأرثوذكس وهم لا يزالون يستعملون اللغة اليونانية فى أرض الاسلام . وفى زمن يوحنا الدمشقى أيام الأمويين وفى زمن أبى قره فى أوائل العهد العباسى فجاءت تآليف هؤلاء فى الجدل باليونانية ، ولكن أبا قره فى ميماره بدأ فى استعمال العربية ، وكتب بها أبوكاليبس بحيره الحوار بين عبد المسيح الكندى ، وبين عبد الله الهاشمى .

أما يوحنا الدمشقى فقد ناقش بعض آيات القرآن الكريم ، وانتقد وحى القرآن وعادات المسلمين فى العبادات والأخلاق . ورفض أبو قره بعثة محمد رسولا ، وجادل فكرة الخلق المستمر ، ونصيب الله فى أعمال المخلوقات ، واعتبرها أقوالا يجر اليها الدخول فى الاسلام . ومما قاله أبو قره انه اذا قيل بخلق المسيح لزم أن يكون الله قد بقى زمنا دون كلمة وروح وبالتالى الزم أن يكون القرآن الذى هو كلمة الله مخلوقا ، وظهرت رسالة بحيره الراهب فى عهد المأمون . ثم كان هناك هجوم اسلامى قوى على أثر ما فعله ميخائيل الثالث اذ أرسل مقالتين احتج فى احداهما بمبدأ السببية فرفض المسلمون فكرة وجود ابن الله مشارك له فى الخلود وفى الصفات ، فظهرت رسالة للجاحظ قال فيها صاحبها الى تأييد سياسة المتوكل الشديدة نحو أهل الذمة ؛ وعرض أبو القاسم ابن ابراهيم البلخى لفكرة النبوة وألف أبو عيسى الوراق كتابا ضخما نقد فيه عقائد النصارى بمذاهبهم الثلاثة(٢٤) .

---

(٢٤) ارمان آبل تحاج أهل الأديان فى القرنين الثامن والتاسع . الملحق السادس لكتاب فازيليف « الروم والعرب » تعريب د / عبد الهادى شعيره . ص ٢٦٨ — ٣٧١ .

وقد حاول أباطرة القرن الثامن أن يحرروا العقيدة المسيحية من الأفكار والعقائد الوثنية ، وقرروا ضرورة تنقيتها حتى يجعلوها تصمد فى مواجهة الاســلام • لذلك فان هناك تأثيرا اســلاميا على الحركة اللاأيقونية ، لكن هذا التأثير ما هو الا جزء من الحرب الباردة المشتعلة ضد الاسلام (٢٥) •

ثالثــا ــ وراثة الروح الهلينية :

وجد اللاأيقونيون فى العادات المســيحية اليونانية مجــادلات جديدة ، لا تتصل مباشرة بهدم المونوفزتية ، أو بالتأثيرات الثقافية الأجنبية • أما الوجهة الفكرية للاأيقونية فهى العودة بالمســيحية الى طبيعتها الأولى • والذين دافعوا عن هذه الفكرة استندوا الى وثيقة قديمــة وجدوها تمنع تصوير أو تجسيد الاله(٢٦) •

أما الفلاسفة الذين يدينون بالافلاطونية الحديثة ، فقد رأوا فى جدلهم فى العقيدة المسيحية ضرورة وجود الصور والأيقونات ، والتى وجدت من قبل فى وثنية الاغريق • فطوروا سياستهم وقربوها فى مفهوم جديد وهى أن الصورة فى المسيحية تعتبر وسيلة للوصول الى النموذج والأصل الدينى ، وليس المقصود بها العبادة •

وقد كتب بورفيرى Porphyry على سبيل المثال :

« اذا كان بعض الاغريق لهم أفكار مستنيرة اعتقدوا بها أن الاله تجسد فى الصور والأيقونات الدينية ، فان أفكارهم هذه لها آثــار ايجابية وسليمة عن هذه الفئة من المسيحيين الذين يعتقدون أن الاله دخل رحم السيدة العذراء حتى أصبح جنينا ، ثم ولدته ودثرته فى الملابس ، وكان مملوءا بالدماء ، وغشاؤه متقيح »(٢٧) •

---

(25) J. Meytndorff «op. cit.» p. 43.
(26) Ibid.
(27) Ibid, p. 44.

العقيـــدة الأرثوذكسية
للصـــور المقدســـة

أ ــ يوحنا الدمشقى ، والمجمع المسكونى السابع :

ثارت مناقشات عديدة حول عبادة الصور المقدسة فى القسطنطينية بعد المجمع المسكونى السابع ، ومن أهم هذه الآثار ما خلفـــه يوحنا الدمشقى ٦٧٦ ـــ ٧٦٠ م الذى كتب كثيرا عن الأيقونات المقدسة • وعندما كان يعمل فى دير القديس سابا St. Sabas فى فلسطين خلف مجموعة كبيرة من الأعمال الدينية والعقائدية والتاريخية والفلسفية والخطابية والشعرية ويعتبر كتابه « ينبوع المعرفة » من أهم الآثار التى تركها[٢٨] وهو يعتبر تفسير دقيق للعقيدة الأرثوذكســـية • وعن طريق هذا المؤلف منح يوحنا مؤيدى الأيقونات سلاحا قويا دافعوا به عن عقيدتهم ضد الفئة اللاأيقونية • وهذا السلاح افتقروا اليه عنـــد بداية ظهور هذه الحركة المضادة • ويعتبر هذا المرجع هو الأساس الذى اســـتقى منه تـــوما الاكوينى فى القرن الثالث عشر أسس حركتـــه اللاهوتية فى مؤلفه عن Summa, Theologial • ونظم يوحنا التراتيل الروحية ولحنها ولا سيما ما يرتل منها يوم عيد الفصح وجاءت هذه التراتيل أعمق وأقوى مما نظمه رومانوس المرتل • وهو مؤلف عدد كبير من المؤلفات الكنسية ومنها ما يخص الأعياد المسيحية ، وقصص العذراء المقدســـة وتكريم الرسل ولم يخلف يوحنا أحدا من الكتاب فى كتابه الشعر البيزنطى الكنسى[٢٩] •

ثيوفانيس المعترف ٧٤٨ ـــ ٨١٨ م :

كان ثيوفانيس ابنا لأحد ولاة جزر الأرخبيل ، وقد دعى ثيوفانيس

---

(28) Vasiliev «op. cit.» p. 294.
(29) Ibid, p. 294.

للاشتراك فى المجمع المسكونى السـابع وأهم ما خلفه تاريخه الشهير ، بدأه من عهد دقلديانوس ، ووقف به حتى نهاية حكم ميخائيـل الأول ٢٨٤ — ٨١٣ م • وتاريخه مفيد جدا لأنه يحفظ لنا بعض ما ورد فى مصنفات فقدت من بعده ، ولأنه أسهب فيما دون عن حرب الأيقونات(٣٠) •

وقد كان ثيوفانيس عدوا لللاأيقونية خاصة فى دورها الثانى ؛ وقد حاكمه ليو الخامس الأرمنى وسجنه فترة طويلة ، ثم نفاه بعد ذلك الى احدى جزر بحر ايجة حيث توفى سنة ٨١٨ ، وتاريخه هام جدا لأنه استمده من مصـادره الأصـلية ، كما أنـه كان معـاصرا للحركة اللاأيقونية(٣١) •

٣ — ثيودورس الاستديونى ٧٥٩ — ٨٢٦ م :

يعتبر ثيودورس الاستوديونى هو العلامة البارزة فى الدور الثانى للاأيقونية ، فقد وقف مدافعا عن عبادة الصور المقدسـة • وقد كان ثيودورس هو مقدم الدير الكبير فى القسطنطينية والذى اضمحل دوره أثناء حكم قنسطنطين الخامس ، لكنه عاد الى وضـعه الطبيعى تحت رئاسة ثيودورس • وقد سـار على نظام الحياة الجماعية داخل الدير وتام بتأسيس مدرسة ديرية كبيرة لتقوم بسد الحاجة الثقافية للرهبان وقد اشتغل رهبان الدير فى القراءة والكتابة ونسخ المخطوطات ، وقراءة الأناجيل المقدسة وكتابات آباء الكنيسة(٣٢) •

وألف ثيودورس مجموعتين من النظـم التى يجب على الرهبان اتباعها ، وهاتان المجموعتان سميتا بالصغيرة ، والكبيرة وفيهما أسس الحياة الديرية منها الطاعة لمقدمى الأديرة ، وحياة العزوبة ، والعمل الدائب ، والفقر الشخصى ، وهذه الأسس اختلفت كلية عن حياة الزهد

---

(٣٠) اسد رستم « الروم » ص ٣٤٣ •

(31) Vasiliev «op. cit.» p. 291.

(32) Ibid, p. 295.

الكامل . كما اقتبس بعض الأسس من انظمة باخوم وباسيل[٣٣] .

وأسهم ثيودورس اسهاما كبيرا فى تطور العقيدة المسيحية الشرقية خاصة فى كتابه عن « طبيعة المسيح وشخصه » وكتابه عن « نظام الصوم الكبير » وكتاب « الأنغام الثمانية » . ومن أهم كتاباته دفاعه عن الصور المقدسة وكتب مجموعة من الخطابات لمعاصريه لمهاجمة اللاأيقونية ، كما قدم مجموعة كبيرة من المقترحات فى هذا الموضوع[٣٤] .

٤ — نيقفورس المعترف ٧٥٨ — ٨٢٨ م :

كان نقفور بطريركا للقسطنطينية فى بداية القرن التاسع ، وقف موقفا معاديا لللاأيقونية ودافع بكل حماس عن الصور المقدسة ، كما قام برفع قرار الحرمان الذى صدر على القس يوسف الذى بارك من قبل زواج قنسطنطين السادس ، والذى اعتبره رجال الدين « زواج زنا » كما قام بتنظيم هيئة الاكليروس ملزما كل منهم بالسلوك فى الحدود التى يرسمها له القانون ، لذلك تأججت المشاكل بينه وبين نقفور وثيودسيوس وجميع رجال الأديرة . مما دفع ليو الخامس الى نفيه سنة ٨١٥ م . وتوفى بعدها سنة ٨٢٨ م وترك مجموعة من الكتابات بعضها لم ينشر الى الآن . كلها دفاع عن الصور المقدسة[٣٥] . منها كتاب فى دحض قرارات مجمع تحطيم الصور المنعقد سنة ٨١٥ ، كما كتب أيضا فى التاريخ فأرخ الفترة من حكم الامبراطور موريس سنة ٦٠٢ الى ٧٦٩ م . وهو يحوى حقائق هامة خاصة بالتاريخ السياسى وتاريخ الكنيسة فى هذه الفترة وهناك تشابه بين كتابات نيقفورس وثيوفانيس بما يؤكد على أن هذين المؤرخين استقيا معلوماتهما من

---

(33) J. Meytndorff «op. cit.» p. 47.
(34) Ibid. p. 48.
(35) Ibid, p. 49.

مصدر واحد(٣٦) .

٥ ــ جرجس الراهب :

كان عدوا لدودا للاأيقونية ــ ترك لنا تاريخا مطولا من عهد آدم حتى وفاة ثيوفيليس سنة ٨٤٢ م بمعنى آخر الى الانتصـــار النهائى لعبادة الصور المقدسة وتاريخ جرجس الراهب له أهمية كبرى فى دراســـة التاريخ الثقافى لهذه الحقبة لأنه يحوى مناقشات عديدة خاصة بالأديرة البيزنطية فى هذه الفترة ، وعلى الأخص الحياة الديرية نفسها ، وانتشار اللا أيقونية ، والعقيدة الاسلامية على الحــدود الشرقية(٣٧) .

الأدب

هزمت روما جميع البلاد الآسيوية التى كانت ضمن مملكة الاسكندر الأكبر ، لكنها لم تنجح فى فرض الحضارة اللاتينية على الأراضى التى تقع شرف البحر الأبيض المتوسط لأن الثقافة الهلينية كانت واســعة الانتشــار ، ومتأصلة بجذور عميقة(٣٨) .

لذلك فان الأدب فى القسطنطنية كان أدب يونــانى ، كما ورث البيزنطيون عادات الدراسة الهلينية ، لذلك فان النشاط الأدبى كان كبيرا ، فبعضه لم يكتشف والبعض لم يطبع ، وعلى سبيل المثال فان تاريخ العلم والتعليم والعلوم التطبيقية والفنون الحرفية لم يهتم به الباحثون الا فى هذه الأيام ، وما زال فى أيدى الكتاب والباحثين فى أيامنا هــذه تعليقات هامــة على الدراســات البيزنطية فى العصــور المختلفة(٣٩) .

(36) Vasiliev «op. cit.» p. 292.
(37) Ibid, p. 292.
(38) Baynes «op. cit.» p. 165.
(39) Hussey «op. cit.» p. 138.

والمعروف أن اللغة اليونانية كانت تعلم تعليما وافيا ، وكانت أعمال المؤلفين الكلاسيكيين تقرأ وتقدر سواء أكانت نثرا أم شعرا وتبين قائمة قرارات فوشيوس فى النثر مجالا متسعا اتساعا خارقا يمتد بين هيردوت وسنيسيوس مع تعقيبات تتجلى منها الألمعية والذكاء . مع أن البيزنطيين كان يخامرهم رغبة فى الاختصار والتنقيح ، والشرح كما كانوا يجدون مشقة فى دراسة الشعر الاغريقى من حيث أنهم كانوا ينطقون حسب النبرة المكتوبة ، كما كانوا مضطرين الى تعلم النطق القديم لكى يقدموا ما فى الشعر من ايقاع ووزن موسيقى وبحور(٤٠) .

أما عن الأدب فى عصر اللاأيقونية فقد اندثر بعد انتصار عبادة الصور ولم يبق الا جزءا من تفاصيل المجمع الدينى الذى عقد سنة ٧٥٤ م . وقد بقيت بعض شذرات من كتابات قنسطنطين الخامس ضد عبادة الأيقونات وهى محفوظة فى أعمال البطريرك نقفورس الثلاثة . وقد ألف هذا الامبراطور بعض الأعمال الأدبية الأخرى أيضا كما أمر مجموعة من الكتاب المؤيدين للاأيقونية باعداد كتابات تعتمد أساسا على الانجيل وكتابات آباء الكنيسة ، وذلك لتكون ضمن جدول أعمال المجمع الدينى الذى عقد سنة ٧٥٤ م ، لكن جميع هذه الكتابات اندثرت بعد انتصار الأيقونية(٤١) أما عن الأشعار اللا أيقونية ، والتى بقت فهى محفوظة ضمن أعمال ثيودور الأستوديونى .

وقد أمر المجمع المسكونى السابع بالقضاء على الأدب اللاأيقونى وفى البند الثامن قرروا « ضرورة تقديم جميع المسرحيات التافهة ، والكتابات الرديئة التى كتبت ضد الصور المقدسة الى أسقف القسطنطينية ، كما أوجبوا ذلك بالنسبة لكتب الهرطقة ، واذا ضبط

---

(٤٠) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .
(41) Vasiliev «op. cit.» p. 292.

أى شخص عنده كتب من هذا النوع وقام باخفائها حتى ولو كان أسقف أو قسيس أو شماس فسيتعرض للطرد من وظيفته سواء كان راهبا أو علمانيا ، وسيطبق عليه قرار الحرمان الكنسى(٤٢) .

النثر الأدبى :

رغم أن الدولة البيزنطية لم توفق الا الى انتاج قليل من المؤلفات الأدبية الخالدة ، فقد كانت تستطيع أن تفاخر بوجود سلسلة طويلة من الكتاب المقتدرين الأذكياء تفوق كثيرا عدد من ظهر لدى أى شعب آخر معاصر .

وقد كانت صعوبات اللغة تعوق الأدب البيزنطى منذ عهوده الأولى وكانت هناك أشكال ثلاثة للاغريقية معروفة بالقسطنطينية هى الرومية وهى الاغريقية المتداولة بين طبقات الشعب وهى لغة مقتضبة مطبوعة بالاهمال بها مجموعة ألفاظ مخلطة وأجرومية بسيطة ساذجة : ثم اليونانية التى تتحدث بها الطبقات المتعلمة ، وهى اللغة التى كانوا يكتبون بها أدبهم . وكانت اللغة تختلف من زمان لآخر فهى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أقرب شبها الى الاغريقية الفصحى الكلاسيكية منها فى القرنين الثامن والتاسع(٤٣) .

ولنرى أن مراعاة الأوزان الكلاسيكية فى الكتابة ظل متبعا طوال عهد الامبراطورية البيزنطية ، وكان ثيوفانيز هو أول كاتب فى القرن التاسع استعمل بصورة قاطعة اللغة المتكلمة ، وهى لغة بسيطة ومملوءة بكلمات من أصول مخلطة منها اللاتينية والسلافية والشرقية ، وبعد ذلك بقرن صنف قنسطنطين السابع الكتب بلغة الكلام بيد أنها لغة لا شك

---

(42) Ibid, p. 293.

(٤٣) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٩٢ .

أن أى فرد من قدماء الاغريق كان يفهمها أكثر[٤٤] .

البلاغـة :

ورثت بيزنطة اهتماما كبيرا بالبلاغة التى كونت النظام التعليمى والانتاج الأدبى . فكانت هى الوسيلة التى تمكن الكاتب أو المتحدث من تقـديم أفكاره فى صورة حية وسليمة .

وترجع أصول البلاغة الى السفسطائية الوثنية فى العصر الهلينى . فقد كانت هناك فجوة كبيرة بين لغة التحدث والكتـابة ، فان النطق المتعدد للعـالم القـديم اندمج فى لغة عامية سميت الكوينى Koinè وهى لغـة التحدث فى اليونانية وفى جمع بلدان البحر الأبيض المتوسط وجميع أرجاء العـالم الهلينى .

ولم تستخدم الفئة المثقفة فى العالم الهلينى هذه اللغة الحية والتى تعتبر لغتهم العامية ، لكنهم رجعوا مرة أخرى الى اليونانية الفصحى وحاولوا الكتابة مستخدمين اللغة التى كان يستخدمها ثوكوديدس وغيره من المؤلفين القدامى[٤٥] .

وقد كان هذا الاتجاه جزءا من خطتهم فى حماية الثقافة اليونانية القديمة والمحافظة عليها ، لكن هذا الاتجاه ادى الى نتيجة سيئة لأنهم عندما بدأوا يدمجون القديم بالحديث خرجت كتاباتهم مملوءة بأخطاء نحوية ، وتعبيرات فاسدة ، ولم تستخدم الكنيسة اللغة العامية . لكن معظم كتاباتها الأدبية خرجت بلهجة الكوينا لتتميز عن اللغة الفصحى القديمة ، كما أنها تقدمت فى أسلوبها خاصة فى شعرها الدينى وما يصاحبه من موسيقى ، حقا فانهم أحيانا يستخدمون نسبة كبيرة من النثر الموزون . وجنحوا الى العامية فى بعض الأعمال الأدبية الاخرى خاصة فى التاريخ

---

(٤٤) المرجع السابق .

(45) Hussey «op. cit.» p. 138.

وكتابة حياة القديسين ، فكانوا يكتبونه بلهجة بسيطة ، وكانوا يستعينون بهومر وغيره من الأدباء المحببين لديهم[٤٦] . ومن أشهر هذه الكتابات التاريخية التى كتبت فى هذه الفترة بهذا الأسلوب العامى ما سطره ثيوفانيز فى القرن التاسع فى مدونته الاخبارية المسهبة ، وكان ثيوفانيز يكتب متأثرا بتحيز الرهبان القاطع ، بيد أنه قد احتفظ لنفسه بحكمه على الأشياء ، ولا يزال عمله هو المرجع الثقة الوحيد عن القرون السابقة لعصره وكان معاصره نيقفور البطريق مؤرخا — كما كان لاهوتيا — ذلك أنه شاء لمدونته الرواج وسعة الانتشار أكثر من أى مدونة أخرى . ولذا لم يدرج فيها الا ما ظن أنه يسلى الجمهور أو يملؤه بالتحيز الى الاتجاه الصائب[٤٧] .

القصص :

لم يعرف البيزنطيون الكتابة القصصية بمفهومها ومقوماتها بل ان قصص القديسين وحياتهم هى التى أمدت الأدب بمادة وفيرة خرجت فى صورة قصصية ، حيث امتزجت فيها تفاصيل حياة الناس فى العالم البيزنطى الى جانب صور من ليالى العرب الخيالية ، وكان ذلك خاصة بالنسبة للقديسين الذين يعيشون فى الجهات الشرقية[٤٨] .

وقد ارتبط اسم يوحنا الدمشقى ارتباطا كبيرا فى هذه الفترة بالأدب القصصى حيث قدم رواية رومانسية دينية وهى رواية « برلام وجوزافت » Barlaam and Josaphat والتى لاقت شهرة كبيرة وترجمت الى جميع اللغات فى العصور الوسطى . ولا شك أن هذه الرواية أخذت من أساطير بوذا الهندية المشهورة . والمعروف أن هذه القصة نسخة من حياة بوذا اقتبسها المسيحيون الشرقيون ، حتى

---

(46) Ibid, p. 139.

(٤٧) رنسمان « المرجع السابق » ص ٢٩٧ .

(48) Hussey «op. cit.» p. 139.

ان المؤلف نفسه أشار على أن هذه القصة وصلت اليه من الهند ، لذلك فقد ذاعت شهرة يوحنا الدمشقى كقصصي رومانسى منذ العصور الوسطى حتى الآن ، وحاول بعض المؤرخين أمثال المؤرخ المستشرق الفرنسى هـ • زوتنبرج H. Zotenberg تقديم أدلة على أن يوحنا الدمشقى ليس هو مؤلف هذه القصة ولكن المؤرخين المحدثين أثبتوا أدلة على أنها من تأليفه وأضافوا اسمه على صفحات تراجمهم لهذه القصة(٤٩) •

التاريـــخ :

لم تسير كتابة التاريخ وفق منهج علمى مرسوم ، بل على النقيض من ذلك ، وبناء على ما نشهد من عدد المؤرخين ، بل وأكثر من ذلك عدد مدونى الأخبار الشعبيين ، ومن كثرة الطبعات التى صدرت من مدونات الأخبار المروية chronicles فكان ذلك يثير اهتمام الناس ، ولقد أحب البيزنطيون قراءة أمجاد الامبراطورية السالفة ، وكان أحب كتب الأخبار الى قلوب الناس يمتد فى أعماق المـاضى حتى الى خلق آدم وحواء ، ويتضمن قصص طزوادة ، وكانت للأباطرة السالفين والقديسين الدارجين صورة مشرقة الفصاعة أمام نواظرهم(٥٠)

ويرى الأستاذ ديل : أن التاريخ كان عند البيزنطيون من أهم العلوم فهو عبارة عن سرد لأحوال المـاضى تختلط فيه الأخبار الهامة بالتافهة ، وتتحدث عن أديرة آباء المعمودية ، وكان المؤلف يحدد نفسه دائما فى اطار تقليد الأسلاف ، والكتاب الدينيين كانوا من أهم النوعيات فيتحدثون دائما عن كلام آباء الكنيسة(٥١) •

أما الأستاذة / هاسى فتؤكد على اهتمام البيزنطيين بالتاريخ ،

---

(49) Vasiliev «op. cit.» pp. 294 — 295.

(٥٠) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٨٢ .

(51) Diéhl «Byzantium, Greatness and Decline», p. 56.

وكيف كانوا شغوفين بماضيهم ، وكانت كتاباتهم متأثرة بتفهمهم للاتصالية والاستمرارية التاريخية(٥٢) •

وقد أحب اليونانيون طريقة ونظام أجدادهم فى التأريخ خاصة هيردوت وثيكوديدس ، وفى الفترة الأخيرة تأثروا بأسلافهم من المؤرخين الذين ظهروا فى القرن السابع أمثال أجاسياس Agathias الذين كانوا يعتبرون التاريخ من خلق اليونانيين(٥٣) • وفى رأيهم أنه ليس سردا للأحداث بل هو يختص بالماضى والحاضر ، وأفعال الانسان ، وآراء المثقفين فى طبيعة الأشياء ، ومدى خطأ وصواب هذه الآراء ، وذلك على حد قول نقفور جريجوراس Nicephorus — Gregoras الذى يرى أن قدرات المؤرخين والكتاب البيزنطيين اختلفت من واحد الى آخر ، لكنه لم يتمكن أحد منهم أن يصل الى مرتبةسكوديدوس واكسينيفون(٥٤) •

أما المؤلفين أمثال ليو الشماس ، وانا كومنينا فى العصور الوسطى ونيقفور جريجوراس فى القرن الرابع عشر قدموا تواريخ أفراد واضح ومميز لا يظهر الا فى المجتمعات المتحضرة •

وكان كتاب السير والتراجم أشبه الناس بالمؤرخين تماما ويفوقونهم عددا أو يكادون ، وتكاد معظم هذه التراجم أن تكون خاصة بالقديسين دون غيرهم ، وكان الاضطهاد الذى صحب تحطيم الصور هو الذى أنتج أول محصول ضخم من التراجم ، وكان الشهداء المتواضعون من عباد الصور والبطاركة المستمسكون بسنة السلف ، بل حتى الامبراطورة ثيودورا نفسها يجدون بين المعجبين بهم المخلصين لدينهم من يتطوعون لتسجيل أعمالهم ، وسرعان ما تزايد عدد التراجم التى ظهرت ، فأخذ

---

(52) Hussey «op. cit.» p. 140.
(53) Nicetas Chonitas History p. 768.
(54) Nicephorus Gregoras Roman History, vol, II..

أصحاب التراجم يتحدثون عن النساك المعمودين وعن أساقفة وبطاركة .
وبعض هذه المؤلفات ذات قيمة أدبية عالية(٥٥) .

الرسائل والخطب :

عنى البيزنطيون بكتابة الرسائل التى تمثل جانبا من فن النثر الأدبى ، ولعل الرسائل المتعددة التى حوتها مكتبة فوشيوس البطريرك لتبين لنا كيف كانت هذه الرسائل تعبر عن الذوق الأدبى والاسلوب المتبع فى المكاتبات . ورغم العداء الدينى بين الاسلام والمسيحية الا أن فوشيوس عقد صداقات وطيدة مع بعض حكام المسلمين أمثال أمير كريت فكان فوشيوس يراسله باستمرار ، وقام نيقولا مستيكوس Nicolaus, Mysticus بمراسلة ابن الأمير وكتب اليه يقول « يجب أن تعلم أنه رغم الخلاف الدينى بيننا وبينكم ، هذا الخلاف الذى يقف سدا منيعا ، الا أننا تجمعنا واياكم المحبة ، والوئام ، فأستاذى فوشيوس يحب والدكم جدا ويجله ، فالطبيعة الانسانية تثبت أن الحب هو السبيل الى المعرفة(٥٦) .

كما احتلت الخطابة مكانة كبيرة ، فقد كانت هناك تواريخ للعالم كتبت للمستمعين من عامة الشعب ، فكانوا يسجلون الأحداث العامة بتسلسل زمنى ويضيفون اليها بعض أشياء تجذب السامعين وتخيفهم فى نفس الوقت ، وهى أخبار تروق لقاعدة الشعب العريضة ، فيكسبون عن طريقها الذوق العام والعقلية المعاصرة ، لكنهم لم يحتلوا المكانة التى احتلها المؤرخون(٥٧) .

وهناك خطبا أخرى تمثل نموذجا من الأدب البيانى ، وهو خير ما خلفه لنا القرن التاسع من هذه الخطب ، فكانت خطب التأبين التى

---

(٥٥) رنسمان « المرجع السابق » ص ٢٩٨ .
(56) Vasiliev «op. cit.» p. 297.
(57) Hussey «op. cit.» p. 40.

يلقيها الأصدقاء والأهالى عند الموت ، وهناك خطبة لثيودور الاستديونى على قبر أمه وخطبة الأسقف يونيميوس ، والخطب الكثيرة التى ألقاها بسلوس على أمه[٥٨] •

الشـــعر :

كان حظ البيزنطيين قليلا فى ميدان الشعر ، فلم يرق لهم فن من فنون الشعر الا الشعر الدينى ، ولم يتركوا تراثا الا فى ذلك فقط •

معنى ذلك أن كتابات آباء الكنيسة ، والفكر الدينى الذى سيطر على عقلية البيزنطيين طوال العصور الوسطى ساعد على تنمية كتابة منظومات شعرية دينية •

وفى الفترة التى نعنى بدراستها برز يوحنا الدمشقى — الذى عرضنا له فى أكثر من عمل ثقافى — كشاعر دينى فلسفى ، وجميع أعماله كانت تنصب على مدح المسيح ووصف آلامه ومعجزاته ، وتفوق فى نوع من الشعر الدينى يسمى القانونات وهى عبارة عن أشعار غنائية ذات تفاعيل مختلفة تجمع معا فى وحدة واحدة مطولة[٥٩] •

ويبرز لنا فى مجال الشعر الدينى ثيودور الاستوديونى فقد ترك ثيودور مجموعة من المنظومات الشعرية والقصائد والتراتيل الدينية • ولم يتمكن الباحثون نهائيا من دراسة وتحليل التراتيل التى خلفها لأن معظمها لم ينشر حتى الآن ، والبعض الآخر ظهر فى طبعات قليلة مثل « كتب الطقوس بالروسية » ولابد أن يهتم الدارسون بهذه المجموعات الكبيرة التى تركها ثيودور فى نظم الكنيسة والطبيعة الاجتماعية لأنها ذات فائدة كبيرة فى تصوير التاريخ الثقافى للفترة التى عاصرها[٦٠] •

---

(58) René Guerdan «op. cit.» p. 70.
(59) Ibid.
(60) Vasiliev «op. cit.» p. 295.

وفى هـذه الفترة برزت الشـاعرة الدينية كاسيه Kasia ذات الموهبة الشعرية العالية .

ويرجع تاريخ كاسـيه الى الفترة التى فكر فيهـا الامبراطور ثيوفيلوس فى الزواج ، وكعادة البيزنطيين — فقد اختاروا مجموعـة كبيرة من أجمل فتيات الامبراطورية ، وتجمعوا فى العاصمة ليختار منهن الامبراطور واحدة . وكانت كاسيه احداهن . وكان على الامبراطور أن يخترق صفوف هؤلاء الفتيات حاملا فى يديه تفاحة ذهبية ، يعطيها للفتاة التى تروق له ويختارها زوجة .

وقد أعجبته كاسيه اعجابا شديدا أكثر من أى فتاة أخرى ، وكان على وشك أن يعطيها التفاحة ، لولا ردها الجرىء على السؤال الذى وجهه اليها . فقد جعله يغير رأيه ، واختار ثيودورا « التى أعادت الصور المقدسة مرة أخرى » .

عندئذ تركت كاسيه الحياة ، وأسست ديرا حيث قضت به بقية عمرها . وبدأت تؤلف قصائد دينية معينة تجلى فيها حاسة معينة من الجمال والأصالة والتقوى الصادقة(٦١) . وبناء على دراسات المؤرخ كرامباخر الذى عكف على دراسة شعرها فقد وجـد أنها امرأة فـذة جمعت بين حساسية المرأة الى جانب شدة التدين والصراحة النادرة(٦٢) .

وكان كتاب التراتيل البيزنطيون يؤلفون بأنفسهم ألحانهم التى لا تزال هى وبعض الأنغام الشعبية المنقولة بالتواتر تؤلف الموسيقى البيزنطية الوحيدة التى بقيت لنا حتى اليوم .

---

(61) Vasiliev, Ibid, p. 295.
(62) Ibid, p. 296. &
Bury «op. cit.» p. 81 — 83.

وكانت «وسيقى التراتيل من النوع الشكلى والتناوبى الذى ينبغى أن يتغنى به مصحوب بآلات موسيقية ، شأن موسيقى الكنيسة الأرثوذكسية بأجمعها •

وعلى حين صيغت التراتيل البيزنطية فى قالب القانونات ، فان الشعر البيزنطى العلمانى كان يقع فى ثلاثة بحور شعرية رئيسية ؛ ولم يزدهر فن الشعر الغنائى نتيجة لما يسمى بالاتجاه الموضوعى للكتاب البيزنطيين ، وكان أقرب الأشياء الى الشعر الغنائى هو شعر الحكم والأمثال الذى وجدت فيه رشاقة العاطفة العلمانية البيزنطية وغرورها أنسب سبل للتعبير عن نفسها ، وقد كتب جورج من أهل بيسيديا فى القرن السابع مقتطفات من شعر الحكم تناول أحداث زمانه منها ما هو مطول تطويلا تجاوز الحد • ثم ان ثيودور الاستديونى كتب طائفة مسلسلة من مقطعات شعر الحكم والأمثال حول حياة الدير وأحداثها ، وكتب كاشيه كثيرا من شعر الحكم(٦٣) •

العلوم العلمية :

تألق البيزنطيون فى بعض العلوم العلمية ومن أهمها الرياضيات التى ارتبطت بالدراسات الفلسفية ، وبعض الباحثين أمثال ميخائيل بيسلوس اعتبروا أن الرياضيات نافعة جدا لأنها تربط بين الأشياء المادية والأفكار النظرية(٦٤) •

واذا كان البيزنطيون قد برعوا فى هذا المجال ، فانهم لم يزيدوا على ما قدمه الاغريق القدامى ، وقد غل أيديهم فى الحساب أرقامهم العقيمة ، وكان الاغريق قد تقدموا فعلا بقدر ما أمكنهم كلما استخدموا حروف الأبجدية بدل الأرقام من غير الطريقة العشرية ولم يكن هناك

---

(٦٣) رنسمان « المرجع السابق » ص ٣٠٥ •
(64) Hussey «op. cit.» p. 40.

أعدادا انما كانوا يستخدمون الحروف الهجائية فى العد والحساب(٦٥) .

وقد بدأ البيزنطيون يتطوروا فى علم الحساب حتى أن العرب اعتمدوا عليهم فى هذا العلم خاصة ما كتبه اقليدس ، وقد راسل الخليفة العباسى المأمون الامبراطور البيزنطى ليو الأرمنى . وطلب اليه أن يأذن لبعثة اسلامية بالحصول على بعض المصنفات اليونانية فى الفلسفة والهندسة والطب ، فأجابه ليو الى ذلك ، فأتت القسطنطينية بعثة ثقافية عباسية كان أعضاؤها الحجاج بن قطر . وابن البطريق وصاحب بيت الحكمة ، وعاد هؤلاء بكنوز ثمينة الى بغداد فشرف قسطا ابن لوقا على ترجمتها(٦٦) . ولما ترامى الى المأمون نبأ ليو الرياضى راسله يستدعيه الى بلاطه وأغراه بالعطاء ، ولكن ثيوفيلوس علم بهذه الدعوة فى حينها ، فأبقى ليو فى القسطنطينية . وعينه مدرسا فى احدى الكنائس ثم عاد المأمون يرجو ثيوفيلوس أن يسمح بأن يزوره ليو مدة قصيرة ، وذكر فى رسالته أنه يعد قبول هذا الطلب عملا وديا ، وانه يعرض لقاء ذلك ألف قطعة من الذهب ، وعقد صلح دائم ، غير أن ثيوفيلوس رفض واعتبر علم ليو واختراعاته سرا من الأسرار كالنار الاغريقية مثلا ولا يسمح بانتشاره(٦٧) .

وقد برزت أنشطة ليو الرياضى فى القرن الثامن ، واتسعت دائرة اتصالاته وارتبط مع جميع مدارس وجامعات القسطنطينية ، وأمدهم بأبحاثه فى العلوم الرياضية(٦٨) .

أما الهندسة فان حدود البيزنطيين فيها لم تتعد حدود هندسة اقليدس ، اما الميكانيكا فقد كان للبيزنطيين مؤلفات قديمة من أهمها مؤلفات أوتولوكس Autolycus ، فقرءوها واعتمدوا عليها فى

---

(66) René Guerdan «op. cit.» p. 66.

(٦٧) أسد رستم « الروم » ص ٣٤٥ .

(68) Bury «op. cit.» pp. 436 — 438.

حياتهم العلمية ونقلوها الى العرب الذين طوروها وزادوا عليها(٦٩) .

أما علم الفلك ، فان نظريات البيزنطيين فيها لم تخرج عما قرره بطليموس السكندرى ، وكانت أفكارهم تدور على أن الكون يتكون من مجموعة من الأفلاك تتوسطها الأرض ، والنظرية التى كانت تتنافى مع هذه النظرية هى أن الأرض عبارة عن مستطيل له جوانب مسطحة مثل الحجرات أو السماء بالنسبة للأرض كالسقف بالنسبة للحجرة ، والشمس عبارة عن دائرة صغيرة تختفى فى المساء خلف جبل مخروطى ، ويحيط بها المحيطات من كل الاتجاهات ، وتخفى عنا الأرض التى سكنها الانسان قبل الطوفان(٧٠) .

وقد شارك ليو الرياضى بأبحاثه فى علم الفلك ، وركزها فى مدينة طرابيزون التى كانت ترتبط مع المدن الايرانية حتى القرن الثالث عشر(٧١) ولم يتمكن البيزنطيون من تصحيح الأخطاء التى وقع فيها بطليموس وقام العرب بتصحيحها بعد ذلك .

ودور البيزنطيين فى مجال الكيمياء لم يتعد اختراعهم للنار الاغريقية وهى ذلك السائل القابل للاشتعال الذى كان يمكنها من ادراك النصر فى معاركها ، بيد أن سر تركيبها احتفظوا به سرا دفينا لدرجة لم يمكن معها جعله نقطة بداية لتجارب أخرى جديدة(٧٢) .

أما فى مجال الطب والجراحة ، فكان هناك تقدما ملموسا فيهما فان كتابات القرن السادس والتى كان يمثلها الكسندر تراليس Alexander of Tralles وفى بداية القرن السابع Paul of Aegnia

---

(69) Hussey «op. cit.» p. 138.
(70) René Guerdan «op. cit.» p. 67.
(71) Hussey «op. cit.» p. 137.
(٧٢) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٨٧ .

الذين ذكروا ان بيزنطه كانت هى الرباط بين مدرسة جالينوس وبين الدراسات المتقدمة فى ايطاليا والعالم الاسلامى(٧٣) .

وكانت النظرية الطبية عندهم أن الجسم يتكون من أربع عناصر الدم والبلغم والصفراء والسوداء . وان صحة الجسم السليمة تعتمد على اتحادهم مع الدرجات الأربع : الجفاف والرطوبة — والحرارة والبرودة ولم يعبأ البيزنطيون بفائدة علم الصحة والنظافة(٧٤) .

وكانت علومهم الطبية عبارة عن مجموعة من التجارب التى تحفظها وترويها السيدات ، فمثلا فان محلول « ملح جريجورى » المصنوع من النشـادر والزنجبيل والبقدونس والناردين والفلفل يشفى من مرض النقرس الذى كان شـائعا فى الدولة البيزنطية ، الى جانب السـعال وأمراض العين والطحال والصلع .

وملح الجامبل يخلط بالسمك أو اللحم الجاف ويؤكل مع بيض نيىء وهذا الخليط يؤدى الى تحريك المعدة وتنشيطها ، ويشفى من نزلات البرد ، اما اذا أراد الانسان أن يشفى من الصداع أو يحسن من قوة ابصاره فعليه أن يأخذ خليطا من التوابل المضاف اليها « ملح القديس لوقا » وهى مخلوطة بالينسون والجـزر والشمـر والعترة الى غير ذلك(٧٥) . وقد استخدم البيزنطيون الاحتجام والكى وهما علاجـان شديدان الى حد ما دون أن يؤديا على الدوام الفائدة المرجوه(٧٦) .

---

(73) Hussey «op. cit.» p. 137.
(74) René Guerdan «op. cit.» p. 67.
(75) Ibid.
(٧٦) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٨٨ .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية فى غالة
على عهد شارلمان

* الحياة الاجتماعية فى غالة على عهد شارلمان .
* حياة شارلمان الاجتماعية .
* العاصمة .
* القصر .
* شخصية شارلمان .
* ملابسه .
* تربيته لأولاده .
* طعامه — شرابه .
* حياة الفرنجة الاجتماعية داخل المدن .
* الحياة الاجتماعية فى الريف .
* الملبس .
* المسكن .
* المأكل .
* المجاعات والأوبئة .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية فى غالة

على عهد شارلمان

لا شك أن الحياة الاجتماعية التى سادت هذه البقعة من العالم تأثرت تأثرا مباشرا بنوعية الحكم السياسى الذى ساد ، وبالبيت الحاكم ، الى جانب أنه برز فيها سمات لسكانها من الفرنجة وغيرهم من الأمم الوافدة عليهم •

ولابد أن نعرف أن ضياع البيت الكارولنجى ونفوذه السياسى تركز فى الأراضى الواقعة بين نهرى الراين والميز ، اذ أن بروم ومتز واستابلوا ، واخترناخ تعتبر من المواضع التى ارتبطوا بها ، وذلك اعتمادا على الأدلة الواردة فى أقدم ما هو معروف من وثائقهم[1] •

وقبل أن نخوض فى حياة هذا الشعب الاجتماعية ، يجب أن نعطى صورة لشارلمان امبراطور الفرنجة الذى يعتبر المؤسس والبانى للحضارة الكارولنجية ، والذى يعتبر نموذجا لشعبه فى أخلاقه وعاداته ومثلا للخلق الجرمانى الوافد على الرومان •

اتخذ شارلمان من مدينة آخن « اكس لاشابل » عاصمة لامبراطوريته وبذلك بعدت الامبراطورية الرومانية عن عاصمتها القديمة الأم «روما» • وقد كانت آخن تسمى قديما اكسيجرانوم Aquisgranum وكانت تقع بين نهرى الراين والموز بالقرب من الحدود الغربية لأستراسيا فى مكان متوسط صالح بالنسبة للأجزاء الشمالية من مملكته •

وفى هذا المكان أشرف بنفسه على بناء المدينة التى رأى فيها رجال حاشيته روما ثانية فى عنفوان الشباب ، وقد وردت العبارة

---

(١) ديفز « شارلمان » ص ٢٨ •

التالية فى قصيدة لاتينية تعزى الى الكوين « هنا ستقوم السوق العامة ، ومجلس الشيوخ المقدس الذى سيقضى بين الشعب بالعدل ويشرع له القوانين ، وشيد الملك القصر والمسرح ومبانى من الرخام تحيط بالحمامات الساخنة التى عرف فضلها رعايا الامبراطورية السابقة(٢) .

وقد كان قصر الامبراطور رمادى اللون يقع على ربوة عالية ، وامتلأ بالأعمدة ذات الأحجار الارجوانية والاعمدة الخضراء فى شكل يضاهى ما كانت عليه روما ورافنا(٣) .

وان نظرة على الشكل العام للعاصمة ، نجد أن نهر ورم Wurm الصغير ينساب ليكون على جنباته واديا أخضر ، كما أن البحارة والصيادين يأتون بالأسماك من هذا النهر ويغمرون به الأسواق التى تقام على جنباته . وهناك الكنيسة الكبرى للقديس فيتالى St. Vitale التى شيدت وجلبت لها الأعمدة الرخامية والأفاريز والفسيفساء من قصور أرخونات رافنا ، الى جانب كرسى العرش الرخامى الموجود فى البهو المعمد والذى نحت وصمم صغيرا جدا الى درجة أن شارلمان قد حشر أرجله بصعوبة داخله ، كما توجد كنيسة للقديسة مريم لكنها لم تكن فى مساحة القديسة فيتالى فى آخن(٤) .

ويذكر المؤرخون كذلك أن قصر آخن الجديد يقع فى وسط بقعة غنية بالغابات تنتشر فيها أسراب الغزلان وتشقها الجداول التى ترتادها الطيور المائية المختلفة ، ونسمع من أوصافهم أصوات العربات وهى وهى تجلب الكتل الحجرية البيضاء ، ونسمع صوت الأحجار وهى تقطع وتسوى على حين ترتفع الكنيسة شيئا فشيئا حتى تطل قبتها المذهبة على المبانى المنخفضة الممتدة التى يشغلها الملك ، وأفراد أسرته

---

(2) Thompson «The middle ages» p. 478.

(3) Lamb «Charlemagne» p. 183.

(4) Ibid.

العديدون ، وتشرف على الفناء الذى يقع فيه تمثال لثيودريك فى هيئة فارس ، وهو أعظم أسلاف حكام الرومان والجرمان ، وقد نقل التمثال من رافنــا ، وتطل أيضا على حمامات السباحة فى الهواء الطلق التى تحيط بها درج الرخام والتى تستطيع أن تستحم فيــها فى أى وقت واحد شارلمــان ومعه مائة من الرفقاء ، وهناك كثرة موفورة من الذهب تجدهــا فى آنية من الذهب الخالص الموجودة بالكنيسة . وعلى المــائدة الامبراطورية فى أيام الحفلات وفى السلاسل والخواتم الذهبية وفى الذهب المصنوع فى حمائل السيوف ومقابضها(٥) .

ويذكر المؤرخ لامب Lamb أن العاصمة كانت تعج بالناس من جميع الجنسيات ، وكانت الوفود والهدايا تأتى الى شــارلمان . ويخص بالذكر الفيل الذى أرسله الخليفة هارون الرشيد الى شارلمان . والحقيقة أن لامب يذكر ما سطره لنا المؤرخ اينهارد من أن هذا الفيل الذى لقب بأبو العباس وصل الى شارلمــان من ملك الفرس . لكنه أراد أن يمحى جهله بحقيقة هارون الرشيد فقال « ملك الشرق — ما عدا الهند » (٦) .

ويعلق راهب القديس جال على ذلك بقوله « ان اسحق التاجر اليهودى أحضر هذا الفيل من أفريقيــا فى أكتوبر الى ميناءليجوريا Liguria ، وبما أنه لا يستطيع أن يعبر ممرات الألب فى العواصف فقد قضى الشتاء فى Vercellae بايطاليا(٧) .

وقد أرسل هارون الرشيد هدايا أخرى الى شارلمــان عددها لامب وذكر منها الروائح ، والتوابل والبضائع المختلفة الى جانب صينية من

---

(5) Moss «op. cit.» pp. 267 — 268.
(6) Lamb «op. cit.» p. 185 &
Einhard «The life of Charlemagne» p. 41.
(7) The Monk of Saint Gall «The life of Charlemagne» p. 82.

الذهب الخاص وفسطاطا كبيرا أدهش الرهائن السكسون لروعته ومتانته ، وأهم من ذلك الساعة المائية البرونزية التى أذهلت شارلمان لجمالها ودقة مواعيدها ، وانضباط أجراسها(٨) .

وشهد القصر الامبراطورى بآخن مبعوثى الامبراطورة ايرين الذين قدموا من الشرق لعرض مشروع الزواج بينها وبين الامبراطور شارلمان(٩) . والى جانب ذلك فان قصر شارلمان قد اعتبر قبلة للعلماء والأدباء والمؤرخين الذين قدموا اليه من مختلف بقاع أوروبا ليشاركوا فى النهضة العلمية الكبرى ، وليكونوا نواة النهضة الفكرية التى شهدتها أوربا فيما بعد(١٠) .

وقد اعتاد شرلمان ألا يقيم بآخن طول العام ، لكنه كان يتخذ عددا كبيرا من الحواضر ، حتى يستطيع أن يستطلع أحوال مملكته بنفسه ، ويعمل على اظهار حكومته فى كل منطقة من مناطق الامبراطورية ، فكانت له عواصم فى اكيتانيا وبافاريا ، وميلان ، وبافيا ، وفيرونا وغيرهم الكثير .

لذلك فعندما يترك شارلمان آخن ، ويتجه الى احدى هذه العواصم كانت العاصمة الأم تصبح كأنها خراب خالية من سكانها كل شىء فيها صامت ، وعند عودة الامبراطور تدب فيها الحياة مرة أخرى فتزدحم الشوارع ، وبوابات القصر بالمواطنين الذين يقيمون الحوانيت فى الأسواق والأكواخ بجوار التلال العالية ، وكان الحراس يقفون ليمنعوا هؤلاء الناس من الاقتراب من الآثار الدينية المقدسة فى الكاتدرائية الكبرى ومن الاقتراب من مقابر اليهود(١١) .

---

(8) Lam «op. cit.» p. 186.
(9) Ibid.
(10) Oman «The dark ages» p. 379.
(11) Lamb «op. cit.» p. 183.

واذا حاولنا أن ندقق فى الحياة الداخلية داخل قصر آخن ، نجد أن الامبراطور اشتهر ببساطة أهوائه ، واعتبر الأبهة ضرورة متعلقة بالدولة ، ومع ذلك ، فان حياته الخاصة ، وحياة أصدقائه شابها قدر كبير من الخشونة والاستهتار ، فقد اشتهر قصر شارل باستهتار بعض كبار أفراده ، وحفلت الطرق الواقعة بأطراف القصر بشخصيات ذوى سمعة سيئة ، ومن الطبيعى أن تنحط الحفلات والمآدب وتتحول الى عربدة وسكر . وقد ينكر سيد البيت مرح أتباعه ، لكنه لا يجرؤ على منعه ، وتجمعت البيوت المتنافسة ، وتقاتلت فى كل ظرف من الظروف فى سبيل المحافظة على تقليد من التقاليد .

كما خضع شارلمان فى كل مراحل حياته لتأثير النساء ، وكان التأثير أحيانا بريئا ، وأحيانا غير برىء ، وكان شارل ابنا يقدر الواجب عليه وزوجا متيما بزوجته ووالد شديد التهاون مع أبنائه ، ذلك أن نساء القصر كن يصحبنه فى جميع أسفاره ، ويقمن الى جانبه سواء أقام حفلة عيد الميلاد فى المعسكر فى بافيا أو بين مستنقعات وغابات سكسونيا ، وكانت ملكاته يعتبرن وزراء الدولة كان لكلمتين عنده من الوزن ما ليس لكلمة زملائهن من الرجال ، أما بناته فلم يكن على درجة الملكات من النفوذ غير أنهن شاركن أيضا فيما جرى بالابلاط من التآمر(١٢) .

ويذكر المؤرخ موس Moss فى هذا الصدد أن قصر شارلمان كان يسترعى الأنظار ، ففى داخل أسواره يختلط الحجاج والتجار والجند والرهبان والنبلاء العلماء والسيدات المرحات والغلمان الرشقاء ، وعلى الرغم مما قد ينشب بينهم من خلافات فى بعض الأحيان(١٣) .

---

(١٢) ديفز « المرجع السابق » ص ٢١٠ — ٢١٢ .
(13) Moss «op. cit.» p. 269.

ويجول بنا اينهارد ليطلعنا على أن شارلمان تزوج عندما كان مشاركا لأخيه كارل من ابنة دسدريوس ملك اللومبارديين بناء على نصيحة أمه ، ثم عاد وطلقها فى نهاية العام لأسباب غير معلومه ، وتزوج من هيلدجارد Hildegard وهى فتاة من أصل سوابى ، وتنتسب الى عائلة عريقة ، وأنجب شارلمان ثلاثة أبناء ، شارل وبيبين ؛ ولويس ، ومجموعة من الفتيات منهن روترود ، وروديد ثم تزوج من زوجة ثالثة تدعى فاسترادا Fastrada من الفرنجة الشرقيين أنجب منها ابنتان ، ثم أنجب ابنا من احدى محظياته(١٤) .

وما يدعونا الى ذكر هذه الأخبار الشخصية البحتة أن شارلمان كان شخصيا هو مؤسس حضارة الكارولنجيين فقامت هذه الحضارة على شخصة وليس على المجتمع ، فبذلك نرى أن الحياة الخاصة التى كان يعيشها الامبراطور ينعكس من خلالها النظام الاجتماعى السائد فى المجتمع الغالى فى هذه الفترة .

ويروى لنا اينهارد أخبارا أخرى تعكس لنا صورا من أخلاق شارلمان وصفاته ، فيروى أن هذا الامبراطور الذى ذاعت شهرته الشرق والغرب ؛ وشهد بقوته السكسون وغيرهم من العناصر الجرمانية ، كان يحمل بين جنباته قلبا يفيض حنانا ، فكان يفقد اتزانه وصلابته فى مواقف السوء خاصة عندما فقد ابنه بيبن فكان يجهش بالبكاء على رحيله ؛ وأصابه نفس الشعور عند وفاة البابا هادريان الذى أحبه كثيرا ؛ فبكى عليه كأنما قد فقد أحد اخوته أو ابنا عزيزا عليه . وكان شارلمان سريعا فى عقد الصداقات ، ومن عادته أنه كان دبلوماسيا فى معاملة أبنائه وبناته الى درجة أنه لم يتناول طعاما قط دونهم أثناء تواجده فى القصر ، ولم يخرج برحلة من الرحلات دونهم ، ومن عاداتهم الاجتماعية أن الأبناء يركبون الى جواره يتبعهم البنات ، ويقوم

---

(14) Einhard «op. cit.» pp. 45 — 46.

على حراستهم بعض الحراس[١٥] .

ومن أخلاق شارلمـــان أنه عرف بالتروى والتفكير الذى يعالج بهما خططه الكبيرة ، فضلا عن العزم الذى يبديه فى تنفيذها ، وما زال مشهورا بقوة الاقناع اذا طلب منه النصيحة ، وبالحكمة الخالصة التى يبذلها لمن يطلبها فى اخلاص ودقة[١٦] .

ويصف لنا اينهارد ملابس شارلمـــان وهى تعطينا صورة عن نوعيه الملابس التى سادت بين الفرنجة ، يقول « اعتاد شارلمـــان أن يلبس الملابس القومية وهى ملابس الفرنجة فيلبس قميصا وسروالا قصيرا وفوقهم سترة ، وكلهم مصنوعين من الكتان ويشد عليهما عند الوسط حزاما يضع فيه سيفه ويلبس حذاءا طويل الرقبة ، وعلى أكتافه وصدره فى الشتاء يلبس سترة محكمة من جلد الثعلب ، وفوق هذه الملابس كان يضع عباءة زرقاء ، وأحيانا يحمل سـيفا مرصـــعا كان يستخدمه فى المناسبات الرسمية والأعياد العامة وعند استقبال سفراء الدول الأجنبية .

وكان شارلمـــان يكره الملابس الأجنبية مهما كانت جميـــلة ولم يلبسها فى حياته الا مرتين فى روما ارتدى فيهما السترة الرومانية والعباءة والأحذية . كانت الأولى بناء على طلب البابا هادريان والثانية استجابة لدعوة خليفته البابا ليو .

وفى أيام الأعياد كان يلبس الملابس المطرزة ، والأحذية المرصعة بالأحجار الكريمة ، وكانت عباءته تثبت برباط مذهب ، وكان يظهر متوجا بتاج مرصع بالذهب والجوهر ؛ وفى الأيام العادية كان يلبس ملابس الفرنجة التقليدية[١٧] .

---

(15) Ibid.

(١٦) دينز « المرجع السابق » ص ٢٠٦ .

(17) Einhard «op. cit.» pp. 51 — 52.

واتبع شارلمان فى تربية أولاده نفس عادات الفرنجة ، فعندما يشب الصبى عن طوقه يعلمه الفروسية وفنون الحرب والصيد والقنص أما الفتيات فكن يدربن على حياكة الملابس والغزل اليدوى حتى لا ينشأن كسالى ، وكان يقوى فيهن روح الفضيلة والمروءة والاحسان[١٨] . كما اشتهر شارلمان بالاعتدال فى تناول الطعام والشراب وكان اعتداله أكثر فى موضوع الشراب ، فقد اشتدت كراهيته لأى انسان يدمن الشراب ، أما الطعام فتهافته عليه لا يضارعه الا كراهيته للشراب ، وطالما اشتكى بأن الصيام يضر بصحته . وفى وجبة العشاء لا يجرى تقديم أكثر من أربعة أصناف فضلا عن لحم الصيد الذى يعده له الصيادون مشويا . وآثر شارل هذا النوع على سائر أنواع الطعام ودرج أثناء الطعام على سماع القراءات والموسيقى . وموضوعات القراءة كانت تشمل قصص القدماء وأخبارهم ، وكان مولعا كذلك بكتب القديس أوغسطين خاصة كتاب « مدينة الله » ، ولم يسمح لنفسه أثناء الطعام بأكثر من ثلاث أقداح من النبيذ ، وفى الصيف كان يتناوله بعد طعام الغذاء ، ويأكل بعض الفواكه ، ويخلع ملابسه وأحذيته فى المساء ، ويرتاح لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات الى جانب اعتياده على الاستيقاظ أربع أو خمس مرات أثناء النوم[١٩] .

حياة الفرنجة الاجتماعية

داخل المدينة

قبل أن ندخل فى تفاصيل حياة الفرنجة الاجتماعية داخل المدينة ، نرى أن الامبراطورية الكارولنجية ضمت بين جنباتها عناصر جرمانية ورومانية مختلفة ، وكل عنصر من هذه العناصر حاول أن يحيا الحياة الاجتماعية التى نشأ عليها وتعارف عليها بين قومه ومما يدل على أن

---

(18) Ibid, p. 47.
(19) Ibid, p. 47.

هناك اختلافا فى التشريعات الاجتماعية والعادات والثقافات ما ذكره اجوبارد الليونى الذى كان يدافع عن ضرورة وحدة النظام القانونى والاجتماعى فى امبراطورية الفرنجة ، يقول « لو أن خمسة رجال يجلسون أو يمشون معا ، لما كان لأحدهم من القانون ما لزميله ورفيقه »[٢٠] .

لكن الحقيقة التى عاشتها المملكة الكارولنجية أن المدن الرومانية القديمة أخذت فى الاندثار نتيجة للأخطار والحروب الطاحنة التى تعرضت لها الامبراطورية مما دفع سكان المدن الى طلب الحماية من السادة الكبار — فأدى ذلك الى نشأة النظام الاقطاعى — كما سنرى — فأصبح المجتمع فى أوربا فى العصور الوسطى وغالة بوجه خاص يعتمد اعتمادا كبيرا على الأرض ، لذلك تقلصت أهمية المدن وقلت مساحتها . واذا كانت بعضها قد احتفظت بشىء من الأهمية فى العصور المظلمة ، فمرجع ذلك أنها أصبحت مراكز أسقفية ، وبعبارة أخرى ، فان أهميتها أصبحت تنحصر فى الدور الذى قامت به فى التنظيم الكنسى ، بعد أن فقدت مكانتها فى التنظيم الادارى . أما أهالى المدن الرومانية القديمة فقد أصبحوا أقنانا وأن استمر كثير منهم يعملون كصناع وخاصة فى الأديرة ، وهكذا لم تعد المدينة الرومانية التى قدر لها البقاء تحت نفوذ رجال الدين أكثر من مركز دينى لا تمتلك من آثار النشاط التجارى أو الصناعى الا القدر الذى يكفى حاجة المؤسسات الدينية ورجال الدين وأتباعهم[٢١] .

ومن الثابت أن الاقتصاد الأوربى اتخذ طابعا زراعيا بحتا منذ نهاية القرن الثامن ، فأصبحت الأرض هى المصدر الرئيسى للثروة واعتمدت جميع الطبقات فى المجتمع على ما تدره الأرض من خيرات ،

---

(20) Moss «op. cit.» p. 286.

(٢١) سعيد عاشور « النظم والحضارة » ص ٩٢ .

وبذلك قــل النشــاط التجــارى ، وأصبحت الأرض وحدهــا هى الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى أوربا • أما النشــاط التجارى الذى وجد فى أوربا بين القرنين الثامن والعاشر ، فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من جهة والعلاقات التجارية بين بعض المدن الايطالية والدولة البيزنطية من جهة ثانية ، ثم على النشاط التجارى الذى قام به الفيكنج فى بحر الشمال والبحر البلطى وســهول روســيا من جهة ثالثة • وربما ساعد على انحطاط التجارة فى هذه الفترة موقف الكنيســة نفسها التى ظلت تنظر الى الكسب التجارى على أنه غير حلال ، وأن الأرض الزراعية وحدها هى المورد الطيب الذى يمكن أن يعيش عليه الانسان(٢٢) لذلك فان مدن الفرنجة كانت مدنا صغيرة ليست لها أهمية ولم يكن عدد السكان بها كبيرا فمثلا باريس التى تعتبر أهم مدينة فى نوستريا لم تزد مساحتها على المساحة الصغيرة التى يشغلها ما هو معروف فى باريس باسم Ile dè La Citè وطغى عليــها ما يقع على الضفة الغربية من النهر من ضــيعة الملك والحدائق ، وفى آخن وانجوليم كان البلاط هو كل شىء ، ولم يجر ذكر البلد الا على أنه من ضياعه ومخصصاته أما أهمية لاؤن وسواسون فانها ترجع الى أسقفيتهما • وفى أماكن أخرى كان للكونتات كما هو معروف من المرســومات من حرية التصرف ما يجعلهم يعتبرون المدن الصغيرة ملكا خاصا لهم ، ويعتبرون أهل المدينة أتباعا لهم(٢٣) ، ولذا لم يكن للمدينة الصغيرة أهمية •

وقد كانت الحياة داخل المدن خليطا عجيبا من الحياة البربرية القوية والحضارة القديمة الزاوية • كما أن المدينة لم تعد مركزا تجاريا أو موطنا اقتصاديا للقرى المجاورة لها ، ولم يكن لسكانها طابع سكان

---

(٢٢) المرجع السابق ص ٩٣ •
(٢٣) ديفز « شارلمان » ص ٣٣ •

المدن الذى كان معروفا زمن الميروفنجيين ؛ ولم تعد للمدينة أهمية عند المجتمع العلمانى الذى عاش حول ادارة الضياع ، وليس ثمة من الأدلة ما يشير الى أن الدولة التى قامت على أساس زراعى توافر لديها من الدواعى ما يجعلها تهتم بمصير المدن • ومن الملحوظ أن قصور الكارولنجيين لم تقم بالمدن ، انما قامت بلا استثناء فى الريف فى ضياع الأسرة فى هرستال وميرش وفى وادى نهر الميز وفى أنجلهيم وفى وادى نهر الراين وفى أتيجنى فى وادى السين أما شهرة آخن فينبغى ألا تضللنا عن طبيعة موقعها اذ أن تألق مجدها زمن شارلمان انما يرجع الى ما واتاها من الحظ ، بل كانت المقر الأثير عند الامبراطور شارلمان ، ولذا فان أهميتها لم تلبث أن تداعت بعد حكم لويس التقى ، ولم تسترد مكانتها الا بعد أربعة قرون[٢٤] •

ولم تستطع الحكومة بمباشرة سلطتها الادارية أن تسهم فى استمرار بقاء المدن الرومانية ، فالأقاليم التى تألفت منها الوحدات السياسية للامبراطورية الكارولنجية لم يكن لها حواضر « عواصم » ولم يكن للامبراطورية ذاتها عاصمة ، فالكونتات الذين تولوا الاشراف على هذه الأقاليم لم يقيموا فى منطقة معينة بل دأبوا على الطواف بأنحاء الأقاليم ، فتولوا رئاسة المجالس القضائية المحاكم ، وجمع الضرائب وحشد العساكر فكل مكان يحلون به يعتبر مقرا لهم ، ونظرا لأن هؤلاء الكونتات كانوا يختارون من كبار ملاك الاقليم أقاموا بمزارعهم فى قلاعهم التى كانت أشبه بقصور الأباطرة[٢٥] •

وفى داخل هذه المدن الصغيرة اتجه الناس الى الارتباط سويا على هيئة نقابات ، وهذه النقابات لم ترض عنها الحكومة مع أنها لم تكن

---

(24) Pirenne «Medieval Cities, their origin and the revival of trade» pp. 43 — 44.

(25) Adelson, Medieval Commerce, p. 104.

الا جماعة الغرض منها التأمين الجماعى ضد الحريق واللصوص وتحطم السفن بالبحار ومنها ما تألف لمد يد المعونة والاحسان للفقراء والأرامل واليتامى . وكثير منها تغلب عليه صفة اقامة الحفلات والمآدب ، وجرت القاعدة بأن يكون لكل نقابة راع من القديسين يحتفل أفرادها بعيده بما يقيمونه من المراسيم والشعائر التى تعتبر غريبة ولا تمت للمسيحية بسبب ولا تدعو الى اصلاح روحى . ولهذه النقابات أهمية بما أدخلته فى الحياة الاجتماعية من التنوع وما جعلت لها من صفة خاصة[٢٦] .

وقد ظهرت المدن الدينية فى العصر الكارولنجى وأصبحت لها أهمية تفوق أهمية المدن السياسية . فعلى الرغم من أن المدن فقدت وظيفتها فيما يتعلق بالادارة المدنية ، فلا زالت تعتبر مركز الادارة الدينية . فكل أبروشية اشتملت على القرى الواقعة حول المدينة التى تقع بهـا الكاتدرائية ، فظلت على اتصال مستمر بها[٢٧] .

وكان سكان مثل هذه المدن من رجال الدين بالكاتدرائية والكنائس القريبة منهـا ومن الرهبان بالأديرة التى تكاثرت فى داخل حـدود الأبروشية بعد القرن التاسع ، ومن المعلمين والتلاميذ بالمدارس الكنسية ثم الخدام والعمال سواء كانوا أحرارا أو أقنانا الذين لا غنى عنهم لسد حاجات المجتمع الدينى وللحياة اليومية فى المجتمع الاكليروسى .

وجرت العادة بأن ينعقد بكل مدينة سوق أسبوعية يحمل اليهـا الفلاحون من الجهات المجاورة ما لديهم من منتجات ، وفى بعض الأحوال تنعقد بها سوق سنوية ، وعلى أبواب المدينة يجرى تحصيل العوائد التى يؤديها كل من يدخل الى المدينة أو يخرج منها ، ويقوم أيضا بداخل الأسوار دار للضرب ، وبعض الأبراج التى ينزل بها أتباع الأسقف وقائده والقسطلان « نائبه » يضاف الى كل هذا الأجران المخازن التى

---

(٢٦) ديفز « شارلمان » ص ٣٣ .
(٢٧) العرينى « الحضارة والنظم الأوربية » ص ١٥٠ .

يحمل اليها المستأجرون والفلاحون فى أوقات معينة المحصولات من ضياع الدير وفى الأعياد السنوية يهرع الى المدينة سكان الأبروشية فيزداد بها النشاط ويكثر الضجيج بضعة أيام(٢٨) .

وهناك الى جانب هذه المدن الأسقفية مدن عسكرية مسورة ، قد احتفظت هذه المدن زمن شارلمان بالشكل الذى كان زمن قنسطنطين . والقاعدة العامة أن المدن اتخذت شكل مربع أو مستطيل يحيط به أسوار تتحكم فيها أبراج وتتصل بالخارج بأبواب يبلغ عددها أربعة فى معظم الأحوال . أما المساحة المحصورة داخل الأسوار فكانت محدودة ولا يتجاوز طول أضلاعها ٤٠٠ ــ ٥٠٠ ياردة ولم يشغل البناء كل هذه المساحة فيقع بين المساكن ساحات وحدائق . أما الربض الذى امتد زمن الميروفنجيين خارج السور فقد اختفى ، والواضح أنه عند حدوث غارة من الغارات يهرع الى المدينة سكان الجهات المجاورة(٢٩) .

الحياة الاجتماعية فى الريف :

أخذ المجتمع فى الريف يتركز حول كبار الملاك وبرز فى داخل الضيعة الزراعية ثلاث طبقات طبقة رجال الدين ، وطبقة الفرسان المحاربين ــ والفلاحين الأقنان(٣٠) .

تمتع رجال الدين فى داخل الضيعة بمكانة سامية الأمر الذى أحاط أشخاصهم وممتلكاتهم بمسحة من القدسية ، لذلك كانت معظم المنح التى أنعم بها ملوك الجرمان من نصيب الأسقفيات الكبيرة ، ثم الأديرة العظيمة فيما بعد حتى يكتسب هؤلاء الملوك تأييد رجال الدين وعطفهم(٣١) .

---

(٢٨) العرينى « المرجع السابق » ص ١٥٢ .
(٢٩) المرجع السابق ص ١٥٣ .
(30) Stephenson «Medieval Leudalism» p. 45.
(٣١) سعيد عاشور « النظم والحضارة » ص ٤٨ .

وقد حصلت الكنائس والأديرة فى داخل هذا المجتمع على اعفاءات كثيرة ، وامتلكت لذلك أجزاء كبيرة من الأرض حتى أصبحت بذلك دولة داخل الدولة • واما عن حياة رجال الدين الخاصة سـواء فى الكنائس والأديرة فيعبر عنها القديس بونيفاس اذ نعتهم بأنهم ليسوا الا جباة ضرائب ودعاة دعارة ، وينعى عليهم بأنهم يمارسون الصـيد واللعب بالصقور ولا يمنعهم اليمين من أن يلعبوا القمار شأنهم فى ذلك شـأن أحط العلمانيين وأحقرهم • ولم يكن مرءوسوهم أقل حظا منهم • وصار من المحتم منع القس من الاحتفاظ بأكثر من زوجة ومن أن يجوبوا البلاد ومن أن يترددوا على الحانات والأماكن ذات السـمعة السـيئة • أما الرهبان فصاروا يتخذون من النعوت ما يلائم الأحوال فتارة يعتبرون أنفسهم علمانيين ، وتارة يجعلون أنفسهم من رجال الدين ، وفى كلتـا الحالتين لا يلتزمون بقاعدة أى الطائفتين • واشتهرت الكنائس ، بمـا يحدث بها من سوء الخدمة • اذ تسبب عن الاهمال والجهل أن فسدت الشعائر فلا تؤدى بها الطقوس والشعائر بانتظام[٣٢] •

ونتيجة لأن الكنيسة كان لها اقطاعات من الأرض فقد أصـبحت صورة من الدولة الاقطاعية بها سادة وأتباعا • والمعروف أن التبعيـة أساسا تعنى الخدمة الحربية والمشاركة فى القتال • والدليـل على ذلك أنشودة رولان وهى الملحمة التى كتبها قسيس نورمانى تصور عودة جيش شارلمان منهزما من حرب المسلمين فى أسبانيا ، وفيها لقى رئيس الأساقفة تبريين مصرعه ، وفيها دلالة على اشـتراك رجال الدين فى الحروب كأتباع لسادة كبار •

فلا بد اذا أن هؤلاء كانوا يدخلون الحرب على هيئة فرسـان : وينطبق عليهم كل أحوال الفرسان المحاربين •

---

(٣٢) ديفز « شارلمان » ص ٤٠ •

والطبقة الثانية فى المجتمع الفرنجى كانت تتمثـل فى الفارس المحارب • فقد ارتبطت حياة أبناء الطبقة الاقطاعية بالاعداد للقتـال وممارستهم الحرب ، ونظرا للاعتقاد بأن والدى النبيل الصغير لا سيما أمه يسرفان فى تدليل الابن — جرت العادة بأنه متى بلغ السـابعة أو الثامنة من عمره تقرر ارساله بعيدا عنهما ، كيما ينشأ ويتربى فى دار أمير اقطاعى آخر هو فى معظم الأحوال السيد الاقطاعى للأب أو أقرب الناس اليه • فيتعلم الصبى منذئذ الاهتمام بأدوات الحرب الدروع — وخيول الحرب ويتدرب عليها فيمارس من الحياة الخشنة ما يعتبر خير وسيلة لاعداده لحياته المقبلة باعتباره فارسا ، فاذا ثبت أنه أضـحى مستعدا الأن يتخذ موضعه فى المعركة ويجرى ذلك عادة حين يبلغ العشرين أو الحادية والعشرين من عمره تقرر تقليده بأسلحته فى احتفال مهيب بأن يركع أمام فارس مجرب ويتلقى ضربة من صفحة السـيف وكانت هذه الضربة فى الأيام الغابرة فيما يبدو بالغة العنف المقصود منها قهره اذا وجد الى ذلك سبيلا ثم أضحت فيما بعد ضربة رمزية حقيقة تقع على الكتف ، وهذا الاجراء هو المعروف بتنصيب الفارس ومتى تقلد الشاب سلاحه وتلقى الضربة أضحى فارسا كاملا ، وليس فى استطاعة الملك أن يتولى الحكم وليس فى وسع ورثيه أن يباشر اقطاعه ما لم يتـم تنصيبه فارسا • لأن ذلك يعتبر دليلا على بلوغ سن الرشد(٣٣) •

والفارس ينبغى أن يكون شجاعا الى درجة المجازفة والتهور ويقاتل وفقا لقواعد خاصة دون أن يلجأ الى الخديعة والأساليب الخسـيسة للتغلب على خصمه ، هذا بالاضافة الى ما يجب أن يتحلى به الفـارس من وفاء لأصدقائه وتبجيل للمرأة واحترام للعهد(٣٤) •

---

(33) Stephenson «Feudalism» p. 45.

(٣٤) سعيد عاشور « النظم والحضارة » ص ٦٤ .

أما الطبقة الثالثة فهى طبقة الفلاحين الأرقاء الذين كانوا يمثلون أكثر عناصر السكان وأحطها قدرا فى أوربا العصور الوسطى • ومع أن أفراد هذه الطبقة تشابهوا الى حد كبير فى ظروفهم وأحوالهم الا أنهم تفاوتوا الى درجة ما فى أصولهم وفى مدى الحرية التى تمتعوا بها(٣٥) •

وقد كان القن يعيش على قطعة من الأرض عبارة عن حصص صغيرة مبعثرة يمنحها اياه سيده اللورد صاحب الدومين ، وهو مرتبط بهذه الأرض ارتباطا وثيقا بموجب واجبات التبعية التى لا تعرف حدا • اذ جرت العادة أن يتقدم التابع بين يدى السيد المتبوع يمين الطاعة والتبعية ، ثم يؤدى بعد ذلك يمين الولاء والاخلاص وذلك فى احتفال واحد ذى شقين ، يبدأ الشق الأول بأن يركع التابع أمام سيده واضعا يده فى يده معتبرا نفسه رجله متعهدا بالدفاع عنه ضد الجميع فى الحياة وحتى الموت • بعد ذلك يقول السيد أنه قبل فلان تابعا له • وبعد هذه الاجراءات يؤدى التابع يمين الولاء والاخلاص ، وهى أن يحلف على الكتب المقدسة والذخائر الدينية بما يؤكد العهد الذى قطعه على نفسه • ولم تكن هناك بطبيعة الحال صيغة معينة لهذا القسم ، وان كان لا يخرج فى جملته ومضمونه عما ذكرناه •

وكانت اجراءات التبعية معروفة عند الفرنجة ، ولعلها كانت أقدم من ذلك • ويبدو أن الاحتفال كان فى جوهره خاضعا للتقاليد الوثنية القديمة الخاصة بالعناصر الجرمانية المتبربرة التى تقضى بدخول الفرد تحت رئاسة زعيم القبيلة أو العشيرة ، أما يمين الولاء والاخلاص فقد استحدث نتيجة التأثير المسيحى ومع ذلك لم يكن هذا اليمين وحده كافيا لايجاد رابطة التبعية • اذ نعرف أنه كان يطلب الرعايا الأحرار فى عهد

---

(٣٥) عاشور « المرجع السابق » ص ٧٢ .

الكارولنجيين ، كما كان الحال فى عصر متأخر أداء يمين الولاء للحاكم حتى ولو لم يكونوا أتباعا له • ونخلص من هذا أن يمين الولاء بمفرده لا يعنى التبعية ، فى حين أن المبايعة والتبعية كانتا تدلان ضمنا على الولاء والاخلاص للسيد المتبوع(٣٦) •

الملبس :

سبق أن أعطينا صورة للملابس التى كان يرتديها الامبراطور شارلمان كممثل لامبراطورية الفرنجة ، وهى تعكس لنا صورة الملابس التى كان يرتديها كبار الشخصيات فى مجتمع الفرنجة فى العصور الوسطى ، واستكمالا للصورة رأيت أن أركز على الملابس التى كان يرتديها الفارس المحارب فى هذا المجتمع •

كان النبلاء والفرسان يرتدون عادة القميص والجوارب الطويلة • الأول عبارة عن صدار يربطه حزام من الوسط ، والثانية أشبه شىء بسراويل مشددة على الساقين والفخذين باحكام • وأحيانا فى حالات البرد أو الاحتفالات يرتدى الرجل معطفا يربط من أعلاه حول الرقبة أو حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق مقبض السيف • وكان الرجال يقصرون شعور رءوسهم ويحلقون ذقونهم • أما المرأة فكانت ترتدى ثوبا بسيطا يمتد من أعلى الرقبة حتى الأرض وتربط شعرها بعصابة بعد تصفيفه ، وكثيرا ما كان الرجال والنساء يلبسون عباءة فى الشتاء يطوى طرفيها الأعلى فوق الرأس للوقاية من شدة البرد • ومن هذا يبدو أن ملابس طبقة المحاربين — حتى الأغنياء منهم كانت بسيطة(٣٧) •

« أما رداء الحرب فكان أيضا بعيدا عن التقيد والتأنق ، فالفارس يكسو الجزء الأسفل من ساقيه بأربطة من القماش أو الجلد تمتد من الركبة الى أسفل الساق لتقوم مقام الجرموق « الألشين » فى الأزمنة

---

(36) Stephenson «op. cit.» p. 18 — 19.

(٣٧) عاشور « المرجع السابق » ص ٦٦ .

الحديثة أما الجزء الأعلى من جسم الفــارس فكانت تكسوه صــورة مزردة تتألف من حلقات متداخلة منزا لمعدن ، ويراعى فى هذه الصورة أن تكون مشقوقة طوليا من أسفلها حتى لا تعوق الفارس عن امتطــاء فرسه ، وأخيرا كان يلبس الفارس على رأسه خوذة حديدية مخروطة الشكل عندمقدمهاالى أسفل ليحمى أنف الفارس، هذا كله عدا الدرع الذى يحمله الفارس فى ذراعه الأيسر وهو مستطيل الشكل يبلغ طوله أربعة أقدام تقريبا(٣٨) •

أما ملابس الفلاح فكانت عبارة عن عباءة قصــيرة تربط بدبوس أو مشبك ، أما بقية جسمه فيترك عاريا(٣٩) •

المســكن :

ذكرنا سابقا وصفا لحياة الامبراطور فى القصر ، وكيفية الاهتمام ببناء القصور ، وكيف كانت تشيد فى المدن والضياع •

لذلك نجد أن النبلاء والفرسان اهتموا اهتماما كبيرا بتشييد منازلهم، وبدأوا يحاكون الكونتات ورجال القصر ، فى أسلوب حياتهم ، وقــد اشتهرت منازل هذه الطبقة من المجتمع باسم الدوار «Manor, house» وكان هذا الدوار مشيد من جذوع الأشجار أو الحجارة ، ويقــع فى منتصف مجموعة من المساكن أو بالقرب منها • وأحيانا نجد مجموعة كبيرة من هذا الدوار فى القرية • وكان الدوار متميزا فى وسط الأكواخ المحيطة به والتى يسكنهاا لفلاحون ولا يرجع ذلك لجمال بنائها فقط ، ولكن لأنها صممت خصيصا لتكون قلعة دفاعية • وذلك لأن الاغنيــاء والنبلاء كانوا يعملون دائما على حماية السكان من الهجمات كمــا كان

---

(٣٨) المرجع السابق ص ٦٧ •

(39) Marc-Block, Feudal Society, Vol. II. p. 302.

فى المـــاضى وشهد على ذلك الضياع المحصنة والتى يدل مظهرهـــا على أنه من القرن الرابع فصاعدا! بدأ انحســـار السلام الرومانى نهائيا ، وحلت محله الحروب المستمرة ، واستمرت هذه الظاهرة فى عصر الفرنجـــة ، ولكن كانت هناك بعض المبانى التى يسكنها الأغنياء الى جانب القصور الملكية لا تتبع نفس التقليـــد الدفاعى فى البناء . وظلت هكذا حتى توالت هجمات الفيكنج على البلاد فبدأوا فى اعادة بناء التحصينات فى كل منزل وبناء داخل الضيعة الزراعية(٤٠) .

وفى داخل هذا الدوار توجـــد القاعـــة الكبيرة ، التى اتصفت بالجمال والراحة فيها الشموع للاضاءة والمواقد المكشوفة للتدفئة وعلى حيطانها علقت بعض الأسلحة والأعلام ونحوها فى حين فرشت أرضها بالحصر ، وفى هذه القاعة كان يجلس السيد الاقطاعى ليتقبل التبعية والخضوع من أفصاله أو ليعقد معهم مجلسا قضائيا أو غير قضائى(٤١) وكان الدوار يمثل مظاهر الترف والثراء وتحيط به حديقة مسورة بها أشجار الفاكهة وخلايا النحل والمخازن التى يخزن فيها انتاج الضيعة فضلا عن الآلات والعربات والعدد المستخدمة فى فلاحة أراضيها .

أما الفلاحون ، فكانوا يعيشون فى أكواخ من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقوفها وأرضها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ وتميزت هذه الأكواخ بالقذارة وحقارة أثاثها الذى تألف من سرير عبارة عن صندوق خشبى عليه وسادة محشوة بالقش وأوراق الأشجار الجافة ومنضدة صغيرة ، وبعض المقاعد الخشبية ذات ثلاثة الأرجل وصندوق وقليل من الآنية الحديدية والفخارية ولم تستخدم أية وسيلة لاضاءة هذه الأكواخ لأن الشموع اقتصر استعمالها على الكنائس ودوار صاحب الضيعة وقد كان الفلاح هو الذى يبنى دوره ويضع أثاثه(٤٢) .

(40) Marc-Block, «op. cit.» p. 300.

(٤١) زيادة : « الاقطاع والعصور الوسطى » ص ٣٢ — ٣٣ .

(٤٢) عاشور « المرجع السابق » ص ٧٧ .

الطاعون الذى يجلب للذعر والخوف والاضطراب فى أرجاء البلاد . وقد قام شارلمان باستدعاء جميع معاونيه وطلب منهم جميعا أن يكونوا على أهبة الاستعداد لحين الحاجة اليهم . وقد تعرض هؤلاء لكثير من الصعاب وعندما بدأت تصلهم الأوامر بالاستعداد من أبراج القتال ، أخذوا حذرهم . حتى ان شارلمان كان يأمر الكونتات وحكام الأقاليم بتنفيذ تعليماته ورغم ذلك فان المجاعة ظلت مستمرة ، ولم تتمكن جميع هذه الفرق من جمع المؤونة والطعام اللازمين لوقفها .

لذلك فقد قاموا بجمع الأسماك التى قامت سفن الصيادين الفريزيان بصيدها من أعالى الراين ، كما قاموا بتجهيز فرق مسلحة لحراسة مخازن القمح ، وحظائر المواشى . وقاموا بتوزيع المؤن على الأهالى . فأعطوا كل مائة من الرجال كمية من الطعام تكفى لقريتهم . وقام أهالى القرى بالاستغاثة والصراخ حول هذه الفرق يقولون : ان البلاء على الأبواب ،، وبدأوا فى التجمهر ، واتجهوا الى الكنائس للصلاة والاستغاثة ، وقاموا بحمل المياه الى المزارع . فما كان من المبعوثين الملكيين الا أن قاموا بالتفتيش حتى يمنعوا الناس من تخزين كميات من المؤن تزيد عن حاجتهم ، وقاموا بالاستيلاء على كثير من الكميات الزائدة ووزعوها على الأهالى الذين لا يجدون شيئا ، لكنهم لم يتمكنوا من القيام بمهمتهم لتسابق الناس عليهم ، لخوفهم من استمرار المجاعة مع عدم الحصول على المؤنة(٤٥) .

وقد أصدر شارلمان بعض القرارات من أجل حل هذه المشاكل منها عدم بيع القمح بأعلى من السعر المقرر ، وألا تصدر أى نوع من البضائع اللازمة للشعب ، كما هدد الملاك الذين لا يقدمون المعدات للجيوش بأن يسلبهم اقطاعاتهم (٤٦) .

---

(45) Lamb «op. cit.» p. 201.
(46) Ibid, p. 204.

انتشر وباء الطاعون عقب هذه المجاعة فى كثير من القرى ، مما دفع شارلمان الى التجول فى أرجاء البلاد ، حتى يطمئن على أحوال الناس ، فكان يجوبها من أعالى الميز والراين مصطحبا عائلته ، وبصحبته جوقة الغناء ، تطلب من الله تعالى الرحمة ورفع البلاء ، لأنهم يعتقدون أن هذه المحنة ما هى الا غضب من الله ، فكان شارلمان يعرف أنه مطالب برفع العناء عن كاهل الناس ، وكان يطلب منهم عدم الخوف لأن الخوف يؤدى الى التواكل وأن يعملوا من أجل رفع البلاء ، وكان يذكرهم بقصة مدينة بيت المقدس وكيف قاست وتحملت ، ويبين لهم وضعها الدينى .

وعند الشتاء بدأ البلاء فى الانحسار ، وانتظمت البلاد وتنوقلت الأخبار بأن الأحوال بدأت فى التحسن فى نهاية العام ، وان الملك عقد هدنة مع مسلمى أسبانيا ، فبدأ التجار يتجهون الى الجنوب وجلبوا البضائع ، وعم الرخاء(٤٧) .

ويحدثنا المؤرخ جيرالد سيمونس عن أن شارلمان عندما أحس بقرب انتهاء حياته وبوطأة المرض عليه لم يجزع لذلك ، رغم أنه كان فى ظروف نفسية سيئة فقد تعرضت بلاده مرة أخرى لمجاعة عام ٨٠٩ م ، ثم توفى ابنه بيبن سنة ٨١٠ ، وابنه الثانى شارل سنة ٨١١ ، الى جانب المساومات المستمرة مع الدولة البيزنطية من أجل الاعتراف باللقب الامبراطورى والغارات المستمرة التى كان يشنها الفيكنج ، كل ذلك كان من الممكن أن يؤدى الى انهيار روحه المعنوية ، لكنه صمد وجابه الظروف بشجاعة(٤٨) .

---

(47) Ibid, p. 207.

(48) Gerald Simons «The Birth of Europe», p. 112.

الفصل الرابع

* الحيـاة الثقافيـة فى الامبراطورية الكارولنجية على عهـد شارلمـان .
* مؤسسو الحركة العلمية فى عصر شارلمـان .
« الكوين ، ومدرسة القصر والعلوم السائدة بها » .
اينهارد ــ ثيودولف ــ انجلبرت .
* المدارس الاقليمية .
* أ ــ الأدب ب ــ النثر .

« التاريخ ــ الحوليات ــ الكتابات اللاهوتيـة ــ الكتـابة وتطورهـا ــ نسخ المخطوطات ــ حركة الاحياء للدراسات القديمة » .

ب ــ الشـعر .

« الرومانى الكلاسيكى ــ أغانى المآثر ــ الملاحم » .

* المكتبات .
* العلوم العلميـة .

الفصـــل الرابـــع

الحياة الثقافية فى الامبراطورية الكارولنجية

على عهـــد شارلمـــان

يعتبر المجال الثقافى فى النهضة الكارولنجية من أهم المجالات التى يستطيع الباحث أن يجول فيها وأن يشبع منهـــا جميع رغبات البحث والتقصى ، كما يتمكن من الحصول على نتائج ايجابية ، تثبت أن عصر شارلمـــان هو العصر الذى سطع فيه نجم التعليم ، وظهرت فيه حركة الاحياء الكبرى للدراسات اللاتينية التى اعتراها الفتور فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن .

كان شارلمـــان شخصيا هو الباعث الأول على حركة الاحياء العلمى فقد كان لميوله العلمية ، وارتباطه بالكنيسة والفكر الدينى ، الأثر المباشر وراء هذه الحركة العلمية الكبرى . فكما يقول مؤرخ القديس دنيس « ان شارلمـــان كان حصيفا فى الحديث حتى ليخيل للناس أنه حبر كبير أو أستاذ عظيم »[1] كما كان شارلمـــان شغوفا بالقراءة والخطابة ويستطيع أن يعبر عن جميع الخواطر التى تدور فى خلده بفصـــاحة ووضوح ولم تكن قدراته اللغوية منحصرة فى اتقانه لغته الجرمانية فقط ، لكنه كان محبا للغات الأجنبية على الخصوص اللغة اللاتينية التى كان يجيد التحدث بها مثـــلما يتحدث بلغته القوميـــة . وكان يحسن فهم اليونانية ولكنه لا يجيد التحدث بها بنفس القوة ، وكان يجلس الى الأساتذة ليتعلم منهم النحو والبلاغة[2] .

ولابد قبل أن ندخل فى تفاصيل الدور الذى قـــام به شارلمـــان

---

(1) Thompson «op. cit.» p. 489.
(2) Einhard «op. cit.» p. 53.

لاحياء العلم فى مملكته لابد أن نقدر الصعاب التى واجهته قبل أن يبدأ برنامجه التعليمى .

ففى القرن الثامن كانت أحوال الغرب الثقافية تدعو للأسى فقد تعرضت البلاد لحروب وغارات مما أدى الى ضياع أعداد كبيرة من المخطوطات القديمة ، والمؤلفات الكلاسيكية . وكانت هناك عقبة أخرى تقف أمام العـلم من أهمها اللغة ، حيث كانت هناك مجموعات مختلفة من اللغات واللهجات ، كما أن شارلمـان نفسه نشأ فى بيئة غير رومانية وكان يتكلم لغة جرمانية وهى التى يتحدث بها الفرنجة الشرقيون أما الفرنجة الغربيين فكانوا يتكلمون اللاتينية القديمة ، فكان عليه أن يتعلم هذه اللغة حتى يفهم اخوانه من الفرنجة الغربيين . وكانت اللاتينية صعبة التعلم لأنه قد قل استخدامها وتحتاج الى دراسـة مركزة ، اما اللاتينية الحديثة فقد انشقت منها اللغات القومية كالفرنسية والايطالية والبرتغالية وغيرها(٣) .

أما الآن فلابد أن نعرف أصول الحركة الثقافية التى تميزت بها هذه الفترة من تاريخ الدولة الكارولنجية .

كانت القوانين الخاصة التى حـاول بها شارلمـان احياء العـلم كثيرة الأهمية ففى سنة ٧٨٦ م جلب شارل من ايطاليا مرتلين لاصلاح صلوات الكنيسة ، وأقامهم فى متز وسواسون ، وبعث اليهم المرتلين من الكنائس المختلفة ليتعلموا عليهم ، وهذا الاصلاح فكر فيه ببين القصير غير أنه لم ينفذه ، وعلى الرغم من أنه لم يكن بالغ الأهميـة الا أنه يفسر أساس الطابع الرومانى للنهضة الكارولنجية(٤) .

ويتضح لنا من الوثائق العديدة التى وصلتنا عن عصر شارلمـان مدى اهتمامه الشخصى باحياء الحركة العلمية فى غالة وجعلها مركزا

(3) Gerald Simons «op. cit.» p. 107.
(4) Ibid.

للدراسات الدينية الصحيحة حتى نراه قد بعث الى مقدم الدير الراهب بوجولف Baugulf سنة ٧٨٠ — ٨٠٠ م يطلب منه الاهتمام بالتعليم ويبين له أن مرضاة الله بممارسة العقيدة الصحيحة لا تكتمل الا بارضائه بحسن التلاوة والقراءة الصحيحة ، كما أن السلوك السليم يعتبر أثمن من المعلومات والثقافة الا أن المعلومات والأفكار السليمة والصحيحة هى التى تربى سلوك الانسان(٥) •

كما أرسل شارلمان خطابا الى مرتلى الكنيسة سنة ٧٨٦ — ٨٠٠ قال فيه : « اننا نعنى كثيرا باصلاح أحوال الكنيسة ، كما اننا نعمل مافى وسعنا لنرفع من شأن التعليم الذى أهمله أجدادنا •• واننا نعمل على تصحيح جميع نسخ الكتاب المقدس بعناية خاصة وان العهد الجديد أفسده جهل النساخ الذين قاموا بنسخه فى الماضى •• واننا بذلك لن نشعر بمعاناة فى أيامنا هذه من الأخطاء النحوية ، والتعارضات التى تتسلل الى الدروس الدينية المقدسة فى جميع الكنائس المسيحية ، لأننا نعمل مافى وسعنا لتصحيحها وتقويمها »(٦) كما قام شارلمان بتقديم المكافآت ، والعون المادى للمدرسين والدارسين فى داخل مملكته وخارجها — حتى كون حوله مجموعة كبيرة من العلماء العالمين(٧) •

فقد وصل الى ميناء غالة اثنين من الاسكتلنديين قادمين من ايرلنده بصحبة بعض التجار الانجليز • وقد عرض هذان الرجلان أن يبيعا الحكمة فى أسواق غالة ، مما أدهش الناس فسمع بهم شارلمان واستدعاهم اليه لأنه كان دائما يبحث عن الحكمة ، فعندما سألهم عن حقيقة الأمر عرف منهم أنهم يبيعون الحكمة بدون مقابل لمن يبحث عنها ، ولا يطلبون غير مكان يقدمون فيه هذه الحكمة للناس ، وعقلية تستوعب فهم ما يقدمون ، وطعاما يتعيشون منه •

(5) Ashour, Rabie «Fifty documents in medieval history» p 34.
(6) Ibid, p. 35.
(7) Gerald, Simons «op. cit.» p. 107.

لذلك عين أحدهم ويدعى كلمنت فى غالة وبعث اليه بعدد من أولاد النبلاء ، وآخرون من فقراء القوم ، وسمح لهم بكميات من الطعام كل على حسب طلبه ، وهيأت أماكن مناسبة للدراسة ، وأرسل الثانى الى ايطاليا وعين فى دير القديس أوغسطين بالقرب من بافيا[٨] .

والمعروف تاريخيا أن الهدف الدينى كان هو المحرك الأول للحركة العلمية لذلك نجد شارلمان قد جعل من رجال الكنيسة والشمامسة أساسا لهذه الحركة ومن أهم هؤلاء بطرس البيزى ، وبولس الشماس فطلب من بولس الشماس أن يجمع أعمال أخلص الآباء اللاتين فى كتاب للصلوات ليحل محل ما سبق استخدامه فى شمال أوربا من مختارات ساء اختيارها . كما أن شارلمان كان يقدر هذين الرجلين لكفايتهما فى النحو اللاتينى وقدرتهما على تدريسه ، وقد ترك كلاهما بعض كتابات فى هذا الموضوع[٩] .

وبلغت محبة شارلمان للدين وولعه باللاهوت بصفة خاصة أنه تصور الملكية على أنها ثيوقراطية مسيحية لها جانب عملى لا يتجلى فيما صحب فتوحاته من تحويل الناس الى المسيحة فحسب بل يتجلى أيضا فيما قام به من نصيب فى القضاء على بدعة التبنى التى حاول فيها فيلكس Felix أسقف أورجل Urgel أن يوفق بين لاهوت المسيح وناسوته بقوله بأن المسيح انسان اتخذه الله ابنا[١٠] الى جانب الدور الذى قام به فى كتابة الرسائل الشارلمانية libri-carolini وهى للرد على المجمع المسكونى السابع الذى عقد فى القسطنطينية .

---

(8) Ashour, Ziada «Select documents» p. 256.

(٩) عاشور « النهضات » ص ٤٩ .

(10) Thompson «op. cit.» p. 489.

مؤسسوا الحركة العلمية فى عصر شارلمـان

زخر تاريخ شارلمـان بأسماء لامعة حملت لواء النهضة العلمية وعلى رأس هؤلاء الكوين واينهارد ، وانجلبرت وثيودولف وغيرهم • وترجع أهمية هؤلاء العلمـاء الى الدور الذى قـاموا به ، والى مدى التشجيع الذى لاقوه من الامبراطور شارلمـان الذى حاول أن يجمع بين الرغبة فى نشر الثقافة الدينية ، وبين حفظ التراث الكلاسيكى ورعاية المخطوطات القديمة ودراستها • وقد اتخذ شارلمـان خطوات ايجابية فى هذا الصدد فقام أولا بتدعيم مدرسـة القصر ، وبعدهـا عممت المدارس فى الأقاليم وأقام المكتبات العامة التى خلدت هـذا التراث وحفظته للأجيال • وترجع أهمية الكوين الى أنه تلقى تعليمه فى مدرسة يورك الشهيرة وعلى يد الأساتذة الذين تتلمذوا على يد العـالم القديم بيدا مما كان له أكبر الأثر على تكوين شخصياتهم العلمية •

بدأ اتصال الكوين بشارلمـان عندما عهد اليه ملك نورثمبريا أو رئيس أساقفتها برسالة لملك الفرنجة ، وبعدها تقابلا مرة ثانية فى بارما سنة ٧٨١ م ، وفى هذه المرة تمكن شارلمـان من اقناع الكوين بالقدوم والاقامة فى آخن • وفى سنة ٧٨٢ م وفى الكوين بوعده وكان فى السابعة والأربعين من عمره ، واحتل مكانة كبيرة فى قصر الامبراطور • وأصبح هو حامل لواء النهضة العلمية فى الدولة الكارولنجية[١١] • الى جانب أنه أسهم بالقسط الأوفر فى نقل أهم مظاهر النهضة الايرلندية الى غالة حيث تعهدها برعايته[١٢] •

الكوين ومدرسة القصر :

قام الكوين فى المرحلة الأولى من حياته ٧٨٢ — ٧٩٠ بتنظيم مدرسـة القصر وسـائر المدارس التى من هذا النوع • وفى المرحلة

---

(11) Guizat, M. «Histoire de la Civlition en France» p. 88.

(١٢) عاشور « النهضات » ص ٥٢ .

الثانية حارب هرطقتى التنبى واللاأيقونية وانتصر عليهما وفى المرحلة الثالثة أنشأ فى تور مدرسة ديرية أصبحت نواة لمدارس أخرى كثيرة ، وغدت النموذج الذى سار عليه هذا النوع من المؤسسات قرونا عديدة . وفى هذه المراحل الثلاث يعتبر المستشار لسيده اذ صار مركز حلقة أدبية والمرجع الأصلى الذى يلجأ اليه العلمـاء ورجال الدين(١٣) .

ويرجع تأسيس مدرسة القصر التى حمل لواء العـلم بها الكوين الى الأيـام الاولى من حـكم شارلمـان قبل أن تتبلور فكـرة بعث الامبراطورية الغربية ، وقبل أن تنتقل الى حيز التنفيذ بسنين كثيرة(١٤) ولابد أن نعرف أيضا أن هذه المدرسة لم تكن وليدة عصر شارلمـان أيضا بل أن أصولها تمتد الى العصر الميروفنجى الا أنها كانت تنقصها النظام والتبلور والعلم الحقيقى ، مما ترتب عليه بقاء الأرستقراطية الفرنجية على جهلها بأبسط مبادىء الثقافة وهكذا حتى استطاع الكوين أن يجعل من هذه المدرسة عاملا فعالا فى حياة الدولة بعد أن نظمها على أسس سليمة(١٥) ، حيث كانت فى المـاضى لا تدرس الا فنون الحرب فقط(١٦) . وكانت مدرسة القصر فى آخن مركزا للنشاط الثقافى الذى كان يشهده أفراد الأسرة الملكية وأبناء النبلاء الفرنجة ، وكثيرا ما كان تلاميذها يتولون رئاسة الأديرة فى بعض أراضى الراين ومواطن أخرى من الدولة ، حيث أصبحت مراكز للعلوم والفنون(١٧) .

ويذكر اينهارد أن شارلمـان كان شخصيا من أهم تلاميذ الكوين وأنه كان يقضى معه معظم وقته فى دراسة البلاغة والمنطق والفلك ، كذلك تعـلم شارلمـان الحساب الذى كان يستخدمه فى حساب حركات

---

(١٣) ديفز « شارلمان » ص ١٥١ .
(14) Thompson «op. cit.» p. 489.
(١٥) عاشور « النهضات » ص ٥٥ .
(16) Gerald Simons «op. cit.» p. 107.
(17) Ibid.

النجوم والأجرام السماوية بدقة بالغة ، كما حاول شارلمـان أن يتعلم الكتابة ولهذا الغرض كان يضع تحت وسادته ألواح الكتابة والقراطيس والأقلام ليدرب يديه على الكتابة فى ساعات الفراغ[١٨] كما كان يضع دائما بجانبه الكتاب الذى طلب من الكوين أن يصنفه له ، وأمره أن يكون مختصرا وعمليا وهذا الكتاب كان يحوى الطريقة الصحيحة للصلاة والتراتيل ، كما طلب من الكوين أن يعد له تقويما صحيحا للأيام ليحمله معه فى رحلاته وسفراته ، ويعد هذا التقويم أول تقويم مختصر[١٩] .

ولعل جهود الكوين تتمثل خير تمثيل فى خطوط الكتابة السلسة على خلاف ما كان الحال عليـه فى المخطوطات والوثائق الميروفنجية التى كتبت بطريقة لا يمكن أن نقرأها فى يسر ، ولعل هذا هو ما دعا أوائل الناشرين فى القرن الخامس عشر أن يجعلوا من الخطوط الكارولنجية طريقة الحروف لمطبوعاتهم ، ولا تزال فى الحروف اللاتينية حتى اليوم ملامح كثيرة منها . وكان أهم تطوير أحدثوه فى الكتابة ابداع الحروف الصغيرة المنيوسكولا Minuscula بعد أن كان الرومان يكتبون بالحروف Capitalis-quadrate والروسـتيكا Capitalis-rustics

وقد قـام الكوين بجهـد كبير فى مسـألة اعـادة كتـابة المخطوطات الدينيـة فقـد نفذ جميـع التوجيهـات التى أمر بهـا شارلمـان واستعان بعدد كبير من الرهبان ، ورجال الدين المهرة خاصة فى مدينة تور ، ورأى الكوين أنه ما دام لكل دير مكتبته الخاصة المملوءة بالكتب . فليست هناك حاجة لأن يستعير أحد من الاخر لانه ربما تضيع الاعمال الخالدة للرومان أمثال شيشرون وتاكيتوس خاصة وانه لا توجد نسخ

---

(18) Einhard «op. cit.» p. 54.

(19) Lamb «op. cit.» p. 187.

(٢٠) كانتور « تاريخ العصور الوسطى » ص ٦٤ . ترجمـة على الغمراوى .

Gerald Simons «op. cit.» p. 108.

الروستيكا هى اللهجة الدارجة أو الشعبية .

أخرى • وبهذه الطريقة ؛ فقد وجدت كثير من الأعمال النادرة خاصة المخطوطات الكلتيــة البريطانيين طريقهــا لبلاد الفرنجــة ، بينما كان شارلمــان يحمل معه دائما الى آخن كثيرا من الكتابات والمؤلفات النادرة من لومبارديا ومن مكتبة القديس بطرس(٢١) •

والحقيقة أن شارلمـــان والكوين استطاعا بهذه الطريقة أن يرفعا من شأن مدرسة القصر ، وأن يجعلا منها نموذجا يحتذى بل لم يتوقعا أنهما سيتمكنان خــلال هذه الفترة القصيرة من انشــاء مركز ثقافي حى فى أرض الفرنجة للكتاب القــدامى والآباء الكنيســة ، فكثير من المخطوطات النادرة التى كانت ملقاة فى غياهب مكتبات القديس جال Saint, Gall أو فى ليندسفارن Lindis Farne كانوا يتداولونها فى مدارس شارلمــان حتى أن مكتبة ليندسفارن احترقت مرة فى أحد غزوات الفيكنج ، ولم ينقذ من تراثها الا ما حوته مدرسة شارلمان(٢٢)

وكان الكوين شغوفا بأن يدهش صديقه شارلمــان بحصوله على كتب جديدة أو بتصحيحه لنسخ قديمة ، فقد قدم الكوين الى آخن فى منتصف أشهر الصيف ، ووصل الى شارلمـــان الذى كان يجلس على كرسى العرش ، ويحمل فى يديه الانجيل وهو نسخة مصححة لانجيل القديس جيروم خالية من الأخطاء ، فتوجه أليه متسائلا : « والآن يا صديقى داود لن تقول مطلقا أن شعبى يستخدم ألفاظا خاطئــة فى الصلوات ، فاننا قد قمنا بتصحيح الانجيل وجعلنا غلافه من الخارج من الفضة عليه لوحة من العاج منقوش عليها المسيح وهو مصلوب على الصليب ومن أعلى صور الملائكة ومن أسفل صور الحداد على ما حدث للمسيح ، كما جعلنا على الأطراف صور للرســل الاربعة يجلســون منهمكين فى الكتابة(٢٣) •

(21) Lamb, op. cit.» p. 187.
(22) Ibid.
(23) Ibid.

وأضاف الكوين قائلا : « لن تقول يا سيدى داود مطلقا بعد ذلك أن القديسين يقرأون كلمات خاطئة ، لأن جميع حروف الانجيل كتبت خطأ ، لكنى قمت بتصحيحه ؛ ثم قدم اليه أجزاء من صفحات الانجيل جديع حروفها تبهر العين ؛ ولونت بألوان زاهيــة ، وجميع الحروف كبيرة وسليمة ومتباعدة عندئذ ابتهج شارلمــان ، وأمر بنسخ عشرين نسخة أخرى ليقوم بتوزيعها على جميع ولايات الامبراطورية[٢٤] .

ونتيجة للاهتمام بالدراسات الكلاسيكية فقد قام علمــاء مدرسة القصر باطلاق اسم روما الثانية ، وأثينا الثانية على مدينة اكس لاشابل وأطلقوا تســميات على العلمــاء مأخوذة من الانجيــل ومن التراث القديم[٢٥] فقد أطلقوا على شارلمــان اسم داود ، وعلى الكوين اسم فلاكوس وانجلبرت هومر ، ويرجع ذلك الى أنهم أرادوا أن يتشبهوا بالسلف من أعلام الحكمة والأدب[٢٦] .

العلوم السائدة فى مدرسة شارلمــان :

من أهم العلوم التى شاع تدريسها فى مدرسة القصر الى جانب الدراسات الدينية واللاهوتية ، الفنون السبعة الحرة التى سبق أن ذكرنا أن شارلمــان اعتمد ضرورة تدريسها لأبنائه وأبناء الفرنجــة جميعا . وقد اشتملت الفنون السبعة على مجموعتين . مجموعة رباعية ومجموعة ثلاثية . الرباعية الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، والأخرى النحو والبلاغة والمنطق[٢٧] .

ويرى الأستاذ جيرالد سيمونس أن هذه العلوم لم تدرس كما ينبغى فالمجموعة الرباعية كانت تدرس دراسة روتينية تقليدية لأن هذه

---

(24) Ibid, p. 183.
(25) Gerald Simons «op. cit.» p. 109.
(٢٦) عاشور « النظم والحضارة » ص ١٢٩ .
(27) Thompson «op. cit.» p. 490.

العلوم كانت معظمها باليونانية ولم تكن لها ترجمات صحيحة باللاتينية خاصة وأن دراسة اليونانية كانت قد بدأت في الانحسار في أوربا ، فأصبح الطلبة يجدون صعوبة في فهمها ، أما المجموعة الثلاثية ، فكانت أنجح لأنهم كانوا يدرسون اللاتينية كما اهتموا بالادب الروماني[٢٨] .

أما عن الكوين نفسه ، فنحن نريد أن نعرف الى مدى كان ملما بهذه الفنون ، وقد وجدنا أنه لم يعرف منها أكثر مما استخلصه من المصنفات الضئيلة التي ألفها كاسيدروس ومارتيانوس كابيلا وموسوعة ايزيدور الاشبيلي ، ومن الترجمات غير الكاملة لكتابي أرسطو ، وهما التفسير والكليات ، ولم يعرف من الفلك شيئا على الاطلاق ، ولم يكن حظه في الحساب والهندسة الا قليلا ، ولم يدرس كتب اقليدس وبطليموس ، ومنطقه كان يسوده الاضطراب وبلاغته ليست الا قاموسا للمصطلحات الفنية[٢٩] .

وقد خاض الكوين في موضوعات متعددة ، حيث استمرت مدرسة القصر مجالا لكثير من المناقشات والمحاورات التي تحوى قسطا وافرا من المعلومات العامة . ومعظم هذه المحاورات كانت تدور حول الدراسات الدينية ، وذلك لاعتقاد العلماء وطلاب العلم أنها الهدف النهائي الذي ترمى اليه بقية الدراسات[٣٠] .

وقد اهتم الكوين بجمع عدد كبير من الكتب والمخطوطات والمراجع القديمة من جميع البلاد وذلك لتنمية الدراسة داخل المدرسة ، الى جانب أنه ألف كثيرا من الكتب الدراسية وقوائم المفردات ، ويمكن أن نلمس أثر هذا الانتاج في عدد من المؤلفات الأدبية والوثائقية الضخمة التي

---

(28) Gerald, Simons «opy. cit.» p. 109.

(٢٩) ديفز « المرجع السابق » ص ١٥٢ .

(٣٠) عاشور « النهضات » ص ٥٧ — ٥٨ .

وصلتنا من العصر الكارولنجى ، ويظهر فى كمية المؤلفات الكلاسيكية التى تم نسخها فى مخطوطات تتميز بالدقة والروعة ، وفى اسهام رجال الكنيسة فى تطوير الطقوس الدينية(٣١) .

واذا كنا تحدثنا عن جهود الكوين فى نشر الثقافة ، واحياء الدراسات اللاتينية وتصحيح المخطوطات ، الى جانب اهتمامه بالنواحى الفلسفية والأدبية والتاريخية فلا ننسى فى هذا المجال غيره من العلماء الذين أسهموا فى هذه النهضة الثقافية اسهاما كبيرا ، وعلى رأسهم يطل علينا اينهارد . الذى ولد فى الأراضى الفرنجية فى منطقة وادى نهر المين سنة ٧٧٥ ، وتربى داخل دير فيلدا Fulda الذى كان شعلة ومنارة العلم داخل أراضى الفرنجة . وفى عام ٧٩١ أو ٧٩٢ أغرى رئيس الدير شارلمان بأن يضم اينهارد الى مدرسة القصر . وعند وصول اينهارد الى المدرسة تركها الكوين واعتزلها الى دير بالقرب من مدينة تور . حتى أن شارلمان وجه الى الكوين بعض الاستفسارات فيما يخص الآداب الكلاسيكية ، فرفض الاجابة ، وطلب منه أن يسأل اينهارد .

ورغم المكانة الكبرى التى احتلها اينهارد عند شارلمان ، الى جانب أنه قد نفذ كثيرا من أمور الدولة الهامة الا أنه لم يحتل المكانة الكبرى كما لم يصل الى مركز مرموق فى عهد شارلمان لكنه عين سكرتيرا خاصا لابنه لويس التقى فيما بعد .وحصل على مهام شرفية كبيرة(٣٢) .

وترجع أهمية اينهارد فى أنه يعتبر هو مؤرخ الامبراطور شارلمان ، وصاحب كتاب سيرة حياة الامبراطور . فقد ترك اينهارد مجموعة

---

(٣١) كانتور « المرجع السابق » ص ٦٠ .

(32) Sidney, P. «Foreward to the life of Charlemagne» p. 10.

من الأعمال أهمها Vita-Caroli-Magni وقد أرخ هـذا الكتاب فيما بين ٨١٧ — ٨٣٦ أو من ٨١٧ الى ٨٣٠ ، وقد اسـتعان اينهارد فى كتابه عن حياة شارلمـان بكثير من الحوليات الملكية التى استمد منها كثيرا من المـادة التاريخية خاصة فيـما يخص الحملات العسكرية التى قادهـا شارلمـان ، وكثير من الأنشطة السياسية ، كما أنه ناقش كثيرا من الأمور مع زملائه داخل مدرسة القصر كما استعان بالوثائق الموجودة فى الأرشيف الملكى أثناء قيامه بالعمل كسكرتير خاص للويس التقى .

ورغم أنه قد وقع فى أخطاء كثيرة أثناء تفسيره لهذه المعلومات الا أن عمله التاريخى ككل يعتبر صحيحا ومتكاملا اذا ما قارناه بغيره من المصادر التاريخية[٣٣] . كما أن اينهارد يعتبر خير مؤرخى العصور الوسطى المبكرة كما أنه أورد الحقائق فى بعض الحالات قصدا أو عن غير قصد ، ولابد لنا عند قراءته ومطـالعته أن نتذكر دائما العـامل الشخصى ، اذ أن اينهارد انغمس فى كل ما حدث فى عصره من مظاهر الضعف ونواحى التعصب[٣٤] .

أما ثيودولف فكان قوطى الأصل أسبانى أو ايطالى المولد ، كان أسقفا لأورليان . فقام باصدار أوامره الى مجموعة من القسس فى بعض القرى والضياع المجاورة بأن يقوموا بفتح فصول فى كنائسهم لأهالى مناطقهم بدون مقابل ، ورغم أن نتائج هذا الجهد كان ضعيفا الا أن ثيودولف يعتبر مؤسس التعليم الحر فى الدولة الكارولنجية[٣٥] .

كما كان ثيودولف من أبرز شعراء عصره لا سيما فى شعر المراثى ، وقد نظم قصيدة من تسعمائة وستة وخمسين بيتا عنوانها « نصيحة الى

---

(33) Ibid.

(34) Gerald Simon «op. cit.» p. 107.

(35) Ibid, p. 109.

القضاة » تعتبر من أروع ما نظمه من الشعر[٣٦] وفى هذه القصيدة تتجلى ذكريات ثيودولف الشخصية ، وهى ثمرة الخبرة التى اكتسبها فى أثناء جولاته فى الجنوب ، وهو يصف بلمسات من قلمه ضروب التباين بين مناظر بروفانس كالتلال الصخرية الوعرة الشديدة الانحدار والسيول المندفعة والخوانق ، وينصح القضاة بقوله : « ينبغى للقاضى ألا يتكلم بسرعة شديدة ولا ببطء شديد ، وينبغى له أن يوجه المتقاضين ويساعدهم على شرح قضاياهم أمامه ، فيشجع الخجول والوجل ويشكم الوقح ويسكت الثرثار ، ويسيطر على ضجيج الصائحين باستخدام صوته القوى على أنه ينبغى مع ذلك أن يلزم مكانه ، وأن يمتنع عن استخدام العصى يقرع بها الأكتاف والرؤوس كما ذاع عن بعض ضيقى الصدر من القضاة »[٣٧] .

أما انجلبرت فقد كان زميلا لاينهارد فى الدراسة ، وأضحى كاتما لسر الملك ، وتزوج من الأميرة برتا ابنة شارلمان ، وسلك طريق الرهبنة هو وزوجته ودخلا الى الدير معا . وبعدها هجرته زوجته برتا ورجعت الى القصر ، اما هو فقد أصبح رئيس تساوسة الملك وقد اتسعت شهرة انجلبرت الأدبية حتى أطلق عليه لقب هومر .

ومع هؤلاء الأساتذة والاساليب العلمية التى اتبعوها داخل مدرسة القصر يبرز لنا الامبراطور شارلمان الذى اشتهر بدقة اختباره لأثر قوانينه التعليمية . اذ نجده تارة بمدرسة القصر يسأل التلاميذ ، فيطرح عنهم الخمول والكسل ويعطيهم درسا صارما فيقول لهم ان العمل لا النسب هو السبيل للحصول على رضاه ، وتارة بالكاتدرائية يشهد الأطفال محمولين الى نبع التعميد ، فيوقف ما يجرى من طقوس ويسأل الأطفال فيتبين أنهم يجهلون مبادىء العقيدة فيردهم الى منازلهم حتى يتلقوا

---

(٣٦) عاشور « النهضات » ص ٦٦ .
(37) Lavisse «Histoire de France» Vol. II, p. 61.

من قس الأبروشية مزيدا من التعليم(٣٨) .

المدارس الاقليمية :

امتد أثر الحركة العلمية التى أذكاها شارلمان داخل قصره وفى مدينته آخن لتعم أرجاء امبراطوريته ، حتى أصبح التعليم هو الأساس الأول لتقييم الفرد ، وأصبحت الصفوة التى تلازم شارلمان جلها من المتعلمين ، حتى ان شارلمان قد أمر جميع من بيدهم السلطة فى البلاد أن يلتمسوا مدرسين ، وأن يراعوا بأن يتلقى أولئك الذين فى رعايتهم وتحت اشرافهم التعليم السليم . حقيقة أن هذا التعلم كان فى أساسه تعليما دينيا لكنه تطور بعد ذلك وعمل على دراسة الأدب اللاتينى والدراسات والفكر القديم .

وتعتبر مدرسة الكوين فى تور من أولى المدارس الاقليمية التى نشأت على غرار مدرسة القصر فى آخن ، ولعل الفترة التى قضاها الكوين هناك بعد اعتزاله بلاط شارلمان كانت هامة فى اذكاء الحركة العلمية فى هذه المنطقة ، فقد قام الكوين بتنظيم دير سانت مارتين وعنى فيه بتعليم الرهبان أسس الحركة العلمية التى شاعت فيهم بدراسة الفنون السبعة الحرة(٣٩) .

واذا كان فضل الأديرة على العلم فى العصور المتأخرة موضوع مبالغة ، فلا يجوز أن نشك فى فائدتها من هذه الوجهة فى العصر الكارولنجى واستقالة الكوين من البلاط ليرأس دير سانت مارتين فى تور لا تعنى هبوطا فى جهوده العلمية ، كما أن النشاط العلمى فى أبروشيات أساقفة من أمثال ثيودولف ورؤساء الأديرة من أمثال انجلبرت

---

(٣٨) ديفز « شارلمان » ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(39) The Monk of Saint Gall, «op. cit.» in Selected Documents pp. 255 — 256.

رئيس دير سانت ركبيه من تشجيع للتعليم فى الأديرة قد بسط أثر القصر خارج رحابه وملأ الامبراطورية بمراكز الثقافة[٤٠] .

ونتيجة لذلك نجد أن الأميرة جيزلا أخت شارل وروترود ابنته أسرعتا بالكتابة الى الكوين تطلبان منه تفسير عبارات غامضة من الانجيل الرابع وأخبرتاه بأنه منذ أن تلقيا عليه الدروس اشتدت رغبتهما فى التعمق فى الدرس والتحصيل ، فأرسل اليهما بدوره مجلدين ضخمين عن التفسير ، ورأى ضرورة الاعتذار لأنه لم يرسل لهما أكثر من ذلك [٤١] .

وقد قام ثيودولف رئيس دير أورليان بتنظيم التعليم فى ابروشيته ؛ وأصدر منشورا لأتباعه من رجال أسقفيته يحثهم فيه على تعليم الأهالى بصفة عامة سواء فى المدن أو فى الريف ، وهناك مرسوم آخر صدر سنة ٨٠٢ ينص على أن يبعث كل فرد ابنه ليتعلم القراءة والكتابة بشرط أن يبقى هذا الابن فى المدرسة حتى يكتمل تعليمه . اما المرسوم الصادر سنة ٨٠٥ فينص على أهمية الحساب الذى يجب أن يتعلمه كل فرد على الوجه الصحيح[٤٢] .

وكان جميع الرهبان والقساوسة ورجال المدن الذين يدخلون هذه المدارس ويتلقون فيها هذه المناهج العلمية يصبحون عادة رؤساء للأديرة الفرنجية أو الجرمانية وأشهرهم رابان Raban Mauer ويرجع أساس شهرته الى أنه أنشأ مدرسة فولدا ، أما المدارس الأخرى التى نشأت غرار مدرسة تور أمثال مدارس أديرة كوربى والقديس واندرل . والقديس جال فكانت من غير استثناء مدارس ديرية المقصود

---

(40) Thompson «op. cit.» p. 490.

(٤١) ديفز « شارلمان » ص ١٥٣ .

(٤٢) عاشور « النظم والحضارة » ص ١٣٠ .

منهـا تعليـم رجال الدين ، وقد أدت هـذه المدارس خدمـة كبيرة للأجيال ، فقد أحيت اللغة اللاتينية وأعادتها الى مكانتها حيث أنها لغة أدبية فقاومت من ناحية طغيان الألفاظ الجرمانية وقاومت من ناحية أخرى اللغة الغالية الرومانيـة ، وما اشـتهرت به من فسـاد النحو والصرف(٤٣) .

ولم تقتصر المدارس الاقليمية على منطقتى تور وأورليان فقط ، بل انها امتدت الى جميع أرجاء المملكة ، ويشهد على ذلك الرسائل العديدة التى بعث بها شارلمـان الى الأساقفة ومقدمى الأديرة يستحثهم فيها على فتح المدارس والعناية بتعليم الصغار والكبار ، وقد حققت مدرسة القصر والمدارس الاقليميـة الغرض الأسمى لشارلمـان ، فقد أمدت الدولة والكنيسة بالموظفين المتعلمين ، وأثمرت هذه المدارس فى خلق جيل متعلم واع سواء من الطلبة أو المدرسين(٤٤) .

وأبرز مثال على حب شارلمـان الحقيقى للعـلم الى الحد الذى جعله يرفع من مكانة المتعلمين حتى ولو كانوا من فقراء القوم ، أو من أسر متواضعة ، بل انه كان يعفى كثيرا من أبناء النبلاء من مناصبهم الدينية اذا لم يسيروا على نهج العلم ، ويهتموا به وماحدثنا به راهب القديس جال حينما قال : « أمر شارلمـان التلاميذ الذين بعث بهم الى كلمنت ليتعلموا عنده فى غالة أن يقدموا اليه ، ويقدم كل واحد منهم اليه كتابات من النثر والشعر من انشائهم فوجد شارلمان أن الأولاد الفقراء الذين ينتمون الى أصول متواضعة قدموا اليه كتابات قوية ومدعمة بالحكم والعـلم وأعلى بكثير مما كان يتوقعه ، بينمـا قدم اليـه أبنـاء النبلاء مجموعـات تافهـة ليست لهـا أى معنى وقـام شارلمـان بتحكيم القضاة المحليين فيما قدمه هؤلاء ، وجمع المجموعة الأولى والتى

---

(٤٣) دو?ز « المرجع السابق » ص ١٥٨ .

(44) Thompson «op. cit.» p. 491.

قدمت فكرا ثمينا ، وأمرهم بالوقوف فى الناحية اليمنى وأثنى عليهم وقال لهم « يا أبنائى ، انكم ستجدون منى كل عناية وعرفان بالجميل لأنكم بذلتم كل ما فى وسعكم لتنفيذ أوامرى وللحصول على مكافآتى كذلك أطلب منكم المزيد من العلم لتصلوا الى الكمال ، وسأمنحكم الأسقفيات والأديرة وستكونون دائما أهلا للاحترام والتبجيل » . وبعدها التفت الى المجموعة الثانية التى وقفت على يساره ، ونظر اليهم بحدة وصرامة وعاملهم باحتقار شديد ووجه اليهم كلمات نابية نزلت عليهم كالصاعقة قائلا « أما أنتم أيها النبلاء يا أبناء السادة الكبار يا من تأنقتم وتزينتم ، واعتمدتم على شرف مولدكم وعلى ممتلكاتكم ، وقد استخففتم بأوامرى من أجل مصلحتكم ، وأهملتم العلم ، واعطيتم أنفسكم مزيدا من المتعة واللهو ، — عندئذ رفع رأسه وأقسم بعزة السماء بأنه لن يعبأ بشرف مولدهم ومظهرهم الذى يجعل غيره يهتم بهم ، وأوعدهم بأنهم اذا لم يبذلوا الجهد فى سبيل تنفيذ أوامره ، بالاهتمام بالتعليم فانهم لن يحصلوا على أية منفعة أو مزية منه مطلقا »(٤٥) .

ومن هذا النص نرى أن شرف المولد كان لا يغنى عن شرف العلم فى عصر شارلمان ، فقد وصل عدد كبير من هؤلاء المتعلمين الى مركز الصدارة طوال عصره .

الأدب :

يرجع الفضل الى النهضة الكارولنجية فى انقاذ الأدب اللاتينى من الهوة السحيقة التى تردى فيها فى القرن السابع ، كما أنها منحته قوة دافعة ظهر أثرها بعد ذلك فى النهضة الأوتية أو السكسونية فى ألمانيا وفى المدارس الديرية العظمى التى انتشرت فى القرنين التاسع

---

(45) The Monk of Saint Gall «op. cit.» in «Select Documents» p. 257.

والعاشر(٤٦) .

ولعل أبرز انتاج أدبى فى هذا العصر هو تاريخ جريجورى التورى وهو من تراث العصر الميروفنجى . اما فى العصر الكارولنجى فقد كثرت المدونات التاريخية ، وكان أسلوبهـا اللاتينى أكثر التزاما بالقواعد القديمة من أسلوب جريجورى التورى ، وحوليات دير لورش مرجع هام لتاريخ الملكية الكارولنجية السياسى(٤٧) .

وهناك نوع آخر عرف باسم الحوليات الملكيـة التى دونت تحت اشراف رجال البلاط ، وتناولت تاريخ الكارولنجيين منذ تقسيم شارل مارتل مملكته بين أبنائه ، كذلك لم تهمل الكتابات التاريخيـة فى هذا العصر سير القديسين ، هذا زيادة على الكتب التاريخية المتعددة التى تناولت أخبار الحروب والحوادث مثل كتاب « تاريخ الحروب الأهلية » لمؤلفه نيثار Nithard فى القرن التاسع(٤٨) .

ويمدنا مؤرخ دير القديس دنيس وراهب القديس جال بكثير من المعلومات عن عصر شارلمـان وبلاطه وسيرة شارلمـان Vita Carolini لاينهارد المبينة على معرفة شخصية ، كما قدمنـا والتى تعتبر من أقدم سير القرون الوسطى المأثورة ، فانه لم يهدف فيها الى تاريخ عصره ، بل الى تصوير الامبراطور ، وبيئته تصويرا بارزا(٤٩) .

وقد كانت الكتابات اللاهوتية فى هذه الفترة موضع اهتمام كبير ، لكنهـا كانت كتابات ضعيفة ، خاصة وأنها كانت تبحث فى قضايا المعنى

---

(٤٦) عاشور « النظم والحضارة » ص ٢٣٣ .

(47) Thompson «op. cit.» p. 799.

انظر النصوص الخاصـة بحوليات دير لورش فى الملاحق المترجمـة فى نهاية الكتاب .

(٤٨) عاشور « النظم والحضارة » ص ٢٣٥ .

(49) Thompson «op. cit.» p. 799.

الخفى للتعميد ، وطريقة التجسيد ، والفيض الصادر عن الروح مهما قابلنا من صفحاتها فلا نعثر على فقرة تشير فى وضوح الى مزايا العرض الثابت والمنطق السليم أو اللغة المفهومة[٥٠] .

أما عن الكتابة فانها لم تنتشر وتتطور فى العصور الوسطى الا تطورا بطيئا ، وذلك فى الأديرة وبعض أمانات السر الخاصة بالقصر فقد كانت معظم هذه الأديرة متفرقة ، وكل منهـا تعمل على أن تخط كتابات خاصة بها ، ولكن كان هناك نموذجا لابد أن يسيروا على نهجه ، فقد كان الكتبة ينسخون الكتب بالأقلام ويعملون داخل حجرات سيئة الاضاءة ويجلسون على فرش من وبر الجمل وكانوا يكتبون ما هو سهل عليهم ، وليس ما هو سهل للقراءة ، فالكاتب غالبا ما يتمكن من قراءة ما يكتبه ، لكن غيره لا يتمكن من ذلك ، وكانت الحروف اللاتينية القديمة كبيرة جدا وقد عرفوها عن طريق الكتابات المتبقية فى الآثار على جدران المعابد وشواهد القبور حيث نحتت هذه الحروف الكبيرة ، لكن هذه الطريقة فى الكتابة كانت سقيمة ومتخلفة ، فاذا أرادوا أن يؤلفوا كتابا كبيرا مستخدمين هذه الحروف الكبيرة ، احتاجوا الى كمية ضخمة من الأوراق الغالية الثمن والباهظة التكاليف كما احتاجوا الى عدد كبير من النساخ لينسخوا الكتاب المطلوب[٥١] .

وقد بقيت مجموعة من هذه الحروف الرومانية القديمة فى ايرلنده حتى أصبحت هى الحروف السائدة فى ليندسفارن **Lindisfarn**
أما الأديرة الأسبانية فكانت تسير على طريقة مختلفة تماما فى الكتابة وهى طريقـة كتابة القـوط الغربيين ، بينمـا أديرة بنفينتوم حـول مونت كاسينو فسـارت على طريقة الكتابة بالحروف الصغيرة . أما المشكلة التى صادفتهم فى كتابة هذه الحروف أنها كانت تأخذ أشكالا

---

(50) **Cam. Med. Hist. Vol. III, p. 506.**
(51) **Lamb «op. cit.» p. 187.**

مختلفة فى كتابتها من مكان الى آخر ، فبينما قام الايرلنديون بتشكيل حروف خاصة انتشرت فى جميع أرجاء امبراطورية الفرنجة على أيدى المبشرين والرهبان الكنسيين أمثال القديس جال والقديس كولمان Columban .

أما فى أديرة كوربى حيث تعلم أدلهارد ، فقد ابتكروا طريقة جديدة فى الكتابة ، وهى مشتقة فى أجزاءها من الرومانية القديمة وفى الأخرى من التأثير الكلتى . « وذلك فى الوقت الذى كانت الكتابة فى القسطنطينية واضحة ومقروءة الى درجة كبيرة وتسير على النمط اليونانى المعروف لكن أهل الغرب لم تكن لديهم خبرة بهذا الفن اليونانى ، وعجزوا عن قراءته »(٥٢) .

وبينما كان النساخ يقومون بنسخ الكتب فى أديرة كوربى اكتشفوا طريقة المينوسكولا وهى الحروف الصغيرة جدا فى الكتابة كانت لها مزايا كبيرة ، فقد كانت صغيرة وتكتب بسهولة لذلك تركوا الحروف الرومانية الكبيرة ، وأصبح كل فرد بعد فترة من التمرين فى امكانه كتابتها بيسر وسهولة .

وقد وجدت طريقة نسخ المخطوطات فى أديرة كوربى سبيلها ، وسارت على نهجها أديرة تور ، حيث قام النساخون باستخدام نفس طريقة الكتابة مع بعض التطوير ، فكانوا يجعلون الحروف متباعدة وواضحة(٥٣) .

لذلك فقد كثر عدد نساخو أديرة تور ، حيث أنهم احتلوا مكان الصدارة داخل مدرسة القصر فى آخن وفى الفترة التى كان فيها الكوين يدرس داخل هذه المدرسة كان كتاب القداس والانجيل الذى يقرأ فيه شارلمان داخل الكنيسة مذهبا وصفحاته ارجوانية كما أعد شارلمان

---

(52) Ibid, p. 191.
(53) Lamb, Ibid, p. 191.

والكوين كتابا لمزامير التوراة التى تتلى فى الكنائس ليبعثا به الى البابا هادريان ، وقد كتب هذا الكتاب بطريقة الحروف الصغيرة الجديدة ؛ وصفحاته ذهبت بماء الذهب •

لذلك انتشرت هذه الطريقة الجديدة فى الكتابة من أديرة آخن وكوربى وتور الى جميع أرجاء مملكة الفرنجة ، ويتقن جميع النساخ فى كل مكان أن الطريقة الموحدة فى الكتابة أفضل فى القراءة ، وأمعن فى حفظ التراث • لكن مهمة تدريب هذه الأعداد الكبيرة من الكتاب على الطريقة الجديدة كانت صعبة لذلك أخذ شارلمان ورفاقه على عاتقهم تنفيذ هذه المهمة ، فأمروا النساخ باعادة نسخ الأناجيل ، وكتب المزامير والقداس والقوانين بنفس طريقة كتابة الحروف الصغيرة ؛ وبهذه الطريقة انتهى عهد الحروف الرومانية العتيق ، وانتهت العصور المظلمة لتحل محلها عصور من النور والثقافة ، كما تمكنوا من حفظ كميات هائلة من التراث القديم أفاد منه الباحثون والمعاصرون •

ونتيجة لذلك عرفت هذه الكتابة باسم الكتابة الكارولنجية ، وقام باحثو عصر النهضة باستخدام هذه الخطوط فى كتابة مطبوعاتهم ولا تزال فى الحروف اللاتينية حتى اليوم ملامح منها(٥٤) •

وهناك بعض الأعمال الأدبية الهامة مثل دائرة المعارف التى ألفها هرابانوس Hrabanus تلميذ الكوين ، فكانت فى متناول كل يد فى أوربا العصور الوسطى لأنها مفتاح للعلوم القديمة والمعاصرة وقد سجل هؤلاء الأدباء كتابتهم على الجلود بعد أن كانوا يكتبون على البردى — لكن بعد استيلاء المسلمين على شرق البحر المتوسط منع وصوله اليهم(٥٥) •

---

(54) Ibid, p. 192.
(55) Gerald Simons «op. cit.» p. 110.

وبذلك نرى أن أهم ثمار النهضة العلمية الكارولنجية أنهـا قامت باكتشاف كثير من الأعمال العلمية والأدبية القديمة ، وبفضل تشجيع شارلمـان كما رأينا قام متدموا الأديرة باحياء كثير من الكتب الرومانية النادرة ، وهذه الكنوز القديمة حملها الرهبان عبر أسفار ورحلات طويلة الى أديرة بعيدة للدراسة والنسخ ، ولم يضع أى عمل من الأعمـال الرومانية حملته أيدى تلاءذة شارلمـان ، ونحن ندين لهم بالفضل ، لأنهم هم الذين حفظوا لنا تراث قيصر وتاكيتوس وجوفينال ومارتيال وغيرهم من الكتاب القدامى •

ولابد أن نعرف أن هؤلاء العلماء لم ينسخوا فقط هذه المؤلفات لكنهم قاموا بتصحيحها ، فكانوا يقابلون نسخ المخطوطات المتشابهة على بعضها البعض حتى يصححوا النسخ المنقولة من أى أخطاء دخلت عليها ، كما أنهم كانوا يكتبون الحروف الأولى بخطوط عريضة ، وتلون بألوان جذابة(٥٦) •

الشـعر :

ألف الشـعراء ، فى هذه الفترة مقطـوعات شـعرية على النسق الرومانى الكلاسيكى ، وبينما كان معظمها لا يصل الى درجة الجودة ، الا أن هناك مقطوعات ألفهـا الأسقف ثيودولف ، كانت متأخرة وتعبر عن الأحداث المعاصرة(٥٧) •

والحقيقة أن الاتجاه السائد فى هذه الفترة استعمال الشعر فى مختلف شئون الحياة ، وكان الطابع الغالب عليـه دينيـا لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة • زيادة على أن شعراء ذلك العصر اسـتلهموا أشـعارهم من شـعراء المسـيحية مثـل برودنتوس

---

(56) Ibid, p. 111.
(57) Ibid, p. 109.

وفورتناتوس[٥٨] . وكانت معظم أشعار هذه الفترة سقيمة جافة : خاصة شعر الكوين اللهم الا بعض القطع التى تمس الطبيعة أو الروح التهكمية أو العاطفة الذاتية ، واذا كان ثيودولف قد اشتهر عنهم فى هذا المضمار لكونه من أسبانيا أو ايطاليا ، قادته طبيعته الى المزاح مع أقرانه ، وجعلته يستنكر المفاسد الموجودة فى الدولة[٥٩] .

أما عن أغانى المآثر فكانت عبارة عن قصص لاحصر لها فكان الشعراء ينشدون الوقائع المثيرة مثل حصار بافيا والهزيمة فى رونسيفال ، وألفوا منها مقطوعات قصيرة مثيرة اعتبرها السامعون لها موجزا لما وقع من الحوادث ، وتركزت حلقات من الأناشيد حول أسماء كبار الفرسان . على أن المؤلفين لم يقنعوا بالحقائق المجردة ، بل أضافوا اليها حلقات من نسج خيالهم أو من قصص تتعلق بالأبطال المتقدمين ، وجرت رواية الحكايات القديمة بأسماء جديدة ، وبذلك تطورت التقاليد الشعبية منفصلة ومستقرة عن المصادر الأدبية فالأناشيد المعروفة بأناشيد المآثر تتيح لنا الالمام بتواريخ البلاط والوقوف على كتاب اينهارد عن حياة شارلمان ، غير أن ما استمدته هذه الأناشيد من معلومات من هذه المصادر تعتبر شديدة الغموض وبالغة الشيوع ، اذ تناولها من التغيير ما جعلها تتناسب مع حاجات الشعر ومقتضياته[٦٠] .

واذا كان البلاط الكارولنجى قد شجع نمو أدب لاتينى جديد جدير بانبعاث الامبراطورية الرومانية ، فلا ينبغى أن ننسى أن الأدب العامى بدأ يشق له طريقا فى هذه الفترة نفسها فى الأغانى الشعبية وأصبحت شخصية الامبراطور محور ملحمة تدور حولها ، وقد اتخذت هذه الأناشيد شكلها النهائى فى الأقاليم الجنوبية الغربية من امبراطورية

---

(٥٨) عاشور « النظم والحضارة » ص ٢٣٥ .
(59) Lavisse «op. cit.» T. II, p. 320.
(60) Thompson «op. cit.» p. 802.

شارلمـــان ، وليس أدل على موطن نشأتها من أن حوادث الملحمة لا تدور على انتصـــاراته فى حملتـــه الأســـبانية ، وســـميت ملحمة رولاند Chanson de Roland [٦١] .

المكتبـــــات :

رأى شارلمـــان المكتبة الغنية المقامة فى مونت كاسينو والتى أشار اليها بولس الشماس فى تاريخه عن اللومبارديين . فقد كانت مملوءة بالأرفف الكبيرة ، زاخرة بالكتب النـــادرة القيمة والتى وضعت فوق بعضها البعض بعناية كبيرة ، لذلك قام شارلمـــان بانشاء مكتبة مماثلة لها فى قصره بآخن[٦٢] .

كانت مكتبة القصر تشرف على الطريق المؤدى الى كنيسة القديسة مارى ، وعندما يقف الانسان أمام أدراج القراءة تعكس القبة الذهبية بريق الشمس فى عينيه ، وحول جدران المكتبة توجد المخطوطات التى أحضرها ايركامبالد Ercambald ، واينهارد ، وقواعد النحو التى ألفها الكوين الى جانب نسخ من كتابات آباء الكنيسة على الأخص كتاب مدينة الله للقديس أوغسطين الذى جلد بالفضة وحلى بالأحجار الكريمة[٦٣] .

كما امتلك شارلمـــان شـــخصيا عـــدداً ضخما من الكتب أوصى ببيعها عند وفاته والاحسان بثمنها على الفقراء والمساكين ، وامتازت الأديرة المعاصرة بمكتباتها الغنية — حتى ان مكتبة دير سانت ركويير ضمت أكثر من مائتين وخمسين كتابا مخطوطا ، وليس من الضرورى أن يكون كل ذلك العدد نســـخه الرهبان بأيديهم اذ أن جزءا كبيراً من الكتب التى وجـــدت بأديرة ذلك العصر آلت اليـــها عن طريق الهبات والهدايا[٦٤] .

---

(61) Ibid.
(62) Lamb «op. cit.» p. 186.
(63) Ibid.
(٦٤) عاشور « النهضات » ص ٧٢ .

العلوم العلميــة :

لم تحظ العلوم العلمية بالعناية الكبيرة فى عصر شارلمـــان ، ولم يأت الكارولنجيون باكتشافات جديدة أو بنظريات حديثة ، بل ساروا على القاعدة السائدة فى ذلك العصر .

وفى مجال الفلك مثلا وهو أحد الفنون السبعة الحرة — نجد أن شارلمـــان شخصيا أهتم به ، ولو أنه لم يتخذ من قاعدة بطليموس دليلا له ، ومما خلفه كرة مصنوعة من المعادن النفسية نقش عليـــها البروج والنجوم ، واما فى مجال الطب فقد جعله مادة اجبارية فى المدارس ، على أنه ظهر ما هو معروف به من الحكمة فى أن لم يجز لأطباء القصر أن يرتبوا قانونا لأمراضـــه ، ولدينـــا قصة تتعلق بطبيب من أطباء القصر ، ولم يرد فيها عن مهارته الا النذر اليسير ، واشتهر هذا الطبيب باسم وينتر ، اذ توجه وينتر ليقوم بمعالجة رئيس الدير شتورم من مرضه فأعطاه جرعة غريبة ومنذ تلك اللحظة ازدادت حالة رئيس الدير سوءا بدلا من أن يتحسن ، فصاح أخيرا بصوت حزين لقد اشتدت بى العلة ، ولم يلبث أن لفظ نفسه الأخير(٦٥)

ومن هذا العرض نرى كيف نجح شارلمـــان فى الارتفاع بشأن التعليم ، وكيف قـــام هو شخصيا بتشجيع هذه الحركة واذكائهـــا وتموينها بكافة الوسائل المـــادية والمعنوية ، حتى ترك للأجيال تراثا علميـــا اســـتفادت منه الأجيـــال . فاذا كان بعض الدارسين قد حاولوا أن يبينوا أمر هـــذه النهضـــة العلميـــة قد قيدهـــا الجدل الدينى واللاهوت ، وكانوا يعتبرون كل تفكير حر نذير لعاصـــفة من الكبرياء والاضطهـــاد ، الا أن كل هـــذه الأمور لا يمكن أن تقلل من هـــذا الجهد الجبار الذى بذله علماء هذه الفترة .

---

(٦٥) ديفز « شارلمان » ص ١٥٥ .

الباب الرابع

حياة البيزنطيين الاقتصادية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين

١ ـ الزراعة « القرية البيزنطية » الزراعة فى آسيا الصغرى ـ الزراعة فى مناطق بحر ايجه ـ الضرائب والاقتصاد النقـــدى ٠

٢ ـ الصناعة « مجالات الصناعة ـ سياسة الدولة ـ المناجم والتعـدين ٠

٣ ـ التجارة ـ أهمية القسطنطينية التجارية ـ أهم موانىء الامبراطورية ـ السياسة التجارية للامبراطورية ـ الطرق التجارية والأسطول ـ أنواع السلع والمتاجر ٠

الفصل الأول

حياة البيزنطيين الاقتصادية فى القرنين

الثامن والتاسع الميلاديين

يلعب الاقتصاد الدور الأول فى تشكيل المجتمعات وصبغها بالصبغة المميزة وهذا الموضوع بالذات له أهمية كبرى خاصة وأن الدولة البيزنطية تميزت باقتصاد مستقر متقدم ، ولها فى ذلك باع وتاريخ طويل .

ولا بد لنا أن نبدأ دراستنا بتقسيم الاقتصاد الى عناصره الثلاثة الرئيسية وهى الزراعة والصناعة والتجارة .

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نقلل من شأن أى عنصر من هذه العناصر أو أن نجعل لأحدهم فضل أو تفوق لأن كلا منهم مكمل للآخر بل وأساسى لا غنى عنه .

أولا — الزراعة :

كانت الأرض موردا رئيسيا لخزانة الدولة البيزنطية وقد كتب أحد أباطرة القرن العاشر معبرا عن اقتصاد الدولة البيزنطية بقوله « هناك شيئان هامان تعتمد عليهما الدولة البيزنطية الزراعة التى تغذى الجنود وفنون الحرب التى تحمى الفلاحين من العدوان — أما ما عدا ذلك فجميع الأعمال قليلة الأهمية[١] .

(1) Diehl, «op. cit.» p. 91.

لذلك بذل الأباطرة البيزنطيون جهدهم فى حماية الزراع ، وحثوا حكام الولايات على أن يكونوا حذرين فى معاملتهم لعمال الأراضى ، وأن يجنبوهم الأعمال الشاقة .

وكانت الغالبية العظمى من سكان الولايات البيزنطية يعملون فى الزراعة ومثلت ضرائب الضياع والعزب أعلى مستوى فى ايرادات الدخل القومى ، وليس من السهل توقع الوضع الحقيقى للزراعة فى الامبراطورية ولا النظام الذى كانت تسير عليه وظروف سكان الريف . فالوضع هناك مثلما كان فى جميع بلاد العصور الوسطى — يشوبه اضطراب فى التحول الذى يهدف الى جعل الأرض ملكا لمالك واحد ، ويلغى الضياع والملكيات الصغيرة — مما يؤدى الى خلق طبقة من الملاك الكبار التى تضم مجموعة من الفلاحين الأحرار ، ويدمجوا مع هؤلاء الذين يرتبطون عن طريق الميراث بأراضى سادتهم[٢] .

ولا بد أن نوضح اذا مضمون هذا الموضوع فقد كان يشغل المناطق الريفية مجتمعات قروية من نوعين هما الأرقاء العبيد والأحرار وكان القروى الرقيق أى مولى الأرض مرتبطا بها ، وكان سيده مالك الأرض يدفع الضرائب ، لكنه يأخذ ثمار الأرض ، وكان أبناء مولى الأرض موالى مثله تماما . وان أمكن أن يغادروا الأرض عن تفضل من السيد ويلتحقوا بحرف أخرى كالكنيسة مثلا ، وكان هناك أيضا مزارعون مستأجرون فى كثير من مزارع الأغنياء . وكان هؤلاء يدفعون الايجار نقدا أو عينا ويعتبرون من الأحرار ، ولكن الواقع أنهم كانوا يجدون من المحال عليهم أن يغيروا أحوالهم الى أفضل منها فهم ثابتون حيث كانوا ، أما القروى الحر فلم يكن أقل ارتباطا بالأرض من رفيقيه سالفى الذكر ، وذلك لأن السلطات المركزية كانت تكره للناس هجران الأرض الزراعية بأى شكل من الأشكال[٣] .

---

(2) Ibid, p. 91.

(٣) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٤٨ .

وقد ساعد على زيادة تكدس الملكيات فى أيدى فئة معينة أن الدولة كانت تمنح الأرض كمكافأة لأداء الخدمة العسكرية ، وبذلك خلقت طبقة من صغار الملاك الوراثيين العسكريين[4] . ولم يلبث أصحاب الأرض الكلية أن ظهروا رويدا رويدا مع استتباب الأمن والنظام من جديد ، فعندئذ يتحمل الغنى على كاهله التزامات الفقير ، فيدفع عنه الضرائب مقابل استيلائه على محصولاته وبذلك يحيله الى مستأجر أو الى مولى أرض ، وقد يخفق المحصول أحيانا . وعندئذ لم يكن مالك الأرض الصغير ليستطيع أن يعيش كرجل حر ، أو لعل قرويا يقضى نحبه تاركا للكنيسة ما ملكت يداه وذلك فضلا عن أن الكنيسة كانت شأن النبلاء تحاول استثمار أموالها فى الأرض الزراعية ، وهكذا ظهر أغنياء أرض عظام جدد منهم العلمانى ومنهم الكنسى[5] .

والحقيقة أن الفترة التى ندرسها تعتبر من أوضح فترات التاريخ البيزنطى فقد ظهر فيها قانون الفلاح الذى أصدره الامبراطور ليو الثالث وكان ملحقا للاكلوجا ، والذى سبق وان عرضنا له — فكان هذا القانون هو الأساس الذى يفسر لنا مدى الجهود التى بذلها الأباطرة لحماية الممتلكات الصغيرة الخاصة بالفقراء من جشع الأقوياء ، وتحسين أحوال عمال الزراعة ، وزيادة عدد القرى مما أدى الى منح عدد كبير حرياتهم وممتلكاتهم[6] .

القرية البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع .

يميز لنا هذا القانون الفرق بين القرية الحرة ، والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاك . فقد كان الفلاحون فى كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التى يزرعونها سواء بسواء ، لكن بينما كانت الأرض فى القرية المملوكة ملكا للسيد وهو المسئول أمام الدولة عن جميع الضرائب بالنيابة

---

(4) David, T. Rice «op. cit.» p. 22.
(5) Finlay «History of the Byzantine Empire» p. 198.
(6) Diehl «op. cit.» p. 92.

عن عبيده ممن ليس لهم الحــق فى امتــلاك الأرض فهى تحت تصرف سيدهم ، كانت الأرض فى القرية الحرة التى يسكنها المعمرون تخص جماعة القرية أو المزارعين انفسهم وكان هؤلاء أحرار فى امتلاك الأرض أو التصرف فيها • ولو أننا دخلنا قرية حرة من أراضى الدولة البيزنطية لرأينا أن الأرض تشتمل على الكروم وأراضى البساتين التى كانت تزرع فيها الخضر وكذلك الأراضى المفلوحة والمراعى(٧) وكانت أراضى المراعى هى تلك التى لم تكن صالحة للزراعة كالأراضى التى لم تقطع أشجارها والأراضى الوعرة ، وكانت هذه تقع على أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها ، وكانت على الأغلب ملكا للجماعة ثم يمتلكها المــزارعون قطعة فقطعة — ثم تنظف وتعد للزراعة ، ثم تقسم وبهذا تدخل قطعة جديدة فى ملكية الأفراد • وقد تكون الأحراش ملكا للأفراد ، فاذا أراد أحد من المزارعين أن يزرع قطعة منها ، طلب الى صاحبها أن يأذن له بزراعتها ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بغلتها ثلاث سنين تعود بعدها الى صاحبها ، لكنه اذا زرعها دون اذن فله الحق فى المطالبة بمحصولها •

وكان رعاة الماشية يسوقونها فى الصباح الى هذه الأحــراش العامة لترعى وبصحبتهم كلابهم القوية الشرهة ، حتى اذا اصطبغ الأفق بحمرة الشفق عادوا بها الى حظائرها • وكان كل خروف أو ثور يحمــل جرسا حول عنقه لئلا يضل ، واذا تجرأ لص وقطع الجرس وتسبب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه الزم بدفع تعويض مقابل الخسارة(٨) •

وكانت دعامة ثروة جماعة القرية هو ما يملك من قطعان الماشــية بأنواعها ، وكان الراعى يأخذ أجره على عمله فيعهد اليه المالك الصغير بثوره الخاص وخروفه فيرعاهما مع القطيع • فاذا شرد حيوان وأحدث ضررا للأرض المزروعة أو الكروم لم يضع على الراعى أجره بــل الزم

(7) Baynes «op. cit.» p. 85.
(8) Ibid, p. 86.

بتعويض الخسارة ، وكانت الحيوانات المفترسة تحوم حول القــرية كالذئاب التى كانت تترصد الخراف والحمير لتفترسها ، واذا هاجمت هذه الوحوش القطيع ليلا فالويل كل الويل للص الذى يتضح أنه سرق كلب الحراسة اذ كان يلزم بدفع قيمة الخسارة ، فيدفع تعويضات عن القطيع جميعه والكلب •

وكان يسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقــايا الزرع ، الا أنه لم يكن يسمح لرجل أن يطلق ماشيته فى أرضه الا اذا فرغ كل جيرانه من حصادهم • ويمكننا تصوير الحياة لجماعات الفلاحين ممـا بين أيدينا من المصادر[٩] • ولا يسمح لنا المجال هنا الا باضافة بضـع نقط أخرى أولها يختص بمكانة المزارع • فقد يكون صاحب حصة من الأرض ، ويستطيع فى هذه الحالة أن يتصرف فيها تصرفا مطلقا فى حدود دائرة جماعته • وقد يكون مستأجرا للأرض وهو فى هذه الحالة أحـد اثنين اما مزارع لزراعة فى حالة جيدة أو مستأجر لأرض لم تكن تزرع على شريطة أن يعيدها بعد أجل معين •

ففى الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيسى لاقامة ما يلزم من الأبنية فى المزرعة ، ولا تؤجر المزرعة فى هذه الحالة الا لمدة قصيرة قد تكون سنة ، فيدفع المزارع للسيد أجرا باهظا يبلغ نصف المحصول السنوى وهو ما يقابل فى حسابنا أكبر أجر يمكن دفعه ، وعلى المؤجر فى الحالة الثانية أن يقدم رأس المال أى أنه يقوم فى واقع الأمـر بانشاء مزرعة جديدة • ويكون استئجاره للأرض فى هذا اما للأبد أو لعدد كبير من السنين وما يدفع عادة أجرا يساوى عشر المحصـول • وربما كان يلزم بمقتضى شروط أخرى ، أن يؤدى لصـاحب الأرض خدمات أو أن يؤدى اليه أجزاء من المحصول • أما المزارع المالك لأرضه فقد كان حقه فى حرية التصرف فى أرضه خاضعا لشرط جديد[١٠] •

---

(9) Ibid, p. 87.
(10) Ibid.

وكانت روابط القرية فى الجماعات القروية متينة جدا بطبيعتها ، واذا وجدنا هناك فلاحين مشتركين فى ملكية أرض ، فلا بد أن نجد أنهما متصاهران فى نفس الوقت غالبا ، فاذا أراد أحدهما بيع نصيبه كله كان لقريبه حق الشفعة اذا دفع ثمنا مساويا لما يدفعه أى غريب عنهما ، وحتى اذا لم يكن المتجاورون أقرباء وكانوا شركاء تمتعوا بحق مشابه .

وبعد فترة من الزمن أصبح هذا المبدأ يستند على أساس جديد فيما بعد واتسع ميدان تطبيقه ، فجماعة القرية كما نرى مسئولة معا أمام الدولة عن الضرائب ، فاذا بقيت قطعة من الأرض المنزرعة بدون زراعة بسبب طارىء كهروب صاحبها مثلا أجبرت الدولة مالكا قادرا على أن يتولى زراعة تلك الأرض ، وألزمته بالأموال المقررة عليها ، وذلك لكى تؤمن الدخل ، ولا يشترط فى هذه الحالة الا أن تكون مساحة هذه الأرض متوسطة اذا قورنت بأملاكها الأولى ، وأخذ كل عضو من الجماعة تبعا لذلك يهتم بايفاء دين الآخر ، وأصبح حق الشفعة فى النهاية من حق كل فرد فى القرية بل أصبح يعتمد على مصلحة المجموع المالية لا على القرابة والمجاورة(١١) .

ويرى الأستاذ ديل أن نجاح هذه الجهود كان جزئيا ، فقد نمت الاقطاعات وكثر عدد الأقنان المرتبطين بالأرض ، وكثرت المشاكل الاجتماعية التى هددت سلام ورخاء الدولة . أما ما نجحوا فيه فهو الغائهم لنظام موالى الأرض Serf Dom (١٢) .

الزراعة فى آسيا الصغرى :

تقع جميع مناطق آسيا الصغرى البيزنطية ضمن مناخ البحر المتوسط ، وهو مناخ معتدل بارد شتاء حار جاف صيفا ، الى جانب

---

(11) Baynes, Ibid.
(12) Diehl «op. cit.» p. 92.

تمتعها بالتربة الخصبة التى تسمح بانتاج وفير خاصة من الحبوب •

ومن أخصب هذه المناطق المنطقة الغربية والجنوبية الغربية التى ظلت مركزا لانتاج الحبوب الذى أنعش الاقتصـــاد البيزنطى ، ومن اهم مناطق الانتـاج الأخرى ما كان يزرع حول المدن الكبرى مثل أماســيا وأنقرة فى الشـــمال وقونية فى الوسط وقيايقيا فى الجنوب ، أما فى الشرق حيث المناخ جبلى قاسى خاصة فى منطقة جبال القوقاز ، ومدن هذه المنطقة قليلة ، وقراها صغيرة ، والانتاج الزراعى الذى ننتجه هذه المناطق ضعيف ولا يكفى الا الاستهلاك المحلى • ويكثر فى هذه المناطق المراعى التى يرعى فيها المواشى والماعز ، وهى تعتبر مصدر الثروة الحيوانية الهام للامبراطورية ، ويكثر بهذه المناطق أيضا المناجم التى تغذى الامبراطورية بالمواد الخام الهامة(١٣) •

الزراعة فى منـــاطق بحر أيجه :

ان الزراعة فى منطقة بحر ايجه تعتبر مماثلة لـــا ذكرناه عن مناطق آسيا الصغرى • فالمناطق الداخلية فى بحر ايجه جبلية ووعرة وتتركز الزراعة فى هذه البلاد فى المناطق الساحلية والمنتجات الزراعية تكفى الاســتهلاك المحلى ، وقليل من هذه المنتجات يقومون بتصديرها • ومن أهم المـــواد الزراعيـــة التى يصـــدرونها النبيذ • والواضح أن الامبراطورية البيزنطية لم تعتمد كثيرا على هذه المناطق اقتصاديا • وكل ما تحتاجه من هذه المناطق القوة البشرية التى تسخر فى الحروب • فقد كان معظم جيش الامبراطورية من سكان بحر ايجه ، خاصة تراقيا والشـــمال • ومن أهم المناطق الزراعية المناطق الشـــمالية عند سالونيك والمنطقة التى نحو الشرق فى اتجاه تراقيا • فتنتج هـــذه المناطق أهم الغـــلات الزراعية فى المنطقة • لكن رغم ذلك فان مناطق بحر ايجه لا نستطيع أن نماثلها ونقارنها بمناطق آســيا الصغرى فى الأهمية

---

(13) David, T. Rice «op. cit.» p. 38.

الاقتصادية بالنسبة للامبراطورية ومما يدل على ذلك أنه عندما سقطت مدن آسيا الصغرى فى أيدى السلاجقة فى القرن الثانى عشر ، انقسم ظهر الامبراطورية اقتصـاديا وانهارت انهيارا لم تتمكن من مقاومته • فآسيا الصغرى هى المنطقة الاستراتيجية الهامـة التى تربط الدولة بالشرق ، وهى مورد الطعام والغذاء والقوة البشرية للبيزنطيين[١٤] •

الضرائب والاقتصـاد النقدى

كانت الضرائب الزراعية التى تفرض على الأرض من أهم موارد الدولة وتمثل نسبة كبيرة من ميزانية الدولة • فقد كان ملاك الأرض يخضعون لضرائب تتغير قيمتها تبعا لتغير الظروف •

فقد كان القروى الحر مكلف بأنواع معيـنة من الضرائب على ما يملك من أدوات ومواش والممتلكات وكان ورثته أيضـا من بعده مكلفين بذلك ، ووضعت له العراقيل فى سبيل تخلصه من أرضه ، لذلك لم يكن بمستطاع بحال أن يغادر القرية ، واستحدث القوم نظاما جديدا زاد أغلاله احكاما وثيقا ، ذلك أن المجتمع القروى فرضت عليه الضرائب كمجتمع متكامل أى كوحدة ، فان أخل واحد منهم زاد العبء الملقى على جيرانه جميعا ، لذا صار من مصلحتهم الاحتفاظ به يعمل بين ظهرانيهم[١٥] •

والى جـانب الضرائب التى كانت تفرض على الأراضى فهنـاك ضرائب كانت تفرض على المنازل والمخازن التى يؤجرونها للتجـار ، الى جانب أن الحكومة كانت لها امتيازات كثير من المصانع ، وهناك ضرائب الجمارك التى كانت تمثل نسبة ١٠٪ على الصادرات والواردات وضرائب على الأقنـان وضرائب سـكان المدن ، وضرائب البضـائع

(14) Ibid, p. 39.
(15) Theophanes «op. cit.». p. 471.

الاستهلاكية وضريبة التركات[١٦] .

ومن أهم معالم السياسة الاقتصادية البيزنطية أنها عملت على القضاء على نظام التعامل العينى واستبدلت به الاقتصاد النقدى . أى التعامل بالنقد .

ويروى الأستاذ أوستروجورسكى أن الاقتصاد البيزنطى أصبح اقتصادا نقديا بعد القرن الثامن . فقد كانت العملة هى أساس دفع مرتبات الموظفين والجنود وأجور العمـــال حتى القروض التى كانت تمنح للتجـــار وملاك السفن كانت نقدا أيضا[١٧] .

أما نورمان بينز فيعزو ذلك الى نقاء عملتها الذهبيـــة فيذكر أن العـــالم جلزر Gelzr ذكر « ان الحكومة الرومانيـــة لم تجد من عصر دقلديانوس الى الكسيوس كومنين فى فترة مدتها ٨٠٠ ســـنة نفسها فى وضع يضطرهـــا الى اعلان افلاسهـــا أو التوقف عن الدفع ، ولن نجد فى العـــالم القديم أو الحاضر شيئا يشبه هذه الظاهرة . لقد ضمن هذا الاســـتقرار العجيب فى السياسة المـــالية الرومانيـــة « البيزنطية » عملته العالميـــة ، فقد كانت مقبولة عند جميـــع الأمم المجاورة بسبب وزنها المضبوط كأساس ثابت للتعامل ، واستطاعت بيزنطة أن تسيطر بنقودها على كلا العالمين المتحضر والبربرى »[١٨] .

ومن أهم بنود الانفاق الذى كانت تنفق فيها الدولة هذه الأموال النقدية أولا الانفاق على الجيش والأسطول حيث كان الجنود والضباط يتقاضون أجورا عالية الى جانب مرتبات الجنود المرتزقة وهناك نفقات البلاط التى لم يكن هناك سبيل الى تقليلها مع أنها كانت باهظة[١٩] .

(16) David «op. cit.» p. 122.
(17) Ostrogorsky «op. cit.» p. 138.
(18) Baynes «op. cit.» p, 121.
(19) David, T. Rice «op. cit.» p. 122.

وهناك كثير من المنشئات العامة مثل القناطر والصهاريج والمؤسسات الخيرية والأسوار التى يبنونهـا حول المدينة والتى تمتد الى ما يقرب من عشرين كيلو متر ، الى جانب اضطرار الدولـة الى دفع الجزية المفروضة عليها من الذهب الخالص • كما حدث زمن الامبراطورة ايرين حينمـا اضـطرت الى دفع الجزيـة من الذهب للخليفـة هـارون الرشيد الذى وصلت قواته الاسـلامية الى افسوس وهرقلة المواجهة للقسطنطينية(٢٠) •

ثانيـا ــ الصناعة :

لعل أبرز الصناعات التى برزت من خلال دراسـتنا لهذه الفترة كانت تدور فى فلك المنسوجات التى كانت تتشابه مع ما تنتجـه بلاد الشـام •

فقد كان لاهتمـام الامبراطورية الشـديد بالصناعات الحريرية بالذات ، وكثرة استخدامها أن قاموا باحتكار المصانع التى تصنع هذه المنسوجات حتى ان الناس كانوا يتهافتون على العمل فى هذه المصانع ، وكان معظمهم من الرجال لأنهم لم يثقوا فى النسـاء ظنا منهم أنهن غير جديرات بحفظ أسرار الصناعة وسيقومون بافشائها(٢١) •

كما قامت الحكومـة الامبراطورية باحتـكار جميع المنسوجـات الحريرية الأرجوانية اللون بالذات ، وحرمت بيعها أو تصديرها وكل من يقبض عليه متلبسـا بتهريب شيء منها يقع تحت طائلة القانون ــ ويرجع ذلك الى أن الدولة كانت تخصص هذا اللون كرداء رسمى يلبسه جميع من يعملون فى القصر الامبراطورى(٢٢) •

(20) Pirenne «op. cit.» p. 210.
(21) Ibid, p. 118 & Diehl, «op. cit.» p. 86.
(22) Charanis, The Social Structure of the Later Roman Empire, p. 50 — 51.

ومن أهم الصناعات التى شاعت فى هذه الفترة المصنوعات الذهبية . فقد ظلت القسطنطينية هى المركز الرئيسى للصناعات الجيدة ، من أهمها صناعة الأطباق المذهبة التى تحمل علامات وشارات فنية معينة ، وكان يقوم على صناعتها عمال تابعين للامبراطور . الى جانب حفر العاج وتشكيله وصناعة المصوغات وحلى النساء التى اشتهرت بصورة كبيرة جدا فى هذه الفترة(٢٣) .

كما اشتهرت صناعة قماش البروكار المطعم بالذهب والشاش الجيد الى جانب صناعة الأسلحة والزجاج .

ويصف الأستاذ ديل القسطنطينية بأنها كانت قلعة للصناع ويقول أن المحلات التى كانت على جانبى شارع الميز لا يمكن منافستها وهى تكتظ بالمصنوعات المحلية التى صنعت فى القسطنطينية وهى آية فى الروعة والجمال ، وكلها مطعمة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وهناك وفى سوق أركاديوس بالذات توجد مجموعة كبيرة من الصناع يعرضون مصنوعاتهم والصياغ الذين تفننوا فى تشكيل القطع الذهبية الى أشكال جذابة تجذب الناظرين وصناع الجلود الذين فاقوا غيرهم من أهل هذه الفترة فى مصنوعاتهم وصناع الشمع ، وصناع النحاس المكفت وغيرهم(٢٤) .

ولعل الصناعات الكيماوية التى اشتهر بها البيزنطيون لتتمثل خير تمثيل فى النار الاغريقية التى عرفوها منذ زمن طويل وظلت فنا قتاليا يتميزون به ويحتفظون بسر تركيبه ، وتمكنوا من خلاله من احراز النصر على أعدائهم(٢٥) .

وقد انتظم معظم الصناع فى اتحادات أو نقابات . فقد كان لكل صناعة من الصناعات نقابتها ، ولا يجوز لأى انسان أن ينتسب الى

---

(23) Ibid, p. 121.
(24) Diehl «op. cit.» p. 82.
(25) Buckler «op. cit.» p. 215.

نقابتين فى وقت واحد ، وكل نقابة تعين رئيسها الذى كان من الضرورى فيما يحتمل أن يوافق والى المدينة على تعيينه ، وكانت النقابة كوحدة كاملة تشترى المواد الخام التى تلزم الصناعة وتقسمها بين أعضائها الذين كانوا يبيعون السلع المصنوعة فى مكان عام معين بسعر محدد بديوان الوالى.وكانت ساعات العمل وأجور العمال تقرر بنفس الطريقة. ولذا لم يعد للوسطاء أدنى ضرورة ، وكل محاولة لشراء مقادير ضخمة من البضائع وبيعها بالتجزئة فى الأوقات المناسبة كانت محظورة حظرا أكيدا[٢٦] .

ولم يكن فصل العمال من المصانع ممكنا دون أن يعود ذلك بأعظم الصعوبات والمشاكل ، فان عطل أى رجل صحيح الجسم عن عمل يقوم المسئول مباشرة بتكليفه بعمل جديد من الأعمال العامة ، ويقول فى ذلك ليو الأيسورى فى مواد الاكلوجا « ان الكسل يورث الجريمة ، وكل فائض ناتج عن عمل الغير ينبغى أن يعطى للضعفاء لا للأقوياء »[٢٧] .

ويذكر الأستاذ ديل فى ذلك أن القسطنطينية كانت قلعة الاحتكارات والامتيازات وحماية الانتاج الوطنى . فالصناعة كانت تحت رقابة الدولة ، كما قامت بتنظيم النقابات التى كان لكل واحدة منها مجالا معينا . ولم يترك متسعا للعمل المستقل أو للحق الفردى . فكانت الدولة تتدخل فى تحديد كميات البيع والشراء ونوعية المصنوعات ، وتتحكم فى الأسعار ، وتحدد الأرباح ، وتفرض تفتيشا دوريا على المحلات والدفاتر التى يمسكونها . وتمنع تصدير هذه السلعة أو تلك طبقا لنظام حماية المصنوعات المحلية ، وتحقق فى ذلك مع من يتهم بالخروج على القانون ، وكانوا يفاجئون التجار بحملات فمثلا كانوا يمنعون استيراد الصابون من مرسيليا لأنه ينافس الصناعة المحلية ، كما يمنعون تصدير الحرير الأرجوانى . حتى أصبحت هناك قوائم تسمى « قوائم المصنوعات

---

(٢٦) رنسمان « الحضارة البيزنطية » ص ٢٠٨ .
(٢٧) المرجع السابق ص ٢٠٩ .

الممنوعة » وهى التى يحظر بيعها للأجانب • فكان المصنع يجهز البضائع التى سيقوم بتصديرها فيخطر بها والى المدينة الذى يقوم بفحصها ثم يعطى المصنع تأشيرة تتضمن الموافقة ، ويقوموا بختمها بختم الامبراطورية(٢٨) •

المناجم والتعدين :

لم تقتصر الأهمية الاقتصادية لمنطقة آسيا الصغرى على أنها مركزا زراعيا ، ومركز لامداد الامبراطورية بالقوة البشرية ، بل انها كانت منطقة تحوى عددا كبيرا من المناجم التى اكتشفت فى العصور القديمة ، وظلت على كفائتها طوال العصور الوسطى ، فكانت تعطى كميات كبيرة مما تخزنه الأرض من خيرات •

وقامت الامبراطورية البيزنطية باحتكار هذه المناجم وجعلتها ملكا خاصا لها يحظر على أى فرد أن يستغلها ، وجميع ما تنتجه كان يصنع فى المصانع الامبراطورية ، وتختص وحدها بأرباحه •

وأهم المناجم كانت تقع اما فى جبال بونطس بين طرابيزون وكارسى « خورصه » أو فى جبال طوروس • ومن أهم ما تغله هذه المناجم خام الذهب • وهناك مناجم اخرى بالقرب من الشاطىء وكذلك فى منطقة القوقاز • أما الفضة فتركزت فى جبال طورس بالقرب من نهر دجلة(٢٩) •

ثالثا — التجارة :

لا شك أن الموضع الجغرافى الممتاز للقسطنطينية قد حقق لها رخاءا اقتصاديا كبيرا • فهى تقع عند ملتقى آسيا وأوربا والشرق بالغرب ، وهذا الموقع الفريد جعلها ملتقى لطرق التجارة العالمية •

---

(28) Diehl, «op. cit.» p. 90.
(29) David, «op. cit.» p. 42.

والمعروف تاريخيا أن الامبراطورية البيزنطية امتلكت أسطولا ضخما ، وحققت سيطرة اقتصادية كبيرة طوال القرون السابقة على دراستنا ، وكان تفوقها البحرى موضع اعتبار العالم واعجابه . واستطاعت سفنها أن تجوب البحار تحمل التجارة ، ورست فى شواطئها قوافل التجارة العالمية لتفرغ فيها المنتجات والبضائع التى تحملها . فأصبحت وسيطا تجاريا الى الشرق والعالم الغربى مما كان له أكبر الأثر فى الرخاء الاقتصادى الذى شهدته ، والمقتنيات والكنوز التى زخرت بها قصورها وكنائسها . والتى كانت مثار اعجاب كل الأجانب الذين زاروها . ولنا أن ندخل مباشرة على حركة التجارة فى القرنين الثامن والتاسع واللذان يشهدان أزهى عصور الازدهار التجارى . فقد كانت لبيزنطة أكبر قوة بحرية فعالة فى مياة البحرين المتوسط والأسود . واحتفظت بسيادتها البحرية التى كسبتها عام ٧٤٧ م ، ولم يعد هناك منافس للأسطول الامبراطورى وسيطرت بيزنطة الى حد كبير على صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار ، وتحكمت فى المضايق ذات القيمة الحربية الهامة الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، وصار اشراف القسطنطينية البحرى دقيقا وكاملا بفضل قيام أسطولها بدورات تفتيشية على سواحل الأعداء وحيلولته دون استخدام العرب المنافسين لبيزنطة لمياة البحر المتوسط[٣٠] .

ويرى الأستاذ فنلى أن القسطنطينية كانت هى أهم مرفأ تجارى فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، فيرى أنه بينما قضى شارلمان على التجارة الداخلية فى مملكته بتثبيت الأسعار الى أعلى درجة ؛ وقضى على التجارة الخارجية بحجة القضاء على مظاهر الترف حتى يمنع أعدائه من تكديس الثروات — التى قام بعد ذلك بالاستيلاء عليها . وضمها الى ثروته الشخصية — فقد نجح الأيسوريين ومن بعدهم

---

(٣٠) ارشيبالد لويس « القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط » ص ١٥٨ ترجمة احمد عيسى .

العموريون فى جعل التجارة هى المصدر الأول لثروة الشعب ، كما رأوا أن أى تدخل فى حرية التجارة يعتبر فيه اضرار لمصالح الفرد والجماعة(٣١) .

أهم الموانى فى الامبراطورية :

امتلكت الامبراطورية البيزنطية مجموعة كبيرة من الموانى الهامة فى جميع أرجاء الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط وهناك موانىء فى الأناضول مثل طرطوس ، وأضاليا ، وافسوس وفوكييه وعلى البحر الأسود طرابيزون فى الجنوب حيث كانت مركزا وسوقا تجاريا كبيرا ، وخرصون فى الشمال وهى مركز تجارى هام لبلاد الخزر وروسيا . وعلى شواطىء اليونان هناك موانىء نوبليا ، وكورنثه وبتراس وأثينا ونيجربونت ، ودورازو وأغلونا وكورفو على البحر الأيونى ، وعلى رأسهم جميعا سالونيكا وهى أكبر مركز تجارى فى أوربا بعد القسطنطينية وهو ميناء ضرورى لجميع أنواع المتاجر بين الأدرياتى والبسفور والمنفذ الطبيعى لصادرات البلقان من العبيد . ففى نهاية أكتوبر من كل عام ، وأثناء عيد القديس ديمتريوس كان يعقد سوق مشهور فى فاردار ، حيث يباع فيه العبيد اليونانيين والايطاليين ، والكلت ، وأناس من شواطىء المحيط البعيد . وهناك موانىء أخرى مثل تراقيا ، وهيراقليا ، وسيلمبريا ، وورودستو(٣٢) .

السياسة التجارية للامبراطورية البيزنطة :

شجعت الامبراطورية مواطنيها على المتاجرة مع البلاد الأخرى . والدليل على ذلك ما أصدره الامبراطور ليو الثالث من تشريعات بحرية أهمها « القانون البحرى الرودسى » الذى أشرنا اليه مسبقا ، والذى صار بمقتضاه ربابنة السفن أحرارا فى تصرفهم ، لهم أن يتجهوا

(31) Finlay «op. cit.» p. 194.
(32) Diehl «op. cit.» p. 88.

للحصول على شحنات لســفنهم حيث شاءوا(٣٣) . وهذا يوضح لنا أن الامبراطورية بدأت تغير تفكيرها فبدلا من أن تستورد البضائع مباشرة من الخارج فضل البيزنطيون ترك مهمة جلب هذه المتاجر الى آخرين . فقد شجعوا الأجانب أن يأتوا ويبيعوا ويشتروا فى أسواق القسطنطينية فأصبحت القسطنطينية بذلك مركز العالم التجارى ، وملتقى جميـع الأجناس حتى وصلت الى مرحلة من الثراء ، وارتفع مستوى دخلها ، وتعددت أنواع البضائع التى اكتظت بها أسواقها ، فرأت الحكومة فى ذلك زيادة فى مركز وقوة العاصمة حتى غدت القسطنطينية منافســا خطيرا للعــالم الغربى(٣٤) .

ولعل هذه السياسة الاقتصادية أعطت الفرصة لقوى أخرى أن تقوم بالعمليات التجارية ، وأن تتصل بموانى الشرق ، وتثرى فنجحت هذه القوة التجارية مستقبلا فى أن تحل محل الدولــة البيزنطية فى النشاط التجارى فى عالم البحر المتوسط .

وكان يكتنف حياة التجارة والأعمال بالامبراطورية من كل جانب عدد لا يحصى من اللوائح والتنظيمات ، وكانت الدولة تبذل الحماية الجمركية ، وتفرض رسوما على البضائع للحصول على دخل كبير يقدر بحوالى ١٠٪ على الصــادر والوارد ، وكانت هناك قائمة بالمواد التى تدفع عنها الضرائب منها البهار والقطن الخام والجلود الغالية ، والعاج والأحجار الكريمة والأصبغة والأصواف الشرقية ، وكذلك تحصل المكوس على العبيد ، والغلمان والخصيان(٣٥) . وقد حاولت الامبراطورة ايرين ارضاء التجار ، فقامت بتخفيض الرسوم الجمركية على ضفاف البسفور والدردنيــل(٣٦) .

---

(33) Charanis «op. cit.» p. 55.
(34) Diehl «op. cit.» p. 89.
(35) Baynes «op. cit.» p. 120.
(36) Finlay «op. cit.» p. 194.

وقامت الدولة كذلك بمنح امتيازات للتجار الأجانب وكانت للدولة احتكارات مثل تجارة الحرير ، وصناعة الأسلحة ، وهناك كذلك قوانين تحدد نوعية البضائع المسموح بتصديرها،والغير مسموح بها ٠ ومن النوع الأخير المواد الخام التى يحتاجونها داخليا والسمك الملح[٣٧] ٠

وقد منعت الدولة البيزنطية القروض الربوية قانونا ما عدا بعض الحالات التى سمحوا بها لتشجيع التجارة ، ويرى الأستاذ بيرين أن الكنيسة الغربية نجحت منذ القرن التاسع فى فرض مبدأها الدينى بتحريم الربا والقروض التجـارية بفائدة على جميع أرجـاء العالم المسيحى ، واعتبرت ذلك خطيئة كبرى ، وكانت تقدم كل من يقتـرف الربا الى المحاكم الكنسية ، توقع عليه أشد العقاب ٠ اما التجارة فكانت فى نظرهـا أقل اثما من الربا لصلتهـا بالحياة المـادية دون الروحية ، ويرى أن الكنيسة أفتت بذلك تحقيقا لصالحهـا ، ورغبة منها فى تقوية سلطانها الروحى[٣٨] ٠

وقد حددت الامبراطورية وسطاء معينين خاضعين لرقابتهم للقيام وحدهم بتوزيع التجارة الشرقية فى بلاد الغرب الخاضعة للفرنجة ، ولم تسمح بيزنطة للتجار الكارولنجيين بالاتجار المباشر مع مصر وسوريا ، فعندما استولى الضعف على دولة الكارولنجيين عادت بيزنطة الى مقر التعامل فى السلع التجارية التى كانت تحتكرها المدن الايطالية التى كانت تدين لها بالولاء[٣٩] ٠

الطرق التجارية والأسطول :

كانت هناك طرقا تجارية مختلفة تعبر الدولة البيزنطية أو تؤدى اليها ، ومعظم التجارة الشرقية التى كانت تأتى من جنوب شرق آسيا والهند كانت تصل الى القسطنطينية عبر الطرق الرئيسية التى تصل اما

---

(37) David, R. «op. cit.» p. 121.
(38) Pirenne «op. cit.» pp. 28 — 29.
(39) Pirenne, Ibid.

الى البحر الأحمر ومصر ومنه برا الى الاسكندرية حيث تنتقل التجارة الى القسطنطينية ومنها الى الغرب أو أن تأخذ طريق البحر الى الخليج الفارسى ومنه الى بلاد الشـام حيث يأخذ طريقه فى البحر المتوسط الى القسطنطينية أو أن تجتاز الهند وأفغانستان ووسـط فارس الى نصيبين ومنهـا الى بلاد الشـام أو أن يخترق طريقا جنوبيا عبر شمال ايران الى نصبين على الحـدود الرومانيـة أو عن طريق أرمينية الى طرابيزون وهناك طريق يمر عبر التركستان الى بحر قزوين ثم يسير أما عن طريق الشمال الى نهر الفولجا فالبحر الأسود عند خيرصون(٤٠) .

وكانت هناك طرقا أخرى هامة تمر فى نيقوميديا ، وتسير محاذية شاطىء البحر الأسود الى أماسيا ، والثانى يسير فى الجنوب الشرقى الى دوريليوم ثم يتفرع اما فى اتجاه الشرق الى أنقرة أو فى اتجاه الجنوب الى قونية وكلما مر الزمن اتضحت أهمية هذه الطرق ، حتى أصبحت فى وقت من الأوقات أهم الخطوط الحربية والتجارية .

أما فى أوربا فكان هناك الطريق القديم طريق اجناتيا Via Egnatia الذى يسـير من القسـطنطينية الى أدرينبول وثيـابوليس وفيليبى وسالونيكا ، الى جانب طريق آخر هام فى الشـمال يؤدى الى بلغاريا ، وهناك طرقا أخرى كثيرة(٤١) .

وقد امتلكت الدولة البيزنطية أسطولا ضـخما سيطرت به على تجارة البحر المتوسط — قبل ظهور المدن الايطالية فيما بعد — وامتلك الأسطول النار الاغريقية والخشب والحديد الى جانب التنظيم الدقيق ، كما تمكن هذا الأسطول من الاستيلاء على جزر البحر الأبيض . اذ كونت جزر البليار وسردينية وكورسـيكا سـلسلة من الحواجز تجاه

---

(40) Heyd «Histoire du Commerce du le vant au moyen age, Vol. I, pp. 20 — 24.

(41) David «op. cit.» p. 41.

شواطىء أسبانيا وشمال افريقيا ، يضاف الى هذا أن اشراف بيزنطة على مضيق مسينا وعلى جانبى مدخل البحر الأدرياتى حال دون مرور أية سفينة — كانوا يريدون منعها من السفر من الغرب أو اليه . كما أن الطريق الممتد على سواحل البحر المتوسط الجنوبية بين مصر وشمال افريقيا كان شديد الخطورة على الملاحة على الرغم من امكان استخدامها . وتقع هذه الطرق على طول خليجى قابس وسدره حيث تهب رياح شمالية لا تعترضها كتل أرضية تقى أو تحد من هبوبها والواقع أن الموانى الصالحة لرسو السفن قليلة جدا فيما بين برقة وطرابلس . ولذا كانت الطرق المألوفة بين الشرق والغرب هى الطريق المارة بكريت وقبرص وعلى طول ساحل آسيا الصغرى الجنوبى . هذا الى جانب استخدام الطريق المباشر بين كريت والاسكندرية . وفى استطاعة القوة البحرية البيزنطية على طول هذه السواحل كلها ، أن تقف فى وجه التجارة المتوجهة الى الغرب أو الذاهبة الى مصر والشام وشمال افريقية ، واذا أمكن لسفينة أن تفلت من هذا الحصار عند مكان ما فهناك فى أماكن أخرى يمكن منعها من الافلات مرة أخرى . وهذا الوضع مكن بيزنطة من محاصرة البحر المتوسط سواء أكان فى وسطه أم على طول سواحل شمال افريقيا من جهة الغرب أو على الطريق الدائرية للتجارة بين الشرق والغرب(٤٣) .

على أن الرقابة التجارية البيزنطية لم تقف عند مجرد حظر مرور التجارة الدولية فى مواضع خاصة ومنع مرورها فى مواضع أخرى فيما بين عامى ٧١٦ — ٨٢٧ ، بل كانت لها أهمية أخرى ترتبت عليها نتائج ربما لم تكن منظورة بالنسبة لتشكيل التجارة فى حوضى البحرين الأسود والمتوسط ذلك أن هذه الرقابة أدت الى تغيير الوسطاء الذين كانوا يقومون بالتبادل التجارى بين الشرق والغرب ، وعلى الرغم من نشاط بعض التجار الوطنيين فى ايطاليا وشمال افريقيا ، فان التجارة

---

(٤٣) لويس « المرجع السابق » ص ١٤٢ .

بين الشرق والغرب ظلت حتى عام ٧١٦ م فى يد الشوام والمصريين واليونانيين واليهود واستقر التجار المشارقة جلابو البضائع الشرقية فى مستعمرات لهم فى الغرب ومنه كانوا يرسلون السفن الى الشرق محملة بالبضائع الغربية(٤٣) •

وابتداء من عام ٧١٦ م حالت التدابير الاقتصادية البيزنطية دون وصول التجار الشـوام والمصريين الى أسواق الغرب ، والأكثر من هذا نرى البيزنطيين فى ختام القرن الثامن يحرمون على عدد كبير من التجار اليونانيين فى مناطق القسطنطينية وبحر ايجه وآسـيا الصغرى نقل هذه التجارة ، وهكذا ضيقوا الخناق على أنفسـهم وعلى منافسيهم العرب والتزموا فى الوقت ذاته باتباع سياسة اقتصادية سلبية تكاد لا تقل سلبية عن تلك التى اتبعتها كل من الشام ومصر • وانتهى الأمر بأن حددت بيزنطة عددا معينا من المنافذ التجارية واشترطت ألا تسلك التجارة غيرها(٤٤) • وبهذا حطمت ما كان للتجار من رعاياها من حرية التبادل التجارى خارج حدود الامبراطورية ، بل انها فعلت أكثر من هذا ذلك أنها جعلت توزيع البضائع الثمينة مثل الحرير والتوابل احتكارا لتجـار تلك المنافذ التجارية ولمن سمح لهم بالقـدوم اليها لأغراض التجارة فمن خرسون قام الخزر بتصدير البضائع البيزنطية الى روسيا وممتلكاتهـا ، ومن طرابيزون عاد التجار العرب والأرمن بالبضائع الى بلادهم ومن صقلية قام تجار شمال افريقيا بتوزيع بضائع القسطنطينية على سكان المغرب الأقصى وكان أكبر جميع الموزعين نصيبا تجار المدن البحرية وأمالفى ونابلى وجائيتا(٤٥) •

ولعل هناك شيئا هاما وهو أن ازدياد خروج عملية نقل التجارة من أيدى البيزنطيين الى غيرهم أدى الى التدهور الملحوظ فى قوة أساطيل

---

(43) Pirenne «Mohamed and Charlemagne» pp. 114 — 178.
(44) Heyd «op. cit.» pp. 55 — 56.
(45) Ibid & Pirenne «op. cit.» p. 255 — 260.

الأجناد البيزنطية فى بحر ايجه وكبيرها يوت ، اذ كانت تلك الأساطيل تعتمد على من تجمعهم بالقوة من ملاحى السفن التجارية . وهذا هو الذى يعزو اليه ضعف بيزنطة البحرى فى أوائل القرن التاسع أى أن ذلك الضعف يرجع الى اهمال فعلى من جانب الحكومة لشئون الأسطول ، وقد ترتب على هذا الضعف أنه لم يعد فى مقدور أساطيل صقلية وبحر ايجـه مواجهـة قوى بحرية ، كانت منذ قرن لا تسـتطيع أن تقفه أمامها(٤٦) .

أنواع السـلع والمتاجر

المعروف أن القسطنطينية كانت أكبر سوق تجـارى فى القرنين الثامن وأوائل التاسع ، وقد زخرت أسواقها بعديد من المتاجر القادمة اما من الشرق أو الغرب .

وقد تعددت السلع التجارية ومن أهمهـا التوابل والعقاقير الطبية والبخـور والعطور ، ومواد الصـناعة والصـباغة والمواد الغذائيـة والمنسوجات والصينى والزجاج والأحجار الكريمة وبعض المعادن .

واذا تكلمنا عن التوابل فيحتل الفلفل أهم سلعة فى هذه التجارة ، ولقد تسابق التجار فى الحصول على أكبر قدر منه ، وكان مصدر انتاجه ساحل الملبار وسيلان وجزر الهند الشرقية والهند الصينية ومن أهم استعمالاته تأثيره القوى فى علاج بعض الأمراض وادخاله فى صناعة النبيذ وحفظ الطعام(٤٧) .

وقد فصل الأستاذ ديل التجارة الوافدة من جنوب شرق آسـيا بأن البيزنطيين كانوا يستوردون الحرير من الصين واللآلىء والأحجار

---

(46) Bury «op. cit.» p. 317.
(47) Heyd «op. cit.» Vol. II, p. 663.

الكريمة من الهند بالاضافة الى التوابل والأعشاب الطبية • ومن بغداد وسوريا يجلبون الأقمشة الحريرية والكتانية ، والنبيذ الجيد والسجاد الفاخر ، وكانت دمشق وحلب وانطاكية المراكز الرئيسية للتجارة العربية • وطرق القوافل التى كانت تعبر وسط آسيا تنتهى عند أرمينيا حيث كانت مدينتها الكبرى أرزان Arzan سوقا هاما ، بينما كان ميناء طرابيزون يمد القسطنطينية ببضائع هامة والمنطقة الغنية فى جنوب روسيا تمد الامبراطورية بالقمح والسمك المملح والعسل والكافيار والفراء ، وجلود الحيوانات من الشمال والكهرمان والعبيد • وكانت خرسون هى المخزن الهام لكل هذه البضائع ، كما وصلت الى أسواق القسطنطينية أعدادا كبيرة من التجار الروس ومن البلقان استوردوا الشمع والعسل والسمك المملح ، وبضائع متنوعة من الصرب والبلغار •

كما كانت تحصل على المعادن المصنعة والغير مصنعة من الغرب والكتان المصنع والبطاطين والسجاد الصوفى من أسبانيا الى جانب النبيذ والملح(٤٨) •

أما الأستاذ داود رايس فيرى أنه منذ القرن التاسع بدأت الحياة المدنية تدب في الغرب ، وبدأوا يقبلون اقبالا شديدا على السلع الكمالية ، مما أدى الى ثراء القسطنطينية التى استفادت كثيرا من المتاجرة في هذه البضائع الشرقية • كما اننا لابد أن نرى مدى حاجة سكان الامبراطورية الذين تراوح عددهم ما يزيد عن نصف مليون ، فقد زادت الرغبة على هذه البضائع زيادة كبيرة بين رجال القصر الامبراطورى ، وكبار رجال الدولة وأغنياؤها ، خاصة الحرير والعاج والأحجار الكريمة والمعادن بينما الطبقات الفقيرة كانت هى المستهلكة للبضائع الاستهلاكية خاصة القمح(٤٩) •

(48) Diehl «op. cit.» pp. 87 — 88.
(49) David «op. cit.» p. 116.

وقد بدأت الامبراطورية تحصل على القمح اللازم لها من المناطق المحيطة بسالونيكا ، لكن كمية ما وصل الى العاصمة لم يكفى حاجة سكانها لذلك بدأت الدولة فى زراعته فى آسيا الصغرى ، والفائض قاموا بتصديره حتى تكونت طبقة من التجار الذين زادت أعدادهم وثرواتهم فى الفترة من القرن السادس الى العاشر(٥٠) .

ولعل أبرز شىء فى هذا الموضوع هو أن القسطنطينية هى التى كانت تمد التجار والمولين بالعملة المقبولة فى السوق وهى البيزانت البيزنطى الذهبى الذى لقى رواجا كبيرا وثقة بين المتعاملين(٥١) .

وهكذا ظلت مجموعة كبيرة من المدن البيزنطية تمد المستهلك الأوربى بالبضائع الهندية ، وعن طريقهم جلبت الثروات الى الخزينة الامبراطورية ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن مدن آسيا التى سقطت فى أيدى المسلمين لم تتأثر ، ولو أن هناك ظروفا جديدة ظهرت لتغير طريق التجارة الكبير من البلاد الاسلامية الى القسطنطينية ، حيث أصبح طريق البحر الأحمر — مصر مكلفا ، فقد قام الخليفة المنصور العباسى باغلاق القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر . فتأثرت بذلك تجارة مصر مع الهند والشواطىء الشرقية ، وبدأت أوربا تحصل على ما يلزمها من القسطنطينية(٥٢) .

ويستطرد الأستاذ هايد فى ذكر البضائع التى كانت تأتى الى القسطنطينية من أسواق الشرق الى جانب الفلفل والقرفة وجوزة الطيب والخلنجان والزنجبيل والزعفران والسنامكى والبلسم وبهار الهند والروائد الصينى والدبهان وصبغ الفوه والكافور والند والعطور والبخور مثل المسك والصندل والعنبر واللادن والمصطكى واللبان

---

(50) Ibid, p. 117.
(51) Finlay «op. cit.» p. 195.
(52) Ibid, p. 196.

الجاوى . ومن أهم المعادن المـــاس الذى كان يرد من الشرق الأقصى ووسط الهند(٥٣) .

وهكذا كانت تتجمع هذه البضائع وتتكدس فى أسواق القسطنطينية التى كانت تعدهـــا لتصدرها الى الغرب عن طريق صقليـــة وأمالفى ونابلى وبارى والبندقية وغيرها ، ويظهر أن طريق البحر الأدرياتى استخدم أكثر من غيره ، وعرض البنادقه وغيرهم للبيع بضائع الشرق وتوابله وحريره الوارد من بيزنطة فى مدينة بافيا ، حيث كان يحضر للشراء تجار شـــمال أوربا عن طريق ميانسى والراين ، الى جانب استخدام ممرات أخرى تصل بهم الى حوض الرون الأعلى . ويبدو أن أهالى أمالفى ونابلى وجائيتا نقلوا هذه البضـــائع الى روما وبلاد الغرب ، كما نقلهـــا مسلمو شمال افريقيا الى بلاد المغرب وربما الى الأندلس(٥٤) .

---

(53) Heyd «op. cit.» pp. 580 — 663.

(٥٤) لويس « المرجع السابق » ص ١٨٩ .

الفصل الثانى

الحياة الاقتصادية فى الدولة الكارولنجية
على عهـد شارلمـان

* الحالة الاقتصادية فى عصر شارلمـان
* الاقطاع الزراعى
* واجبات التابع تجاه سيده فى عصر شارلمـان
* واجبات السيد على التابع
* نظام الضياع
* الصناعة فى عهـد شارلمـان
« أهم الصناعات ـــ مراكزها »
* التجارة فى عصر شارلمـان
« سياسة شارلمـان التجـارية ـــ أهم المراكز التجارية ـــ انواع الأنشطة التجارية المختلفة »

الحياة الاقتصادية فى عصر شارلمــان

تتجلى الحياة الاقتصادية التى برزت فى عصر شارلمـــان بصورة واضحة فى التغيير الكبير الذى أصاب المجتمع نتيجة لتغير الظروف . هذا التغيير يظهر فى ظاهرة اختفاء المدن واتســـاع الضياع الزراعية مما مهد لظهور الاقطاع الذى شاع وانتشر فى أوربا العصور الوسطى .

والحقيقة التى اجمع عليها جميع مؤرخى هذا العصر ، هى أن الاقتصاد اعتمد اعتمادا كبيرا على الزراعة والأرض التى أصبحت هى المصدر الأساسى للثروة الشخصية .

ويرى المؤرخ الاقتصـــادى هنرى بيرين أن المجتمع فى العصر الكارولنجى كان يعتمد من أعلى تنظيمه الســـياسى الى أدناه أى من الامبراطور الى القن الذى يعمل فى الأرض على ما تنتجه سواء أكانوا يعملون فيها بأيديهم أم يستأجرون من يفلحها لهم . فالوجود الاقتصادى قوامه الملكية وبمعنى أصح ملكية الأرض لذلك أصبح من الصعب على الدولة أن تقيم نظاما عسكريا أو غير عسكرى لا يعتمد على الأرض(١) .

فالجيش قوامه الفلاحين المرتبطين بالأرض فى اقطاعـــات كبار الملاك ومعنى ذلك أن بذور النظام الاقطاعى القائم على الزراعة ، بدأ فى الظهور مع هذه الدولة .

الاقطاع الزراعى :

يرى الأستاذ كوبلاند أن هناك مقدمات أربعـــا هى التى مهدت للنظـــام الاقطاعى ، وأنتجته ، وأهمها حركة التطـــور العـــام نحو المحلية localism ، وهى حركة أنبتهـــا عزوف باطن عن فـــكرة الحكومة المركزية المستقرة ، وشاع هذا العزوف من غير شك بالمجتمع

(1) Pirenne. Economic and Social History, p. 7.

الأوربى كله أبان عصر انهيار الامبراطورية الرومانية ، وانثيال عناصر البرابرة الأجنبية عليها ، واقتحامهم لأقاليمهـا ، واستقرارهم بها . ثم يلى ذلك من المقدمات التى ترتب عليها النظـام الاقطاعى ما أنشأه الأباطرة الكارولنجيون قبل أوانه من حكومة وسعت نظمها ما أصل بغرب أوربا من تطور نحو المحلية كيما يكون لتلك الحكومة مظهر الدولة المركزة السلطان ونحن نسوق لفظ « مظهر » عامدين فان المركزية التى بدت على الدولة الكارولنجية لم تعد أن تكون فى الواقع شيئا زائفا بدليـل أنها أوقفت تيارها دون أن تقدر على وقفها هى بعينها ، ويلاحظ أن ما قام به شارلمـان نفسه من تخويل كثير من السلطة المركزية لنوابه الاقليميين البالغ عددهم ثلاثمائة Counts ولمرؤسيهم أيضا كان مما سهل السبيل لقيام النظام الاقطاعى ، بل يلاحظ فى هذا الصدد أيضا ما اعتاده الأباطرة الكارولنجيون وملوكهم من تقسيم الملك أرضية بين أولادهم من بعدهم وما ساروا عليه من منح براءات الاعفاء التى جعلت أراضى أصحابها سواء أكانوا من المدنيين أم من رجال الدين بمنأى من تدخل عمال القضاء والشئون المـالية من موظفى الدولة . ومن ذلك أيضا ما سار عليه الكارولنجيون من ارسال المبعوثين الملكيين الى مختلف نيابات الدولة للقيـام بأعمل التفتيش السنوى العـام ، فان هذا النظام دل على ضعف السلطة المركزية ، وان قصد به فى الأصل اظهار مالهـا من قوة وضبط وهيمنة على جميع شئون الحكم والادارة بكافة الأقاليم . ثم انه يلاحظ كذلك أنه لم يمض على وفاة شارلمـان سوى بضع سنوات حتى بدت امبراطوريته عاجزة عن تدبير سياسة موحدة ضد اغارات الشماليين وغيرهم من الأعداء الذين طالمـا هددوا أطراف الدولة سابقا دون جدوى ، وذلك بفضل قوة الامبراطور العظيم وقوته الحربية ، وفى هذا وغيره مما تقدمت الاشارة اليه من أحوال عصر الكارولنجيين مما يساعد على تعليل ظهور النظام الاقطاعى[٢] .

---

(٢) كويلاند «الاقطاع والعصور الوسطى بغرب اوربا» ص ١٦ — ١٧ .

أما الأستاذ جرين فيرى أن الجرمان عامة والقوط الشرقيون خاصة قد قاموا بسلب الرومان الوطنيين أراضيهم ، بل ان القوط شاركوا بعضا من الرومان ملكية الأرض ، وجاء بعض اللومبارديين الذين ساروا على نفس النظـام فقد أعطوا أتباعهم الأراضى الى جانب أن النبلاء من اللومبارديين امتلكوا ضياعا واسعة ، كانوا قد تسلموها من ملوك القوط السابقين أو من كبار الملاك .

وعندما حل القرن السابع والثامن رأينا كثيرا من الأحرار يلجأون الى السادة الكبار وكبار الملاك ليحصلوا على الحماية من عدوان جيرانهم الأقوياء فى مقابل أن يقدموا اليهم بعض الخدمات ، ومثل هذا النوع من العقود كون شكلا متميزا للمجتمع الرومانى فى عصوره المتأخرة(٣) . وأجـزاء كبيرة من العـزب والضـياع كانت تؤجـر لبعض سـنوات للأتباع ويدفعون ايجارها ويسد منها الأقنان ديونهم ، ولم يكن المستأجر مرغما على أن يسد مثل هذه الديون والايجارات اذا كانت باهظة ، لذلك فان مثل هذا النوع من الأرض المستأجرة كانت تعرف على أنها أرض معيشة(٤) .

وعندما اشتدت الهجمات على دولة الفرنجة من جانب السكسون شمالا والمسلمون جنوبا اضطر شارل مارتل الى منح الجنود الأرض ووفر لهم من الوسائل اللازمة لاستغلالها ، وهو ما يعبر عنه بالاقطاع الحربى(٥) .

وقد أطلق شارل مارتل على هؤلاء الجند اسم « أتباع السيد » وبذلك توافر لدينا من العناصر الأساسية التى تألف منها النظام الاقطاعى

---

(3) Green «Medieval Civilization in Western Europe» pp. 36 — 37.
(4) Ibid, p. 37.
(5) Ibid.

من نظام أتباع السيد واقطاعاتهم ، فالتابع يحلف يمين الاخلاص لسيده ، ويحصل على قطعة أرض يعيش عليها ، ويؤدى عنها للسـيد خدمـة عسكرية ، وبذلك نرى أن الاقطاع انما يعنى تنظيما خاصا للملكية ، فقد يمنح شخصـا لآخر قطعة من الأرض على شرط أن يقدم له هذا الشخص خدمات معينة ، هذه القطعة من الأرض تسمى اقطاعا(٦) .

وعندما تقلد شارلمـان الحكم أكثر من اتخاذ الأتباع لمـا قام به من حروب عديدة فى جهات السكسون والمسلمين واللومبارديين ، لذلك فرض على الموظفين الذين يقومون بخدمته أمثال الكونتات ، وحـكام الأطراف والدوقات واجب الدخول فى تبعية الملك ، فالتزم الموظفون بحكم مناصبهم بأن يبذلوا للملك الطاعة والولاء على النحو الذى يلتزم به السيد للتابع ، وهذه السياسة نفسها اتبعها بتشجيع رئيس الدولة كبار الموظفين ازاء الموظفين الذين يلونهم فى الرتبة ، ومثال ذلك ما اتبعه رؤساء المؤسسات الكنسية الكبرى مع ممثلى سلطتهم من العلمانيين .

وقد كانت هناك أجزاءا كثيرة من أراضى التاج تمنح كاقطاعات لذوى الجدارة من الرعية ، وأنه كان يراعى فى تملكهم لها مبدأ التوريث ، فان عدم وجود ورثة للأراضى ومصادرة بعض الأملاك كانت عوارض عادية تعوض ما ينقضى من الأراضى الملكية ، هذا وقد كان الوريث مطالبا عندما يخلف والده على أراضيه بدفع مبلغ لتوثيق حقه فيها ، وقد كانت أراضى التاج فى تزايد مستمر بفضل حق الملك غير المنازع فى الأراضى التى لا مالك لهـا وما يجفف من أراضى المستنقعات ، وفيما يحصل من فائدة الغابات والشواطىء والمناجم غير الخاضعة للملكية الشخصية(٧) .

اذا فالنظام الاقطاعى فى الامبراطورية الكارولنجية والبلاد التى انتقل اليها هذا النظام من الكارولنجيين قام على الارتباط الوثيق بين

(6) John, Critchley «Feudalism» p. 12.
(7) Thompson «op. cit.» p. 483.

التبعية وحيازة الأرض ، وطالما تحقق هذا الارتباط لخدمة الحكومة ، ويعتبر النظام الاقطاعى فى جوهره سياسيا ، ولا ينبغى أن نعتبره مرحلة ضرورية فى التاريخ الاقتصادى رغم اقترانه ببعض التدابير الزراعية ، كما أنه لا يصح اعتباره نوعا من القوى الفوضوية ، لأن ظهوره ونموه صادف زمن تفكك الامبراطورية الكارولنجية[٨] .

والواقع أن الظروف السياسية التى أشرنا اليها دفعت كثيرا من الرجال الأحرار الى اختيار أحد طريقين ، فاما أن يصبح جنديا ، واما أن يصبح قنا ، لأنه لا يستطيع البقاء بمفرده دون سيد قوى يحميه ، ويزود عنه ، وهكذا أخذ كبار الملاك يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدونهم فى التغلب على ما واجههم من أخطار ، وبعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضا أكثر من حاجته وحاجة أسرته الى منح هذه الزيادة على هيئة اقطاعات لأتباع له من الجنود[٩] .

أما صغار ملاك الأراضى فقد دفعتهم هذه الفوضى الشاملة التى تعرض لها غرب أوربا فى القرن التاسع الى الدخول فى حماية من هم أقوى منهم وأقدر على الزود عنهم ، فيسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوى ، ثم يعود فيتسلمها منه كاقطاع ، وبذلك يصبح فصلا أو تابعا اقطاعيا له ، وكان يحتفل كل عام بقيام علاقة اقطاعية بين سيد وفصله فى حفل بسيط ، فيركع الفصل أمام سيده الاقطاعى ، ويضع يده بين يديه ثم يقسم على أن يظل تابعا أمينا له ويؤدى كافة الخدمات والالتزامات الاقطاعية المتنوعة المفروضة على الاقطاع ، ويسمى هذا القسم يمين الولاء[١٠] وبعد ذلك يناوله السيد الاقطاعى حفنة من التراب اشارة الى أنه سلمه الاقطاع فعلا . كما يسلم لفصله علما وعكازا وبراءة

---

(٨) العرينى « الحضارة والنظم » ص ٢٣ .
(٩) سعيد عاشور « النظم والحضارة » ج ٢ ص ٤٦ .
(١٠) المرجع السابق .

يثبت أوصاف الأرض الممنوحة ومساحتها ، وتسمى هذه العملية « التقليد » .

وهناك ظاهرة لابد من الالتفات اليها فى العصر الكارولنجى وهى أن التابع يعتبر من الناحية القانونية حرا . لأن ملوك الكارولنجيين نجحوا فى جذب أتباع من مستويات اجتماعية عالية . وبفضل ما حصل عليه أفراد هذه الطبقة من ثروة عقارية ضخمة اتخذوا بدورهم لأنفسهم أتباعا ، وترتب على ذلك أن الأتباع صاروا يألفون طبقة اجتماعية خاصة فأضحت التبعية رتبة مرموقة ، رفيعة الشأن ، نظرا لارتباطها بالملك مباشرة ، وحيازة التابع اقطاعا مقابل ذلك ، فأصبحت الحيازة الاقطاعية وثيقة الصلة بالسلطة السياسية(١١) .

واجبات التابع تجاه سيده فى عصر شارلمان :

كانت الخدمة الحربية هى أهم واجبات التابع تجاه سيده ، وحفلت مراسيم شارلمان بتفاصيل هذه الخدمات ، فالتزم بأن يخرج للخدمة بحصان جيد كامل العدة ، قطعة وتجهز بكل أسلحة الفارس ، على أن اقطاعات أتباع الملك كانت أكبر مساحة ، فتراوحت مساحتها بين ٥٠ ، ١٠٠ ، ٢٠٠ حيازة ، على أنه ليس من اللازم أن يشمل اقطاع ضيعة واحدة أو جانبا من الضيعة .

ومنذ أواخر عصر شارلمان تعتبر الخدمة المطلوبة من التابع السبب المباشر لمنح الاقطاع ، فاذا أغفل التابع ما هو مقرر عليه من الخدمة أو لم يؤدها على الوجه السليم اختفى المبرر الذى بمقتضاه يجرى بذل الاقطاع ، بل يجوز عندئذ استرداده من التابع ، وتعتبر مصادره الاقطاع أهم عقوبة توقع على التابع الذى لم يف بالتزامات التبعية ، وهذا المبدأ الأساسى أشار اليه الامبراطور شارلمان فى مرسومى ٨٠٢ ، ٨١٣ حين قرر أنه اذا لم يستجب أحد الأتباع لما توجه اليه

(11) Marc Bloch «Fendal Society» Vo. 2, p. 287.

من دعوة لمساعدة تابع آخر من أتباع الملك تقرر مصادرة اقطاعه(١٢) .

والى جانب الواجب الحربى كانت هناك واجبات كثيرة أخرى منها التزام الفصل بالحضور على نفقته الخاصة الى مقر السيد الاقطاعى عندما يطلب منه ذلك ، وكانت هناك أغراض متعددة تستدعى توجيه هذه الدعوة ، أهمها رغبة السيد فى استشارة أفصاله فيما يهم مجتمعهم الصغير من مصالح مشتركة ، ويبدو أن مبدأ الشورى هذا كان من المبادىء الأساسية التى سادت المجتمع الاقطاعى الى درجة أن السيد الاقطاعى كان يجمع أفصاله ليأخذ رأيهم فى اختيار زوجة لنفسه أو لأبنه أو زوجا لابنته(١٣) .

وهناك التزامات مادية ، ذلك أنه صار لزاما على الفصل أن يؤدى للسيد عدة مقررات ومكوس اقطاعية أصبحت بمثابة حقوق ثابتة للسيد، ومن هـــذه الضرائب ضريبـــة الحـــلوان Relief وهى أشـــبه بضريبة الميراث أو التركات فى عصرنا الحديث ، وكانت تدفع كلما تولى على الاقطاع وريث جديد من سلالة صاحب الاقطاع المتوفى(١٤) .

ويلى فى قائمة الحقوق المفروضة على الفلاحين ما هو معروف باسم العشر وهو المكس المقرر على ما تخرجه الأرض من الزرع والماشية وهو مكس شائع بكافة البلاد المسيحية ، وهناك عشر المـــاشية ، وعشر ما تأتى به السفن من الأسماك(١٥) .

ويرى الأستاذ طومسون أنه بالرغم من أن الضرائب الماليـــة كانت تفرض على الأفراد لأغراض معينة ، لم يكن هناك نظام ضرائبى عام للأغراض الحكومية ، وكانت الهدايا التى تقدم للملك فى اجتمـــاع الربيع تختلف فيما يبدو كما وكيفا ، ولم تكن خاضعة لأى نظام ثابت

(١٢) العرينى « المرجع السابق » ص ٣٢ — ٣٣ .
(١٣) سعيد عاشور « النظم والحضارة » ص ٥٣ .
(١٤) المرجع السابق ص ٥٤ .
(١٥) كوبلاند « المرجع السابق » ص ٤٨ .

على أنه كان يقوم مقام الضرائب الالتزام العـــام الذى يلتزمه سكان منطقة من المناطق بآداء الخدمات العامة كصيانة الطرق والقناطر ، وغيرها من المنشئات العامة سواء بالعمل الشخصى أو بالمساهمة المـــالية ، وكانت استضافة الملك أو مبعوثيه اذا طلبوا ذلك فرضا يقع عبئه على المناطق التى تتعرض لهذه الزيارات(١٦) .

ولمـــا كان شارلمـــان يقوم بالحملات ذات اليمين وذات الشـــمال فقد استغل هذا الالتزام وفقا للظروف أو تفاوتت طلباته بتفاوت خطورة الحرب ، واختلاف أجزاء الامبراطورية المتناثرة بها ، وكان يحاول أن يجعل العبء متكافىء مع مقدرة من يقع عليه ، ولم يلجأ الى التعبئة العامـــة الا فى أقسى الحـــروب صرامـــة مثـــل حربه ضـــد الآفـــار والسكسون(١٧) .

واجبات السيد على التابع :

ما هو مفروض على السيد من التزامات يطابق ما يؤديه التابع من خدمات ، فيلتزم بالمحافظة على اليمين وسائر الالتزامات فيتحتم عليه ألا يتخذ من الوسائل ما يلحق الأذى بحياة التابع أو يخدش شرفه أو يضر بأملاكه ، وأن يظهر نحو التابع المودة والعطف ويصبح تلخيص التزاماته المـــادية فى أمرين لمسناهما زمن الكارولنجيين ، فينبغى على السيد أن يتكفل بحماية التابع ، وأن يتولى الانفاق عليه(١٨) .

وقد أجاز شارلمـــان للتابع أن يتحلل من يمين الولاء الذى أقسمه لسيده فى حالات ثلاث : اذا عامل السيد تابعه على أنه عبد ، واذا اعتدى على حياته وشرفه ، واذا لم يمده بالحماية اللازمة(١٩) .

---

(16) Thompson «op. cit.» p. 485.

(17) Ibid.

(18) Marc-Bloch «op. cit.» p. 291.

(١٩) دبفز « شارلمان » ص ٣٨ .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن التابع يعتبر فى نظر القانون مواطنا حرا وله أن يتمتع بأهم امتيازات الحرية بأن تجرى محاكماتهم أمام المحكمة العامة ، ومهما يكن للسـيد فى بعض الأحوال من السلطة التى يلتزم بها أتباعه بتأدية أعمال خاصة كأن يقوموا بأعمال مرهقة أثناء الخدمة العسكرية ، فلا تجرى محاكمتهم أمام محكمة خاصـة ، ومع ذلك فان محكمة الملك تعتبر محكمة عليا ويتولى رئاسـتها الملك على أنه سيد لأتباعـه(٣٠) .

ويرى أستاذنا الدكتور عاشور أن الفصل « التابع » اذا اعتقد أن سيده يسىء اليه ، فله أن يطلب عرض قضيته أمام محكمة من أنداده ، هذا زيادة على أن الفصل كان يستطيع أن يفسخ العلاقة الاقطاعية ويتحلل من تبعيته اذا ثبت أن السيد الاقطاعى لا ينهض بمسئولياته الأساسية تجاهه ، وبعبارة أخرى فان الأفصال كانوا فى حل من عدم التقيد بالعقد الاقطاعى أو التنصل من التزاماتهم تجاه سادتهم ما دام هؤلاء السادة قد خرقوا بالتزاماتهم وتجاوزوا الحدود التى يفرضها عليهم العرف الاقطاعى ، وكانت هذه العملية عملية سحب الثقة من السيد الاقطاعى ، وفسخ العقد العرفى المعقود معه اذا أخل بأصول واجباته من المبادىء الأساسية فى التنظيم الاقطاعى(٣١) .

نظام الضياع :

اذا كنا قد بينا أن النظام الاقطاعى قد ارتكز على الزراعة والمجتمع الزراعى ، اذا فلابد أن نعرف أن الضيعـة والقرية كانتا هما وحدة المجتمع الزراعى ، واختفت معهما المدن القديمة .

ويرد كثير من الباحثين نظام الضياع الى أصول رومانية قديمة جدا ، فترجع فى غالة الى العصر الذى سبق فتح يوليوس قيصر لها ،

---

(٣٠) العرينى « المرجع السابق » ص ٣٠ .
(٣١) عاشور « النظم والحضارة » ص ٥٧ .

وفى ألمـــانيا قبل أن يفتحها الرومان • وقد سمح الرومان للغاليين بأن يعيشوا فى ظل الضياع الزراعية التى اعتمدت على نفسها اعتمادا كاملا فى جميع أمورهـــا الاقتصادية ، وسنت لنفسها نظاما اقتصاديا له طابع خاص حتى انتشر وعرف باسمهم(٢٢) •

من هذا نرى أن نظام الضياع ليس نظاما جديدا على المجتمع فى غالة ، لكن الجديد فيه هو النظام الذى اتبع فى الضيعة بعد اختفاء التجارة وانحلال المدن •

والمعروف أن الضياع كانت تتبع نظام التبادل الاقتصادى مع العـــالم الخارجى ، فكانت تقوم بعملية انتاج للمواد الغذائية وتصديرها واستيراد الأدوات الصناعية واستهلاكها(٢٣) •

وبمعنى آخر ، فقد كانت تقوم بعمليات التبادل التجارى مع العالم المجاور ومع المدن ، لكن عندما تلاشت المدن كما ذكرنا توقفت عن هـــذا الدور لأنها لا تجد من يتبيع له ولا تجد مشترى ، فأين تبيع الزائد عن حاجتها • لذلك يضطر سكان الضياع الى انتاج وزراعة المواد والمنتجات التى يحتاجون اليها فقط ، على أن يكفوا أنفسهم بأنفسهم ، فكل ضيعة توجه نفسها الى نوع الاقتصاد الذى يلائمها ، وهو ما يعبر عنه باقتصاد الضيعة المغلق « فهو اقتصاد بدون أسواق »(٢٤) •

وبذلك نرى أن الضياع اضطرت الى انتهاج هذا النظـــام ليس من واقع الاختيار ، لكن نتيجة للظروف الملحة التى فرضت عليها ذلك فهو نظام الاكتفاء الذاتى ، فكانوا ينتجـــون المأكولات والملابس وكل ما يحتاجونه ، ومع ذلك فلم تكن الضيعة بذلك وحدة اقتصادية بل كانت أيضا وحدة اجتماعية ودينية ، فاشـــترك أهلهـــا فى احياء حفلاتهم

(22) Pireen «op. cit.» p. 8.
(23) Ibid.
(24) Marc-Bloch «op. cit.» p. 295.

وتزاوجوا عادة بعضهم من بعض ، كما كان لكل ضيعة كنيستها وقسيسها .
وخلاصة القول ان الضيعة كانت الطريق الذى توصلت به الغالبية العظمى من أهالى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر للحصول على لقمة العيش ، كما أن سياسة الاكتفاء الذاتى التى اتبعتها الضيعة تطلبت من أهلها أن ينصرف بعضهم الى توفير مطالب الغذاء والكساء والمأوى فى حين انصرف البعض الآخر للنواحى الدفاعية والادارية والروحية[٢٥] .

أما عن أساس ادارة شارلمان لأراضى التاج كان واضحا فى مرسوم الضياع Capitulare de-villis الذى يرجع الى السنوات الأولى من حكم شارلمان والذى بنى على القول بأن «ضياع الملك ينبغى أن تدار لمنفعته الخاصة ، وليس لمنفعة غيره »[٢٦] وكان يختار المشرفون أو نظار الزراعة من بين متوسطى الحال ، وليس من بين الأغنياء الذين قد يستخدمون نفوذهم لخدمة مصلحتهم الخاصة .

وكانت تصدر لهؤلاء الموظفين التعليمات الدقيقة بشأن تموين الضيعة والتصرف فى محصولها . وكان يقع فى وسط الضيعة الدار أو المسكن Camera ، وهو مزود بكل ما يلزمه حتى اذا مر الملك بتلك الناحية لم يكن ثمة حاجة الى استعارة اللوازم من جهة أخرى[٢٧] .

وكانت تحيط بالمنزل الحدائق الغناء وبساتين الفاكهة الطيبة ، وكانت الطواويس والفراريج والحمام وغيرها من الطيور التى تربى فيها زينة للناظرين . وبالقرب من المنزل كانت توجد حظائر الخيل والأكواخ الخارجية وأعشاش الدواجن والأوز التى كانت تربى الى حد معلوم فى الضياع الرئيسية ، وكان المستأجرون من الأحرار والأقنان

---

(٢٥) عاشور « النظم والحضارة » ص ٧٥ .
(26) Stephenson «op. cit.» p. 182.
(27) Thompson «op. cit.» p. 485.

يستخدمون فى شتى الأعمال التى يحتاج اليها المجتمع المكتف بذاته بتوجيه من ناظر الزراعة • وكانت هناك أماكن خاصة بالنســاء يعملن فيها فى غزل الملابس وحياكتهــا وصباغتها بما يمدهن به ناظر الزراعة من مواد أولية ، وكانت أهم هذه المواد العظلم والزنجفر والفوه مما يلزم العملية الأخيرة من هذه العمليــات • أما السمك فكان يحتفظ بما يوجد من بركة وتوسع أو تحفر له برك جديدة ، وكانت تبذل عنايــة فائقة للمحافظة على الغابات التى تقع فى الضياع الملكية وتعاد زراعة البقع التى يجف فيها الشجر ، وحظر قطع الشجر على نطاق واسع بعد أن تكونت مســاحات جديدة للزراعة فى الغابات ، وكانت فراء الذئاب التى تؤخذ طوال السنة ترسل الى الملك • كما كانت تصدر التعليمات فى شهر مايو الى ناظر الزراعة بأن يصيد صغار الذئاب أو يستعمل أى وسيلة يراها لابادتها • وكان من المفروض أن يقدم للملك سنويا فى موسم عيد الميلاد جردا دقيقا بكل ما فى عهدته يحدد فيه البيانات بدقة تتجنب التعميم الشكلى كما كان المفروض أن يتحرى ناظرو الزراعة هذه الدقة فى طلب مثل هذه البيانات المفصلة من مرؤسيه المشرفين على الأقســام الواردة بالجرد(٢٨) •

وكان تنظيم الخاصة الملكية على هذا النحو نموذجا احتذاه الملاك الآخرون وحتى ذلك الوقت لم يكن الحد الفاصل بين الحرية والرق واضحا تماما ، وعلى أى حال ، كان الوضع القانونى للمستأجر الحر لا يعفيه من أداء الخدمة لشخصه فى الضياع الكبيرة ، ولا من الهدايا الســنوية العينية التى كان ينتظر أن يقدمهــا لسيده عما استأجره من الأرض •

وكان يعهد بعدد كبير من الضياع الى مزارعين مستقلين مقابل آداء خدمات شخصية معلومة ، أو دفع مبالغ معينة ، ولكن الضياع الرئيسية وعلى رأسهــا ناظــر الزراعــة ، ولقبه « الضيعى » Villicus

(28) Ibid, p. 486.

كانت تهيمن على ضياع أصغر منها تقسم الى طوائف تحت ادارة نظار زراعـة Desani ، وكانت الضياع الكبرى بمثابة مخازن لما يفيض من الضياع الصغرى[٢٩] .

الصناعة فى عهد شارلمان :

اذا كنا قد تعرضنا لدراسة نظام الضياع من الناحية الزراعية ، وبينا أهمية الضيعة ، فاننا اذا دخلنا فى الكلام عن الصناعة ، فلابد أننا سنتعامل مرة أخرى مع الضيعة حيث مارس سكانها الصناعات الصغيرة داخل ضياعهم ، واشتغل عدد منهم فى بعض الصناعات اليدوية البسيطة ، من أهمها غزل الصوف وهو ما انفردت به النساء ودبغ الجلود وصناعة النعال والسروج والحدادة والنجارة[٣٠] .

والواقع أن الحرف والصناعات التى سادت دولة الفرنجة قبل عصر شارلمان لم تكن شائعة فى كل المواضع ، ولا تجرى ممارستها الا فى بطء شديد ، ففى أراس وليون ومتز تقوم صناعة الحلى والتطريز والخيوط الحريرية الموشاة بالذهب ، واشتهر صباغو ليموج الذين يرعاهم القديس ايلوا بأنهم ألفوا نقابة معروفة من قديم الزمن ، أما صناع الأسلحة والحدادون فتوافروا بكل مكان ، واستعدوا لتلبية كل الطلبات ، وما اشتهرت به سلعهم من ارتفاع السعر انما يدل على أن الطلب زاد على العرض ، وأصاب التجارة بعض الازدهار فى المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، اذ صدرت الى القسطنطينية وأسبانيا الزيت والنبيذ والماشية ، وكذا الأرقاء المسيحيين ، وتلقت مقابل ذلك الحرير والتوابل من اليونانيين والدنانير الذهبية والمنسوجات المطرزة من المسلمين[٣١] .

---

(29) Stephenson «op. cit.» p. 183.
(30) Green «op. cit.» p. 80.
(٣١) ديفز « المرجع السابق » ص ٣٤ .

ويرى الأستاذ ستيفنسون أن الصناعة فى عصر شارلمان لم تعدو أن تكون صناعات يدوية بسيطة ، فكانوا يصنعون الأدوات التى يستخدمونها فى ضياعهم ، وقد أصدر شارلمان مرسوما حدد فيه مهام كثير من الصناع الذين يعيشون فى القرى ، وكانت عليهم واجبات زراعية كما كان عليهم ضرورة الالتزام بقانون الضيعة[٣٢] .

ولا ننسى كذلك الدور الذى قام به رجال الأديرة فى الصناعات خاصة دير كوربى الذى خصصت به عدة حجرات للصناعات المختلفة فيها حجرة بها ثلاثة من صانعى الأحذية واثنان من السروجية وحجرة أخرى بها ستة من الحدادين ، واثنان من الصائغين وصانع أسلحة وآخر يعد الرقائق الجلدية لاستخدامها فى الكتابة وقاعة ثالثة بها النجارين . وهكذا قامت هذه الورش داخل الدير لتسد حاجات ومطالب رهبانه من المنتجات الصناعية[٣٣] .

التجارة فى عصر شارلمان :

يرى الأستاذ بيرين أن اقتصاد الكارولنجيين اختلف عن اقتصاد الميروفنجيين فى أن الميروفنجيين ظلوا يستخدمون التجارة مع الشرق الأدنى فاتجهوا بذلك فى اقتصادهم نحو البحر المتوسط ، على حين أن الكارولنجيين اتجهوا نحو بحر الشمال وابتدعوا مجموعة من النظم ظلت بالغة الدلالة والأهمية فى حضارة العصور الوسطى[٣٤] . فالكارولنجيين — فى رأى بيرين — لم يواصلوا ما كان للميروفنجيين من نشاط تجارى ، بل ارتدوا الى مجتمع زراعى غلب عليه اقتصاد الضيعة .

والواقع العملى أن التجارة لم تتوقف نهائيا فى البحر المتوسط ،

(32) Stephenson «op. cit.» p. 182.

(٣٣) عاشور « المرجع السابق » ص ٨٥ .

(34) Pirenne «op. cit.» p. 6.

فلا زالت السلع ترد الى غرب أوربا ويجرى بيعها فى سائر الأسواق ، وقد أدرك شارلمان شخصيا الأهمية الاقتصادية للتجارة بالنسبة لامبراطوريته ، وعلى هذا فلم يكن تأييده للبابوية العامل الوحيد فى تشكيل سياسته فى ايطاليا ، وفى موقف العداء الذى وقفه من القسطنطنية لكنه رأى أيضا ضرورة الاشراف على منابع الثروة التى يمكن أن تتدفق من البحر المتوسط على الشواطىء التابعة له ، كما أنه رأى أيضا كيف تسيطر بيزنطة على التجارة ، وحاول أن يحطم تلك السيطرة ، ويذكر اينهارد « أنه أبدى مرة لسفير بيزنطة رغبته فى أن تكون امبراطوريته وثيقة الصلة فى التجارة مع الشرق »[٣٥] .

وقد كانت هناك فئات كبيرة من التجار الجائلين الذين أتوا من الشرق وهم من السوريين واليونانيين واليهود ، واستقروا فى غالة على هيئة جاليات ، لم تلبث أن كبرت أهميتها[٣٦] .

كما أن شارلمان منع تصدير المؤن الى الاسكندنافيين والدانيين والفريزيان حتى يلزم النورثمن بالركون الى الهدوء والسلام ، وما دار من مراسلات بين شارلمان وأوفا ملك مرسيا بانجلترا حول تصدير القماش البريطانى الى القارة ، ومعاملة الحجاج دل على اهتمام الملكين بهذه التجارة . وفى أثناء القرن التاسع نشط الاتصال التجارى بحرا بين انجلترا وفرنسا ، بل ان تجارا بريطانيين ترددوا على سوق سان دينيه وعلى سوق روما شأن التجار الفريزيان[٣٧] .

والحقيقة أن بناء شارلمان لأسطول فى البحر المتوسط ، ومد نفوذه فى جزر البليار وسردينيا وجنوب ايطاليا ، ومحاولته السيطرة على البندقية وايستريا ودلماشيا الا جزء من خطة مدبرة تستهدف

---

(35) Einhard, «op. cit.» p. 57.

(36) Clive «A history of commerce» p. 45.

(٣٧) العرينى « الحضارة والنظم » الأوربية » ص ٩٦ .

السيطرة على مصادر الثروة التجارية التى حرمت منها بلاده ، والى هذا أيضا هدفت كل مباحثات شارلمـان مع مبعوثى بطريق صقلية نائب الامبراطور البيزنطى فى الغرب(٣٨) ، وكذلك خطبتـه للامبراطورة ايرين ومفاوضاته مع الحكام والخلفـاء العباسيين ، بل ان اتخاذه لقب امبراطور عام ٨٠٠ م عليه أن يكون خطوة نحو ذلك الهدف(٣٩) .

وقد قام شارلمـان بعلاقات تجارية مع الشعوب التى تسكن على حدوده ومنهم الآفار والصقالبة ، وقرر منع تصدير الأسلحة اليهم ، على أن التجارة البرية لم يكن لها من الأهمية فى وسط أوربا مثلما كان للتجـارة مع بحر الشـمال أو التجارة بين ايطاليا والبلاد الاسلامية أو القسطنطينية كما يتجلى فهم شارلمـان للنظام التجارى واهتمامه به فى مشروعاته الاقتصادية فحاول أن يتخذ تدابير مضادة لقواعد الاحتكار التجارى البيزنطى فى ايطاليـا ولا سـيما البندقية ، ومع أن البندقية أعانته عـام ٧٧٤ م بقوة بحرية أثناء هجومه على بادوا الا أنه لم يكتف منها بذلك ، وعندما نزلت حملة بيزنطية بجنوب ايطاليا سنة ٧٨٧ م عمد شارلمان الى الضـغط الاقتصادى على البندقيـة فصادر منشآتهم فى بنتابوليس وألغى امتيازاتهم التجارية الواسعة فى بلاده ، وكانت هذه الوسائل بالغة الأثر للغاية ، فاستطاع فى فترة قصيرة بين عامى ٨٠٢ ، ٨٠٥ م أن يخضع البندقية تماما لنفوذه ، وعندما تغير ميزان القوى بتدخل بيزنطة بقوتها البحرية ضده سنة ٨٠٦ م لجأ شارلمـان الى فرض حصـار اقتصادى ، وتسيير قوة حربية نحو المدينة ، وظفر شارلمـان بما أراد سنة ٨١٢ فقررت بيزنطة وقد هددت من كل جانب أن تتفق مع أعدائها الكارولنجيين ، ويتضح من مطالعة نصوص هذا الاتفاق أن شارلمـان نجح على الأقل فى الحصول لجميع التجار من رعاياه على أن يكون لهم حرية الاتجار داخل الامبراطورية البيزنطية

---

(38) Monk of Saint Gall «op. cit.» p. 761.
(39) Buckler «op. cit.» p. 17.

وفى مقابل هذا استعادت البندقية امتيازاتها التى كانت لها على حين اعترف شارلمان بملكية بيزنطة لايستريا ودلماشيا[٤٠] ولا شك أن هذا النجاح التجارى لا يتأتى الا بأسطول بحرى ، فقد قام شارلمان بانشاء أسطول كبير ويعد عدد سفنه بألف سفينة ، حتى ان القرن التاسع شهد ازدهارا كبيرا فى قوة الكارولنجيين البحرية[٤١] .

أما فى الفترة السابقة على القرن التاسع ، فلم تكن الدولة الكارولنجية تعنى بانشاء السفن ورغم ذلك جازف التجار بحياتهم وحريتهم فى سبيل التبادل التجارى على يد الأجانب من اللومبارديين واليونانيين واليهود أيضا ، اذ كان الناس يعتبرون التجارة فيما مضى مهنة حقيرة الى جانب وعورة الطرق وحصول بعض الأسواق على امتيازات خاصة وازدياد وطأة المكوس ورسوم الموانى ، وهذه المكوس بلغ من شدتها أنها أصبحت عبئا لا يحتمل وقلما تم دفعها للدولة ، وأقام كبار الملاك سلاسل عبر الأنهار لتمنع السفن من المرور حتى تؤدى ما عليها من ضريبة ، وفى كثير من الأحيان تعتبر المخاضات والجسور من الأملاك الخاصة ، وكل محاولة تبذل لكشف طريق جديدة غير خاضعة لهذه القيود ، لم تلق الا السخط والكراهية الشديدة من أولئك الذين يرون فى التغيير تهديدا لأرباحهم . ولم تقف متاعب التاجر عند هذا الحد اذ انخفضت قيمة النقد ، وقل اتخاذ النقد وسيلة للتعامل ، كما أن القانون كان عدوا للأرباح الناجمة عن التجارة . ففى أوقات الأزمات ، وحين تقل السلع تقرر توقيع عقوبات شديدة على كل تاجر يحاول أن يبيع السلع الضرورية بأسعار تزيد على السعر الطبيعى[٤٢] .

وقد تنبه شارلمان لجميع هذه العوائق ، وحاول السيطرة على التجارة فجعل النقد فى يد الحكومة المركزية ، ووضع لوائح لتحديد

(40) Pirenne «Mohamed and Charlemagne», p. 174.
(41) Ibid, p. 248.
(٤٢) ديفز « شارلمان » ص ٣٤ — ٣٥ .

أسعار المواد الزراعية ، اذ تقرر ابطال دور الضرب العديدة التى اشتهر بهـا عصر الميروفنجيين(٤٣) الى جانب أنه حرم اسـتخدام النقـود اللومباردية منذ أغسطس سنة ٧٨١ ، وأصدر أوامر بتحـريم الربا وتحديد أثمان الغلال مما يثبت أنه تأثر فى آرائه الاقتصادية بالكنيسة وتعاليمها(٤٤) .

كما حاول شارلمـان كذلك أن يشجع سكان بلاده على التجارة رغم سيطرة الفكرة الزراعية على عقولهم واهتمامهم الكبير بتنمية ثرواتهم عن طريق الأرض ، كما قام بالعناية بالطرق التجارية والاكثار منها والمحافظة على سـلامتها وتوفير الأمن لسـالكيها . وهذه كلهـا أمور اهتم بهـا شارلمـان ، ولم تصرفه مشاغله الكثيرة عنها . فاهتم بالطرق البرية وزاد منها هذا وان فضل تجار ذلك العصر استخدام الطرق النهرية حتى أصبحت أنهار الراين والدانوب والسين والرون وفروعها تكون شبكة ضخمة من طرق التجارة تربط بين شمال امبراطورية شارلمـان وجنوبها وبين شرقها وغربها(٤٥) .

كما أن الفرنجة تاجروا كذلك مع الأراضى الايطاليـة الخاضعة للدولة البيزنطية ، ومن هذه المراكز نابلى وجائيتا وأمالفى وربما أيضا مدينة سالرنو على الساحل الغربى ، وسمح لهذه المدن باستقبال السفن القادمة لبيع التوابل والحرير الفاخر فى ايطاليا ، وسمح كذلك ولمرة واحدة فقط فى العام لتجار هذه المدن بالسفر الى بافيـا فى حوض البو لعرض بضائعهم الشرقية على تجار شمال ايطاليا وسـائر بلاد الغرب . ويبدو أن التجارة تمتعت بقسط أوفر من الحرية مع دوقية بنفنتو اللومباردية ، ومع روما نفسها(٤٦) .

---

(43) Pirenne «op. cit.»

(٤٤) عاشور « النهضات » ص ٨٦ — ٨٧ .

(٤٥) المرجع السابق .

(46) Lopez & Raymond «Medieval Trade, in the Mediterranean World» p. 35 — 37.

وقد قام التجار اليهود بدور كبير فى تجارة شارلمان ، وأهم تجارة قاموا بها كانت تجارة الرقيق التى تعتبر أهم جانب فى التجارة الدولية والمعروف أن مراكز هذه التجارة توطنت فى فردان ومابنز حيث احتشد الأرقاء ، وجرى ارسالهم صوب الجنوب لبيعهم للمسلمين ولم يؤد التجار الذين فى خدمة البيت المالك أو الضياع الكبيرة رسوما باهظة ، وحصل اليهود على هذه الامتيازات أيضا ، ومع ذلك حرصت الخزانة الحكومية على المحافظة على حقوقها فى المراكز التجارية الهامة أمثال كوينتوفيك ودورستاد[٤٧] .

وقد كان للأديرة فى عصر شارلمان نشاطا تجاريا كبيرا اذ قامت ببيع الفائض من انتاجها الزراعى فى الأسواق القريبة رغم مخالفة ذلك للقانون الكنسى ولمرسوم شارلمان[٤٨] .

لذلك قامت الأسواق العامة بجوار المدن والأديرة والضياع ، كما قامت قرب المزارات الهامة وأضرحة القديسين — حيث ان النشاط التجارى يلازم الاحتفالات الدينية فى صورة تشبه ما يحدث فى الموالد بالبلاد الاسلامية . وأشهر سوق من هذا النوع كان سوق سانت دنيس الذى اعترف به بيبن القصير سنة ٧٥٩ ، ومنذ ذلك الوقت وهذا السوق فى نمو مستمر بفضل قربه من باريس حتى أصبح يعرف بسوق الشعب ، وصار يقصده التجار من أسبانيا ، ولومبارديا وغيرهما من البلاد البعيدة[٤٩] .

ويرى الأستاذ ستيفنسون أن هذه الأسواق كانت تعقد يوما واحدا فى الأسبوع ، اما التعامل التجارى الذى اتخذ صورة كبيرة فكان فى الغرب حيث وجدت مجموعة كبيرة من التجار القادمين من الشرق

---

(٤٧) العرينى « الحضارة والنظم » ص ٩٧ .
(٤٨) المرجع السابق .
(٤٩) عاشور « النهضات » ص ٨٧ .

ومعظمهم من أهل الشام ، وكان هؤلاء يتاجرون فى السلع الكمالية التى لا يهتم بها الا الأثرياء فقط[٥٠] •

وقد ازداد النشاط التجارى كذلك فى المناطق الواقعة عند بحر الشـمال ففى شمال فرنسـا وبلاد الراين نشطت صناعة السيوف التى ،ازداد الاقبال عليها فى أنحاء العالم ، يضاف الى ذلك أن هذا الاقليم اشتهر بصناعة الأوانى الزجاجيـة والخزف • ومن انجلترا والأراضى المنخفضة جاءت الأقمشة والمنسوجات ، والراجح أن قدرا كبيرا من المنتجات الزراعية تعتبر وقتذاك من السلع التجارية فى اقليم بحر الشمال • أما فى الجنوب فتناولت التجارة أيضا المنتجات الزراعية فالنبيذ كان من أهم السلع التجارية ، حيث كان يتم شحنه فى السفن التى اجتازت الطرق الساحلية للمحيط الأطلسى والطرق النهرية ، كما أن تجارة الرقيق كانت من أهم السلع التى صدرتها أوربا الى المسلمين فمن الأرقاء ما يرد من شمال فرنسـا بعد أن جلبهم الانجليز والسكسون وما يرد من الأطراف الشرقيـة حيث توافرت هـذه التجـارة بين الصقالبة[٥١] •

وبذلك نرى أن الحياة الاقتصادية فى عصر شارلمـان غلبت عليها السمة الزراعية لكن شارلمـان حاول أن يهتم بالتجارة فى الحدود التى سمحت بها الظروف المعاصرة حتى يثبت أركان دولته فى مواجهة القوى العظمى الشرقية ، كما لم يهمل شأن الصناعات التى لم تخرج عن كونها صناعات بدائية •

(50) Stephenson «op. cit.» p. 185 & Lindsay «op. cit.» p. 397.

(٥١) العرينى « المرجع السابق » ص ٩٥ •

الخاتمـــة

وبعد فقـــد كان هـــذا عرض عـــام للامبراطوريتين البيزنطية ، والرومانية الغربية فى عصر شارلمـان ، توصلنا فيه الى الظروف التى مهدت السبيل أمام الدولة البيزنطية لكى تتحصر فى الجزء الشرقى من الامبراطورية متعرضين لسـقوط الامبراطورية فى الغرب والهجمـات الجرمانية ، واندماج أباطرة الشرق فى العالم الهلينى ثقافيا ، وحضاريا. كما بينا كيف كان للاختلاف المذهبى أكبر الأثر فى انشطار الامبراطورية الى قسمين ، والى زيادة حدة الخلاف بينهما .

وأهم نتيجة فى هذا الكتاب كانت استغلال شارلمـان ملك الفرنجة لهذه الظروف السياسية التى عاشتها كل من الامبراطورية البيزنطية ، وايطاليا ممثلة فى البابوية ، حيث كانت العلاقة بين هؤلاء الثلاثة هى السبب فى ارتفاع نجم شارلمـان وسطوعه . فقد نجح فى اجتذاب البابوية الى جانبه لاتحاده معها فى العقيدة المذهبية ، ومساعدته لها فى دفع الأخطار المتعددة التى تعرضت لها ، مما جعل البابوية تجد فيه الحليف والنصير الذى لا غنى عنه فعبرت عن ذلك ، بتنصيبه امبراطورا على الفرنجة عام ٨٠٠ م . فأعادت بذلك الامبراطورية الرومانية فى القسم الغربى ، لكن بصورة جديدة ، وبمناخ جديد وبزعامة جديدة . فالعاصـمة كانت آخن وليست روما والملك جـرمانى ، وليس رومانى .

ثم توصل البحث بعد ذلك لنتائج ايجابية فى عرض للسياسـة العامة التى انتهجتها كلا الامبراطوريتين فى نظم حكمهما وقوانينهمـا مما يعطى الدارس فكرة كبيرة عن مدى التباين والاختلاف فى كل منهما

مما جعل لكل امبراطورية منهما طابعها المختلف عن الأخرى ، كما كان للفصـــول الأخرى « خاصة الحياة الاجتماعية والثقافية » فى كل جزء من أجزاء الامبراطورية ما يثبت كيف كان يعيش الناس مظاهر حياة وتقاليد وأسس وعادات تختلف نهائيا فى كلا الجزأين ، وذلك لاختلاف الأساس والينبوع ، ولاختلاف المدد والمؤثر .

والله أسأل أن نكون قد وفقنا الى اضافة جديد الى مكتبة العصور الوســطى ، وأن نكون قد قدمنا للقارىء العربى موضـــوعا متكاملا للامبراطورية الرومانية فى قسميها الشرقى والغربى فى أهم فترة من فترات التاريخ الوسيط أعنى بذلك « عصر شارلمـــان » .

الملاحق

ملحق رقم ١

مقتطفات من مقدمة الاكلوجا الصادرة سنة ٧٢٦ م

الاكلوجا أو المختارات هى مجموعة من القوانين المختصرة ، وتحتوى على أربعين بندا ، قام باصدارها الامبراطور ليو الثالث الأيسورى باللغة اليونانية ، ويتضح مضمونها من عنوانها فهى عبارة عن منتخبات من القوانين قام باختصارها ليو وابنه وخليفته قنسطنطين الخامس « أباطرتنا الأتقياء الحكماء » الذين اقتبسوها من مجموعة جستنيان القانونية « الدجستا » ومن متجدداته ، وقد غلبت عليها الأحكام الانسانية وهنا نقدم فقرتين قمنا بترجمتها — من اليونانية — من المقدمة(١) . « منذ أن وضع الله فى أيدينا السلطة الامبراطورية ، ورغبة منا فى ارضاء الله الذى منحنا الحب ، والشعور بالتبجيل نحوه على نفس الأسلوب الذى سار عليه بطرس رئيس وزعيم الرسل الذى قام « باطعام قطعانه المخلصين » فاننا نشعر أنه ليس هناك عملا ذو قيمة ومكانة كبيرة يمكن أن نقوم به خير من الحكم بالعدل والقسطاط لهؤلاء الذين هيأهم الله لنا ليعيشوا تحت حكمنا ورعايتنا . فاننا سنقوم بالغاء جميع بنود القوانين والمواثيق التى فرضت بالقوة والتى اتسمت بالجور والحيف ، وسنقاوم جميع الاعتداءات التى يعتدى بها علينا المعتدون ، لأننا توجنا بيد الله القادر الذى بشرنا بأننا سننتصر على أعدائنا « وهذا شىء اثمن وأغلى عندنا من التاج الموضوع على رءوسنا » ولذلك سيعيش بلاطنا فى سلام وستعيش بلدنا فى استقرار فى ظل مملكتنا .

---

(1) From the text in Collectio Librorum juris Graeco — Romani meditorum, ed. K.E. Zachariae von Lingenthal. pp. 10 — 11.

ولذلك ، وبما أن الله قد منحنا كل هذه الرعاية فاننا سنجهد عقولنا لمعرفة كل ما يرضى الله ويسعد الرعية ، ونعلى قدر العدل فوق كل شيء على الأرض لأن العدل شيء سماوى من عند الله وهو أحد من أى سيف فى قمعه للاعداء بفضل قوه الله العادل ، ولنعلم ان القوانين التى اصدرها الأباطره السابقين علينا ، جمعت فى عدة أجزاء ، ونؤكد أن جميع أغراض هذه القوانين كانت صعبة الفهم على البعض لقلة تداولها فى الاوســاط خارج العاصمة الامبراطوريه المحروسة من الله . لذلك انتقبنا مجموعة من خبار البطارقة والكويستور والقضاه الممتازين ، وغيرهم ممن يخافون الله ، وأمرناهم بأن يجمعوا جميع الأجزاء القانونية التى ســيستخدمونها فى حضرتنا ، وسنبحث جميع هذه الأجزاء بدقة وعنايه « وسنستفيد من جميع الأجزاء التى يتبت صلاحيتها ، ومن كل المراسيم والقــرارات التى أصدرناها شخصيا » كما يجب على القضاة أن يتجردوا من العواطف ، وان يحكموا بالعقل والعــدل ، كما يجب أن تحوى هذه الأجزاء بوضــوح أنواع العقاب الملائم لكل جريمة من الجرائم ، وغرضنا من ذلك أن نكون فكرة واضحة عن « القوة » المقصودة فى هذه القوانين المقدسة فهــذه الامور يجب أن تقرها حكمة القضــاة ، فلا يكون هناك عقــابا الا على المجرمين الآثمين ، ويكون هناك اصلاحا وتقويما لأولئك الذين يرتكبــون الاعــال الخاطئــة .

ملحــق رقــم ٢

شارل الكبير يعلن أن واجبات البابا واجبات روحية فقط سنة ٧٩٦

خطاب شارلمان الى البابا ليو الثالث

تمتع شارلمان بشعور حاد بسلطاته ومركزه ، فكان يستاء من أى تصرف فيه انتقاص من حقوقه . ومن الخطــاب الذى أرســله الى البابا ليو الثالث ، أوضح فيه شارلمان أن واجباته ليست الا واجبات روحيــة فقط(٢) .

---

(2) Ziada; Ashour, «Select document of medieval history», p. 36.

« شارل برعاية الله — ملك الفرنجة واللومبارديين — وبطريق الرومان » يبعث بتحياته الى قداسة البابا ليو ، « فمنذ أن وقعت اتفاقية مع سلفك الأب المقدس ، فاننى أرغب أيضا فى عقد معاهدة لا تنفصم عراها معك ، معاهدة للحب والاخلاص المتبادل . ومن ناحيتك عليك أن تصلى من أجلى وتمنحنى البركات الرسولية » .

ومن ناحيتى ، وبعون الله ، فاننى سأدافع عن الكرسى المقدس للكنيسة الرومانية المقدسة ، لأن واجبنا أن ندافع عن كنيسة المسيح المقدسة من هجمات الوثنيين والكفرة ، وذلك من أجل تقوية ونشر العقيدة الكاثوليكية .

فهذا واجبك ايها الأب المقدس أن تساعدنا فى حروبنا بأن ترفع يديك الى السماء كما فعل موسى ، وذلك وبشفاعتك ووساطتك فسيحرز العالم المسيحى النصر على الاعداء دائما تحت سلطة الرب وبالاسم المقدس ، وباسم يسوعنا المسيح ؛ سيمجدون فى كل أرجاء العالم . والى جانب القوانين الكنسية والطاعة الدائمة لتعاليم الآباء المقدسين ، فان حياتك ستصبح مثلا للقداسة أمام الجميع ، ونصائحك المقدسة سيعمل بها فى كل مكان فى العالم وسيضيء نورك أمام الناس الذين يسيرون على نهجك الصالح وسيمجدون آبائك الذين هم فى السماء ، وندعو الله القادر أن يحفظ قداستك من اى ضر طول السنين من اجل اعلاء شأن كنيستك المقدسة .

ملحق رقم ٣

خطاب من شارلمان الى انجلبرت

مقدم دير سانت ريكويير

يعطيه تعليمات أن ينصح وينذر البابا ليو

الثالث سنة ٧٩٦ م(٣)

عسى أن تؤدى بك رحمة الله بسلام الى أبينا الرب الرسولى ،

---

(3) Stewart «op. cit.» نقلا عن :
Translated by H.W. from Epistola Alcuini «Mon. Germ. tist. Epistolae IV» No. 22 pp. 135 — 136.

انصحه أن يعيش دائما بأمانة ، وان يرعى خاصـــة الأحكام الشرعيـــة المقدسة : فقد أمرته القوانين المقدسة أن يرعى كنيسة الله المقدسة بروح التقوى تبعا للاتفـــاق الذى بينك وبينه ، وتبعا لآرائه ، واذكر له كثيرا كيف أن هذا الشرف الذى منح له حدينا بدلا من المـــكافأة الأبدية الزائلة التى نعطى الى الشخص الذى يعمل الى النهـــاية . انصـــحه أن يعمل باجتهاد لقضاء على الهرطقة والرشوة فى الحصول على المناصب الدينية « السيمونية » لأن ذلك يضر بمجتمع الكنيسة بوسائل شتى ، قل له كلما تذكرت المسائل التى ناقشناها أنا وأنت بين أنفسنا ، فان الله يرشـــدك ويعيدك سالما ، لما أن الله يمكن أن يرشد ويوجه قلبه « قلب البابا » الى كل خير حتى يمكن أن يخدم كنيسته المقدسة ، ويمكن أن يقودنا كأب ورع ويشفع لصالحنا .

ملحق رقم ٤

من خطاب كتبه الملك شارل الى البابا

ليو مهنئا على اختياره للبابوية سنة ٧٩٦ م(٤)

« لكى نؤكد اتفاقنا على الســـلام ، فاننا نرسل بسرعة مستشارنا وسكرتيرنا انجلبرت الى قداستك وأعطيناه تعليمات كاملة مراعين رغبتنا ومطالبك فى تبـــادل وجهات النظر ، ويمكنك التفاوض فيما تراه ضروريا لاعلاء كنيسة الله المقدسة ، وتثبت دعائمك ، وتقوى كنيستنا » .

ملحق رقم ٥

من خطب كتبه الكوين الى الملك شارل

الذى دعاه « الملك داود » عن القوى الكبرى الثلاث

فى العالم يونيه سنة ٧٩٩ م(٥)

« هناك ثلاث أشخاص يشغلون المراكز العليا فى العالم حتى يومنا

(4) Ibid, No. 93, pp. 137 — 138.
(5) Stewart «op. cit.»
Ibid, No. 174, p. 288.

هذا ، صاحب السلطة الرسولية النائب عن بطرس المقدس أمير الرسل ، والذى يشغل كرسيه بفضل عنايتك ، فقد بلغنى مصير آخر من جلس على هذا الكرسى . والثانى هو السـلطة الأمبراطورية والقوة الدنيوية لروما الثانية « عاصمة الامبراطورية » والاشاعة التى ثارت حول الطريقة التى لا تتفق مع الدين والى حكم بهـا الامبراطور الحالى ليس على يد الغرباء لكن بيد الأقارب والمواطنين ، وقد انتشرت هذه الاشاعة فى كل مكان — أما القوة الثالثة فهى المنصب الملكى الذى حصلت اليه كحاكم للشـعب المسيحى ، حيث يفوق منصبك القوتان الأخرتان من حيث القوة والسمو والهيبة الملكية . فعليك تقع مسئولية ازدهار الكنيسـة ورفاهيتها وأنت المنتقم للاعمال الشريرة ضد الذين ضلوا والمعزى للذين فجعوا فأنت فخر أهل الخير ... » .

ملحق رقم ٦

أ — من حوليات الملكية الفرنجية ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠ م(٦)

فى ذلك اليوم المقدس يوم ميلاد السيد المسـيح ، عندما كان الملك فى قداس أمام مذبح الرسـول بطرس المبارك ، وعندما فرغ من الصلاة وضع البابا ليو التاج على رأسه فهتف شعب روما كله « الحياة والنصر لشارل العظيم « اغسطس » المتوج من الرب امبراطور الرومان العظيم — المحب للسلام — وبعد هذا التمجيد وقره البابا على طريقـة الأباطرة القـدامى وبدلا من تلقيبـه بالبطريرك الرومانى فقـد لقب بالامبراطور أغسطس العظيم .

ب — من حوليات لورش سنة ٨٠١ م(٧)

انهى المنصب الامبراطورى بجلوس امرأة على العرش الامبراطورى لذلك خيل للبابا ليو وجميع الآباء المقدسين المجتمعين فى المجلس ، وبقية

(6) Translated by H.W. from the annales regni Francorum ad. a 801, «Hannover, 1896» p. 112.

(7) Stewart «op. cit.»
Translated by, H.W. from the annales laureshmenses «Man. Germ. Hist. Scriptores I.» p. 38.

الشعب المسيحى ان يصدروا لقب امبراطور الى شارل ملك الفرنجة لأنه لا يحكم روما فقط والتي اعتاد القياصرة الاقامة بها ، بل يحكم بلاد أخرى فى ايطاليا وبلاد الغال والمانيا ، ومنذ جعل الله القادر جميع هـذه الأماكن تحت حكمه ، فقد اعتبروا ذلك حقا له ، لذلك فبمعونة الله ورجاء الشعب المسيحى يجب أن يمنح اللقب الامبراطورى ، ولم يكن فى استطاعة شارل أن يرفض هذا الرجاء ، وفى تواضع تام خضع لارادة الله وارادة الشعب المسيحى كله ، وذلك بقبوله المنصب الامبراطورى الذى منحه اياه البابا ليو يوم ميلاد المسيح .

جـ — ومن حياة البابا ليو(٨)

وبعد ذلك « بعد قسم النطهر » الذى تم فى كنيسة القديس بطرس اجتمع الجميع مرة أخرى فى يوم ميلاد المسيح فى الكنيسة المذكورة عاليه للرسول بطرس المبارك ، وتوجه البابا الموقر المحب للسلام ووضع بيده نفسها هذا التاج الثمين ، عندئذ صاح كل الرومان فى صوت واحد ، وقد شاهدوا جميعا كيف كان حريصـا على الدفاع عن الكنيسـة الرومانية المقدسة ورئيسها .

كانت هذه ارادة الله وبطرس المبارك حامل مفاتيح مملكة السماء . الى شـارل التقى المتوج من قبل الله الامبراطور المعظم المحب للسـلام فليمنحه الحياة والنصر ، وقد أعلن ذلك ثلاث مرات قبيل الاعتراف المقدس للرسول بطرس المبارك وبينما كانوا يمجدون مختلف القـديسين ، أقره الجميع امبراطورا للرومان .

وقد مسح البابا والأسقف المقدس شارل وابنه بالزيت المقدس في هذا اليوم يوم ميلاد السيد المسيح .

د — ومن تاريخ ثيوفانيس(٩)

---

(8) Translated by H.W. From-Vita Leonis Liber Pontificalis «ed. 1 Duchesne» Vol. I, Paris 1886, p. 11, 7.

(9) Stewart «op. cit.»
From Theophanes «Chronagraphia, A. M. 6293, Migne Patrologia Curus Completus, series Graeca, CV III Col. 956.

وفى هـــذا العام فى شهر ديسمبر نوج الملك شـــارل ملك الفرنجة بواسطة البابا ليو .

ملحق رقم ٧
اعتراف البيزنطيين بشارلمـــان
عقد معاهدة السلام كما وردت فى
حوليات لورش سنة ٨١٢ م(١٠)

وبعد أن أحرز شارلمان انتصارات عديده رائعة فى مواســـيا قتل الامبراطور بيقفور فى أحد المعارك ضد البلغاء ، وجاء ميخائيل زوج ابنته امبراطور من بعده ؛ وكان هو الذى استقبل فى القسطنطيين الســـفراء الذين أرسلهم الامبراطور شـــارل الى بيقفور والذى أعادهم ثانيـــة مع مندوبيه الأسقف ميخـــائيل وارســـوف وثيوجنونوسى وكان قد أرسلهم ليعقدوا معاهدة السلام التى بدأها بيقفور . وبعد وصولهم الى البـــلاط الامبراطورى فى آخن تسلموا من يده معاهدة السلام فى كنيسة القصر، وهتفوا بحياته وأثنوا عليه بالمديح والاطراء بطريقتهم الخاصة وبالمراسم واللغة اليونانية كامبراطور وباسيليوس .

وفى رحلة العـــودة توقفـــوا فى روما ونســـلموا فى كاتدرائيـــة القديس بطرس الرسول نسخة أخرى من معاهدة السلام موقعا عليهـــا من البابا ليو الثالث .

ب — من رسالة لشارلمان سنة ٨١٣ م(١١)

نشكر سيدنا يسوع المسيح ربنا الحق ، نشكره بكل قوة جســـدنا وعقلنا ومن كل قلوبنا لأنه بخيره العميم جعلنا نعيش أيامنا هذه وقد تحققت رغبتنا الطويلة التى طالما انتظرناها من أجل الســـلام بين الامبراطورتين

---

(10) Translated by, H.W. from Annales Laurissenses Vel Einhardi «Man. Germ. Hist. Scriptores», p. 199.

(11) Eastan «op. cit.»
«Mon, Germ. Hist. Epitolae IV» No. 37, p. 556.

الشرقية والغربية وسمح لنا أيضا ان نحكم ونحمى دائما متطلبات الكنيسة الكاثوليكية المقدســـة الطاهرة التى انتشرت فى العــالم ، والتى أمرنا بتوحيدها ، ونشر السلام فى وقتنا هذا .

ملحق رقم ٨

التنظيمات الاقتصادية فى عصر شارلمان

أ — بنود من مرسوم الضياع(١٢)

كل وكيل مسئول عن اقطاعية وعليه أن يقدم كشف حساب سنوى عن دخل أراضــينا ، وذلك لنعمل احصـــاء للأراضى التى حرثت بالثيران بواســطة حراثينا ، والأرض التى يفلحها أو يزرعها المستجرون والتى يجب عليهم حرثها ، وأن يحسبوا حساب الخنازير والايجارات والالتزامات والمكوس التى تؤخذ على الصيد فى غاباتنا بدون تصريح منا وكذلك عن المطاحن والغابات ، وعن الحقول والقناطر والمراكب ومن الرجال والمئات الذين تحت تصرفنا ومن الأسواق والنبلاء وهؤلاء الذين يدينوا لنا بالولاء ، وعن القش والخشب والوقود والمشاعل والواح الخشب وأنواع أخرى من الأشــياء المختلفــة ، وعن الأرض القــاحلة الغير محروثة والخضروات والأعشاب وعن الصوف والكتان والقنب وعن أشجار الفاكهة ، وأشجار الجوز الصغيرة والكبيرة والأشجار المطعمة بكل أنواعها ، والحدائق واللفت وبرك الأسماك والجلود ومقاييس الأنهار والأبواق والعسل والشــمع والدهن والشحم والصابون ونبيذ التوت والنبيذ المطبوخ وشراب الخمر ، والخل والبيرة والنبيذ القديم والجديد وعن الحبوب والغــلال القديمــة والجديدة والبيض والأوز وعن عدد الصيادين والعمــال الذين يشتغلون بالمعــادن ، وصناع السيوف « والاسكافية — صناع الأحــذية » وعن صناديق ومخازن الحنطة ، وعن المشتغلين بالخراطة والسروج وعن محال الحدادين والمناجم بما فيه الحديد والمعدن الأخرى ، وعن مناجم الرصاص وعن دافعى الجزية وعن الجياد الصــغيرة وسوف يعلموننا بكل ذلك ، ويبينوا لنا ما تحت أمرنا وما غير ذلك حتى نعرف فى عيد الميلاد ثمن كل شيء نمتلكه .

---

(12) Eastan Stewart «op. cit.» p. 132 — 136.

٢٢ — يمتلك وكلاؤنا فى جميــع ارجاء مملكتنا الــكثير من زرائب الأبقار وحظائر الخنازير والأغنــام والاسطبلات ، وعليه ينبغى الا يكونوا لغير ذلك ، وبالاضافة الى ذلك فاننا نملكهم ابقار ويقوم على خدمتهم الأقنان حتى ينمكنوا من آداء عملهم حتى تقبل حظائر الأبقــار والمحــاريث التى تستخدم فى مملكتنا الى اعلى درجة من الكفاءة . واذا أرادوا ان يحصلوا على كميات من اللحوم فعليهم بتملك الثيران الصغيرة الصحيحة والأبقار والخيول الغير هزيلة والحيوانات الصحيحة ، وكما قلنا فمن اجل ذلك فان حظائر الأبقار والمحاريث لن تصل الى درجة من الضعف .

٣٤ — ضرورة بذل العناية لجميع المصنوعات اليدوية مثل شــحم الخنزير واللحم المدخن واللحم المملح والنبيذ والخل ونبيذ التوت والأجران والعسل والشمع والدقيق ، وضرورة الاهتمام بصنعها بدقة ونظافة .

٤٢ — ويمتلك كل وكيل فى مملكتنا من اجل الزينة البجع والطواويس وطيورالحجل ، والبط وابراج الحمام ، وسوف نزود جميع العاملين فى ضياعنا بحجرات مجهزة بأدوات ووسائد ، وأسرة ، ومفروشات ومناضد ومقاعد وأوعية وحديد وخشب وحدة للقياس وأوانى الطهى وشــاكوش وبلط ومثقاب ، وكل أنواع الأدوات ، وذلك كى لا تكون هناك ضرورة لأن يذهب وكلاؤنا للاستعارة من أى مكان .

ونلح على ضرورة العناية بالسلاح الذى يستخدم فى محاربة الأعداء وأن نجعله فى حالة جيدة ، وعند الانتهاء من الحرب يحفظ فى الخزائن .

٤٣ — يجب أن تنفذ نساؤنا ما نأمرهن به من ضرورة العمل فى غزل الصوف ، والكتان ، واســتخدامهن للوشمة وصبغ النوة ، وصــناعة الصابون والشحم والأوعية وغير ذلك من الأعمال التى يكلفن بها .

٤٤ — بخصوص الأطعمة المنتجة — بخلاف اللحوم — فاننا نأمــر بارسال النصف أو الثلث لاستخدامنا الشخصى ، وهذه الأطعمة مثــل الخضروات والأســماك والجبن والزبد والعســل والخــل والأعشــاب الجافة والخضروات والفجل ، بالاضافة الى الشمع والصابون والمنتجات

الصغيرة ، ونرجو ارسال أثمانها فى كشف خاص بذلك .

٤٥ — سوف يمنك كل وكيل فى مقاطعنه بعض العمال المهرة وخاصة الحدادين ، وصناع الذهب والفضة والاسكافية والخراطين والنجارين وصانعى السيوف والصبادين ، وصانعى أدوات المبارزة ، وصانعى الصابون والبيره والخبازين الذين يصنعون الفطائر وصناع الشباك المستخدمة فى القنص والصيد ، وصائدى الأسماك والطيور .

عملية جرد أو مسح لممتلكات شارل العظيم(١)

وجدنا فى أحد حقول ضيعة أسنابيوم «Asnapium» منزل ملكى مبنى من الحجر بطريقة مثلى به ثلاث حجرات ، والمنزل محاط بالشرفات وبه أحد عشر غرفة للنساء ، ورواقان معمدان عند مدخل المبنى ، وسبع عشرة منزلا آخر تم بنائهم من الخشب بفناء متسع وحجرات كثيره ، وملحقات فرعية أخرى بنيت بعناية ، الى جانب اسطبل ، ومطبخ ، وطاحونه ، ومخزن قمح ، وثلاث مبان للعربات .

والفناء محاط بسياج من الشجيرات ومدخل من الحجر وشرفة من أعلى وفناء داخلى مطوق بالأشجار أيضا ، ونظم وزرع بطريقة مناسبة .

الأوعيـــة :

٢ غلاية — ٢ فنجان شرب ، مقلاه — زوج مساند من الحطب المشتعل ، ولبه ، وفأس صغيرة ، أزميل ، متقاب ، سكين ، مطبق كبير ومنجلان للحصاد ، ومجرافان من الحديد وأوعية خشبية كافية للاستعمال .

انتاج المزرعة :

حنطة قديمة من العام الماضى ، ٩٠ سلة بمكن أن تستوعب ٤٥٠ كيلا أو وزنا من الدقيق ، مائة كيلة من الشعير ، ستون سلة لهـذا الغرض ، والباقى لاستيعاب مائة كيلة من القمح ، الى جانب ستين خنزيرا ، والف

---

(13) Stewart, Estan «op. cit.», p. 134 — 136.

وثمانمائة كيلة من الشعير ، اربعمائة وثلاثون كيلة من الشوفان وكيلة من الفول ، واثنى عشرة كيلة من البازلاء ، وخمس مطاحن ، وثمانمائة وحدة من الوحدات الصغيرة .

ويوجد كذلك اربع خمارات للجعــه ، وستمائة وخمسون وحــدة ، ومائتين واربعين لذوى الرواتب الصغيرة الى جانب الباقى الموجود .

اما بالنسبة للقنطرتين فهناك ستون كيلة من الملح ، وشلنان واربع حدائق واحد عشر شلنا . العسل ثلاث اوعية لحوالى وحــدة من الزبد والدهن من العام الماضى ، وعشر جوانب ودهون وجبن من العام الحالى ، وثلاث واربعون وحدة .

الماشـــــية :

واحد وخمسون من رءوس المواشى الكبيرة خمس اعمارهم من ثلاث سنوات ، وسبع اعمارهم سنتان ، وسبع عام واحــد ، الى جانب عشر عمرهم عامان ، وثمان مهرات ، وثلاثون فحلا ، وست بقرات وجحشان وخمسون بقرة ولود بالعجول ، وثوران صغيران ، وثمان وثلاثون بقــرة ولود بالعجول ، وثلاث حوامل ، ومائة وعشرون جدى وثلاثون ماعز صغير ، وثلاث ماعز حامل ، واثنان من انثى الماعز ، وثلاثون اوزه ، وثمـــانون دجاجة ، واثنان وعشرون طاووسا .

وفيما يختص بما ذكرناه ســـالفا ، فاننا وجدنا فى ضيعة جــريزيو Grisio ثلاث حظائر للماشية وفناء محاط بسور ، وحديقة بالأشجار وعشر اوزات ، وثمان بطات ، وثلاثون دجاجة ، وفى ضيعة اخرى وجدنا مبانى وفناء محاط بسياج من الشجيرات وثلاث حظائر ومجمـــوعة من الكرمات وحديقـــة مملوءة بالاشـــجار ، ومائة وخمســـون اوزة وعشرون دجـــاجة .

وفى الضيعة الثالثة مبانى حقلية بها حظيرتان ، ومخزن للقمـــح ، وحديقة وفناء فسيح جدا بسياج من الشجيرات .

كما وجدنا وحدات القياس الصلبة والسائلة مثل المستخدمة فى القصر الملكى ولم نجد اى صياغ للذهب او للفضة او حدادين أو صيادين أو صيادين مرتبطين بأى أعمال أخرى .

وحدائق الأعشاب التى وجدناها كانت من السوسن والنعناع والبقدونس والكرفس والعرعر ، والكرات والثوم والنعناع البرى والكزبرة ، والبصل والكرنب .

والأشجار — الكمثرى — التفاح — البشملة — الخوخ — البندق — الجوز — التوت — السفرجل .

ملحق رقم ٩

التنظيمات العسكرية

مرسوم خاص بتنظيم الجيش(١٤)

١٤ — عدم السماح لأى فرد بالاستحواذ على أسلحة بدون أوامرنا .

٢٠ — عدم السماح لأحد ببيع مهمات حربية « معاطف — دروع » خارج مملكتنا .

٧ — عدم اعطاء التجار التروس والمهمات .

واذا تخلف اى فرد عن الانضمام للجيش ، وبقى بمنزله ، بينما يذهب الآخرون الى الحرب ، فسيلحق به العار ، ويضطر لدفع غرامة كاملة كما نص على ذلك قانون الفرنجة وهو ما يساوى ستين صولدا .

٣ — بخصوص الهاربين من الجندية ايضا ، فاذا ثبت ان شخصا أظهر تمردا أو عصيانا للهروب من الجيش ، وعاد الى منزله بدون تصريح من الملك فاذا ثبت انه مذنب فسيعد مجرما ويعدم وتصادر ممتلكاته .

---

(14) From University of Pensylvania. Tran, and Reprint VI, 5, pp. 6, 7, 10 — 11.
in.
Estan, op. cit. p. 137 — 142.

٦ — بخصوص معدات الجيش فيجب أن يطبق عليها ما ذكرناه فى المرسوم الآخر خاصة ما نراه من ضرورة الزام كل شخص يمتلك اثنا عشرة حقلا عليه أن يملك زردا ودرعا ويقدمه فى حالة نشوب معركة ، فاذا لم يقدمه فيقوم الملك بسحب الزرد والأرض الممنوحة له كمعيشة عقابا له .

٧ — فيما يخص التجار الذين يذهبون الى مناطق السلاف والآفار — فيحذر عليهم حمل أسلحة أو معدات للبيع ، واذا اكتشف أحدا يحمل سلاحا او معدات فستسحب منه ، ونصفها يؤول الى الخزانة الملكية والنصف الآخر سيوزع جزء منه على المبعوثين ، وعلى الذين اكتشفوا عملية التهريب .

التنظيم العسكرى :

٣ — اذا استدعى أى شخص يشغل وظيفة فى مملكتنا لأى عمل عسكرى ولم يلبى النداء ويتعامل مع القائد المختص ، فسوف يمنع عنه اللحم والنبيذ لفترة كبيرة حتى يشرح أسباب غيابه أو تخلفه عن النداء للرئيس المختص .

٦ — ممنوع على أى فرد ان يطلب من قائده المختص أن يحتسى الخمر أثناء تجمع الجيش ، واذا ضبط رجل مخمور فى الجيش ، فسوف يحرم من الكنيسة ، ويمنع عنه شرب أى شىء عدا المياه حتى يعترف بخطأه .

٨ — ان الاستعداد للخدمة فى الجيش سيسير على نفس النظام القديم وخاصة بالنسبة والطعام والمؤن اللازمين لسير الجيش لمدة ثلاث شهور والسلاح والملابس اللازمين لنصف عام ، مع هذا فقد تقرر بأن هؤلاء الذين سيأخذون طريقهم من الراين الى اللوار سوف يحتسب لهم بداية احتياجاتهم من المؤن ابتداء من اللوار ... الخ .

٩ — أصدرنا قانونا بمنع أى أسقف أو مقدم دير للرهبان وللراهبات أو أى قسيس أو حارس للكنيسة من أن يقوم بمنح أو بيع السيوف أو الدروع بدون اذننا لأى فرد خارج اقطاعيتهم ولا يسمح لهم بذلك الا لاتباعهم فقط . واذا حدث ان وجد فى أى كنيسة أو أى مكان مقدس أنهم يملكون دروعا

أكثر مما يحتاجها الرجال الذين يقومون بحراسة نفس الكنيسة ؛ عندئذ يقوم القسيس المسئول بسؤال الملك عما يمكن عمله بهذه الدروع .

١٠ — جميع المعدات الخاصة بالملك سوف تحمل على عربات ، الى جانب المعدات الخاصة بالأساقفة والكونتات ، ومقدمى الأديرة والنبلاء ، كما يتم تحميل الدقيق ولحم الخنزير والنبيذ ، والطواحين والفؤوس والبلط والمقاليع ، الى جانب الرجال الذين يعرفون استخدام هذه الأدوات جيداً ، ويقوم المارشال الخاص بالملك بتحميل الحجارة اللازمة لكل هؤلاء على عشرين بهيما وذلك فى حالة الحاجة اليهم .

وعلى كل شخص دعى الى القتال أن يستعد بما يلزمه ، وان يحضر معه المؤن والمعدات الخاصة به ، وكل كونت سيكون عنده كميات من علف الحيوانات فى مقاطعته لاستخدامها فى الجيش ، وسيحصل على الكبارى والسفن الجيدة .

ب — خطاب مرسل من شارلمان الى فولراد مقدم الدير بخصوص الجيش

بسم الأب والابن والروح القدس ، شارلمان اغسطس المتوج من عند الله وامبراطور الباسفيك ، وبرحمة الله ملك الفرنجة واللومبارديين ، يبعث بتحياته الى فولراد مقدم الدير .

« ليكن معلوما لك أننا قررنا عقد اجتماع عام هذا العام فى شرق سكسونيا على نهر بودا فى المكان المسمى ستاسفورت Stassfurt ونأمرك بأن تحضر الى المكان المشار اليه مع رجالك المستعدين المسلحين من اليوم الخامس عشر من يوليو ، وهى أيام صبعبة وقبل عيد القديس يوحنا المعمدان . فأحضر الينا مستعدا ومسلحا ومعك رجالك فى المكان المشار اليه ، وان تكون على استعداد للذهاب الى أى مكان نوجهك اليه ومعك السلاح والتجهيزات والملابس الخاصة بالحرب الى جانب الطعام . ولذلك فانه يجب أن يكون عند كل فارس ترسا ورمحا وسيفا ، وخنجرا وقوسا ، وكنانات بالسهام ، وان تحوى العربات مختلف الأدوات المطلوبة للقتال مثل البلط والمقاشط والفئوس والواح الخشب والمجارف الحديدية وجميع الأدوات

التى تستخدم فى الحرب : كما يجب أن تحمل العربات المؤن اللازمة من الطعام والتى تكفى ثلاث شهور تبدأ من بداية تجمع الجيش ، والملابس والسلاح بكفى نصف عام . وهذا أمر عام ، وعليك أن تعد نفسك ، وتتوجه باطمئنان الى المكان المشار اليه ».

وعلى كل فانه يحذر عليك وعلى اتباعك عند مرورهم على اى مكان فى مملكتنا أن يأخذوا شيئا ما عدا علف الماشية والخشب والماء ، ودع الرجال الذين يسرون مع كل تابع من اتباعك أن يسيروا بجانب عرباتهم وفرسانهم ، واجعل القائد يسير دائما بجانبهم حتى يصلوا الى المكان المشار اليه لأنه فى حالة غياب القائد ، من الممكن أن يقوم جنوده بأعمال خطيرة .

وعليك أن ترسل الينا الهدايا المفروض عليك أن ترسلها فى الاجتماع الذى سيعقد فى منتصف شهر مايو فى المكان الذى سنكون فيه هناك . واذا كان بالمصادفة ، وتمكنت أثناء رحلتك أن تكون على استعداد للقدوم شخصيا وتقديم الهدايا الينا ، فاننا نفضل ذلك حقيقة . وسنرى فى المستقبل انه لن يكون هناك اهمالا منا مطلقا فى تلبية اى رغبة لك ، وتقديم جميل مماثل .

ملحق رقم ١٠

التنظيمات السياسية

مرسوم عام للمبعوثين عام ٨٠٢ م(١٥)

الجزء الأول خاص بالمبعوثين الذين يرسلهم الامبراطور الى الخارج .

« لذلك فان الامبراطور التقى الدين شارلمان قد اختار من بين نبلاءه أكثرهم حكمة وتعقلا ، فمنهم رؤساء أساقفة ، وبعضهم أساقفة أيضا ، ومقدمى اديرة وكثير من العلمانيين المتدينين ، وبعث بهم فى جميع أرجاء المملكة وعن طريقهم جعل الناس تعيش طبقا لقوانينه الصحيحة وزيادة على ذلك ، فان اى شىء يجدونه غير صحيح أو مخالف ، فكان يسن له قانونا ، وقد أمرهم الامبراطور أن يبحثوا بجد بالغ ويبلغوه ، فقد منحه الله القدرة على الاصلاح ... فطلب من المبعوثين أنفسهم أن يقوموا بالتحقيق ،

---

(15) Stewart, Estan «op. cit.» p. 142 — 148.

اذا اشتكى أى انسان من عدم تطبيق العدالة أو أن أى شخص قد أضره ، فعليهم أن يقوموا بالتحقيق باخلاص ورهبة وخشـــوع وخـــوف من الله . وسوف ينفذوا القانون حرفيا وبعدالة تامة مساوين بين الكنائس المقدســـة والفقراء والأرامل وجميع الناس على حد سواء .

واذا كان هناك بعض الكونتات غير قادرين على حل المشاكل وتصحيح الأوضاع وتحقيق العدالة ، فعلى المبعوثين أن يوضحوا ذلك فى تقاريرهم التى يبعثون بها الى الامبراطور ، ويجب ألا تقف رشوة أو هدايا أو تملــق من أى شخص مهما بلغت مكانته فى تحقيق العدل بين النـاس — أو أن يستغل الناس القرابة أو يخافون من سلطان الأقوياء .

٢ — فيما يخص يمين الاخلاص الذى اقسموه للامبراطور . فقد أمر كل شخص فى مملكته سواء كان رجل دين أو علمانى وكل شخص تبعا لقدره وحرفته أن يقدم وعدا للامبراطور بالاخلاص الذى سبق وأن تعهد به واقسم عليه له كملك ، وكل من لم يقسموا هذا القسم عليهم أن يقسموه ، وعلى كل من بلغ اثنى عشر عاما أن يدلى بقسمه ، وعليهم أن يعلنوا ذلك للجميع حتى يعرف كل انسان أهمية هذا القسم ، ليس لما يظن البعض ان الاخلاص للملك يكون أثناء حياته فقط ، وألا يسمحوا للأعداء بالهجوم على أراضيه ومملكته والا يستروا ، ولا يتكتموا على خائن ، فليكن معروفا للجميــع أن هذا القســم خاص بالجميع .

٤ — ثانيا :

لا يجرؤ شخص مطلقا على أن يسترد أو يخفى عبدا من عبيد الامبراطور سواء عن طريق الخداع والاحتيال والكذب أو حتى بطريق الخيانة أو الحلف كذبا ، بأن يأوى العبيد والأقنان الهاربين ، والذين يذكرون كذبا واحتيالا بأنهم أحـــرار .

٥ — لا يجرؤ أحد على أن يسرق أو يلحق ضررا أو احتيالا على كنائس الرب ولا على الأرامل واليتامى والحجاج ، فان الامبراطور قد نصب نفسه بعد الله والقديسين على أن يكون حاميهم والمدافع عنهم .

٦ — لا يجرؤ أحد على أن يبدد اقطاع المعيشة الممنوح له من الامبراطور ولا أن يجعله من ممتلكاته الخاصــة .

٧ — لا يجرؤ أحد على اهمال أى اســتدعاء يوجه اليه للحــرب من الامبراطور ولم يعترض أحد من الكونتات مقدما على طرد هــؤلاء الذين عليهم خدمات عسكرية ولم يقوموا بها حتى اذا كانت بينهم قرابة أو حدث منهم تملق أو قدمت لهم هدايا على سبيل الرشوة .

٨ — لا يجرؤ أحد على أن يعترض على أى أمر من أوامر الامبــراطور أو أن يضيع أوقات عمله ، أو أن يرتكب ما من شأنه أن يتعارض مع أوامره ووصاياه ، ولا أن يهمل تسديد ودفع واجباته الضرائبية .

١٠ — يعيش جميع الأساقفة والقســس طبقا للقوانين الكنســية ، وعليهم أن يعلموا غيرهم بنفس الطريقة .

١١ — على الأساقفة ، ومقدمى الأديرة ، والرهبان الذين يعملون مع غيرهم ولهم مكانة كبيرة ، أن يجاهدوا فى ســبيل الوصول الى رعاياهم ويساعدونهم بأسلوب لين ، ويبتعدوا عن الأسلوب الجاف وعن الطغيــان ، ويعلمونهم بالرحمة والحب من الأمثلة التى يثبتونها لهم للاعمال الطيبات مما يعمل الى جذب عدد كبير من أفراد المجتمع اليهم بالمحبة والاحسان .

١٢ — يعيش مقدموا الأديرة حيث يعيش الرهبان فى الأديرة المقدسة طبقا لأحكام الشريعة ، وعليهم أن يقوموا بتعلم ودراسة القوانين الكنسية ، كما يجب على أديرة النساء أن تفعل مثل ذلك .

١٣ — على الأساقفة ومقدمى ومقدمات الأديرة أن يتبعوا القساوسة وحكام المثينيات الذين يعرفون القانون ويحبون العدل،والذين يعتبرون رحماء وعطوفين ، لذا فانه عن طريق هذا المكسب المعنوى العظيم ســتعود الفائدة على كنيسة الرب المقدسة ، لأننا لا نرغب أن نجعل الجشع والضرر يســيطر على الأديرة ..

١٧ — يجب ان يعيش الرهبان حياة خشنة وصارمة طبقا لقانون الدير لاننا نعلم اذا كان احد الرهبان فاترا فى حماسه الدينى ، فهذا يؤدى الى غضب الرب كما عبر عن ذلك يوحنا بيرز .

١٨ — يجب ان تحكم اديرة النساء بقوانين صارمة ، ولا تتاح الفرصة للنساء ان يتجولن او ان يطفن حولها ، وسوف تحرس بكل جد ولا تجرأ واحدة منهن على اثارة النزاع فيما بينهن ، ولا يجرآن على القيام بتمرد أو عصيان بأى طريقة تجاه مقدمة الدير .

٢٧ — لقد أمرنا الا يقوم أحد من أهل مملكتنا بمنع ضـيافة واستقبال اى شخص غنيا ام فقيرا او حاجا فلا يمنعهم احد من ان يجدوا مأوى لها ونارا للتدفئة وماءا وخاصة للحجاج الذين يقدمون الينا باسم الرب أو أى عابـر سبيل قاصدا حب الله ، فعينا ان نمنحهم الحماية . واذا رغب أحد زيادة على ذلك فى أن يسدى الى هؤلاء الحجاج خدمات اضافية ، فدعهم يفعلون ذلك لينالوا ثوابهم الكبير من الله فقد قال متى فى انجيله « ومن استضاف واحدا حتى ولو كان طفلا قاصدا اسمى فكأنه استضافنى » .

٢٨ — وفيما يختص بالسفراء الذين يقدمون من قبل الامبراطور ، فيجب أن يمدهم الكونتات والحـكام بالرعاية والعناية وبالمعـلومات التى يـريدها الامبراطور ، أما المبعوثين الذين يبعث بهم الى الخارج ، فعليهم أن يذهبـوا الى مقاطعاتهم دون تأجيل .

٣٠ — وفيما يخص هؤلاء الذين يرغب الامبراطور أن يشملهم يسوع بحمايته ورعايته فى مملكته خاصة هؤلاء الذين يطلبون العطف والرحمة سواء أكانوا مسيحيين أم وثنيين ، فهم يريدوا أن يبلغوه بعض الأنباء وذلك طلبـا للمساعدة نتيجة فقرهم أو جوعهم ، فلا يجرؤ أحد على اجبارهم على خدمته أو أن يستولى عليهم أو يقوم ببيعهم .

٣٣ — نحن نمنع ونحرم جريمة زواج المحارم « ذوى القربى » .

٣٥ — يجب على الجميع ان يبجلوا ويحترموا الأساقفة والقسس بكل أنواع التبجيل والاحترام لأنهم يخدمون ارادة الله . لأنهم لا يتجراوا على أن

يدنسوا انفسهم بطريق زواج أو تزويج من تحرم الشريعة ان يتــم الزواج بينهم ، فلا يعقدوا زواجا قبل أن يستفسروا باجتهاد عن مدى القــرابة عن طريق كبار السن من الناس،وبعد أن يتأكدوا من صحته وبعدها يعقدوا الزواج ويباركونه .

٣٦ — واذا ثبت بعد ذلك وتأكد أن أحدا قد حنث فى يمينه وكذب فيجب أن يعلم أنه سيعاقب بقطع يده اليمنى ، وسيجرد من ممتلكاته حتى نصــدر قــرارا .

٣٧ — لا يجرؤ أحد على أن يسرق من غاباتنا لحوم الصــيد ، وقــد أصدرنا تعليمات كثيرة تمنع ذلك من قبل .

٤٠ — وأخيرا ، فاننا نرغب فى أن تعم قراراتنا جميع أرجاء المملــكة ويعلمها الجميع عن طريق مبعوثينا الذين أرسلناهم الى الخارج فمنهم رجال دين أساقفة ومقدمى أديرة وقسس وشمامسة ، وكنسيين ، جميع الرهبان والراهبات ، الى جانب العلمانيين الذين انتشروا فى كل مكان من أرجاء مملكتنا الكبيرة .

فهارس الكتاب

---

٨ الاعـلام

(ب)

(ت)

(ث)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

الفرق والملل والنحل والجماعات

الأماكن والبلدان

(أ)

(ر)

المراجــع

(أولا) المراجع العربية

(ثانيا) المراجع الأجنبية

أولا : المراجع العربية والمترجمة

١ ــ آبـل ارمـان

« تحاج أهل الأديان فى القرنين الثامن والتاسع » .
الملحق السادس لكتاب فازيليف تاريخ الروم والعرب تعريب
عبد الهادى شعيرة .

٢ ــ توفيق « عمر كمال »
الامبراطورية البيزنطية
الاسكندرية سنة ١٩٦٧ م

٣ ــ ديفز « كارلس »
شارلمان
ترجمة السيد الباز العرينى القاهرة سنة ١٩٥٩ م

٤ ــ رستم « أسد »
الروم
بيروت سنة ١٩٥٥ م

٥ ــ رنسمان « ستيفن »

الحضارة البيزنطية
ترجمة عبد العزيز جاويد سنة ١٩٦٠ م

٦ ــ عاشور « سعيد عبد الفتاح »

أوربا العصور الوسطى
الطبعة السادسة سنة ١٩٦٥ م
النظم والحضارة
القاهرة سنة ١٩٠٩ م
النهضات الأوربية فى العصور الوسطى
القاهرة سنة ١٩٦٠ م

٧ — عبيد « أسحق »
روما وبيزنطة
القاهرة سنة ١٩٧٠ م
الامبراطورية الرومانية
القاهرة سنة ١٩٧٢ م

٨ — العرينى « السيد الباز »
الدولة البيزنطية
القاهرة سنة ١٩٦٠ م
الحضارة والنظم الأوربية
القاهرة سنة ١٩٦٣ م

٩ — الغمراوى « على »
مدخل الى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط
القاهرة سنة ١٩٧٧ م

١٠— فشر « هـ . ا . ل »
تاريخ أوربا العصور الوسطى .
ترجمة زيادة والعرينى . القاهرة سنة ١٩٦٩ م

١١— كانتــــور
تاريخ العصور الوسطى
ترجمة على الغمراوى . الكويت سنة ١٩٧٢ م

١٢— كوبلاند « ج . و »
الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا
ترجمة محمد مصطفى زيادة . القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

١٣— لويس ارشيبالد
القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض
ترجمة أحمد عيسى . القاهرة سنة ١٩٦٠ م

١٤— الناصرى « سيد أحمد على »
تاريخ الامبراطورية الرومانية
القاهرة سنة ١٩٧٥ م

***

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية

THE ORIGINAL SOURCES :

1) Bouquet,
«Recueil des Historiens Occidentaux»
Vol. IV.

2) Einhard,
«The Life of Charlemagne»
Tenth. ed. Michigan, 1975.

3) «L'Evolution de l'Humanité»,
L'Brehier. — «La Civilisation Byzantine»,
XXXII Ter.

4) The Monk of Saint Gall,
«The Life of Charlemagne»
Trans. by A.J. Grant,
London 1926.

5) Mansi, J.
«Sacrorum Conciliorum»
31, Vols. Florence & Venice,
1759 — 1798.

6) Nicetas Chonitas history,
(C.S.H.B.) Bonn 1835.

7) Nicephorus Gregoras, Roman history.
in R.H. Grecs, V. I.

8) Theophanes,
«Continuatus, historia»,
ed. Bonn. 1883 — 1884.

MODERN WORKS

9) Adelson, H.L.,
«Medieval Commerce»,
N.Y. 1962.

10) A. Alfoldi,
«The Conversation of Constantine the great and Pagan Rome»
Oxford, 1948.

11) Ashour & Rabie,
«Fifty documents in medieval history»,
Cairo, 1975.

12) Ashour & Ziada,
«Select documents in medieval history»,
Egypt, 1959.

13) Baynes, N.,
«The Byzantine Empire»,
London 1926.

14) Bell. H.I.,
«Egypt from Alexander the great to The Arab Conquest»,
Oxford, 1948.

15) Buckler,
«Harun Al Rashid and Charles the great»,
Camb. Mass. 1927.

16) Bury, J.
«A history of the eastern Roman Empire»,
London 1912.

17) Bury, J.
«History of the later Roman Empire»,
III Vols. London 1923.

18) Bury, J.
«Imperial administration system in the ninth cent»,
London 1909.

19) Cam. ancient Hist. Vol. III.

20) Cam. Med. Hist. Vol. IV, & V.

21) Charanis,
«The Social Structure of the later Roman Empire in Byzantine»,
London 1942.

22) Clive, D.,
«A history of commerce»,
London 1950.

23) Critchley, J.S.,
«Feudalism»,
London 1978.

24) David, T. Rice,
«The Byzantines»,
M.B.E. 1962.

25) Deanesly, M.,
«A history of Europe»,
London 1960.

26) Depelais, S.,
«L'habitation Byzantine»,
Paris, 1923.

27) Donald, M. Nicola,
«Byzantium its icclestastical and Relation with Western World»,
London 1968.

28) Eastan, S.,
«The ERA of Charlemagne»,
N.Y. 1961.

29) Evan, J.,
«La Civilisation en France au moyen age»,
Paris 1930.

30) Eyre,
«European Civilization»,
Vol. III, The middle ages,
London 1935.

31) Finlay, G.,
«History of the Byzantine Empire»,
London 1906.

32) Gerald, Simons,
«The Birth of Europe»,
N.Y. 1968.

33) Gibbon,
«The history of the decline and fall of the Roman Empire»,
London 1900.

34) Girg, A.,
«Manuel de diplomatique»,
Paris 1907.

35) Green, V.H.H.,
«Medieval Civilization in Western Europe»,
London 1971.

36) Guerdan, R.,
«Byzantium its triumph and Theology»,
London 1975.

37) Guizot, M.,
«Histoire de la Civilization en France»
Paris 1897.

38) Heyd. W.,
«Histoire du Commerce du Levant au moyen age»,
Leipzig, 7 Vols. 1936.

39) Hodgkin,
«Italy and her invaders»,
4 Vols. Oxford 1896

40) Hulme, E.M.,
«The middle ages»,
N.Y. 1938.

41) Hussey,
«The Byzantine World»,
London 1967.

42) Joseph, Mc. Cape.,
«The Empresses of Constantinople»,
London 1913.

43) Lamb, H.,
«Charlemagne»,
London 1963.

44) Lavisse,
«Histoire de France»,
II Vol. Paris 1911.

45) Lindsay, J.,
«Byzantium into Europe»,
London 1952.

46) Lopez & Raymond,
«Medieval Trade in Medieteranean World»
N.Y. 1956.

47) Lot,
«The end of the ancient world»,
London 1931.

48) Marc-Bloch,
«Feudal Society»,
Trans. by L.A. Manyon,
2 Vols, fifth ed. 1978.

49) Marian, Wenzel,
«The finding out about the Byzantines»,
London 1965.

50) Mauglais, H.J.,
«Byzantine, Christianity, Emperor Church, and the West»,
London 1970.

51) Maurice Keen,
«The Pelican History of Medieval Europe»
London 1968.

52) Meytndorff, J.,
«Byzantine Theology»,
N.Y. 1974.

53) Moss,
«The Birth of the middle ages»,
Oxford 1947.

54) Oblensky, D.
«The Byzantine Common Wealth».
London 1971.

55) Oman, C.,
«The dark ages»,
London 1914.

56) Oman, C.,
«History of the art of war in the middle ages»,
London 1924.

57) Oman, C.,
«The Byzantine Empire»,
London 1902.

58) Ostrogorsky,
«A History of the Byzantine State»,
London 1968.

59) Painter, S.,
«History of the middle ages»,
N.Y. 1954.

60) Painter, S.,
«Forward of the Life of Charlemagne»,
N.Y. 1975.

61) Pears,
«Destruction of the great empire»,
London 1963.

62) Pirenne, H.,
«Mohamed and Charlemagne»,
N.Y. 1939.

63) Pirenne, H.,
«A History of Europe»,
Tran. By Maill, London 1946.

64) Pirenne, H.,
«Economic and Social History of Medieval Europe»,
Tran. e.c. Legg. Last ed. 1978.

65) Pirenne, H.,
«Medieval cities their origin and the revival of Trade»,
Tran. H.P. Halsey, London 1925.

66) Romelly Jenkins,
«Byzantium the imperial centuries»,
London 1960.

67) Sellery, G.C. & A.C. Krey,
«Medieval Foundation»
London 1929.

68) Stephenson, C.
«The Carolingian Empire»,
N.Y. 1949.

69) Stephenson, C.,
«Medieval Feudalism»,
N.Y. 1942.

70) Stephenson, C.,
«Medieval history»,
N.Y. 1944.

71) Tamara, T. Rice,
«Byzantium»,
N.Y. 1969.

72) Thorondik, L.,
«History of Medieval Europe».
London 1965.

73) Thompson,
«The middle ages»,
2 Vols. London 1920.

74) Thompson,
«Economic and social history»,
2 Vols. N.Y. 1959.

75) Vasiliev,
«A history of the Byzantine Empire»
Wisconsin 1958.

76) William, G. Sinnigen,
«A history of Rome»,
London 1937.

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٢١٤٢

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

البـــاب الثالث

الصفحة

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أقدم الى القارىء العربى الكريم موضوعا هاما من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى ، يخص الفترة التى حكم فيها شـــارلمان ملك الفرنجة الكارولنجيين العالم الغربى ، حيث نجح فى احياء الامبراطورية الرومانية الغربية القديمة مرة أخرى بعد سقوطها سنة ٤٧٦ م .

والمعروف تاريخيا أن شارلمان ينتمى الى أصـــل جرمانى ، غـــير الاصول التى كان ينتمى اليها أباطرة الرومان الأوائل ، كما جعل عاصمة امبراطوريته فى آخن « اكس لاشابل » فى منطقة بعيدة عن العاصمة الرومانية القديمة .

ويؤكد المؤرخون على أن ظهور شارلمان في هذه الفترة كان له أكبر الأثر فى تغيير مسار تاريخ العصور الوسطى ، وتوجيهه هذه الوجهـــة التى سار فيها ، اذ لولاه لتغير شكل أوربا فى هذه الآونة ، ولاتخـــذت طابعا مخ:ا ' ذل الاختلاف .

ولعل الأحداث التى سبقت احياء الامبراطورية الغربية على يـــد شارلمان كانت من الأهمية الى الحد الذى جعلنا نخصص لها فصـــولا

خاصة فى كتابنا ، لأنه لولا هذه الظروف السياسية لما نجح شارلمان فى الوصول الى العرش الامبراطورى .

وقد جعلنا خطة بحثنا تسير على أساس توضيح الظروف التى أدت فى البداية الى سقوط الامبراطورية الغربية فى روما ، وجهود الأباطرة الرومان أمثال دقلديانوس وقنسطنطين الكبير فى اصلاح المفاسد التى عمت الامبراطورية ، وكيف كان هذان الامبراطوران هما أساس انتقال العاصمة الرومانية الى الشرق ، حيث قام الأول باتخاذه نيقوميديا عاصمة ، كما أسس الثانى القسطنطينية سنة ٣٢٤ م على ضفاف البسفور .

وتتابعت جهود الأباطرة بعد ذلك على تأكيد هذه الظاهرة بحيث قام الامبراطور ثيودسيوس الكبير بتقسيم امبراطوريته بين أبنائه ، وكانت الطامة الكبرى بسقوط الامبراطوزية نهائيا سنة ٤٧٦ م ، فورث أباطرة الشرق مجد الامبراطورية الغابر ، وأصبحت الدولة البيزنطية هى صاحبة الدور الفعال فى أحداث هذه الفترة .

وقد نتج عن سقوط الامبراطورية وشغور العرش الامبراطورى أن تسابقت القوى المختلفة للسيطرة على ايطاليا ، وحاولت كثير من القوى الخارجية فرض سلطانها السياسى ، فأصبحت ايطاليا فريسة سهلة للقوى الخارجية المعادية كما أدت الظروف كذلك الى ارتفاع نجم البابوية وسمو مركزها ، وتدخل البابوات فى تحريك الأحداث السياسية .

ووقعت ايطاليا فريسة سهلة للقوط الشرقيين واللومبارديين من بعدهم ونجح البيزنطيون فى سحق قوى القوط ، لكنهم لم يحركوا ساكنا فى مساعدة البابوية على طرد اللومبارديين ، وذلك لاختلاف

المذهبين الشرقي والغربي ، وظهور نحلة اللاأيقونية فى الدولة البيزنطية، واصدار البابوية قرار الحرمان الكنسى ضد أباطرتها •

لذلك أصبح من المحتم أن تنظر البابوية الى مصلحتها الذاتية ، وأن تتحالف مع القوة التى تقدم المساعدة الفعلية ، ووجدت ضالتها في دولة الفرنجة الكارولنجيين الذين لم يتوانوا عن مساعدة البابوية بدءا من البابا ستيفن الثالث الذى منح بيبن القصير ما عرف فى التاريخ باسم « هبة بيبن » سنة ٧٥٣ م ، ثم البابا هادريان الذى أنعم على شارلمان بلقب « ملك الفرنجة واللومبارديين وبطريق الرومان » ثم البابا ليو الثالث الذى أضفى على هذه الأعمال قوة بمنحه شارلمان لقب الامبراطور سنة ٨٠٠ م ، فأعاد بذلك مجد الامبراطورية الغابر ، وأصبح للعالم الرومانى امبراطوبين شرقى وغربى •

ولعل هذه الظروف السياسية جعلت البيزنطيين يحاولون اثبات حقهم فى هذه الآونة بضرورة السيطرة السياسية ، لكن الظروف التى كانوا يمرون بها فى هذه الفترة من إعتلاء الامبراطورة ايرين للعرش وسملها لعينى ولدها قنسطنطين السادس ، كانت سببا فى ثورة العالم عليها وقبولهم لشارلمان امبراطورا ، حتى وجد شارلمان والبابا ليو الثالث فى ذلك فرصة لتحقيق غرضهم •

ورغم ذلك عمل شارلمان جاهدا على الحصول على اعتراف رسمى من الدولة البيزنطية ، وكان سينجح فى ذلك الاعتراف من الامبراطورة ايرين — بعد موافقتها على مشروع الزواج منه — لولا قيام ثورة الامبراطور نقفور أمين الخزانة وتنازلها له عن العرش • فتجددت محاولات شارلمان للحصول على هذا الاعتراف فى عهد نقفور وخليفته ميخائيل رانجابيه الذى اعترف به امبراطورا سنة ٨١٢ م •

لذلك أصبح للعـــالم الرومانى امبراطورية جديدة بزعامة جـــديدة وبظروف ومناخ جديد ، كل ذلك أدى الى أهمية دراسة نظم الحكم فى كلا الامبراطوريتين محاولين أن نبين مدى التباين أو الاتفاق فى كل منهما ، الى جانب عرضـــنا لأهم نواحى الحياتين الاجتماعية والثقافية ومـــدى الاختـــلاف الكبير بين الشرق والغـــرب خاصـــة فى النواحى الثقافية التى أصبح لكل منهما سمات مختلفة عن الأخرى ، نتيجة لاختلاف الظروف ، والأصول الثقافية وعناصر السكان ، كما نرى أن الحيـــاة الاجتماعية اختلفت كل الاختلاف فى المنطقتين وأصبح لكل منها نظما وعادات وتقاليد تنبع من البيئة المحيطة بها •

الى جانب أن الاقتصاد قد توجه فى كلا الجزأين بصورة مختلفة عن الأخرى ، وبرز الطابع الاقطاعى فى الجناب الغربى أسبق منه فى الشرقى كما نشطت التجارة فى الشرق عن الغرب ، لمـــا كان له من ماض عريق فى هذا المجال •

ويتضح بذلك أن هذا الموضوع يحوى مباحث هامة ، ويعالج فترة هامة من تاريخ العصور الوسطى تصارعت فيها الامبراطوريتين وبرزت امبراطورية شارلمان كقوة عظمى فى العالمين الشرقى والغربى •

ولابد أن أسجل هنا اعترافا بأن هناك جهودا مكثفة بذلها أساتذتنا فى حقل العصور الوسطى من أجل كشف النقاب عما غمض فى تاريخ هذه الحقبة ، فهم يضيئون لنا الطريق ونحن نسير على الدرب علنا نصل جميعا الى الحقيقة التى ينشدها كل باحث •

ولابد أن نؤكد أيضا أن المكتبة العربية مازالت فى حاجة كبيرة الى مزيد من الدراسات والبحوث فى هذا المجال ، الذى تخصص فيه أساتذة

غربيون ، حتى نتمكن من تزويد القارىء العربى بشتى قضايا هذه الفترة التى اتسمت بالصعوبة الشديدة •

والله تعالى أسأل أن أكون قد وفقت فى اضافة جديد فى هـــذا الموضوع ، وأن يحقق هذا الكتاب الهدف المرجو من تأليفه ، انه نعـــم المولى ونعم النصير •

القاهرة ـــ مدينة نصر

يناير سنة ١٩٨٢ م •

المؤلفة

د• عفاف صـــبره